

كِتَابٌ

ادب الدنيا والدين

تأليف

العالم العلامة الخبير الفهامة الامام الكبير المحقق الشهير أفاضى القضاة
أبى الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى الماوردى
رحمه الله تعالى

وبهامشه كتاب تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق
للشيخ أبى على أحمد بن محمد المعروف بابن مسكويه
الموفى سنة ٤٢١

﴿ الطبعة الاولى ﴾

طبع بالمطبعة الادبية بسوق الخضار القديم بمصر

سنة ١٣١٧ هجرية

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي أرشدنا إلى
الصراط المستقيم ومدح
اتخلق العظيم وأرسل نبيه
محمد أتمم المكارم الأخلاق
وأدبه فأحسن تأديبه على
الاطلاق

اللهم اننا نتوجه إليك ونسئ
نحوك ونجاهد نفوسنا في
طاعتك وتركب الصراط
المستقيم الذي نهجته لنا إلى
مرضاتك فأعنا بقوتك
واهدنا بمرتك وأعصمنا
بقدرتك وبلغنا الدرجة
العلياء برحمتك والسعادة
القصوى بحولك ورأفتك
انك على ما نشاء قدير

(قال) أحمد بن محمد بن
مسكويه غرضنا في هذا
الكتاب ان نحصل لانفسنا
خلفا تصدريه عنا الافعال
كهاجلية وتكون مع ذلك
سهلة علينا لا كافة فيها ولا
مشقة وتكون ذلك بصناعة
وعلى ترتيب تعليمي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال القاضي أبو الحسن محمد بن علي بن حبيب البصري

رحمه الله تعالى

الحمد لله ذي الطول والآلاء وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الرسل والأنبياء وعلى آله
وأصحابه الاتقياء (أما بعد) فان شرف المطلوب بشرف نشأته وعظم خطره بكثرة
منافعه وبحسب منافعه فحب العناية به وعلى قدر العناية به يكون اجتناء ثمرته وأعظم
الامور خطرا وقدرها وأعما نفعا ورفدا ما استقام به الدين والدنيا وانتظم به صلاح الآخرة
والأولى لان باستقامة الدين تصح العبادة وبصلاح الدنيا تتم السعادة وقد توجب بهذا
الكتاب الاشارة الى آدابهما وتفصيل ما أجل من أحوالهما على عدل الامر من ايجاز
وبسط أجمع فيه بين تحقيق الفقهاء وترقيق الادباء فلا يقبوعن فهم ولا يدق في وهم
مستشهبا من كتاب الله جل اسمه بما يقتضيه ومن سنن رسول الله صلوات الله عليه بما
بضاهيه ثم متعا ذلك بأمثال الحكماء وآداب البلغاء وأقوال الشعراء لان القلوب
ترتاح الى الفنون المختلفة وتسام من الفن الواحد وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه
ان القلوب على كل عمل كالمال الايدان فاهدوا اليها طرائق الحكمة فكان هذا الاسلوب بحسب

التنقل في المطلوب من مكان الى مكان وكان المأمون رحمه الله تعالى يتنقل كثيرا في داره من مكان الى مكان. ويشد قول أبي العتاهية رحمه الله

لا يصلح النفس اذا كانت مدبرة * الانتقال من حال الى حال

وجعلت ما تضمنه هذا الكتاب خمسة أبواب * الباب الأول * في فضل العقل وذم الهوى * الباب الثاني * في أدب العلم * الباب الثالث * في أدب الدين * الباب الرابع * في أدب الدنيا * الباب الخامس * في أدب النفس وانما أستمد من الله تعالى حسن معونته وأستودعه حفاظ موهيبته بحوله ومشيتته وهو حسبي من معين وحفيظ

﴿باب فضل العقل وذم الهوى﴾

والطريق في ذلك أن نعرف أولا نفوسنا ما هي وأى شيء هي ولا شيء أوجدت فينا أعنى كمالها وغايتها وما قواها وملكانها التي

اذا استعملناها على ما ينبغي بلغنا بها هذه الرتبة العلية وما الأشياء العائقة لنا عنها وما الذي يتركها فتغل وما الذي يذهبها فتخب فان الله عز من قائل يقول ونفوسا وما سواها فالهملها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ولما كان لكل صناعة مبادئها عليها تبنى وبها تمحصل وكانت تلك المبادئ ما خسوته من صناعة أخرى وليس في شيء من هذه الصناعات أن تبين مبادئ أنفسنا كان لنا عذر واضح في ذكر مبادئ هذه الصناعة على طريق الاجمال والاشارة بالقول الوجهير وان لم يكن

اعلم أن لكل فضيلة أسسا ولكل أدب ينبوعا وأساس الفضائل وينبوع الآداب هو العقل الذي جعله الله تعالى للدين أصلا وللدين عمادا فأوجب الدين بكماله وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه وألقى به بين خلقه مع اختلاف فهمهم وما تربهم وتبين أغراضهم ومقاصدهم وجعل ما تعبد بهم به قسمين قسما واجب العقل فوكده الشرع وقسما جازي العقل فأوجب الشرع فكان العقل لهما عمادا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما اكتسب المرء مثل عقل يهدي صاحبه الى هدى أو يرد عنه ردى . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لكل شيء عمل دعامة وعامة عمل المرء عقله فيقدر عقله تكون عبادته له . أما سمعت قول الفجار لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصل الرجل عقله وحسبه دينه ومروءته خلقه . وقال الحسن البصري رحمه الله ما استودع الله أحدا عقلا الاستغفاره به يوم ما . وقال بعض الحكماء العقل أفضل مرجو والجهل أنكى عدو . وقال بعض الأدباء صديق كل امرء عقله وعدوه جهله . وقال بعض البلغاء خير المواهب العقل وشر المصائب الجهل . وقال بعض الشعراء وهو إبراهيم بن حسان

يزين الفتى في الناس محفة عقله * وان كان محظورا عليه مكا سبه

يشين الفتى في الناس قلة عقله * وان كرمته أعراقه ومناسبه

يعيش الفتى بالعقل في الناس انه * على العقل يحري علمه وتجاربه

وأفضل قسم الله للمرء عقله * فليس من الأشياء شيء يقاربه

اذا أكل الرحمن للمرء عقله * فقد كملت أخلاقه وما ربه

واعلم أن بالعقل تعرف حقائق الأمور ويفصل بين الحسنات والسيئات وقد تقدم قسمين غريزي ومكتسب

فالغريزي هو العقل الحقيقي وله حد يتعلق به التكليف لا يجاوزه الى زيادة ولا يقصر عنه الى نقصان وبه يمتاز الانسان عن سائر الحيوان فاذا تم في الانسان سمي عقلا وخرج به الى حدا كمال كما قال صالح بن عبد القدوس

اذا تم عقل المرء تمت أموره * وتمت أمانيه وتم بناؤه

وروي الضحاك في قوله تعالى لينتزع من كان حياً أي من كان عاقلاً واختلف الناس فيه
وفي صفته على مذاهب شتى فقال قوم هو جوهر لطيف يفصل به بين حقائق المعلومات
ومن قال بهذا القول اختلفوا في محله فقال طائفة منهم محله الدماغ لأن الدماغ محل الحس
وقالت طائفة أخرى منهم محله القلب لأن القلب معدن الحياة ومادة الحواس وهذا القول
في العقل بأنه جوهر لطيف فأسد من وجهين أحدهما أن الجواهر متمثلة فلا يصح أن
يوجب بعضها ما لا يوجب سائرها ولو أوجب سائرها ما يوجب بعضها لاستغنى العقل
بوجود نفسه عن وجود عقله والثاني أن الجوهر يصح قيامه بذاته فلو كان العقل جوهرًا
لجاز أن يكون عقل بغير عاقل كما جاز أن يكون جسم بغير عقل فامتنع بهذين أن يكون العقل
جوهرًا . وقال آخرون العقل هو المدرك للأشياء على ما هي عليه من حقائق المعنى وهذا
القول وإن كان أقرب مما قبله فبعيد من الصواب من وجه واحد وهو أن الإدراك من
صفات الحى والعقل عرض يستحيل ذلك منه كما يستحيل أن يكون متلذذاً أو ألماً أو مشتبهاً
وقال آخرون من المتكلمين العقل هو جملة علوم ضرورية وهذا الحد غير محصور لما
تضمنه من الاجمال ويتناول من الاحتمال والحدانما هو بيان المحدود بما يتنفي عنه الاجمال
والاحتمال . وقال آخرون وهو القول الصحيح أن العقل هو العلم بالمدركات الضرورية
وذلك نوعان أحدهما ما وقع عن درك الحواس والثاني ما كان مبتدأ في النفوس فأما ما كان
واقعا عن درك الحواس فمثل المراتب المدركة بالنظر والاصوات المدركة بالسمع والطعوم
المدركة بالذوق والرائح المدركة بالشم والاحساس المدركة باللمس فإذا كان الإنسان من لو
أدرك بمحواسه هذه الأشياء لعلم ثبت له هذا النوع من العلم لأن خروجه في حال تغميض عينيه
من أن يدرك بمحواسه ما يعلم لا يخرج من أن يكون كامل العقل من حيث علم من حاله لو أنه أدرك
لعلم وأما ما كان مبتدأ في النفوس فكالمعلم بأن الشيء لا يخلو من وجود أو عدمه وأن الموجود
لا يخلو من حدوث أو قدمه وأن المحال اجتماع الضدين وأن الواحد أقل من الاثنين وهذا
النوع من العلم لا يجوز أن يتنفي عن العاقل مع سلامة حاله وكما لعقله فإذا صار عالماً
بالمدركات الضرورية من هذين النوعين فهو كامل العقل وسمى بذلك تشبيهاً بعقل الناقة
لأن العقل بمنزلة الإنسان من الاقدام على شهوراته إذا قصبت كما بمنزلة العقل الناقصة من الشرود
إذا تقربت ولذلك قال عار بن قيس إذا عقلت عقاك عمالاً ينيب فأنت عاقل وقد جاءت السنة
بما يؤيد هذا القول في العقل وهو ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال العقل نور في
القلب يفرق بين الحق والباطل وكل من نفي أن يكون العقل جوهرًا أثبت محله في القلب
لأن القلب محل العلوم كلها . قال الله تعالى أفلم يسيرا في الأرض فتكون لهم قلوب
يعقلون بها فدللت هذه الآية على أمرين أحدهما أن العقل علم والثاني أن محله القلب .
وفي قوله تعالى يعقلون بها تأويلان أحدهما يعلمون بها والثاني يعتبرون بها فلهذه جملة القول
في العقل الغريزي

وأما العقل المكتسب فهو نتيجة العقل الغريزي وهونهاية المعرفة وصحة السياسة واصابة
الفكرة وليس لها حد لأنه يتوان استعماله ويتقص أن أهمل وغاؤه يكون بأحد وجهين

مما قصدنا له واتباعها بعد ذلك بما توخيناها من اصابة الخلق الشريف الذي يشرف شرفاً ذاتياً تحقيقاً لأعلى طريق العرض الذي لا ثبات له ولا حقيقة أعني المكتسب بالمال والمكاثرة أو السلطان والمغالبة أو الاصطلاح والمواضعة فنقول وبالله التوفيق قولنا بين هاتين

بيننا شيئاً ليس بجسم ولا مجرد من جسم ولا عرض ولا محتاج في وجوده إلى قوة جسمانية بل هو جوهر بسيط غير محسوس بشئ من الحواس ثم نبيين ما مقصودنا منه الذي خلقناه ونديننا إليه فنقول

تعريف النفس

إنما هو أحدنا في الإنسان شيئاً يعاد أفعال الأجسام وأجزاء الأجسام بمحده وخواصه وله أيضاً أفعال تضاد أفعال الجسم وخواصه حتى لا

اما بكثره الاستعمال اذا لم يعارضه مانع من هوى ولا صادم شهوة كالذى يحصل لذوى
الانسان من الخشكة وصحة الرية بكثره التجارب وممارسة الامور ولذلك حدثت العرب
آراء الشيوخ حتى قال بعضهم المشايخ اشجار الوقاء ومنابع الانجى لا يطيش لهم سهم
ولا يسقط لهم وهم ان رأوا في قميم صدوك وان أبصر وكد على جميل أمذك وقيل عليك
بأراء الشيوخ فانهم ان فقدوا ذكاء الطبع فقد مرت على عيونهم وجوه العبر وتصدت
لاسماعهم آثار الغبر . وقيل في منثور الحكم من طال عمره نقصت قوة ذهنه وزادت قوة
عقله وقيل فيه لاندع الايام جاهلا الأذته . وقال بعض الحكماء كفى بالتجارب تأديسا
وبقلب الايام عظة . وقال بعض البلغاء التجربة مرآة العقل والقرعة ثمرة الجهل . وقال
بعض الادباء كفى مخبر عما بقى ماضى وكفى عبرا لاولى الالباب ماحر يوا . وقال بعض
الشعراء
ألم تر أن العقل زين لاهله * ولكن تمام العقل طول التجارب

وقال آخر

اذا طال عمر المرء في غير آفة * أدت له الايام في كرها عقلا

وأما الوجه الثاني فقد يكون بقرط الذكاء وحسن الفطنة وذلك جودة الخدس في زمان غير
مهم للخدس فاذا امتزج بالعقل الغريزي صارت تتيجهما غو العقل المكتسب كالذى
يكون في الاحداث من وفو رالعقل وجوده الرأى حتى قال هرم بن قطبة حين تناظر اليه
عالم بن الطفيل وعلقمه بن علاء عليه السلام بالحدث الحسن الخديد الذين ولعل هرما أراد أن
يدفعهما عن نفسه فاعتذر بما قال لكن لم يذكر قوله اذعانا للحق فصار الى أى جهل لحداته
سنه وحده ذهني فأبى أن يحكم بينهما فرجعا الى هرم حكيم بينهما وفيه قال لبيد
يا هرم ابن الأكرمين منصبا * انك قد أوتيت حكما مجيبا
وقد قالت العرب عليكم مشاورة الشباب فانهم يتبحون رأيا لم ينله طول القدم ولا استولت
عليه رطوبة الهرم . وقد قال الشاعر

رأيت العقل لم يكن انتهابا * ولم يقسم على عدد السنين

ولو أن السنين تقاسمت * حوى الأباء أنصبه البنية

وحكى الاصمعي رحمه الله قال قلت لغلام حدث من أولاد العرب كان يحادثني فامتحنني
بفصاحته وملاحاة أسيرك أن يكون لك مائة ألف درهم وأنت أحق قال لا والله قال فقلت ولم
قال أخاف أن يحنى على حقي جنايته تذهب عيالي ويبقى على حقي فانظر الى هذا الصبي كيف
استخرج بقرط ذكائه واستنبط بجودة قريحته ما لعله يدق على من هو أكبر منه سنا
وأكثر تجربه . وأحسن من هذا الذكاء والفطنة ما حكى ابن قتيبة أن عمر بن الخطاب
رضي الله عنه مر بصبيان يلعبون وفيهم عبد الله بن الزبير فهرى بوا منه الأعباء الله فقال له عمر
رضي الله عنه مالك لم لا تهرب مع أصحابك فقال يا أمير المؤمنين لم أكن على رية فأخافك
ولم يكن الطريق ضيقا فوسع لك فانظر ما غنيت هذا الجواب من الفطنة وقوة المنة
وحسن المندبة كيف نفى عنه اللوم وأثبت له الحق فليس للذكاء غاية ولا جودة اقربحه
نهاية . وحكى أن سليمان بن عبد الملك أمر الفيرزدق بضرب أعناق أسارى من الروم

تشاركه في حال من الاحوال
وكذلك فحده بيان
الاعراض وبضادها كلها
غاية المباشرة ثم وجدنا
هذه المباشرة المضادة منه
للأجسام والاعراض انما
هي من حيث كانت
الأجسام أجساما والاعراض
أعراضا حكمنا بأن هذا
الشيء ليس بجسم ولا جزأ
من جسم ولا عرضا وذلك
انه لا يستحيل ولا يتغير
وأضافاته يدرك جميع
الاشياء بالسوية ولا يلحقه
فتور ولا كلال ولا نقص
(وبين ذلك) ان كل جسم
له صورة ما فانه ليس يقبل
صورة أخرى من جنس
صورته الاولى الا بعد
مفارقة الصورة الاولى
مفارقة تامة (مثال ذلك)
ان الجسم اذا قبل صورة
وشكلا من الاشكال
كالثبت مثلا فليس يقبل
شكلا آخر من الربيع

فاستعفا الفزدق فلم يفعل وأعطاه سيفاً لا يقطع شيئاً فقال الفزدق بل أضربهم بسيف
أبي رغوآن مجاشع يعني سيف نفسه فقام فضرب بعنق رومي منهم فبنا السيف عنه ففعل
سليمان ومن حوله فقال الفزدق

أبجبت الناس أن أهكمت سيدهم * خليفة الله يستسقي به المطر
لم ينب سيفي من رعب ولادش * عن الأسير ولكن آخر القدر
ولن يقدم نفساً قبل ميتها * جمع اليمين ولا الصمصامة الذكر
ثم غمد سيفه وهو يقول

ما نيعاب سيداً أصابا * ولا يعاب صارماً إذا نبا * ولا يعاب شاعراً إذا كبا
ثم جلس وهو يقول كافي بن المراجعة قد هباني فقال

بسيف أبي رغوآن سيف مجاشع * ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم
ثم قام فانصرف وحضر جرير وخبر بالخبر ولم ينشد له الشعر فأنشأ يقول

بسيف أبي رغوآن سيف مجاشع * ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم
ثم قال يا أمير المؤمنين كافي بن القين وقد أجابني فقال

ولا تقتل الأسرى ولكن نفكهم * إذا أثقل الاعتاق جل المغارم

فاستحسن سليمان حدس الفزدق على جرير ثم أخبر الفزدق بشعر جرير ولم يخبر بحديثه
فقال الفزدق

كذلك سيوف الهند تنبؤ لها * وتقطع أحياناً مناطق التمام
ولن تقتل الأسرى ولكن نفكهم * إذا أثقل الاعتاق جل المغارم

وهل ضربة الرومي جاعلة لكم * أباعن كليب أو أجامثل دارم

فشاع حديث الفزدق بهذا حتى حكى أن المهدي أقي بأسرى من الروم فأمر بقتلهم
وكان عنده شبيب بن شيبه فقال له اضرب عني هذا العليج فقال يا أمير المؤمنين قد علمت

ما أتى به الفزدق فغير به قومه إلى اليوم فقال إنما أردت تشريفك وقد أعفيتك وكان
أبو الهول الشاعر حاضرًا فقال

جزعت من الرومي وهو مقيد * فكيف ولولا قيته وهو مطلق

دعك! أمير المؤمنين لقتله * فكاد شبيب عند ذلك يفرق

فخ شيئا عن قسراع كريمة * وأذن سبياً من كلام يلقى

وليس العجب من كلام الفزدق أن صغ من جودة القريحيتين ولكن من اتفاق الخططين
ولئلا ذلك قالت الحكماء آية العقل سرعة الفهم وغاية أصابة الوهم وليس أن مفع
القريحته وسرعة الخطاطر يحجز عن جواب وان أعضل كما قيل لعل رضى الله عنه كيف يحاسب

الله العباد على كثرة عددهم فقال كما رزقهم على كثرة عددهم وقيل لعباد الله بن عباس
أين تذهب الأرواح إذا فارقت الأجساد فقال أين تذهب نار المصابيح عند فناء الأدهان

وهذان الجوابان جوابا السكات فتمت دليلي انعمان وحجتي قهر ومن غير هذا الفن وإن كان
ممكنًا ما حكى عن إبليس لعنه الله أنه حين ظهر لعيسى بن مريم عليه السلام قال ألسنت تقول

والندور وغيرهما الأبعد
أن يفارقه الشكل الأول
وكذلك إذا قبل صورة
نقش أو كتابة أو أي شيء
كان من الصور فليس
يقبل صورة أخرى من
ذلك الجنس الأبعد زوال
الأولى وبطلانها البتة فإن
بقي فيه شيء من رسم
الصورة الأولى لم يقبل
الصورة الثانية على التمام
بل تختلط به صورتان
فلا يخلص له أحدهما
على التمام (مثال ذلك)
إذا قبل الشمع صورة
نقش في الخاتم لم يقبل
غيره من النقوش الأبعد
أن يزول عنه رسم النقش
الأول وكذلك الفضة إذا
قبلت صورة الخاتم وهذا
حكم مستقيم مستمر في
الأجسام - ونحن نجد
أنفسنا قبل صور الأشياء
كلها على اختلافها من
المحسوسات والمعقولات

انه لن يصيبك الا ما كتبه الله عليك قال نعم قال فارم نفسك من ذروة هذا الجبل فانه ان
يقدر لك السلامة تسلم فقال له يا ملعون ان الله ان يختبر عباده وليس العبد ان يختبر ربه ومثل
هذا الجواب لا يستغرب من انبياء الله تعالى الذين امدهم بوجوه ما يدهم نصره وانما
يستغرب من يلجأ الى خاطره ويعول على بدنه وروى قثم بن العباس رضى الله عنهما قال
قيل لعلي بن أبي طالب رضى الله عنه كبرين السماء والأرض قال بدعوة مستجابة قيل فك
بين المشرق والمغرب قال مسيرة يوم للشمس فكان هذا السؤال من سائله اما اختبارا واما
استنصارا فصد رعه من الجواب ما أدركت فأما اذا اجتمع هذان الوجهان في العقل
المكتسب وهو ما يقيه فرط الذكاء بمجودة الحدس وصحة القرينة بحسن البديهة مع ما يقيه
الاستعمال بطول التجارب ومرور الزمان بكثرة الاختبار فهو العقل الكامل على الإطلاق
في الرجل الفاضل انه شفعاق روى أنس بن مالك رضى الله عنه قال أتى على رجل عند
رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير فقال كيف عقله قالوا يا رسول الله ان من عبادته
ان من خلقنا من فضله ان من أدبه فقال كيف عقله قالوا يا رسول الله تنثني عليه بالعبادة
وأصناف الخير وتسلنا عن عقله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الاجتهاد العابد
يصيب بجهله أعظم من غفوا الفاجر وانما يقرب الناس من ربهم بالزلف على قدر عقولهم
واختلاف الناس في العقل المكتسب اذا تناهى وزاد هل يكون فضيلة أم لا فقال قوم لا يكون
فضيلة لان الفضائل هيما تمتوسطة بين فضيلتين ناقصتين كما ان الخير توسط بين رذيلتين
فما جاوزا توسط خرج عن حد الفضيلة وقد قالت الحكماء لا تسكنسدر أهما الملك عليك
بالاعتدال في كل الأمور فان الزيادة عيب والنقصان عجز هذا مع ما وردت به السنن عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال خير الأمور أوسطها وقال علي بن أبي طالب رضى الله
عنه خير الأمور النظم الأوسط اليه يرجع العالي وبه يلحق التالي * وقال الشاعر
لاتذهبن في الأمور فرطاً * لاتسألن ان أسأت شططاً * وكن من الناس جميعاً وسطاً
قالوا لان زيادة العقل تقضي بصاحبها الى الدهاء والمكر وذلك مذكوم وصاحبه مالموم وقد
أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأهوى الاشعرى ان يعزل زبادة عن ولايته فقال زبادة
يا أمير المؤمنين أعن موحدة أو خيانة فقال لا عن واحدة منهما ولو كن خفت أن أحل على
الناس فضل عقلي ولاجل هذا المحكى عن عمر ما قيل قدما افراط العقل مضر بالجسد
وقال بعض الحكماء كفالك من عقلك ما ذلك على سبيل رشدك وقال بعض البلغاء قليل يكفي
خير من كثير يطغى وقال آخرون وهو أصح القولين زيادة العقل فضيلة لان المكتسب
غير محدود وانما تكون زيادة الفضائل المحمودة نقصا مدموما لان ما جاوز الحد لا يسمي
فضيلة كالشجاع اذا زاد على حد الشجاعة تسب الى التهور والسخى اذا زاد على حد السخاء
نسب الى التبذير وليس كذلك حال العقل المكتسب لان الزيادة فيه زيادة علم بالأمور
وحسن اصابة بالفتون ومعرفة ما لم يكن الى ما يكون وذلك فضيلة لا نقص لفتدروى عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال أفضل الناس أقل الناس وروى عنه صلى الله عليه وسلم
انه قال العقل حيث كان مألوف وقد قيل في تأويل قوله تعالى قل كل يعمل على شاكه أى

على التمام والكمال من غير
مفارقة للأولى ولا معاقبة
ولا زوال رسم بل يبقى الرسم
الأول تاما كاملا وتقبل
الرسم الثانى أيضا تاما
كاملا ثم لا تزال تقبل صورة
بعد صورة ابدا دائما من
غير أن تضعف أو تقصر
في وقت من الاوقات عن
قبول ما يز ويطرأ عليها
من الصور بل تزداد بالصوره
الأولى قوة على ما برد عليها
من الصورة الأخرى وهذه
الخاصة مضادة لخواص
الاجسام وهذه العلة تزداد
الانسان فهما كلما تراض
وتخرج في العلوم والآداب
فلبست النفس اذن جسما
* فأما انها ليست بعرض
فقد تبين من قبل أن
العرض لا يحبل عرضا
لان العرض في نفسه
محمول امد موجود في غيره
لاقوام له بذاته وهذا
الجوهر الذى وصفنا حاله

بحسب عقله وقال القاسم بن محمد كانت العرب تقول من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حقه في أغلب خصال الخير عليه وقيل في منشور الحكم كل شيء إذا أكثر رخص الألفق فاته إذا أكثر غلا وقال بعض البلغاء إن العاقل من عقله في أرشاد ومن رأيه في أمداد فقوله سيد وقوله جيد والجاهل من جهله في أغواؤه ومن هواه في اغراء فقوله سقيم وضعه نعيم وأنشدني ابن لسكرت لابي

من لم يكن أكثره عقله * أهلكه أكثر ما فيه

فأما الدهاء والمكر فهو مذموم لأن صاحبه صرف فضل عقله إلى الشر ولو صرفه إلى الخير لكان محمودا وقد ذكر المغيرة بن شعبه عمر بن الخطاب فقال كان والله أفضل من أن يخدع وأغفل من أن يخدع وقال عمر لست بالخب ولا يخدعني الخب واختلف الناس فيمن صرف فضل عقله إلى الشر كزياد وشبابة من الدهاء هل يسمى الدهية منهم عاقل أم لا فقال بعضهم أسميه عاقل لوجود العقل فيه وقال آخرون لأسميه عاقل لاختي يكون خيرا بينا لأن الخير والدين من موجبات العقل فأما الشرير فلا أسميه عاقل وإنما أسميه صاحب روية وفكر وقد قيل العاقل من عقل عن الله أمره ونهيته حتى قال أصحاب الشافعي رضي الله عنه فيمن أوصى بثالث ماله لا عقل الناس أنه يكون مصر وفا في الزهاد لأنهم انقادوا للعقل ولم يغرر بأبلاهم وروى لقمان بن أبي عامر عن أبي الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا عويمرا ازدد عقلا تزد من ربك قريبا قلت يا بني أنت وأمي ومن لي بالعقل قال اجنب محارم الله وأذقرأض الله تكن عاقلًا ثم قل بصلالحات الأعمال تزد في الدنيا عقلا وتزد من ربك قريبا وبه عزا وأنشدني بعض أهل الأدب هذه الايات وذكر أنها لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه

ان المكارم أخلاق مطهرة * فالعقل أولها والدين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها * والجود خامسها والعرف سادسها
والبر سابعها والصبر ثامنها * والشكر تاسعها واللين عاشسها
والنفس تعلم أني لأصدقها * واست أرشد الاحين أعصيا
والعين تعلم من عيني محدثها * من كان من حزبها أو من أعاديا
عينك قد دلتا عيني منك على * أشياء لولاها ما كنت تبديا

واعلم أن العقل المكتسب لا ينقل عن العقل الغريزي لانه نتيجة منه وقد ينقل العقل الغريزي عن العقل المكتسب فيكون ناصحه معسوب الفضائل موفو الرذائل كالأنوك الذي يتجمله فتنسيلة والاحق الذي قلما يتخلو من رذيلة وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الاحق كالفخار لا يرقع ولا يشعب وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الاحق أبيض خلق الله اليه اذا حرمه أعز الاشياء عليه وقال بعض الحكماء الحاجة إلى العقل أقبح من الحاجة إلى المال وقال بعض البلغاء دولة الجاهل عبرة العاقل وقال أنوشروان لبرز جهر أي الأشياء خبر للبر قال عقل يعيس به قال فان لم يكن قال فاخوان يسترون عينه قال فان لم يكن قال قال يحب به إلى الناس قال فان لم يكن قال في صامت قال فان

هو قابل أبدأ أحمل أتم
وأكل من حل الاجسام
للأعراض فاذن النفس
ليست جسما ولا جزأ من
جسم ولا عرضا وبصافان
الطول والعرض والعق
الذي به صار الجسم جسما
يحصل في النفس في قوتها
الوهمية من غير أن تصير
به طوية تعرضة عميقة
ثم تزداد فيها هذه المعاني
أبدأ بالانانية فلا تصير بها
أطول ولا أعرض ولا أعمق
بل لا تصير بها جسما ألبنة
ولا اذا تصورت أيضا
كصفات الجسم تكيف
بها أغنى اذا تصورت
الالوان والطعوم والرائح
لم تتصور بها كما تتصور
الاجسام ولا يمنع بعضها
قبول بعض من أصدادها
كما يمنع الجسم بل تقبلها
كلها في حالة واحدة بالسواء
وكذلك حالها في المعقولات
فانها تزداد بكل معقول

لم يكن قال قوت حارف وقال سابور بن أزدشير العقل نوعان أحدهما مطبوع والآخر مسموع ولا يصلح واحدهما الا بصاحبه فاخذ ذلك بعض الشعراء فقال

رايت العقل نوعين * فمسموع ومطبوع

ولا ينفع مسموع * اذا لم يترك مطبوع

كما لا تنفع الشمس * وضوء العين ممنوع

وقد وصف بعض الأدباء العاقل بما فيه من الفضائل والاحق بما فيه من الرذائل فقال العاقل اذا والى بذل في المودة نصره واذا عادى رفع عن الظلم قدره فبسه لمواليه بعقله ويعتصم بمعاديه بعقله ان احسن الى أحد ترك المطالبة بالشكر وان اساء اليه هسي بسبب له اسباب العذر وأغصه الصفح والعفو والاحق ضال مضل ان اونس تكبر وان أوحش تكدر وان استغلق تخلف وان ترك تكلف مجالسته مهنة ومعاينة محنة ومحاورته تعر وموالاة تضر ومقاربتة عى ومقارنته شقا * وكانت ملوك الفرس اذا غضبت على عاقل حسسته مع جاهل والاحق بسى الى غيره وبظن أنه قد احسن اليه فيطالبه بالشكر ويحسن اليه فيظن أنه قد اساء فيطالبه بالتورف ساوى الاحق لا تنتفضي وعيوبه لا تنتاهى ولا يقف النظر منها الى غاية الا لاحت ما وراءها مما هو أدنى منها وأردى وأمر وأدهى فما أكثر العربان نظر وأنفعها لمن اعتبر * وقال الاحنف بن قيس من كل شئ يحفظ الاحق الامن نفسه وقال بعض البلغاء ان الدنيا ربحا اقبلت على الجاهل بالاتفاق وأدبرت عن العاقل بالاستحقاق فان أتتك مناسهة مع جهل أوفاتتك منها فيضع عقل فلا يحملتك ذلك على الرغبة في الجهل والزهد في العقل فدولة الجاهل من المكنات ودولة العاقل من الواجبات وليس من أمكنة شئ من ذاته كن استوجبها لتعود أوتاه وبعد فدولة الجاهل كالغريب الذي يحن الى النقلة ودولة العاقل كالنسيب الذي يحن الى الوصله فلا يفرح المربع بحالة جلييلة لها ما يغير عقل ومنزلة رفيعة حلها ما يغير فضل فان الجهل ينزله منها ويرزله عنها ويحطه الى رتبته ويرده الى قيمته بعد أن تظهر عيوبه وتكثر ذنوبه ويصير مادحه حاجيا وليه معاديا واعلم أنه بحسب ما يفتن من فضائل العاقل كذلك يظهر من رذائل الجاهل حتى يصير مثلا في العابرين وحديثا في الآخرين مع هتكه في عصره وقبح ذكره في دهره كالذي رواه عطاء بن جابر قال كان في بني اسرائيل رجل له حمار فقال يارب لو كان لك حمار لغفنت مع حمارى فهم به بنى من أنبياء الله فأوحى الله اليه انما أتيب كل انسان على قدر عقله واستعمل معاوية ترحلا من كلب فذكر الجوس يوما عنده فقال لعن الله الجوس يسكنون أمهاتهم والله لو أعطيت عشرة آلاف درهم ما نكحت أبى فبلغ ذلك معاوية فقال قبحه الله أربو نولو زادوه فعل وعزله وولى الر بيع العامرى وكان من النوى سائر اليا مة فاذا كلبا بكتب فقال فيه الشاعر

شهدت بأن الله حق لقاءه * وأن الر بيع العامرى رقيق

أفاد لنا كلبا بكتب ولم يدع * دماء كلاب المسلمين تضييع

وليس لعار الجهل غاية ولا مضار الحق نهاية قال الشاعر

تحصله قوة على قبول
غيره دائما أبدا بلانهاية
وقدرة حالته مقابلة لاحوال
الاجسام وخاصة في غاية
البعدين خواصها وايضا
فان الجسم قواه لا تعرف
العلوم الا من الحواس
ولا يعيىل الا اليها فهي
تنشوقها بالملابسة والمشاكلة
كالتهوى والبدنية ومحبة
الانتقام والغلبة وبالجللة
كل ما يحس ويوصل اليه
الحس والجسم يزاد به
الاشياء قوة ويستفيد
منها تمام وكالاتها مادته
واسباب وجوده فهو
تفرخ بها ويشتاقي اليها
من أجل أنها تتم وجوده
وتزيد فيه وتعد فاما هذا
المعنى الآخر الذى يميناه
نفسا فانه كلما تباعد من
هذا المعانى البدنية التى
أحصناها وتداخلت الى
ذاته وتخلي من الجواس
بأكثر ما يمكن ازداد قوته

لكل داء دواء يستطب به * الا لما عاقت عبت من بداورها

(فصل) * وأما الهوى فهو عن الخير صائد وللعقل مضاد لانه ينبغ من الاخلاق قبائحها ويظهر من الافعال فضائنها ويجعل ستر المروءة مهتوكا ومدخل الشر مسلوكا . قال عبدالله ابن عباس رضي الله عنهما الهوى الله بعد من دون الله ثم تلا أفرأيت من اتخذ الله هواء وقال عكرمة في قوله تعالى ولكنكم فتنتم أنفسكم يعني بالشهوات وتر بصتم يعني بالنو بة وارتبتم يعني في أمر الله وغرتكم الاماني يعني بالتسويف حتى جاء أمر الله يعني الموت وغرتكم بالله الغرور يعني الشيطان . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال طاعة الشهوة داء وعصيانها دواء وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه اقلعوا هذه النفوس عن شهواتها فانها طلاعة تنزع الى شرفانة ان هذا الحق ثقیل مرى وان الباطل خفيف وترك في الخطيئة خير من معالجة التوبة ورب نظرة زرعت شهوة شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه أخاف عليكم اثنتين اتباع الهوى وطول الامل فان اتباع الهوى يصد عن الحق وطول الامل ينسي الآخرة وقال الشعبي انما سمي الهوى هوى لانه يهوى بصاحبه وقال اعرابي الهوى هو ان ولكن غلط باسمه فاخذه الشاعر وقال

ان الهوان هو الهوى قلب اسمه * فاذا هويت فتمدقيت هوانا

وقيل في منثور الحكم من أطاع هواه أعطي عدوه مناه . وقال بعض الحكماء العقل صديق مقطوع والهوى عدو متبوع وقال بعض البلغاء أفضل الناس من عصى هواه وأفضل منه من رفض دنياه . وقال هشام بن عبد الملك بن مروان

انذا أنت لم تبص الهوى قاذك الهوى * الى كل ما فيه عليك مقال

قال ابن المعتز رحمه الله لم يقل هشام بن عبد الملك سوى هذا البيت . وقال الشاعر

انما رأيت المصرة يقتاده الهوى * فقد شكته عند ذلك ثواكله

وقد أشمت الاعداء جهلا نفسه * وقد وجدت فيه مقالا عواذله

وما يردع النفس اللجوج عن الهوى * من الناس الاحازم الرأي كامله

ولما كان الهوى غالبا والى سبيل الممالك موردا جعل العقل عليه رقيا مجاهدا يلاحظ عشرة غفلة ويدفع بأدرة سطوته ويدفع خداع حيلته لان سلطان الهوى قوى ومدخل مكره خفي ومن هذين الوجهين يترقى العاقل حتى يتفادى احكام الهوى عليه أعني بأحد الوجهين قوة سلطانه وبالاخر خفاء مكره فاما الوجه الاول فهو ان يقوى سلطان الهوى بكثرة دواعيه حتى يستولى عليه مغالبة الشهوات فيكبل العقل عن دفعها ويضعف عن منعها مع وضوح قصتها في العقل المقهور بها وهذا يكون في الاحداث أكثر وعلى الشبان أغلب لقوة شهواتهم وكثرة دواعي الهوى المتسلط عليهم وانهم بما جعلوا الشباب عنزاتهم كما قال محمد بن بشير

كل يرى أن الشباب له * في كل مبلغ لذة عنذر

ولذلك قال بعض الحكماء الهوى ملك غشوم ومتسلط ظلوم . وقال بعض الادباء الهوى

وتغاما وكلاما وتظهر له
الاراء الصحيحة والعقولات
البسيطة . وهذا اذن
أدل دليل على أن طباعه
وجوهره من غير طبايع
الجسم والبدن وأنه أكرم
جوهر وأفضل طبايعا من
كل ما في هذا العالم
من الامور الجسمانية
* وايضا فان تشوقها الى
ما ليس من طبايع البدن
وحرصها على معرفة
حقائق الامور الالهية
وميلها الى الامور التي هي
أفضل من الامور
الجسمانية وايتارها لها
والنصرافها عن الامور
واللذات الجسمانية
يدلنا دلالة واضحة أنها
من جوهر أعلى وأكرم
خدا من الامور الجسمانية
لانه لا يمكن في شيء من
الاشياء أن يتشوق ما ليس
من طبايعه وطبيعته ولا
أن ينصرف عما يكمل ذاته

عسوف والاعبل مألوف . وقال بعض الشعراء

بأعنا لا أرى الهوى عقله * مالك قد سدت عليك الأمور

أن تجعل العقل أسير الهوى * وإنما العقل عليه أمير

وحسم ذلك أن يستعين بالعقل على النفس النفور فيشعر بما في عواقب الهوى من
شدة الضرر ووقم الأثر وكثرة الأجرام وتراكم الآثام . فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم
حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات . أخبر أن الطريق إلى الجنة احتمال المكاره
والطريق إلى النار اتباع الشهوات . قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه أما كم تحكيم
الشهوات على أنفسكم فإن عاجلها ذمهم وآجلها ونعيم فإن لم ترها تنقاد بالتحذير والارهاب
فسوفها بالتأميل والارغاب فإن الرغبة والرغبة إذا اجتماعا على النفس ذلت لها وانقادت
وقد قال ابن السماك كن لهواك مسوفاً وعقلك مسعفاً وانظر إلى ما تسوء عاقبته فوطن
نفسك على مجانبته فإن ترك النفس وما تهوى دأباً وترك ما تهوى دأباً فاصبر على
الدواء كما تخاف من الداء . وقال الشاعر

صبرت على الأيام حتى قلت * وألزمت نفسي صبرها فاستمرت

وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى * فإن أطعمت تأقت والاتسلت

فإذا انتقدت النفس للعقل بما قد أشعرت من عواقب الهوى لم يلبث الهوى أن يصير
بالعقل مدحوراً وبالنفس مقهوراً ثم لم الحظ الأوفى في ثواب الخالق وثناء المخلوقين .
قال الله تعالى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى .
وقال الحسن البصري أفضل الجهاد جهاد الهوى . وقال بعض الحكماء أعز العز الامتناع
من ملك الهوى . وقال بعض البلغاء خير الناس من أخرج الشهوة من قلبه وعصى هواه
في طاعة ربه . وقال بعض الأدباء من أمات شهوة فقد أحيى مروءته . وقال بعض العلماء
ركب الله الملائكة من عقل بلا شهوة وركب البهائم من شهوة بلا عقل وركب ابن
آدم من كل شيء فمن غلب عقله على شهوة فهو خير من الملائكة ومن غلبت شهوة على
عقله فهو شر من البهائم . وقيل لبعض الحكماء من أشجع الناس وأجراهم بالظفر في
مجادته قال من جاهد الهوى طاعته به واحترس في مجادته من وزود خواطر الهوى
على قابله . وقال بعض الشعراء

قد يدرك الحازم ذو الرأي متى * بطاعة الحزم وعصيان الهوى

وأما الوجه الثاني فهو أن يخفى الهوى مكره حتى تموه أفعاله على العقل فيتصور القبيح
حسناً والضرر نفعاً وهذا يدعوا له أحاديثين إما أن يكون للنفس ميل إلى ذلك الشيء
فيخفى عنها القبيح لحسن ظننا وتتصوره حسناً لشدة ميلها . ولذلك قال النبي صلى الله عليه
وسلم حبك الشيء يعمي ويصم أي يعمي عن الرشد ويصم عن الموعظة . وقال علي رضي الله
عنه الهوى عمى . قال الشاعر * حسن في كل عين من تود * وقال عبد الله بن معاوية
ابن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه

ولست براء عيب ذي الودك له * ولا بعض ما فيه إذا كنت راضياً

وبقوم جوهره فاذن كانت
أفعال النفس إذا انصرفت
إلى ذاتها فتركت الحواس
مخالفة لأفعال البدن
ومضادة لها في محاولاتها
وأراداتها . فلا محالة أن
جوهرها مفارق لجوهر
البدن ومخالف له في
طبعه

وأيضاً فإن النفس وإن
كانت تأخذ كثيراً من
مبادئ العلوم عن الحواس
فلهما من نفسها مبدأ آخر
وأفعال لا تأخذها عن
الحواس البتة وهي المبادئ
الشرقية العالية التي تبنى
عليها القياسات الصحيحة
وذلك أنها إذا حكمت أنه
ليس بين طرق النقيض
واسطة فإنها لم تأخذ هذا
الحكم من شيء آخر
لأنه أولى ولو أخذته من
شيء آخر لم يكن أولياً . وأيضاً
فإن الحواس تدرك
المحسوسات فقط وأما

فمعين الرضا عن كل عيب كليله * ولكن عين السخط تبتدى المساويا
وأما السبب الثاني فهو اشتغال الفكر في غير ما يشبهه فطلب الراحة في اتباع ما استسهل
حتى يظن أن ذلك أوفق أمره وأجمل عليه اغترار بأن الأسهل محمود والأعسر مذموم
فلن بعدم أن يتورط بمخدع الهوى ورئيسة المكر في كل مخوف حذر ومكر وهوس
ولذلك قال عامر بن الظرب الهوى يقظان والعقل راقد فمن ثم غلب . وقال سليمان بن
وهب الهوى أمتع والرأى نفع وقيل في المثل العقل وزرنا صريح والهوى وكيل فاضح .
وقال الشاعر

إذا المرء أعطى نفسه كلما اشتته * ولم ينهها نأقت إلى كل باطل
وسأقت إليه الأثم والعار بالذى * دعت به البسه من حلاوة عاجل

وحسم السبب الأول أن يجعل فكر قلبه حكما على نظر عينه فان العين رائدة الشهوة
والشهوة من دواعي الهوى والقلب رائد الخلق والحق من دواعي العقل . وقال بعض
الحكماء نظر الجاهل بعينه ونظره ونظر العاقل بقلبه وخطره ثم يتم نفسه في صواب
ما أحب وتحسين ما اشتته ليتضح له الصواب ويبين له الحق فان الحق أنقل مجلا وأصعب
مركبا فان أشكل عليه أمران اجتنب أحدهما إليه وترك أسهلها عليه فان النفس عن
الحق أنفرو للهوى أثر . وقد قال العباس بن عبد المطلب إذا اشتبه عليك أمران فدع
أحدهما اليك وخذ الآخر لهما عليك وعلة هذا القول هو أن الثقل يطمئ إلى النفس عن
التسرع إليه فيتضح مع الأبطا وتطول الزمان صواب ما استجهم وظهور ما استبهم .
وقد قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من تفكر أبصر والمحجوب أسهل شئ تسرع
النفس إليه وتجهل بالأقدام عليه في قصر الزمان عن تصفحه ويقوت استدراكه
وتصير فعله فلا ينفع التصفح بعد العمل ولا الاستبانة بعد الفتور وقال بعض الحكماء ما كان
عقلك معرضا فلا تكن له معرضا وقال الشاعر

أليس طلاب ما قد فات جهلا * وذكر الممر ما لا يستطيع

ولقد وصف بعض البلغاء حال الهوى وما يقارنه من محن الدنيا فقال الهوى مطية الفتنة
والذيادار المحنة فانزل عن الهوى تسلم وأعرض عن الدنيا تغتم ولا تغرنك هواك بطيب
الأماني ولا تقتنك دنياك بحسن العواري فدها للهو تنقطع وعاره الدهر ترتجع ويبقى
عليك ما تركته من المحارم وتكتسبه من المآثم . وقال علي بن عبد الله الجعفرى سمعنى
أمراة بالطواف وأنا أنشد

أهوى هوى الدين والذات تعجنى * فكيف لي بهوى الذات والدين

فقالت هماضر تان فذراهم ما شئت وخذ الأخرى فامارق ما بين الهوى والشهوة مع
اجتماعهما في العلة والمعلول واتفاقهما في الدلالة والمدلول فهو ان الهوى يختص بالآراء
والاعتقادات والشهوة مختصة بنيل اللذة فصارت الشهوة من نتائج الهوى وهى أخص
والهوى أصل هو أعظم . ونحن نسأل الله تعالى أن يكفيننا دواعي الهوى ويصرف عنا سبل
الرذى ويجعل التوفيق لنا قائدا والعقل لنا مرشدا . فقد روى أن الله تعالى أوحى إلى عيسى

النفس فانها تدرك
أسباب الاتفاقات وأسباب
الاختلافات التي من
المحسوسات وهى
معقولاتها التي لا تستعين
عليها بشئ من الجسم ولا
آثار الجسم وكذلك اذا
حكمت على الحس انه
صدق او كذب فليست
تأخذ هذا الحكم من الحس
لانه لا يضاد نفسه فيما يحكم
فيه ونحن نجد النفس
العاقلة حين تستدرك شأ
كثيرا من خطأ الحواس
في مبادئ أفعالها وترد عليها
أحكامها . من ذلك ان
البصر يخطئ فيما يراه من
قرب ومن بعد ما يخطؤه
في البعيد فيأدراكه
الشمس صغيرة مقدارها
عرض قدم وهى مثل
الأرض مائة ونيفا
وستين مرة يشهد بذلك
البرهان العقلى فتقبل منه
وترد على حس ما شبه به

عليه السلام عظم نفسك فان تعظت ففظ الناس والافاسحني مني . وقال محمد بن كنانة
 ما من روى أدبا فلم يعمل به * ويتكف عن ربيع الهوى بادي
 حتى يكون بما تعلم عملا * من صالح فيكون غير معيب
 ولقما تقضى اصابة قائل * أفعاله أفعال غير مصيب
 وقال آخر

يا أيها الر جبل المعلم غيره * هلا لنفسك كان ذا التعليم
 تصف الذواء لذى السقام وذى الضنى * كيما يصحبه وأنت سقيم
 أبدا بنفسك فانها عن غيها * فاذا انتهت عنه فانت حكيم
 فهناك تعذران وعظمت ويقتدى * بالقول منك ويقل التعليم
 لاتبته عن خلق وتأتى مثله * عار عليك اذا فعلت عظيم
 حكى أبو فروة أن طارقا صاحب شرطة خالد القسري مر بابن شبرمة وطارق في
 مركبه فقال ابن شبرمة

أراها وان كانت تحب كائنها * سحابة صيف عن قريب تنشق
 اللهم لى ديني ولهم دنياهم فاستعمل ابن شبرمة بعد ذلك على القضاء فقال له ابنه أبو بكر
 أتذكر قولك يوم كذا أذمر بك طارق في مركبه فقال يا بنى انهم يجدون مثل أبىك ولا
 يجد أبوك مثلهم ان أباك أكل من حلوائهم فخط في أهوائهم أما ترى هذا الدين القاضل
 كيف عوجل بالتقريع وقوبل بالتوبيع من أنخص ذويه ولعله من أمر بنه فكيف
 بنا ونحن أطلق منه عنايا وأقلق منه جنانا اذ ارمقنا أعين المتبعين وتناولتنا السن المتعبين
 هل نجد غير توفيق الله تعالى ملاذنا وسوى عصمتنا معاذا

❦ باب أدب العلم ❦

اعلم أن العلم أشرف ما يرغب فيه الر اغب وأفضل ما طلب وجديف الطالب وأنفع
 ما كسبه واقتناه الكاسب لان شرفه يشر على صاحبه وفضله ينبي على طالبه . قال الله
 تعالى قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون فنجع المساواة بين العالم والجاهل لما
 قد خص به العالم من فضيلة العلم . وقال تعالى وما يعقلها الا العالمون فتنبى أن يكون غير
 العالم يعقل عنه أمر أو يفهم منه جزاء . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أوحى
 الى ابراهيم عليه السلام انى علم أحب كل عليم . وروى أبو أمامة قال سئل رسول الله صلى
 الله عليه وسلم عن رجلين أحدهما عالم والأخر عابد فقال صلى الله عليه وسلم فضل العالم على
 العابد كفضل على أدناكم رجلا . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه الناس أبناء
 ما يحسنون . وقال مصعب بن الزبير تعلم العلم فان يكن لك مال كان لك جمالا وان لم يكن لك
 مال كان لك مالا . وقال عبد الملك بن مروان لبنيه يا بنى تعلموا العلم فان كنتم سادة فتم
 وان كنتم وسطا سادتم وان كنتم شوقا عشتم وقال بعض الحكماء العلم شرف لا قدر له . والادب
 مال لا خوف عليه . وقال بعض الابداء العلم أفضل خلف والعمل به أكل شرف . وقال

فلا يقبله . واما خطؤه فى
 القريب فبمنزلة صنو الشمس
 اذا وقع علينا من ثقت
 مريعات صفار كحل الا هوأز
 وأشباهها التى يستفل
 بها فانه يدرك بها الضؤ
 الواصل اليانها مستدرا
 قتر النفس العاقلة عليه
 هذا الحكم وتقلبه
 فى ادراكه وتعلم انه ليس
 كبراه وتخطى البصايرضا
 فى حركة القمر والسحاب
 والسقينة والاشاطى ومخطا
 فى الاساطين المسطرة
 والفيل واشاهها حين
 براها مختلفة فى أوضاعها
 ويخطى اتصاف الاشياء
 التى تحرك على الاستدارة
 حتى يراها كالحلقة والطورق
 ويخطى اتصاف الاشياء
 الغائصة فى الماء حتى يرى
 أن بعضها كبير من مقداره
 ويرى بعضها مكسورا وهو
 صحيح وبعضها مغنوبا
 وهو مستقيم وبعضها

ومض البلاء تعلم العلم فانه يقومك ويسدك صغيرا ويقدمك ويسودك كبيرا ويصلح
زيك وفاسدك ويرغم عدوك وحاسدك ويقوم عوجك وميلك ويصح همك وأملك .
وقال على رضي الله تعالى عنه قيمة كل امرئ ما يحسن فأخذ الخليل فظنهم شعرا فقال

لا يكون العلي مثل الدني * لا ولا ذوالكاء مثل الغني
قيمة المرء قدر ما يحسن المر * وقضاء من الامام على

وايسر بجهل فضل العلم الا اهل الجهل لان فضل العلم انما يعرف بالعلم وهذا ابلغ في فضله
لان فضله لا يعلم الا به فلما عدم الجهال العلم الذي به يتوصلون الى فضل العلم جهلوا فضله
واستوزلوا أهله وقوموا وانما قيل اليه نفوسهم من الاموال المقتناة والطرف المشتهاه
أولى أن يكون اقبالهم عليها وأحرى أن يكون اشتغالهم بها . وقد قال ابن المعتز في منشور
الحكم العالم يعرف الجاهل لانه كان جاهلا والجاهل لا يعرف العالم لانه لم يكن عالما وهذا
صحيح ولا جهل انصر فواعن العلم وأهله انصراف الزاهدين وانحر فواعنه وعنهم انحراف
العائدين لان من جهل شيئا عاداه . وأنشد في ابن انكك لابي بكر بن دريد

جهلت فعديت العلوم وأهلها * كذلك يعادي العلم من هواها
ومن كان يهوى أن يرى متصدرا * ويكره لا أدري أصبت مقالة

وقيل لبرز جهرا العلم أفضل أم المال فقال بل العلم قيل فما التاري العلي على أبواب الأغنياء
ولان كاد نرى الأغنياء على أبواب العلماء فقال ذلك ليعرف ان العلماء بمنفعة المال وجهل
الأغنياء بفضل العلم . وقيل لبعض الحكماء لا يجتمع العلم والمال فقال لعز الكمال .
فأنشدت لبعض أهل هذا العصر

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله * فأجسامهم قبل القبور قبور

وان امرأ لم يحيى بالعلم ميت * فليس له حق النشور نشور

ووقف بعض المتعلمين بباب عالم ثم نادى تصدقوا علينا بما لا يتعب ضرر سا ولا يستمتع نفسا
فأخرج له طعاما ونفقة فقال فاقني الى كلامكم أشد من فاقني الى طعامكم اني طالب هدى لا
سائل فدى فاذن له العالم وأزده من كل ما سأل عنه فخرج جدا فرح وهو يقول علم أوضح
لبسا خير من مال أغنى نفسا واعلم ان كل العلوم شريفة وكل علم منها فضيلة والاحاطة
بجميعها محال قيل لبعض الحكماء من يعرف كل العلوم فقال كل الناس . وروى عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال من ظن أن للعلم غاية فقد حبسه حتمه ووضعه في غير منزلته التي
وصفه الله لها حيث يقول وما أوتيتم من العلم الا قليلا . وقال بعض العلماء لو كنا نطلب العلم
لنبذل غايته كنا قد بدنا العلم بالقبص ولو كنا نطلبه لننقص في كل يوم من الجهل ونزداد في
كل يوم من العلم . وقال بعض العلماء المتعق في العلم كالمساح في البحر ليس يرى أرضا ولا
يعرف طولها ولا عرضها . وقيل لحمار الرواية أما تشبع من هذه العلوم فقال استقر غنا فيها
أجمود فلم يبلغ منها المحدود فحين كما قال الشاعر * أنا قطعنا علما بديدا علم * وأنشد الرشيد
عن المهدي يبتين وقال أنظما له

يانفس خوضي بحار العلم أو غومي * فالتاس ما بين مجهوم ومخصوص

منكسرا وهو منتصب
فيه تخرج العقل اسباب
هذه كلها من مباد عقلية
و يحكم عليها احكاما صحيحة
وكذلك الحال في حاسة
السمع وحاسة الذوق وحاسة
الشم وحاسة اللمس . أعنى
حاسة الذوق تغلط في الخلو
تجهده مر عند الصد أو
ما أشبهه وحاسة الشم تغلط
كثيرا في الاشياء المنتنة
لا سيما في المنتقل من رائحة
الى رائحة فالعقل يرد هذه
القضايا ووقف فيها ثم
يسفحج أسبابها ويحكم فيها
أحكاما صحيحة والحكم
في الشيء المزييف له
او المصحح أفضل واعلى
رتبة من المحكوم عليه
وبالجملة فان النفس اذا
علمت ان الحس صدق
أو كذب فليست تأخذ هذا
العلم من الحس ثم اذا علمت
انها قد أدركت معقولاتها
فليست تعلم هذا العلم من علم

لا شيء في هذه الدنيا يخيط به * الا احاطة منقوص بمنقوص

واذا لم يكن الى معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الاهتمام الى معرفة اهلها والعناية
بأولها وأفضلها وأولى العلوم وأفضلها علم الدين لان الناس يعرفونه برشدون وبجهلهم
يصلون اذ لا يصح أداء عبادته جهل فاعلمها صفات أدائها ولم يعلم شروط اجرائها . ولذلك قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل العلم خير من فضل العبادات وانما كان كذلك لان العلم
يسمى على فضل العبادات والعبادة مع خلقها من العلم بها قد لا تكون عبادة فلهذا علم
الدين كل مكلف . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم طاب العلم فربضة على كل مسلم وفيه
تأويلان أحدهما علم ما لا يسع جهله من العبادات والثاني جملة العلم اذا لم يتم بطلبه من
فيه كفاية واذا كان علم الدين قد أوجب الله تعالى فرض يعتمده على الاعيان وفرض جمعه
على الكافة كان أولى مما لم يجب فرضه على الاعيان ولا على الكافة . قال الله تعالى فلولوا
نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم
يحذرون . وروى عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فاذا هو
بمسلمين أحدهما يذكر ون الله تعالى والآخر يتفقهون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
كلا المجلسين على خير وأحدهما أحب الي من صاحبه أما هؤلاء فيسألون الله تعالى
ويذكرونه فان شاء أعطاهم وان شاء منعهم وأما المجلس الآخر فيتعلمون الفقه ويعلمون
الجاهل وانما بعثت معلما وجلس الى أهل الفقه . وروى مروان بن جناح عن يونس بن
ميسرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال الخير عادة والشر لحاجة ومن برد الله به خيرا
يتفقه في الدين . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خيار أمتي علماءؤها وخيار
علمائها فقهاؤها . وروى معاذ بن رفاع عن ابراهيم بن عبد الرحمن العذري قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم ليعلم هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تقريف الغالين
واتحال المبطلين وتأويل الجاهلين وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال على بخلفائي
قالوا ومن خلفنا قال الذين يحبون سنتي ويعلمون عباد الله . وروى جعيد بن أنس أن
النبي صلى الله عليه وسلم قال التفقه في الدين حق على كل مسلم الا فتعلوا وعلموا وتفقهوا ولا
تموتوا جهلا وروى سليمان بن يسار عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما عبد
الله بشئ أفضل من فقه في الدين ولفقه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد لكل شئ
محمد وعبد الدين الفقه وربما مال بعض المتأولين بالدين الى العلوم العقلية ورأى أنها أحق
بالفضلية وأولى بالتقدمية استتمالا لما تضمنه الدين من التكليف واستزادا لما جاء به شرع
من التعبد والتوقيف والكلام مع مثل هذا في أصل لا يسع له هذا الفصل وان ترى ذلك
فإن سلبت فظنته وصحت رويته لان العقل يمنع من أن يكون الناس جهلا أو سدى يعتقدون
على آرائهم المختلفة ويتقادون لاهوائهم المتشعبة لما تقول اليه أمورهم من الاختلاف
والتنازع وتفضي اليه أحوالهم من التباين والتقاطع فلم يستغنوا عن دين يتألفون به
ويتفقون عليه ثم العقل موجب له أو مانع له ولو تصور هذا المختل التصور أن الدين ضرورة في
العقل وأن العقل في الدين أصل لقصر عن التقصير وأدع الحق ولكن أهل نفسه فضل

أخر لها وعلت هذا العلم
من علم آخر لا تحتاج في
ذلك العلم أيضا الى علم آخر
وهذا أمر بلا نهاية فاذن
علما بأنها علست ليس
بما أخوذ من علم آخر البتة
بل هو من ذاتها وحوهرها
أعنى العقل وليست تحتاج
في ادراكها ذاتها الى شئ
آخر غير ذاتها ولهذا ما قيل
في أوامر هذا العلم . ان
العقل والعقل والمقول
شئ واحد لا غير به شئ
يتبين في موضعه . فاما
الحواس فلا تحس ذاتها
ولما هو موافق لها كل
الموافقة كما يتبين أيضا
واذ قد تبين من هذه
الاشياء بآثارها وانها ان
النفس ليست بجسم ولا مجردة
من جسم ولا حال من
أحوال الجسم وانها شئ
آخر مفارق للجسم مجوهره
واحكامه وخواصه وفعاله
فنقول

وأصل وقد يتعلق بالذين علوم قديين الشافعي فضيلة كل واحد منها فقال من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن تعلم الفقه نيل مقداره ومن كتب الحديث قويت حجته ومن تعلم الحساب جزل رأيه ومن تعلم العربية رقى طبعه ومن لم يصن نفسه لم ينفعه عمله والجرى ابن صيانة النفس أصل الفضائل لأن من أهمل صيانة نفسه ثقة بما فيه العلم من فضيلته وتوكل على ما يلزم الناس من صيانته سلبوه فضيلته وعلمه ووسموه بقبج تبذله فلم ينف ما أعطاه العلم بما سلبه التذلل لأن القبيح أتم من الجليل والذليل أشهر من الفضيلة لأن الناس لما في طبائعهم من البغضة والحسد وتزاع المنافسة تنصرف عيونهم عن المحاسن إلى المساوي فلا يصفون محسنا ولا يحابون محسنا لاسيما من كان بالعلم موسوما واليه منسوب فان زلته لا تقال وهفوته لا تعدر اما القبح أثره واغترار كثير من الناس بها . وقد قيل في منشور الحكم ان زلة العالم كالسفينه تفرق ويغرق معها خلق كثير وقيل لعيسى بن مريم عليه السلام من أشد الناس فتنة قال زلة العالم اذ ازل زل برزته عالم كثير فهذا وجهه واما لان الجهال يذمه أغرى وعلى تنقيصه أخرى ليسلبوه فضيلة التقدم ويمنعوه ما يستحقه عباد الماحولوه ومقتلما يسيه لان الجاهل يرى العلم تكلفا ولوما كما أن العالم يرى الجهل تخلفا وذا وأنشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه

ومنزلة السفيه من الفقيه * كمنزلة الفقيه من السفيه
فهذا زاهد في قرب هذا * وهذا فيه أزهده منه فيه
اذ اغلب الشقاء على سفيه * تقطع في مخالفة الفقيه

وقال يحيى بن خالد لابنه عليك بكل نوع من العلم فخدمته فان المرء عدو جاهل وأنا كره أن تكون عدو شي من العلم وأنشد

تفمن وخذ من كل علم فانما * يفوق امرؤ في كل فن له علم
فانت عدو للذي أنت جاهل * به ولعلم أنت تتقنه سلم

واذا صان ذوالعلم نفسه حق صيانتها ولازم فعل ما يلزمها أمن تغيير الموالى وتنقيص المعادى وجمع إلى فضيلة العلم جميل الصيانة وعز الزاهة فصار بالمنزلة التي يستحقها فضائله . وروى أبو الدرداء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال العلماء ورثة الأنبياء لأن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما وإنما ورثوا العلم . وروى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للأنبياء على العلماء أفضل درجتين والعلماء على الشهداء أفضل درجة . وقال بعض البلغاء إن من الشريعة قبل أهل الشريعة ومن الصنعة أن ترب بحسن الصنعة فينبغي لمن استدل بفطرته على استحسان الفضائل واستقباح الرذائل أن ينفي عن نفسه رذائل الجهل بفضائل العلم وغفلة الاهمال باستيقاظ المعاناة ويرغب في العلم رغبة متحقق لفضائله واثق بمنافعه ولا يليه من طلبه كثرة مال وجهه ولا نقود أمر وعلوم منزله فان من نفذ أمره فهو إلى العلم أحوج ومن علت منزلته فهو بالعلم أحق . وروى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أنا الحكمة تزيد الشرف شرفاً وترفع العبد المملوك حتى يتجسس بمجالس الملوك . وقد قال بعض الأدباء كل عز لا يوطده علم مثله وكل علم لا يؤيده عقل مثله . وقال

شوق النفس إلى
أفعالها الخاصة بها
أما شوقها إلى أفعالها
الخاصة بها أعنى العلوم
والمعارف مع هر بهامن
أفعال الجسم الخاصة به
في صوفياتها وبحسب
طلب الإنسان لهذه
الفضيلة وحوصه عليها
يكون فضله وهذا الفضل
يستزايد بحسب عنايه
الإنسان بنفسه وانصرافه
عن الامور العائقة له عن
هذا المعنى بجهده وطاقته
وقد وضع مما تقدم
ما الأشياء العائقة لنا عن
الفضائل أعنى الأشياء
البدنية والحواس وما
يتصل بها . فاما الفضائل
أنفسها فليست تحصل لنا
الاعتناء بظهور نفوسنا من
الرذائل التي هي أضدادها
أعنى شهوات الرديئة
الجسمانية وتزواتها
الفاحشة البهيمية . فان

بعض علماء السلف إذا أراد الله بالناس خيراً جعل العلم في ملوكهم والملك في علمائهم .
وقال بعض البلغاء العلم عصمة الملوك لأنه يمنعهم من الظلم ويردهم إلى الحلم ويصدهم
عن الأذية ويعطفهم على الرعية فمن حقهم أن يعرفوا حقه ويستبطنوا أهله فأما
المال فظل زائل وعارية مسترجعة وليس في كثرة فضيلة ولو كانت فيه فضيلة تلخص
الله به من اصطفاؤه لرسالته واجتباؤه لنبوته وقد كان أكثر أنبياء الله تعالى مع ما خصهم
الله به من كرامته وفضلهم على سائر خلقه فقراء لا يجدون بلغة ولا يقدرون على شيء حتى
صاروا في الفقر مثلاً . قال البحرى

فقر كفقرا الأنبياء وغربة * وصبا به ليس البلاء واحد
ولعدم الفضيلة في المال محبة الله الكافر ورحمة المؤمن . قال الشاعر
كم كافر بالله أمواله * تزداد أضعافاً على فقره
ومؤمن ليس له درهم * يزداد إيماناً على فقره
بالأثم الدهر وأفعاله * مشتغلاً بزرى على درهم
الدهر مأمور له أمر * ينصرف الدهر على أمره

وقد بين على بن أبي طالب رضي الله عنه فضل ما بين العلم والمال فقال العلم خير من المال
العلم بحر سلك وأنت تحرس المال العلي حاكم والمال محكوم عليه مات خزان الأموال
وبقي خزان العلم أعيانهم مفقودة وأشخاصهم في القلوب موجوده . وسئل بعض العلماء
أيما أفضل المال أم العلم فقال الجواب عن هذا أيما أفضل المال أم العقل . وقال صالح
ابن عبد القدوس

لا خير فيمن كان خير ثأته * في الناس قلوبهم غنى واحد

و ربما امتنع الإنسان من طلب العلم لكبر سنه واستحيائه من تقصيره في صفه أن يتعلم في
كبره فرضي بالجهل أن يكون موسوماً به وأثره على العلم أن يصير مبتدأ به وهذا من
خدع الجهل وغرور الكسل لأن العلم إذا كان فضيلة فرغبة ذوي الأسنان فيه أولى
والابتداء بالفضيلة فضيلة ولأن يكون شيئاً متعلماً أولى من أن يكون شيئاً جاهلاً . حكى
أن بعض الحكماء رأى شيئاً كبيراً يحب النظر في العلم ويستحي فقال له يا هذا أنسخي أن
تكون في آخر عمرك أفضل مما كنت في أوله . وذكر أن إبراهيم بن المهدي دخل على
المأمون وعنده جماعة يتكلمون في الفقه فقال يا عمي ما عندك فيما تقول هؤلاء فقال يا أمير
المؤمنين شغلوني في الصغر واشتغلنا في الكبر فقال لم لا تتعلم اليوم قال أو يحسن بمثل طلب
العلم قال نعم والله لأن موت طالب العلم خير من أن تعيش قائماً بالجهل قال وإلى متى يحسن بي
طلب العلم قال ما حسنت بك الحياة لأن الصغير أعز وأكرم من أن يكون في الجهل عذراً له لم تطل
به مدة التفريط ولا استمرت عليه أيام الأهمال . وقد قيل في منشور الحكم جهل الصغير
معذور وعلمه محذور فاما الكبر فالجهل به أوقع ونقصه عليه أفضح لأن علو السن إذا لم يكسبه
فضلاً ولم ينفده علماً وكانت أيام في الجهل ماضية ومن الفضل خالية كان الصغير أفضل
منه لأن رجاؤه أكثر والأمل فيه أظهر وحسبك بقصافي رجل يكون الصغير المساوي

له في الجهل أفضل منه . وأنشدت لبعض أهل الأدب

أذالم يكن من السنين مترجما * عن الفضل في الإنسان سميت طفلا
وما تنفع الأيام حين يعدها * ولم يستفد فيهن علما ولا فضلا
أرى الدهر من سوء التصرف مائلا * إلى كل ذي جهل كأن به جهلا

وربما امتنع من طلب العلم لتعذر المادة وشغلها اكتسابها عن التماس العلم وهذا وإن كان أعذر من غيره مع أنه قلما يكون ذلك الاعتدادي شره وعيب وشهوة مستعبدة فينبغي أن يصرف إلى العلم خطا من زمانه فليس كل الزمان زمان اكتساب ولا بد للكاتب من أوقات استراحة وأيام عطلة ومن صرف كل نفسه إلى الكسب حتى لم يترك لها فراغا إلى غيره فهو من عبث الدنيا واسراء الحرص . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لكل شيء قرة فمن كانت قترته إلى العلم فقد نجح . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كونيوا علماء صالحين فإن لم تكونوا علماء صالحين فخالسوا العلماء واسمعوا العلماء يدلكم على الهدى ويردكم عن الردى . وقال بعض العلماء من أحب العلم أحاطت به فضائله . وقال بعض الحكماء من صاحب العلماء وقر ومن جالس السفهاء حقر . وروى بما منه من طلب العلم ما يظنه من مسعوبته وبعدها فية ويحشى من قلة تذهنه وبعده فنته وهذا الظن اعتداز ذوى النقص وخيفة أهل العجز لان الأخبار قبل الاختبار جهل والخشية قبل الابتلاء عجز وقد قال الشاعر

لا تكونون للأموه رهيوبا * فإلى خيبة بصير المهيوب

وقال رجل لابي هريرة رضى الله عنه أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه فقال كفى بترك العلم إضاعة وليس وإن تفاضلت الأذهان وتفاوتت القطن ينبغي لمن قل منها حفظه أن ييأس من نيل القليل وإدراك اليسر الذى يخرج به من حد الجهالة إلى أدنى مراتب التخصيص فإن الماء مع لينه يؤثر في صم العصور فكيف لا يؤثر العلم الزكى في نفس راغب شهي وطالب خلى لاسميا وطالب العلم معان . قال النبي صلى الله عليه وسلم إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب . وروى بما منع هذا السفاهة من طلب العلم أن يصور في نفسه حرفة أدله وتضايق الأمور مع الاشتغال به حتى يسهىهم بالادبار ويتوسمهم بالحرمان فإن رأى بحيرة تطير منها وإن رأى كتابا أعرض عنه وإن رأى مقبلا على العلم هرب منه كأنه لم ير عالما مقبلا وجاهلا مدبرا ولقد رأيت من هذه الطبقة جماعة ذوى منازل وأحوال كنت أخفى عنهم ما يصحى من بحيرة وكتاب لئلا كون عندهم مستغلا وإن كان البعد عنهم مؤنسا ومصالحا والقرب منهم موحشا ومفسدا . فقد قال بزرجمهر الجهل في القلب كالترقي الأرض يقسمها حوله لكن اتبعته فيهم الحديث المروى عن أبي الأشعث عن أبي عثمان عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خالطوا الناس بأخلاقهم وخالقوهم في أعمالهم . ولذلك قال بعض البلغاء رب جهل وقيت به علما وسفه حيت به علما وهذه الطبقة بمن لا يرجى لها صلاح ولا يؤمل لها فلاح لأن من اعتقد أن العلم شين وأن تركه زين وأن للجهل أقبالا مجديا وللعلم ادبارا مكديا كان ضلاله

فإن الإنسان إذا اكتفى من طعامه وشربه وسائر لذاته البدنية إذا عرض عليه الاستزادة منها كما يستزاد من الفضائل إلى ذلك وعافوه تبين له قبح صورة من يتعاطاها لاسميا مع الاستغناء عنها والاكتفاء منها بل يتجاوز ذلك إلى مقتوه ونهيه بل إلى تقويمه وتأديبه فينبغي الآن أن تقدم أمام ما نطلبه من سعادة النفس وفضائلها كلاما يسيل به فهم ما نريده فنقول

كل موجود من حيوان ونبات ومعاد وكذلك بسائطها أعنى النار والهواء والأرض والماء وكذلك الأجرام العلوية له قوى وملكات وأفعال بها يصير ذلك الموجود هو ما هو وبها يعجز عن كل مساواة وله أيضا قوى وملكات وأفعال بها يشارك ما سواه ولما كان الإنسان من بين الموجودات كلها هو

مستحقا ورشاده مستعبدا وكان هو الخامس الحالك الذي قال فيه على بن أبي طالب
رضي الله عنه اغد علما أو متعلما أو مستعبدا أو مجبولا لا تكن الخامس قتلك . وقدرناه
خالد الخداع عن عبد الرحمن بن أبي بكر عن النبي صلى الله عليه وسلم مسندا وليس لمن
هذه حاله في العذل نفع ولا في الإصلاح مطمع . وقد قيل ليزر جهر مالكم لا تعانون
الجهاال فقال إننا لا نكلف العجي أن يصروا ولا الصم أن يسمعوا وهذه الطائفة التي تنفر
من العلم هذا النفور وتعاذوا به هذا العناد ترى العقل بهذه المثابة وتنقر من العقلاء هذا
النفور وتعتقد أن العاقل محارف وأن الاحق محظوظ وناهيك بضلال من هذا اعتقاده
في العقل والعلم هل يكون خيرا أهلا أو لفضيلة موضعيا . وقد قال بعض البلغاء أخبث
الناس المساوي بين الخامس والمساوي وعلة هذا أنهم رعبا راءا قلا غير محظوظ وعالما
غير مرزوق فنظنوا أن العلم والعقل هما السبب في قلة حظهم ورزقهم وقد انصرف عيونهم
عن حرمان أكثر النوكي وادبار أكثر الجهاال لأن في العقلاء والعلماء قلة وعليهم من فضلهم
سمة ولذلك قيل العلماء غرباء لكثرة الجهاال فإذا ظهرت سمة فضلهم وصادف ذلك قلة
حظ بعضهم تنووا بالتميز واشتهروا بالتعيين فصاروا مقصودين بإشارة المتعنتين
ملجوظين بالبعاء الشامتين والجهاال والحق لما كثروا ولم يخصصوا انصرف عنهم
النفوس فلم يلحظ الحر ومنهم بطرف شامت ولا قصد المجدود منهم بإشارة غائب فلذلك
ظن الجهاال المرزوق أن الفقر والضيقة محتصان بالعلم والعقل دون الجهل والحق
ولو فتشت أحوال العلماء والعقلاء مع قلة حظهم لوجدت الاقبال في أكثرهم ولو اختبرت أمور
الجهاال والحق مع أكثرهم لوجدت الحرمان في أكثرهم وانما يصبر ذو الحال الواسعة منهم
ملجوظا مشتهرا لأن حظهم عجيب واقباله مستغرب كما أن حرمان العاقل العالم غريب
واقباله عجيب ولم تزل الناس على سالف الدهور من ذلك متعجبين وبمعشرين حتى قيل
ليزر جهر ما أعجب الأشياء فقال نصح الجهاال وكداء العاقل لكن الرزق بالخط والجد
لأب العلم والعقل حكمة منه تعالى يدل بها على قدرته وأجراه الأمور على مشيئته . وقد قالت
الحكمة لو جرت الاقسام على قدر القول لم تعش البهائم فنظمه أبو تمام فقال

ينال الفتي من عبسه وهو جاهل * ويكدي الفتي من دهره وهو عال
ولو كانت الارزاق تجري على الجي * هلكن اذن من جهلهم البهائم

وقال كعب بن زهير بن أبي سلمى

لو كنت أعجب من شيء لآعجبني * سعي الفتي وهو مخبوء له القدر

يسعى الفتي لأمور ليس يدركها * والنفوس واحدة والحلم منتشر

على أن العلم والعقل سعاد واقبال وأن قلة معهما المال وضائق معهما الحال والجهل
والحق حرمان وادبار وإن أكثر معهما المال واتسعت معهما الحال لأن السعادة ليست
بكثرة المال فكمن مكتر شي ومقل سعيد وكيف يكون الجهاال الغني سعيدا والجهل
بضعه أم كيف يكون العالم الفقير شقيا والعلم رفعة . وقد قيل في منثور الحكمكم من ذليل
أعزه علمه ومن عزيز أذل جهله . وقال عبد الله بن المعتز الجهاال كروضة على مزيلة .

الذي يلتمس له الخلق
المجود والأعمال المرضية
وجب أن لا تنظر في هذا
الوقت في قواء وملاكانه
وأفعاله التي بها شارك
سائر الموجودات إذ كان
ذلك من حق صناعه أخرى
وعلم آخر يسمى العلم
الطبيعي وأما أفعاله وقواء
وملاكانه التي يختص بها
من حيث هو إنسان وبها
تم أنسانيته وفضائله فهي
الأمور الإرادية التي بها
تتعلق قوة الفكر والتمييز
والنظر فيها يسمى الفلسفة
العلمية والأشياء الإرادية
التي تنسب إلى الإنسان
تنقسم إلى الخسرات
والشروط وذلك أن الغرض
المقصود من وجود الإنسان
إذا توجهوا واحدا منا إليه
حتى يحصل هو الذي يجب
أن يسمى به خيرا أو سعيدا
فأما من هاق عنها عوائق
أثر فيها الشر والشرقي فاذن

وقال بعض الحكماء كلما حسنت نعمة الجاهل ازداد قبحا . وقال بعض العلماء لينيه يابني
تعلموا العلم فان لم تتلوا به من الدنيا حظا فلا تَنِمْ الزمان لكم أحب الي من أن ينم
الزمان بكم . وقال بعض الادباء من لم يقبل العلم ما لا كسب به جمالا . وأنشد بعض أهل
الادب لابن طباطبا

حسود مريض القلب يخفي أنينه * ويخفي كتيب البال عندى خزينه
يلوم على أن رحى للعلم طابا * أجمع من عند الرواة فنونه
فأعرف أباكرا الكلام وعونه * وأحفظ مما أسستفيد عونه
ويزعم أن العلم لا يكسب الغنى * ويحسن بالجهل الذمى ظنونه
في الأثني دعنى أغالى بقيتي * فقيمة كل الناس ما يحسنونه

وأنا أستعبد بالله من خدع الجهل المذلة وبوادى الحق المضلة وأسأله السعادة بعقل رادع
يستقيم به من زل وعلم نافع يستهدى به من ضل . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال اذا استرذل الله عبد احظر عليه العلم فينقى لمن زهد في العلم أن يكون فيه راغبا
ولن يرغب فيه أن يكون له طالبا ولن طلبه أن يكون منه مستكثرا ولمن استكثر منه أن
يكون به عاملا ولا يطلب لتركه احتجا . وللاقتصير فيه عذرا . وقد قال الشاعر
فلا تعذرانى فى الاساءة أنه * شرار الرجال من ينسى * فيعذر
ولا يسوف نفسه بالمواعيد الكاذبة ويمنيها بانقطاع الاشغال المتصلة فان لكل وقت شغلا
ولكل زمان عذرا . وقال الشاعر

روح ونفقدو لم حاجتنا * وحاجتنا من عاش لا تنتفى

توف مع المرء حاجاته * وتبقى له حاجة ما بقى

ويقصد طلب العلم وثقا بتسير الله قاصدا وجه الله تعالى بنية خالصة وعزيمة صادقة .
فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من تعلم علم الغير الله وأراد به غير الله فليتبوأ
مقدمه من النار . وروى أبوهريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال تعلموا
العلم قبل أن يرفع ورفع مذهب أهلها فان أحدكم لا يدري متى يحتاج اليه أو متى يحتاج الي
ما عنده وليحذر أن يطلبه لمرء أو رياء فان الممارى به مهيوم لا يتفقد والمرأى به محذور
لا يرتفع . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تعلموا العلم لتماروا به السفهاء ولا
تعلموا العلم لتجادلوا به العلماء فمن فعل ذلك منكم فانا نرثموه وليس الممارى به هو المناظر
فيه طالبا للصواب منه ولكنه القاصد لدفع ما ردد عليه من فاسد أو صريح وفيهم جاءت السنة
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يجادل الأمانيق أو مرتاب وقال الاوزاعي اذا
أراد الله بيقوم شرا أعطاهم الجدل ومنعهم العمل . وأنشد الراشدى لمصعب بن عبد الله

أجادل كل معترض ظنين * وأجعل دينه غرضا لديني
وأترك ما علمت لراى غبرى * وليس الراى كالعلم اليقين
وما أنا والخصومة سوى لبس * يصرف في الشمال وفي اليمين
فأما ما علمت فقد كفاني * وأما ما جهلت فخبسوني

الخبرات هي الامور التي
تحصل للانسان بارادته
وسعيه في الامور التي
لها أوجد الانسان ومن
أجلها خلق والشروع
هي الامور التي تعوقه عن
ذهاب الخبرات بارادته وسعيه
أو كسبه وانصرافه
والخبرات قد قسمها الأولون
الى أقسام كثيرة . وذلك ان
منها ما هي شريفة ومنها
ما هي عذرة ومنها ما هي
بالقوة كذلك ونعتي
بالقوة التيقن والاستعداد
ونحن نعددها فيما بعد ان
شاء الله تعالى وقد قدمنا
القول ان كل واحد من
الموجودات له كمال خاص
وفضل لا يشاركه فيه غيره
من حيث هو ذلك الشيء
أعني انه لا يجوز ان يكون
موجود آخر سواء يصلح
لذلك الفعل منه وهذا حكم
مستمر في الامور العلوية
والسفلية كالشمس وسائر
الكواكب وكافواغ
الحيوان كلها كالفرس

وقديين ذلك بعض العلماء فقال لصاحبه لا تمنعك حذر المرء من حسن المناظرة فان الممارى هو الذى لا يريد أن يتعلم منه أحد ولا يرجو أن يتعلم من أحد واعلم أن لكل مطلوب باعثا والباعث على المطلوب شيان رغبة أو رهبة فليكن طالب العلم راغبا راھيا أما الرغبة ففي ثواب الله تعالى لطالبى مرضاته وحافظى مقرضاته وأما الرهبة فمن عقاب الله تعالى لتسركى أو امره ومهملى زواجه فإذا اجتمعت الرغبة والرهبة أذنا إلى كنه العلم وحقيقة الزهد لان الرغبة أقوى الباعثين على العلم والرهبة أقوى السببين في الزهد . وقد قالت الحكماء أصل العلم الرغبة وثمرته السعادة وأصل الزهد الالهية وثمرته العبادة فإذا اقترن الزهد والعلم فقد تمت السعادة وعت الفضيلة وإن افرقا فياويح مفترقين ما أضرا فترقا هما وأفحج انفرا دهما . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من ازداد في العلم رشدا قلزم زد في الدنيا وهذا لم يزد من الله إلا بعدا . وقال مالك بن دينار من لم يؤت من العلم ما يقيم به فأتى منه لا يشفعه . وقال بعض الحكماء الفقيه بغير روع كالسراج يضيء البيت ويحرق نفسه

فصل واعلم أن العلوم أوائل تؤدى إلى وآخرها ومداخل تنضى إلى حقائقها فليست يد طالب العلم بأوائلها لينتهي إلى آخرها وبمداخلها لتفتنى إلى حقائقها ولا يطلب الآخر قبل الأول ولا الحقيقة قبل المدخل فلا يدرك الآخر ولا يعرف الحقيقة لان البناء على غير أس لا يبنى والثرمن غير غرس لا ينجى ولذلك أسباب فاسدة ودواع واهية فنهأ أن يكون في النفس أغراض تختص بنوع من العلم فيصدعوه الغرض إلى قصد ذلك النوع ويعدل عن مقدماته كرجل يؤثر القضاء ويتصدى للحكم فيقصده من علم الفقه أدب القاضي وما يتعلق به من الدعوى والبيانات أو يحب الاتسام بالشهادة فيتعلم كتاب الشهادات ثلاثا يصير موسوماً بمجهل ما يعانى فإذا أدرك ذلك ظن أنه قد حاز من العلم جمهوره وأدرك منه مشهوره ولم يرم بقى منه إلا غامضا طامعا عتاء وعويضا استخراج فناء لقصوره متهمة على ما أدرك وانصرفا عما ترك ولونصح نفسه لعلم أن ما ترك أهم مما أدرك لان بعض العلم مرتبط ببعض ولكل باب منه تعلق بما قبله فلا تقوم الاواخر الا باوائها وقدي يصح قيام الاوائل بأنفسها فيصير طلب الاواخر ترك الاوائل تركا لا وائلا والاواخر فاذا ليس يعزى من لوم وان كان تارك الكل لوم ومنها أن يجب الاشتهار بالعلم ما لكسب أو لتجمل فيقصد من العلم ما شتهر من مسائل الجسد وطريق النظر ويتعاطى علم ما اختلف فيه دون ما اتفق عليه لينظر على الخلاف وهو لا يعرف الوفاق ويحاذل الخصوم وهو لا يعرف مذهبا مخصوصا ولقد رأيت من هذه الطبقة عددا قد تحقوا بالعلم بتحقيق المتكلمين واشتهروا به اشتها المتجربين اذا أخذوا في مناظرة الخصوم ظهر كلامهم واذا سئلوا عن واضح مذهبهم ضلت أعناقهم حتى أنهم ليخطون في الجواب بخط عشواء فلا يظهرون لهم صواب ولا يتقرر لهم جواب ثم لا يرون ذلك نقصا اذا غفوا في الجالس كلاما رصوفا وللقواعلى الخلف حجبا ما لوفا وقد جهلوا من المذاهب ما يعلم المبتدى ويتداوله الناشئ فهم دائماً في لطم مضل أو غلط منزل

والنازي وكأنواع النبات والمعادن وكالعناصر السائط التي متى تصفحت أحوالها تبين لك من جميعها نعمة ما قلناه وحكمته فاذن الإنسان من بين سائر الموجودات له فضل خاص به لا يشاركه فيه غيره وهو ما صدر عن قوته المميزة للمروية فكل من كان شبيهه أصغر وروية أصدق واختياره أفضل كان أفضل في انسانيته وكان السيف والمنشار وأن صدر عن كل واحد منهما فاعله الخاص بصورته الذى من أجله عمل فافضل السيف ما كان أمضى وأنضر وما كفاء بسير من الأعماء في بلوغ كماله الذى أعدله وكذلك الحال في الفرس والنازي وسائر الحيوانات فان أفضل الأفراس ما كان أسرع حركة وأشد تقظا لما يريد

حسب ما يقومون به من الاستغفال بال مذاهب تكلفا والاستكثار منه تخلفا وحاجتي بعضهم عليه فقال لان علم حافظ المذاهب مستور والعلم المناظر عليه مشهور فقلت فكيف يكون علم حافظ المذاهب مستورا وهو سريع الجواب كثير الصواب فقال لانه ان لم يسئل سكت فلم يعرف والمناظر ان لم يسئل سأل فعرف فقلت اليس اذا سئل الحافظ فاصاب بان فضله قال نعم قلت أفليس اذا سئل المناظر فأخطأ بان نقصه وقد قيل عند الامتحان بكرم المرأة أو يهان فامسك عن جوابي لانه ان أنكر كبار المعقول ولو اعترف لزمته الخجة والامسك اذعان والسكوت رضى وأن يتقاد الى الحق أولى من أن يستغفره الباطل وهذه طريقة من يقول اعرفوني وهو غير عروف ولا معروف ويعسد من لا يعرف العلم أن يعرفه • وقد قال زهير

ومهما تكن عند امرئ من خلقه * وان خالها تخفى على الناس تعلم
ومن أسباب التقصير أيضا أن يغفل عن التعلم في الصغير ثم يشتغل به في الكبير فيسقط أن يتدبّر بما يتدبّر الصغير ويستكشف أن يساويه بالحدث الغرير فيبدأ بأواخر العلوم وأطرافها وهم بجواشها أو كفافها ليتقدم على الصغير المتدبّر وسأوى الكبير المنتهى وذلما من رضى بخداع نفسه وقنع بدهائه تحسه لان مقوله ان أحسن ومعقول كل ذي حس يشهد بفساد هذا التصوّر وينطق باختلال هذا الفحل لانه شئ لا يقوم في وهم ولجهل ما يتدبّر به المتعلم أقبح من جهل ما ينتهى اليه العالم • وقد قال الشاعر

ترقى الى صغير الامر حتى * برقى الى الصغير الى الكبير

فتعرف بالتفكير في صغير * تكبير بعد معرفة الصغير

ولهذا المعنى وأشباهه كان المتعلم في الصغير أحمد • روى مروان بن سالم عن اسمعيل بن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الذي يتعلم في صغره كالنقش على العنبر والذي يتعلم في كبره كالذي يكتب على الماء • وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قلب الحدث كالاراضي الحالية ما ألقي فيها من شئ قبلته وانما كان كذلك لان الصغير أفرغ قلبا وأقل شغلا وأيسر تبذلا وأكثر تواضعا • وقد قيل في منشور الحكم المتواضع من طلاب العلم أكثرهم علما كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماء فأما أن يكون الصغير أضبط من الكبير اذا عرى من هذا الموانع وأوعى منه اذا خلا من هذه القواطع فلا • حكى أن الاحنف بن قيس سمع رجلا يقول التعليم في الصغير كالنقش على الحجر فقال الاحنف الكبير أكثر عطلا ولكنه أشغل قلبا وأعمري لقد خض الاحنف عن المعنى ونه على السهل لان قواطع التفكير كثيرة فمنها ما ذكرنا من الاستغناء • وقد قيل في منشور الحكم من رقى وجهه رقى علمه • وقال الخليل بن أحمد يرتع الجهل بين الحياة والكبر في العلم ومنها وفور شهواته وتقسيم أفكاره • وقال الشاعر

صرف الهوى عن ذي الهوى عزيز * ان الهوى ليس له تمييز

وقال بعض البلغاء ان القلب اذا غلق كالرهن اذا غلق ومنها الطوارق المزعجة والمهموم

الفارس منه في طاعة
الليام وحسن القبول في
الحركات وخفة العدو
والنشاط فكذلك الناس
أفضلهم من كان أقدر على
أفعاله الخاصة به وأشد
تمسكا بشرائط جواهره
الذي تميز به عن
الموجودات

والحرص على الخبرات
فان الواجب الذي لا رية
فيه أن نحرص على
الخبرات التي هي كالنا
والتي من أجلها خلقنا
ونحن في الوصول الى
الانتهاء اليها ونعجب
الشرو التي تعوقنا عنها
ونتنقص حفظنا منها فان
الفارس اذا قصر عن كماله
ولم يظهر أفعاله الخاصة به
على أفضل أحوالها حط
عن مرتبة الفرس واستعمل
بالاكاف كما تستعمل الجير
وكذلك الحال السيف وسائر
الآلات متى قصرت

المذهلة . وقد قيل في منشور الحكم المقيم الحواس . وقال بعض البلغاء من بلغ أشده
لاقي من العيش أشده ومنها كثرة اشتغاله وترادف حالاته حتى انتهت استوعب زمانه
وتستفيد أيامه فإذا كان ذارثا سعة أخته وإن كان ذامعا مشقة قطعه ولذلك قيل تنفقوا
قبل أن تسودوا . وقال بزرجمهر الشغل مجهد والفراغ مفسد فبينما لطالب العلم أن
لا يني في طلبه وينتزع الفرص به فربما شغل الزمان بما سمع ورضى بما مضى ويتبدى من
العلم بأوله ويأتيه من مدخله ولا يتشاغل بطلب ما لا يضر جهله فيمنعه ذلك من إدراك
ما لا يسهه جهله فان لكل علم فصلا مذهب له وشذورا مشغله ان صرف اليه نفسه قطعه
عما هو أهم منها . وقال ابن عباس رضي الله عنهما العلم أكثر من أن يحصى فغذوا
من كل شيء أحسنه . وقال المأمون ما لم يكن العلم بارعا فيطون الصحف أولى به من قلوب
الرجال . وقال بعض الحكماء بترك ما لا يفيئك تدرك ما يفيئك ولا يفيئك أن يدعوه
ذلك إلى ترك ما استصعب عليه أشعارا لنفسه أن ذلك من فضول علمه واعذارا لما في ترك
الاشتغال به فان ذلك مطية النوكى وعذر المقتصرين ومن أخذ من العلم ما تسهل وترك
منه ما تعذر كان كالتقصير اذا امتنع عليه الصيد تركه فلا يرجع الا خائبا اذ ليس يرى
الصيد الامتعة كذلك العلم كله صعب على من جهله سهل على من علمه لان معانيه التي
يتوصل اليها مستودعة في كلام مترجم عنها وكل كلام مستعمل فهو يجمع لفظا مسموعا
ومعنى مفهومهما فاللفظ كلام يعقل بالسمع والمعنى تحت اللفظ يفهم بالقلب . وقد قال
بعض الحكماء العلوم مطالعها من ثلاثة أوجه قلب مفكر ولسان معبر وبيان مصور
فاذا عقل الكلام بسمعه فهم معانيه بقلبه واذا فهم المعاني سقط عنه كلفة استقراءها
وبقي عليه معانها وحفظها واستقرارها لان المعاني شوارد تنسل بالاغفال والعلوم وحشية
تنفر بالارسال فاذا حفظها بعد الفهم أنست واذا ذكرها بعد الانس رست وقال بعض
العلماء من أكثر المذاكر قبل العلم لم ينس ما علم واستفاد ما لم تعلم . وقال الشاعر
اذ لم يذاكر ذوالعلوم بعلمه * ولم يستفد علم انسى ما تعلم

فكم جامع للكتب في كل مذهب * يزيد مع الأيام في جمعه عي

وان لم يفهم معاني ما سمع كشف عن السبب المانع منها ليعلم العلة في تعذر فهمها فان معرفة
أسباب الأشياء وعلاها يصل الى تلافى ما شذ وصلاح ما فسد وليس يخلو السبب المانع
من ذلك من ثلاثة اقسام إما ان يكون لعلته في الكلام المترجم عنها وإما أن يكون لعلته في
المعنى المستودع فيها وإما أن يكون لعلته في السامع المستخرج فان كان السبب المانع من
فهمها لعلته في الكلام المترجم عنها لم يخل ذلك من ثلاثة أحوال أحدها أن تكون نقص
اللفظ عن المعنى فيصير تقصير اللفظ عن ذلك المعنى سيما ما نعان فهم ذلك المعنى وهذا
يكون من أحد وجهين إما من حصر المتكلم وعيه وإما من بلائته وفلة فهمه الحال
الثاني أن يكون له زيادة اللفظ على المعنى فتصير الزيادة لعلته ما تعمن فهم المقصود منه وهذا
قد يكون من أحد وجهين إما من هذا المتكلم واكثره وإما لسوء ظنه بفهم سامعه والحال
الثالث أن يكون لمواضعه يقصدها المتكلم بكلامه فاذا لم يعرفها السامع لم يفهم معانيها

ونقصت أفعالها الخاصة
بها حطت عن مراتبها
واستعملت استعمال مادونها
والإنسان اذا نقصت
أفعاله وقصرت عما خلق له
أعنى أن تكون أفعاله
التي تصدر عنه وعن رويته
غير كاملة أخرى بان يحط
عن مرتبة الانسانية الى
مرتبة البهيمية هذا ان
صدرت أفعاله الانسانية عنه
ناقصة غير تامة فاذا صدرت
عنه الأفعال بضد ما أعد
له أعنى الشر والى تكون
بالزينة الناقصة والعدول
بها عن جهتها لاجل الشهوة
التي يشارك فيها البهيمية
أولا أو الاغترار بالأمور
الحسية التي تشغلها عما
عرض له من تركية نفسه
التي ينتهي بها الى الملك
الرقيع والسرور الحقيقي
وتوصله الى قرة العين التي
قال الله تعالى فلا تعلم نفس
ما أخفى لهم من قرة أعين

وأما تصير اللفظ وزيادته في الاسباب المتاصدة دون العامة لأنك لست تجد ذلك عاما في كل الكلام وإنما تجده في بعضه فان عدلت عن الكلام المقتصر الى الكلام المستوفى وعن الزائد الى الكافي أرحت نفسك من تكلف ما يكدر خاطرك وإن أقت على استخراج ما لا ضرورة دعته اليه عند اعواز غيره أو لجملة داخلتك عند تعذر فهمه فانظر في سبب الزيادة والتقصير فان كان التقصير لحصر الزيادة فلهذا سهل عليك استخراج المعنى منه لان ما له من الكلام محصول لا يجوز أن يكون المختل منه أكثر من الصحيح وفي الاكثر على الأقل دليل وان كانت زيادة اللفظ على المعنى دليلا لسوء ظن المتكلم بفهم السامع كان استخراجا أسهل وان كان تقصير اللفظ عن المعنى دليلا لسوء ظن المتكلم بفهم السامع الامور حالا وأبعدا استخراجا لان ما لم يفهمه مكلما فأت من فهمه أبعد الآن يكون بفرط ذلك وجود خاطرك تنبيهه بأشارته على استنباط ما يحجز عنه واستخراج ما قصر فيه فتكون فضيلة الاستفاء لك وحق التقديم له وأما المواضعة فضرر بان عامة وخاصة أما العامة فهي مواضعة العلماء فيما جعلوه ألفا بالمان لا يستغنى المتعلم عنها ولا يقف على معنى كلامهم الابها كما جعل المتكلمون الجواهر والاعراض والاجسام القابا نواضعها للمعان اتفقوا عليها ولست تجد من العلوم علما يخولون هذا وهذه المواضعة العامة تسمى عرفا وأما الخاصة فواضعة الواحد بقصد بياطن كلامه غير ظاهره فاذا كانت في الكلام كانت رمزا وان كانت في الشعر كانت لغزا فاما الرمز فلست تجد في علم معنوي ولا كلام لغوي وإنما يختص غالبا بأحد شيئين اما بذهب شيع بشفه معتقده ويجعل الرمز سببا لتطلع النفوس اليه واحتمال التأويل فيه سببا لدفع التهمة عنه واما لما يدعي اربابه انه علم معوز وان إدراكه بديع مجهز كالصنعة التي وضعها اربابها اسما لعلم الكيمياء فرمز وابواصافه وأخفوا معانيه ليوهموا الشعبه والاسف عليه خديعة للقول الواهية والآراء الفاسدة . وقد قال الشاعر

منعت شيئا كثيرا لولوع به * أحب شيئا الى الانسان ما منعنا

ثم ليكون ابرأ من عهد ما قالوا اذا جرب ولو كان ما تضمنه من النوعين وأشباهاهما من الرموز معنى صحيحا وعلم استفاد الخرج من الرمز الخفي الى العلم الجلي فان أغراض الناس مع اختلاف أهوائهم لا تتفق على تسليم واخفاء مفيد . وتذال زهير

الستر دون الفاحشات ولا * تلقاك دون الخير من ستر

وربما استعمل الرمز من الكلام فيما يراد تخفيته من المعاني وتعظيم من الالفاظ ليكون أحلى في القلوب موقعا وأجل في النفوس موضعا فيصير بالرمز سائرا وفي الصحف مخلدا كالذي حكى عن فيثاغورس في وصاياه المومزة أنه قال احفظ ميزانك من البسدى وأوزانك من الصدى يريد بحفظ الميزان من البسدى حفظ اللسان من الخساحفظ الازان من الصدى حفظ العقل من الهوى قصار بهذا الرمز مستحسنا ومدونا ولوقاله باللفظ الصريح والمعنى الصحيح لما سار عنه ولا استحس منه وعلة ذلك ان المحجوب عن الافهام كالمحجوب عن الابصار فيما يحصل له في النفوس من التعظيم وفي القلوب

وتبلغه الرب العالمين في النعم المقيم والذات التي لم تراها عين ولا سمعتهاذن ولا خطر على قلب بشر واتخذ عن هذه الموهبة السرمدية الشريفة تلك الحساسات التي لا نبات لها فهو حقيق بالحق من خالقه عز وجل خليق بتجمل العقوبة له وراحة العباد والبلاد منه واذ نبين ان سعادة كل موجود انما هي صدور أفعاله التي تخص صورته عنه تامة كاملة وان سعادة الانسان تكون في صدور أفعاله الانسانية عنه بحسب تمييزه ورويته وان هذه السعادة مراتب كثيرة بحسب الروية والروى فيه ولذلك قيل أفضل الروية ما كان في أفضل مروي ثم ينزل رتبة قربة الى أن ينتهي الى انظر في الامور الممكنة من العالم الحسي فيكون الناظر في

من التفتيم وما ظهر منها ولم يحجبها وان واسترذل وهذا الغيا يصح استخلاؤه فيما قل
وهو باللفظ الصريح مستقل فأما العلوم المنتشرة التي تتطلع النفوس اليها فقد استغنت
بقوة الباعث عليها وشدة الداعي اليها عن الاستدعاء اليها برمز مستعجل ولفظ مستغرب بل
ذلك منفر عنها لما في التشاغل باستقراج رموزها من الابطاء عن دركها فهذا حال الرمز
وأما الغرض فهو تحري أهل الفراغ وشغل ذوى البطالة ليتنا فسوا في تبيان قرائنهم
ونبغوا في سرعة خواطيرهم فيستكثروا خواطر قد مضوا يحسبها فيما لا يجدي نفعاً
ولا يفيد علماً كأهل الصراع الذين قد صر قوا مضوهم من جهة أجسامهم الى صراع كدود
يصرع عقولهم ويهدأ جسامهم ولا يكسبهم حياء ولا يجدي عليهم نفعاً انظر الى قول الشاعر
رجل مات وخلف رجلاً * ابن أم ابن أبي أخت أبيه
معه أم بنى أولاده * وأبا أخت بنى عم أخيه

أخبرني عن هذين البيتين وقدر وعلم صعوبة ما تضمنهما من السؤال اذا استكدت الفكر
في استخراجها فقلت أنه أراهم تخلق بأبوزوجة وعما ما الذي أفادك من العلم ونفي عنك
من الجهل ألست بعد علمه تجهل ما كنت جاهلاً من قبله ولأن السائل قلب لك السؤال
فأخر ما قدم وقدم ما أخر لكت في الجهل به قبل استخراجها كما كنت في الجهل الاول وقد
كدت نفسك وأتعب خاطر ك ثم لا تعدم أن ترد عليك مثل هذا مما تجهله فتكون
فيه كما كنت قبله فاصرف نفسك تولى الله رشكك عن علوم النوكى وتكلف البطالين .
فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه . ثم
اجعل ما من الله به عليك من جهة القريحة وسرعة الخاطر مصر ووالى علم ما يكون اتفاق
خاطرك فيه مذخوراً وكذكرك فيه مشكوراً . وقد روى سعيد بن أبي هند عن ابن
عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعمتان مغبون فيهما كثير من
الناس الصحة والفراغ ونحن نستعيد بالله أن نغتن بفضل نعمته علينا ونجهد نفع احسانه
الينا . وقد قيل في منشور الحكم من الفراغ تكون الصبوة . وقال بعض البلغاء من أمضى
يومه في غير حق قضاه أو فرض آذاه أو مجدأ ناله أو جد حصله أو خيرا أسسه أو علم اقتبسه
فقد حق يومه ولم ينفعه . وقال بعض الشعراء

لقد هاج الفراغ عليك شغلاً * وأسباب البلاء من الفراغ

فهذا تعليل ما في الكلام من الأسباب المانعة من فهم معانيه حتى خرج بنا الاستيفاء
والكشف الى الغماض . وأما القسم الثاني وهو أن يكون السبب المانع من فهم
السامع لعل في المعنى المستودع فلا يخلو حال المعنى من ثلاثة أقسام ما أن يكون مستقلاً
بنفسه . أو يكون مقدمة لغيره أو يكون نتيجة من غيره . فأما المستقل بنفسه فضر بان جلى
ونفى فأما الجلى فهو يسبق الى فهم متصوره من أول وهلة وليس هو من أقسام ما يشكل
على من تصوره . وأما الخفى فيحتاج الى ادراكه الى زيادة تأمل ونضل معاناة لينجلي عما أخفى
ويكشف عما أغض واستعماله الفكر فيه يكون الارتياض به وبالارتياض به يسهل منه
ما استصعب ويقرّب منه ما بعد فان للرياضة جراءة وللدراية تأثيراً وأما ما كان مقدمة

هذه الاشياء قد استعمل
رويته والصورة الخاصة
به التي صار من أجلها سعيداً
معرضاً للآلئ الأبدى والنعيم
المرمى في أشياء دنئة
لا وجود لها بالحقيقة فقد
تبين أيضاً أن جناس من
السعادات بالجملة
واضدادها من الشقاوات
وأحسانها وإن الخيرات
والشور في الافعال
الارادية هي اما باختيار
الافضل والعمل به واما
باختيار الادون والميل اليه
ولما كانت هذه الخيرات
الانسانية وملكانها التي
في النفس كثيرة ولم يكن
في طاقة الانسان الواحد
القيام بجميعها وجب أن
يقوم بجميعها جماعة كثيرة
منهم وإن لا وجب أن تكون
أشخاص كثيرة وإن
يجتمعوا في زمان واحد
على تحصيل هذه السعادات
المشتركة لتكميل كل

غيره فضر بان أحدهما أن تقوم المقدمة بنفسها وان تعدت الى غيرها فتكون كالمستقل
بنفسه في تصوره وفهمه مستعدا للنتيجة والثاني أن يكون مفتقرا الى نتيجته فيتعذر فهم
المقدمة الا بما يتبعها من النتيجة لانها تكون بعضا وتبعض المعنى أشكل له وبعضه لا ينفي
عن كاه وأما ما كان نتيجة غيره فهو لا يدرك الا بأوله ولا يتصور على حقيقته الا بعد فهمه
والاشتغال به قبل المقدمة عتاء وانعاب الفكر في استنباطه قبل قاعدته أدى فهذا يوضح
تعليل ما في المعاني من الأسباب المانعة من فهمها وأما القسم الثالث وهو أن يكون السبب
المانع لعلة في المستمع فذلك ضر بان أحدهما من ذاته والثاني من طارئ عليه فأما ما كان
من ذاته فيتنوع نوعين أحدهما ما كان مانعا من تصور المعنى والثاني ما كان مانعا من
حفظه بعد تصوره وفهمه فأما ما كان مانعا من تصور المعنى وفهمه فهو البلاوة وقلة الفطنة
وهو الداء العياء . وقد قال بعض الحكماء اذا فقد العالم الذهن قل على الأضداد احتياجه
وكثر الى الكتب احتياجه وليس لمن يلى به الا الصبر والاقبال لانه على القليل أقدر وبالصبر
أحرى أن ينال ويظفر . وقد قال بعض الحكماء قد ملحاح جئتكم بعض الجاحل وليس
يقدر على الصبر من هذا حاله الآن يكون غالب الشهوة بعيد الهمة فيشعر قلبه الصبر بقوة
شهوته وحسده احتمال التعب لعمدة فاذ تلوح له المعنى بمساعدة الشهوة أعقبه ذلك
إلحاح الآمن ونشاط المدرسين فقل عنده كل كثير وسهل عليه كل عسير . وقد روى عن
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تناولن ما تحبون الا بالصبر على ما تكرهون ولا تبلغون
ما تبهون الا بترك ما تشتهون . وقيل في منشور الحكماء تعب قدمك فان تعب قدمك .
وقال بعض البلغاء اذا اشتد الكلف هانت الكفاف . وأنشد بعض أهل الادب لعلي بن أبي
طالب كرم الله وجهه

لا تجزئ ولا تدخلك مغيرة * فالضح هلك بين العجز والنحر

وأما المانع من حفظه بعد تصوره وفهمه فهو النسيان الحادث عن غفلة التقصير وإهمال
التواقي فينبغي لمن يلى به أن يستدرك تقصيره بكثرة الدرس ويوقف غفلته بادامة النظر فقد
قل لا يدرك العلم من لا يطيل درسه ويكد نفسه وكثرة الدرس كدود لا يصبر عليه الآمن
يرى العلم مغنا والجهالة مغرما فيحمل تعب الدرس ليدرك راحة العلم وينفي عنه معرفة
الجهل فان نيل العظم بامر عظيم وعلى قدر الرغبة تكون المطالب وبحسب الراحة يكون
التعب وقد قيل طلب الراحة قلة الاستراحة . وقال بعض الحكماء أكل الراحة ما كانت
عن كد التعب وأعر العلم ما كان عن ذل الطلب وربما استعمل المتعلم الدرس والحفظ
واتكل بعد فهم المعاني على الرجوع الى الكتب والمطالعة فيها عند الحاجة فلا يكون
الا كمن أطلق ما صاد به بالقدرة عليه بعد الامتناع منه فلا تعقبه الثقة الا بخلا والتفريط
الانما وهذه حال قديدعو اليها أحد ثلاثة أشياء اما النحر من معانها فالحفظ ومراماته
وطول الأمل في التوفر عليه عند نشاطه وفساد الرأى في عزيمته وليس يعلم أن النحر
جانب وأن الطويل الأمل مغرور وأن الفاسد الرأى مصاب والعرب يقول في أمثاله
حرف في قلبك خير من ألف في كتبك وقالوا الاخير في علم لا يعبر معك الزاد ولا يعبر بك

واحد منهم بمعاونة الباقي
له فتكون الخبرات مشتركة
والسعادة مفروضة بينهم
فيتوزعونها حتى يقوم كل
واحد منهم بحزمها ويتم
لجميع بمعاونة الجميع
الكمال الانسي وتحصل
لهم السعادات الثلاث
التي شرحتها في كتاب
الترتيب ولاجل ذلك وجب
على الناس أن يحجب
بعضهم بعضا لان كل واحد
يرى كماله عند الآخر ولولا
ذلك لما تمت للفر سعادته
فيكون اذن كل واحد
بمزالة عضو من أعضائه
السعدن وقوام الانسان
بتمام أعضائه مدته

وقد تبين لنا طرفي أمر هذه
النفس وقواها انها تنقسم
الى ثلاثة أعنى القوة التي
بها يكون الفكر والتمييز
والنظر في حقائق الأمور
والقوة التي بها يكون
الغضب والهجدة والاقدام

النأدى وأنشدت عن الربيع الشافعي رضي الله عنه

علي مبي حيثما عمت شفتي * قلبي وعاء له لا يطن صندوق
ان كنت في البيت كان العلم قهبي * أو كنت في السوق كان العلم في السوق

وربما اعتنى المتعلم بالحفظ من غير تصور ولا فهم حتى يصير حافظا لا ينافي المأني قويا
بسلواتها وهو لا يتصورها ولا يفهم ما تضمنها ويرى بغير روية ويخبر عن غير خبرة فهو
كالكتاب الذي لا يدفع شبهة ولا يؤيد حجة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال
همة السقهاء ال رواية وهمة العلماء الرعاية . وقال ابن مسعود رضي الله عنه كونوا للعلم
رعاة ولا تكونوا له رعاة فقد روى من لا يروى ويروي من لا يروى . وحدث الحسن
البصري بحديث فقال له رجل يا أبا سعيد عن قال ما تصنع بمن أما أنت فقد نالتك عظمته
وقامت عليك محنته ورعيا اعتمد على حفظه وتصوره وأغفل تقييدا للعلم في كتبه ثقة بما
استقر في ذهنه وهذا خطأ منه لان الشئ معرض والنسيان طارئ . وقد روى أنس بن
مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال قيدا للعلم بالكتاب . وروى أن رجلا شكى الى
النبي صلى الله عليه وسلم النسيان فقال له استعمل ذلك أي اكتب حتى ترجع اذا نسيت الى
ما كتبت . وقال الخليل بن أحمد جعل مافي الكتب رأس المال ومافي القلب النفقة . وقال
مهمود لولا ما عقده الكتب من تجارب الاولين لأفحل مع النسيان عقودا الآخرين . وقال
بعض البلغاء ان هذه الآداب نوافر تندع عقل الانهال فاجعلوا الكتب عنها حامية
والاقلام لها رعاة وأما الطوائف فنوعان أحدهما شبه تعرض المعنى فتعجز عن نفس
تصوره وتدفع عن ادراك حقيقته فينبغي أن يزيل تلك المشبهة عن نفسه بالسؤال والنظر
ليصل الى تصور المعنى وادراك حقيقته . ولذلك قال بعض العلماء لا تفحل قلبك من المذاكرة
فتعجز عقيما ولا تغف طبعك من المناظرة فتعجز سقيما . وقال بشار بن برد

شفاء المعنى طول السؤال وانما * دوام المعنى طول السكوت على الجهل
فكن سائلا عن عنائك فانما * دعيت أبا عقل لتبحث بالعقل

والثاني أفكار تعارض المخاطر فيذهل عن تصور المعنى وهذا سبب قتل ما يعبرى منه أحد
لا سيما فيمن انبسط آماله واتسعت أمانيه . وقد بقل فيمن لم يكن له في غير العلم أرب ولا فيما
سواه همة فان طرأت على الانسان لم يقدر على مكابرة نفسه على الفهم وقلبه قلبه على
التصور لان القلب مع الاكراه أشد تنفورا وأبعد قبولاً وقد جاء الاثر بان القلب اذا أكره
عنى ولكن يعمل في دفع ما طرأ عليه من هم مذهل أو فكري قاطع ليسحب به القلب مطيعا
وقد قال الشاعر

وليس يغنى في المودة شافع . اذا لم يكن بين الصلوع شفيح

وقال بعض الحكماء ان لهذه القلوب تنافرا كتنافر الوحش فتألفوها بالاعتقاد في التعليم
والتوسط في التقديم لتحسن طاعتها ويدوم نشاطها فهنا تعليل مافي المستعج من الاسباب
الناعة من فهم المأني . وههنا قسم رابع يمنع من معرفة الكلام وفهم معانيه ولكنه قد
يعبرى من بعض الكلام فلذلك لم يدخل في جملة أقسامه . ولم يستعجز الاخلال بذلك لانه من

على الاحوال والشوق
الى التسليط والترفع
وضروب الكرامات والقوة
التي بها تكون الشهوة
وطلب الفناء والشوق
الى الملاذ التي في المأكول
والشارب والمناكح
وضروب اللذات الحسية
وهذه الثلاث متباينة وتعلم
من ذلك ان بعضها اذا قوى
أضر بالآخر وربما بطل
أحدهما فعل الآخر وربما
جعلت نفوسا وربما
جعلت قوى لنفس واحدة
والنظر في ذلك ليس يليق
بهذا الموضع وأنت تكتفي
في تعلم الاخلاق بانها قوى
ثلاث متباينة تقوى
أحداها وتضعف بحسب
المنزاج والعادة والتأديب
فالقوة الناطقة هي التي
تسمى الملكية وآلتها التي
تستعملها من البدن الدماغ
والقوة الشهوية هي التي
تسمى بالهيمية وآلتها التي

الكلام كما كان مسموعا لاحتياج في فهمه الى تأمل الخط به والمانع من فهمه هو على ما ذكرنا من أقسامه ومنه ما كان مستوعبا بالخط محفوظا بالكتابة ما خوذ بالاسعراج فكان الخط حافظا له ومعبر عنه . وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى أو أنارة من علم قال يعني الخط . وروى عن مجاهد في قوله تعالى يؤتي الحكمة من يشاء يعني الخط ومن يؤتي الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا يعني الخط والعرب تقول الخط أحد اللسانين وحسنه أحد الفصاحتين . وقال جعفر بن يحيى الخط سمط الحكمة به يفصل شذورها وينظم منثورها . وقال ابن المقفع اللسان مقصور على القريب الحاضر والقلم على الشاهد والناس هو والغابر الكائن مثله للقائم الدائم . وقال حكيم الروم الخط هندسة روحانية وإن ظهرت بألة جسمانية . وقال حكيم العرب الخط أصل في الروح وإن ظهر بحواس الجسد واختلف في أول من كتب الخط فذكر كعب الاحبار أن أول من كتب آدم عليه السلام كتب سائر الكتب قبل موته بثلاثمائة سنة في طين ثم طبعه فلما غرقت الأرض في أيام نوح على نينوى وعليه السلام بقيت الكتابة باصا ب كل قوم كتبهم وبقي الكتاب العربي الى أن خص الله تعالى به اسماعيل فاصابه وتعلمها . وحكى ابن قتيبة أن أول من كتب ادريس على نينوا وعليه السلام وكانت العرب تعظم قدر الخط وتقدمه من أجل نافع حتى قال عكرمة بنافع فداء أهل بدر أربع آلاف حتى إن الرجل ليفادي على أنه يعلم الخط لما هو مستقر في نفوسهم من عظم خطره وجلالة قدره وظهور رفعة وآثره . وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم اقرأ أو ربك الأكرم الذي علم بالقلم فوصف نفسه بالكرم وعذلت من نعمه العظام ومن آياته الجسام حتى أقسم به في كتابه فقال سبحانه وتعالى ن والقلم وما يسطرون فاقسم بالقلم وما يخط بالقلم واختلف في أول من كتب بالعربية . فذكر كعب الاحبار أن أول من كتب به آدم عليه السلام ثم وجدها بعد الطوفان اسماعيل على نينوا وعليه السلام . وحكى ابن عباس رضي الله عنه أن أول من كتب بها وضعها اسماعيل عليه السلام على لفظه ومنطقه . وحكى عروة بن الزبير رضي الله عنه أن أول من كتب بها قوم من الأوائل أسماؤهم أبجد وهوز وحطى وككن وسعفس وقورش وكانوا ملوك مدين . وحكى ابن قتيبة في المعارف أن أول من كتب بالعربي مرمر بن مرة من أهل الألبار ومن الألبار تشرت . وحكى المدائني أن أول من كتب بها امرئ بن مرة وأسلم بن سدره وعامر بن حدره فرامر وضع الصور واسلم فصل ووصل وعامر وضع العجم ولما كان الخط بهذا الحال وجب على من أراد حفظ العلم أن يعاين بالمرئ بن أحد هما تقويم الحروف على أشكالها الموضوع لها والثاني ضبط ما اشتبه منها بالنقط والأشكال المميزة لها ثم ما زاد على هذين من تحسين الخط وملاحقة نظمها فاعلموا هوز يادة حلق يصنعه وليس بشرط في محته . وقد قال علي بن عيسى حسن الخط لسان اليد وبهجة الضمير وقال أبو العباس المبرد داء الخط زمانة الأدب . وقال عبد الحميد البنان في اللسان والخط في البنان وأنشأ في بعض أهل العلم لاجد شعرا بالنصرة

اعترأ خالك على ندالة خطه * واغفر لنا الله لجلودة ضبطه

تستعملها من البدن الكبد *

والقوة القلبية هي التي تسمى السبعة وآلتها التي تستعملها من البدن القلب فلذلك وجب أن يكون عبد القضاة بحسب أعداد هذه القوى وكذلك أصدادها التي هي رذائل فبقيت حركة النفس الناطقة معتدلة وغير خارجة عن ذاتها وكان شوقها الى المعارف الصحيحة (لا الخنوع لمعارف وهي بالحقيقة جهالات) حدثت عنها فضيلة العلم وتبعها الحكمة ومضى كانت حركة النفس البهيمية معتدلة متقادة للنفس العاقلة غير متأثرة عليها فيما تقسط لها ولا منهكة في اتباع هواها حدثت عنها فضيلة العفة وتبعها فضيلة الصفاء ومضى كانت حركة النفس

فاذا بان عن المعاني لم يكن * تحسينه الا زيادة شرطه
واعلم بان الخط ليس راد من * تركيبه الاتيين سطره

ومحل ما زاد على الخط المفهوم من تصحيح الحروف وحسن الصورة محل ما زاد على الكلام
المفهوم من فصاحة الالفاظ وصحة الاعراب ولذلك قالت العرب حسن الخط أحد
الفصاحتين وكانه لا يعذر من أراد التقدم في الكلام أن يطرح الفصاحة والاعراب وان
فهم وأفهم كذلك لا يعذر من أراد التقدم في الخط أن يطرح تصحيح الحروف وتحسين
الصورة وان فهم وأفهم وور بما تقدم بالخط من كان الخط من أجل فضائله وأشرف
خصائله حتى صار علما مشهورا وسيدا مذكورا غير أن العلماء اطرحو اصراف الهمة الى
تحسين الخط لانه يشغلهم عن العلم ويقطعهم عن التفرغ عليه ولذلك تجد خطوط العلماء
في الأغلب رديئة لا يحط الامن أسعد القضاء وقد قال الفضل بن سهل من سعادة المرء أن
يكون ردي الخط لان الزمان الذي يقنيه بالكتابة يشغله بالحفظ والنظر وليست رداءة
الخط هي السعادة وانما السعادة أن لا يكون له صارف عن العلم وعادة ذي الخط الحسن أن
يتشغل بتحسين خطه عن العلم في هذا الوجه صار رداءة خطه سعيدها وان لم تكن رداءة
الخط سعادة واذا كان ذلك كذلك فقد يعرض للخط أسباب تمنع من قراءته ومعرفته كما
يعرض للكلام أسباب تمنع من فهمه وصحته والاسباب المانعة من قراءة الخط وفهم ما تضمنه
قد تكون من ثمانية أوجه (الوجه الاول) اسقاطه الالفاظ من أثناء الكلام بصير الباقي
يها مبتورا لا يعرف استقراجه ولا يفهم معناه وهذا يكون اما من سهو الكاتب أو من فساد
نقله وهذا يسهل استنباطه على من كان مرصفا بذلك النوع فيستدل بمحاشي الكلام
وما سلم منه على ما سقط أو فسد لاسيما اذا قل لان الكلمة تستلبي ما يليها ومعرفة المعنى
توضع عن الكلام المترجم عنه فاما من كان قليل الارتياض بذلك النوع فانه يصعب عليه
استنباط المعنى منه لاسيما اذا كان كثيرا لانه يحتاج في فهم المعاني الى الفكرة والرؤية
فيما قد استقرجه بالكتابة فاذا هو لم يعرف تمام الكلام المترجم عن المعنى قصر فهمه عن
ادراكه وفضل فكره من استنباطه (الوجه الثاني) زيادة الالفاظ في أثناء الكلام بشكلها
معرفة الصحيح غير الزائد من معرفة السقيم الزائد فيصير الكل مشكلا وهذا لا يكاد يوجد
كثير الا ان بقصد الكاتب تسمية كلامه فيدخل في أثناءه ما يمنع من فهمه فيصير ذلك شرا
يعرف بالوضعية فاما وقوعه سهوا فقد يكون بالكلمة والكلمتين وذلك لا يمنع من فهمه على
المرأض وغيره (الوجه الثالث) اسقاط حروف من أثناء الكلمة تمنع من استقراجه على
الصحة وقد يكون هذا تارة من السهو فيقل وتارة من ضعف الهجاء فيكثر والقول فيه كالقول
في الوجه الاول (الوجه الرابع) زيادة حروف في أثناء الكلمة بشكلها معرفة الصحيح
ويكون تارة تسمية ومما يضعه يقصد بها الكاتب اخفاء غرضه فيكثر كالترجم ويكون القول
فيه كالقول في الوجه الثاني (الوجه الخامس) وصل الحروف المفصولة وفضل الحروف
المفصولة فيبدو ذلك الى الاشكال لان الكلمة ينسب عليها وصل حروفها وينع فصلها
من مشاركة غيرها فان كان ذلك من سهو قل فسهل استقراجه وان كان ذلك من قلة

الغنية معتدلة تطيع
العاقلة فيما تسقطه لها
فلا تهبج في غير حجبها ولا
تحمي أكثر مما ينبغي لها
حدثت منها فضيلة الحلم
وتتبعها فضيلة الشجاعة
ثم يتحدث عن هذه
الفضائل الثلاث باعتبارها
ونسب بعضها الى بعض
فضيلة هي كالحاوتها
وهي فضيلة العدالة فلذلك
أجمع الحكماء على أن
أجناس الفضائل اربع
وهي الحكمة والعفة
والشجاعة والعدالة ولهذا
لا يفقر أحد ولا يتباهى
بالأربعة الفضائل فقط
فاما من افقر بأبائ
وأخلاقه فلانهم كانوا على
بعض هذه الفضائل أو
عليها كلها وكل واحدة
من هذه الفضائل اذا تعدت
صاحبها الى غيره تسمى
صاحبها ومذح عليها
واذا اقتصر على نفسه

معرفة بالخط أو مشقاً تسبق به اليد كثر أقصعب استخراجه الأعلى المتراض به . ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه شر الكتابة المشق كما أن شر القراءة الهذرة . وإن كان للتعمية والرمز لا يعرف إلا بالموافقة (والوجه السادس) تغيير الحروف عن أشكالها وابدالها بأغيارها حتى يكتب الحاء على شكل الباء والصاعد على شكل الراء وهذا يكون في رموز الزاخم ولا يوقف عليه إلا بالموافقة إلا أن قد زاد فيه الذكاء فقد رعى استخراج المعنى (والوجه السابع) ضعف الخط عن تقويم الحروف على الأشكال الصحيحة وإثباتها على الأوصاف الحقيقية حتى لا تزداد الحروف بتمتاز عن أغيارها حتى تصير العين الموصولة كالفاء والمفصلة كالحاء وهذا يكون من رداء الخط وضعف اليد واستخراج ذلك يمكن بفضل المعانة وشدة التأمل وربما أنجز قارئه وأوى معانيه . ولذلك قيل إن الخط الحسن لين بالحق وضوحاً (والوجه الثامن) اغفال النقط والأشكال التي تتميز بها الحروف المشبهة وهذا أيسر أمراً وأخف حالاً لأن من كان متميزاً بصحة الاستخراج ومعرفة الخط لم يخف عليه معرفة الخط وفهم ما تضمنه مع اغفال النقط والأشكال بل استقيم الكتاب ذلك في المكتبات ورأوه من تقصير الكاتب أو سوء ظنه بفهم المكتتب وكان استقباحهم له في مكتبة الرساء أكثر . حتى قدم ابن جعفر ابن بعض كتاب الدواوين حاسباً عاملاً فشكى العمال منه إلى عبيد الله بن سليمان وكتب رقعة يذكر فيها احتجاجاً للصحة دعواه ووضح شكواه فوقع فيها عبيد الله بن سليمان هذا هذا فأخذها العامل وقرأها فظن أن عبيد الله أراد بهذا أن يثاب الصحة دعواه وصدق قوله كما يقال في إثبات الشيء هو هو فحمل الرقعة إلى كاتب الدواوين وأراه خط عبيد الله وقال له أن عبيد الله قد صدق قولى وصح ما ذكرت تخفى على الكاتب ذلك وأطيف به على كتاب الدواوين فلم يبقوا على مراد عبيد الله ودلله ليسأله عن مراده فشدد عبيد الله الكلمة الثانية وكتب تحتها والله المستعان استعظا ما منه لتقصيرهم في استخراج مراده حتى احتاج إلى إبانته بالشكل فهذه حال الكتاب في استقباحهم اعجاب المكتبات بالنقط والأشكال فاما غير المكتبات من سائر العلوم فلم يروه قبيحاً بل انفسحوا لاسيما في كتب الأدب التي يقصد بها معرفة صيغة الالفاظ وكيفيتها فخرجها مثل كتب النحو واللغة والشعر الغريب فإن الحاجة إلى ضبطها بالشكل والاعجام أكثر وهي فيما سواه من العلوم أيسر وقد قال الثوري المخطوط المجهمة كالبرود والجملة . وقال بعض البلغاء اعجاب الخط يمنع من استبحاره وشكله يؤمن من إشكاله . وقال بعض الأدباء رب علم لم نجعم فصوله فاستبحم محموله وكما استبح الكتاب الشكل والاعجام في المكتبات وإن كان في كتب العلوم مستحسنًا فكذلك استحسنوا مشق الخط في المكتبات وإن كان في كتب العلوم مستبحاً وسبب ذلك أنهم لفرط ادلائهم في الصنعة وتقدمهم في الكتابة يكتفون بالإشارة ويقصرون على التلويح ويرون الحاجة إلى استيفاء شروط الإبانة لتقصيرها ولفضل ما يعتقدونه من التقدم هذا الحال رأوا منه علمه من سواد المداثر أجيالاً وعلى الفضل والتخصيص دليلاً . حتى أن عبيد الله بن سليمان رأى على بعض ثيابه أثر صفير

لم يسم به بل غرت هذه الأسماء . أما الجود فانه إذا لم يتعد صاحبه سمي صاحبه منقافاً . وأما الشجاعة فان صاحبها يسمى أنفاً . وأما العلم فان صاحبه يسمى متبصراً ثم إن صاحب الجود والشجاعة إذا لم غيره بفضيلته وتعدياه ربحي بأحداً ما واحتشم وهيب بالأخرى وذلك في الدنيا فقط لانهما فضيلتان حيوانيتان . أما العلم إذا تعدى صاحبه فانه يربح ويحتشم في الدنيا والآخرة لانه فضيلة إنسانية ملكية واضداده هذه الفضائل الأربع أربع أيضاً وهي الجهل والشره والجبن والجور وتحت كل واحد من هذه الأجناس أنواع كثيرة سندكر منها ما عكس ذكره فاما أشخاص الأنواع فهي بلاتهاية وهي

فأخذ من مداد الدواة فطلاه به ثم قال المدا دينا أحسن من الزعفران وأشد

انما الزعفران عطر العذارى * ومداد الدوى عطر الرجال

فهذه جملة كافية في الانبئ عن الاسباب المانعة من فهم الكلام ومعرفتها بغيره لفظا كان أو خطأ والله تعالى التوفيق فينبغي لطالب العلم أن يكشف عن الاسباب المانعة من فهم المعنى ليسهل عليه الوصول اليه ثم يكون من بعد ذلك سائلا لنفسه مذكرا لها في حال تعلمه فان للنفس نفورا بغضى الى تقصير ووفورا بآثر ول الى سرف وقيادها عسر ولها احوال ثلاث فحال عدل وانصاف وحال غلو واسراف وحال تقصير واجحاف فاما حال العدل والانصاف فلا تقصير فهي أن تختلف قوى النفس من جهتين متقابلتين طاعة مسعدة وشققة كافة فطاعتها تمنع وشققتها تزد على السرف والتبذير وهذه احوال لان ما هنم من التقصير غاء وما صد عن السرف مستديم والنواذا استدأما فخلق به أن يستكمل . وقال بعض الحكماء اياك ومفارقة الاعتدال فان المسرف مثل المقصر في الخروج عن الحد وأما حال الغلو على الطاعة والاسراف فهي ان تختص النفس بقوى الطاعة وتعدم قوى الشققة فيعسر اختصاص افراغ الجهد وقصصها افراغ الجهد الى عجز الكلال فيؤد بها عجز الكلال الى الترك والاهمال فتصير الادة نقصانا والرجح خسرا . وقد قالت الحكماء طالع العلم وعامل البركا كل الطعام ان أخذ منه قوت اعصمه وان أسرف فيه أشبهه وربما كان فيه منيته كأخذ الادوية التي فيها شفاء ومجاوزة القصد فيها السم المميت وأما حال التقصير والاجحاف فهي أن تختص النفس بقوى الشققة وتعدم قوى الطاعة فيدعوها الاشفاق الى المعصية وتمنعها المعصية من الاجابة فلا تطلب شاردا ولا تقبل عائدا ولا تحفظ مستودعا ومن لم يطلب الشارد ويقلب العائد ويحفظ المستودع فقد الموجد ولم يجد المفقود ومن قدما وجد فهو مصاب محزون ومن لم يجد ما فقد فهو خائب مقبون . وقد قال بعض الحكماء العجز مع الزواني والقوت مع التواني وقد يكون للنفس مع الاحوال الثلاث حالتان مشتركتان بغلبة إحدى القوتين فيكون للنفس طاعة واشفاق واحداهما أغلب من الاخرى فان كانت الطاعة أغلب كانت الى الوفور وأميل وان كان الاشفاق أغلب كانت الى التقصير أقرب فاذا عرف من نفسه قدر طاعته وخبر منها كنه اشفاقها راض نفسه لتثبت على أحد حالها وقد أشار الى ما وصفنا من حال النفس الفرزدق في قوله لكل امرء نفسان نفس كريمة * وأخرى يفاضها الفتى ويطيعها ونفسك من نفسك تشعق للندى * اذا قل من احرارهن شفيها

وان أهمل سياستها فاعقل رياضتها ورام يأخذها بالعنف ويقهرها بالعسف استشاطت نافرة ولبت معاندة فلم تنفد الى طاعة ولم تنكشف عن مصيبة . وقال سابق البربري اذا زجرت لجوحا زدت علقا * ولجت النفس منه في عمادها فمد عليه اذا ما نفست مجعت * باللين منك فان اللين يثنيها فاذا استصعب عليه قياد نفسه ودان منه نفور قلبه مع سياستها ومماناة رياضتها تركها ترك راحه ثم عاودها بعد الانسراحه فان اجابتها تسرع وطاعتها ترجع . وقد روى

أمراض نفسانية تحدث منها أمراض كثيرة كالخوف والحزن والغضب وأنواع العشق الشهواني وضروب من سوء الخلق وسد كرها ونذكر علاجاتها فيما بعد ان شاء الله تعالى والذي يجب علينا الآن هو تحديد هذه الاشياء أعني الاجناس الاربعة التي تحتوي على جل الفضائل فنقول أما الحكمة فهي فضيلة النفس الناطقة المعبرة وهي أن تعلم الموجودات كلها من حيث هي موجودة وان شئت فقل أن تعلم الامور الالهية والامور الانسانية ويشعر علما بذلك أن تعرف المعقولات أيها يجب أن يفعل وأياها يجب أن يفعل * وأما العفة فهي فضيلة الحس ان شهواني وتظهر هذه الفضيلة في الانسان يكون بان يصرف

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن القلب يموت ويحيى ولو بعد حين . وقال ابن مسعود
للقلوب شهوة وأقبال وفترة وأدبار فأقوها من قبل شهواتها ولأتأقوها من قبل قترتها .

وقال الشاعر وماسمى الإنسان إلا ناسه * ولا القلب إلا ناسه يتقلب

فأما الشر وط التي يتوفر بها علم الطالب وينتهي معها كمال الرغب مع ما يلاحظ به من
التوفيق وعنده من العونة فتسعشر وط (الأول) العقل الذي يدرك به حقائق
الأمر (والثاني) الفطنة التي يتصور بها غوامض العلوم (والثالث) الذكاء الذي
يستقر به حفظ ما تصوره وفهم ما علمه (والرابع) الشهوة التي يدوم بها الطلب
ولا يسرع إليه الملل (والخامس) الاكتفاء بجادة تغنيه عن كلف الطلب (والسادس)
الفرغ الذي يكون معه التوفر ويحصل به الاستكثار (والسابع) عدم القواطع المذهلة
من هموم وأمراض (والثامن) طول العمر واتساع المدة لينتهي بالاستكثار إلى مراتب
الكمال (والتاسع) الظفر بعالم سمح بعلمه متأن في تعليله فإذا استكمل هذه الشروط
التسعة فهو أوسع طالب وأجيب معلم . وقد قال الاسكندر يحتاج طالب العلم إلى أربع
مدة واحدة وقرحة وشهوة وتعامها في الخامسة معلم ناصح

(فصل) وسأذكر طرقا مما يتأدب به المتعلم ويكون عليه العالم أعلم أن للتعلم تلقا وتذلا
فإن استعملها غم وان تركها حرم لأن التلقى للعالم يظهر مكنون علمه والتذلل له سبب
لادامة صبره وباطنها مكنونه تكون الفائدة وباستدامة صبره يكون الأكثار . وقد
روى معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ليس من أخلاق المؤمن التلقى إلا في طلب العلم
• وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ذلت طالبا لم عززت مطلوبا • وقال بعض حكماء الفرس
إذا قعدت وأنت صغير حيت تحب قعدت وأنت كبير حيت لا تحب ثم يعرف له فضل علمه
وليشكر له جميل فعله • فقد روت عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال
من وفر عالما فقد وفره • وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لا يعرف فضل أهل العلم
الآهل الفضل • وقال بعض الشعراء

إن المعلم والطبيب كلاهما * لا ينهضان إذا هما لم يكرما
فاصبر لدائك إن أخت طيبه * واصبر لجهلك إن جفوت معلمك

ولا يمنعه علوم منزلة إن كانت له وإن كان العالم خاملا فإن العلماء بعلمهم قد استحقوا التعظيم
لأبائهم والمال * وأنشدني أهل الأدب لابي بكر بن دريد

لا تحقرن طالما وان خلقت * أثوابه في عيون راقعه
وانظر إليه بعين ذي أدب * مهذب الرأي في طرائقه
فالمسلم لم ينأ عن مجتهنا * بقطر عطره وساحقه
حتى تراه في عارضى ملك * وموضع التاج من مفارقة

وليكن مقتديا بهم في أخلاقهم متشبهين بهم في جميع أفعالهم ليسير لها آلفا وعليها ناشئا
ولما خلفها محبا فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم خيار شبانكم المتشبهون بشيوخكم وشرار

شهواته بحسب الرأى أعنى
أن يوافق التميز الصحيح
حتى لا يتقادها ويصير
بذلك حرا غير متعدي شي
من شهواته وأما الشجاعة
فهي فضيلة النفس الغضبية
وتظهر في الإنسان بحسب
انقيادها للنفس الناطقة
المميز واستعمال ما يوجه
الرأى في الأمور الخالصة
أعنى أن لا يخاف من
الأمور المفترعة إذا كان
فعلها جيلا والصبر عليها
محمودا *

فأما العدة فهي فضيلة
لنفس تحدث لها من
اجتماع هذه الفضائل
الثلث التي عددناها وذلك
عند مسالمة هذه القوى
بعضها لبعض واستسلامها
للقوة المميز حتى لا تتغلب
ولا تنحرك لهما مطلوباتها
على سؤم طاعتها ومحدث
للإنسان بها سمة يختار بها
أبدا الانصاف من نفسه

شيونكم المتشبهون بشبانكم • وروى ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من تشبه بقوم فهو منهم • وأنشدني بعض أهل الأدب لابي بكر بن دريد

العالم العاقل ابن نفسه * أغناه جنس علمه عن حنسه

كن ابن من شئت وكن مؤدبا * فاعلم المرء بفضل كيسه

وليس من تكرمه لغیره * مثل الذي تكرمه لنفسه

وليحذر المتعلم البسط على من يعلمه وإن آنسه والادلالات عليه وإن تقدمت صحته • قيل

لبعض الحكماء من أذل الناس فقال عالم يحجى عليه حكم جاهل وكلم رسول الله صلى الله

عليه وسلم جارية من السبي فقال لها من أنت فقالت بنت الرجل الجواد حاتم فقال صلى

الله عليه وسلم أرجو أن تزوم ذل أرجو أن ابتغى افتقر أرجو أن الماضع بين الجهال • ولا

يظهر له الاستكفاء منه والاستغناء عنه فإن في ذلك كفرًا للنعمته واستحقاقًا لحققه وربما

وحجب بعض المتعلمين قوّة نفسه لعمدة ذكائه وحدة خاطره فقصد من يعلمه باذاعات له

والاعتراض عليه أزاره وتبكتنا له فيكون كن تقدم فيه المثل السائر لابي البطماء

أعلمه الرماية كل يوم * فلما استد ساعده رماي

وهذه من مصائب العلماء وأنه كاس حظوظهم أن يصير واعتد من يعلمونه مستجولين وعند

من قدموه مسترذنين • وقال صالح بن عبد القدوس

وإن عناء أن تعلم جاهلا * فخصب جهلا أنه منك أعلم

مضى يبلغ النيان يوما قمامه * إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

مضى ينتهي عن سي من أبيه * إذا لم يكن منه عليه تندم

وقد رجع كثير من الحكماء حق العالم على حق الواحد حتى قال بعضهم

يا فخر الأسفاه بالسلف * وتاركك العلماء والشرف

آباء أجسادنا هم سبب * لأن جعلنا عرائض التلف

من علم الناس كان خير أب * ذاك أبوالروح لأبوالنطف

ولا ينبغي أن يعشه معرفة الحق له على قبول الشبهة منه ولا بدعه ترك الاعنات له على

التقليد فيما أخذ عنه فانه ربما غالى بعض الاتباع في عالمهم حتى يروا أن قوله دليل وإن لم

يستدل وأن اعتماده حجة وإن لم يحجج فيفضي بهم الأمر إلى التسليم له فيما أخذ عنه فلا يبعد أن

تبطل تلك المسألة أن انفردت أو يخرج أهلها من عداد العلماء فيما شاركت لانه قد لا يرى

لهم من يأخذ عنهم ما كانوا يرون من أخذوا عنه فيطالبهم بما قصر وافية فيضعفوا عن إبانته

ويحجزوا عن نصرته فيذهبوا ضائعين ويصيروا بمنزلة مضعوفين ولقد رأيت من هذه

الطريقة رجلا ينافر في مجلس حفل وقد استدلى عليه الخصم بدلالة صحيحة فكان جوابه عنها

أن قال إن هذه دلالة فاسدة وجه فسادها أن شئني ليدكرها وما لم يذكره الشيخ الأخير

فيه فامسك عنه المستدل تحجبا ولأن شيخه كان محتشما وقد حضرت طائفة برون فيه مثل

ما رأي هذا الجاهل ثم أقبل المستدل على وقال لي والله لقد أحقني بجعله وصار سائر الناس

البرئين من هذه الجهالة ما بين مستهزئ متعجب ومستعين بالله من جهل مغرب فهل رأييت

على نفسه أولائم الانصاف

والانصاف من غيره وله

وستكلم على كل واحدة

من هذه الفضائل بكلام

أوسع من هذا إذا ذكرنا

الفضائل التي تحت كل

جنس من هذه الأربع

أذا كان غرضنا في هذا

الموضع الإشارة إليهم بالرسوم

الوجيزة ليستصوّر بها التعلم

والذي ينبغي الآن أن تتبع

ما قلنا بذكر أنواع هذه

الاجناس وما تحت كل

واحد منها فنقول (الاقسام

التي تحت الحكمة) الذكاء

الذكر * التعقل سرعة

الفهم وقوته صفاء الذهن

سهولة التعلم وهذه الأشياء

يكون حسن الاستعداد

للكمة * فاما الوقوف على

جواهر هذه الاقسام

فيكون من حدودها

وذلك أن العلم بالحدود

يفهم جواهر الأشياء

المطلوب بها لجودة دائماً

كذلك عالماً أو غل في الجهل وأدل على قلة العقل وإذا كان المتعلم معتدلاً رأى فيمن يأخذ عنه متوسط الاعتقاد فيمن يتعلم منه حتى لا يحصل له الاعتناء على اعتراض المبكتين ولا يبعثه الفضول على تسليم المقلدين يرى المتعلم من المذمتين وسلم العالم من الجهتين وليس كثرة السؤال فيما التبس اعتناءً ولا قبول ما صح في النفس تقليداً . وقدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال العلم خزان ومفتاحه السؤال فاسألوا ربحكم الله فانما يؤجر في العلم ثلاثة القائل والمستمع والأخذ . وقال عليه الصلاة والسلام هلاسلوا إذا لم يعلموا فانما شفاء العلى السؤال فأمر بالسؤال وحث عليه ونهى آخرين عن السؤال وزجر عنه فقال صلى الله عليه وسلم أنها كمن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال وقال عليه الصلاة والسلام يا كرم وكثرة السؤال فانما هلك من قبلكم بكثرة السؤال وليس هذا الخلق الأول وانما أمر بالسؤال من قصده علم ما جهل ونهى عنه من قصده اعتناء ما سمع وإذا كان السؤال في موضعه أزال الشكوك ونفى الشبهة . وقديل لإن عباس رضى الله عنهما لم يزل هذا العلم قال بلسان سؤال وقلب عقول وروى نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال حسن السؤال نصف العلم . وأنشد المبرد عن أبي سليمان الغنوى

فصل الفقيه تكن فقيراً مثله * لا خير في علم بغير تدبر

وإذا تعسرت الأمور فأرجحها * وعليك بالأمر الذي لم يعسر

ولما أخذ المتعلم حظه من وجد طلبته عنده من نبيه وخامل ولا يطلب الصبوت وحسن الذكر باتباع أهل المنازل من العلماء إذا كان النفع بغيرهم أعم الآن يستوى النفعان فيكون الأخذ بمن اشتهد كرهه وارتفع قدره أولى لأن الانتساب إليه أجل والأخذ عنه أشهر . وقد قال الشاعر

إذا أنت لم يشرك علمك لم تجد * لعلمك مخلوقاً من الناس يقبله

وان صانك العلم الذي قد جلته * أمالك له من يجتنيه ويحمله

وإذا قرب منك العلم فلا تطلب ما بعد وإذا سهل من وجه فلا تطلب ما صعب وإذا جدت من خبرته فلا تطلب من لم تختبره فإن العدول عن القريب إلى البعيد عناء وترك الأسهل بالأصعب بلاء والانتقال من المخبور إلى غيره خطر . وقد قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه عني الآخر مضره والمتعسف لا تدوم له مسره . وقال بعض الحكماء المقصد أسهل من التعسف والكف أودع من التكلف وربما تتبع نفس الإنسان من بعد عنه استئانة بمن قرب منه وطلب ما صعب اجتقار ما سهل عليه وانتقل إلى من لم يخبره ملالاً من خبره فلا يدرك محبوباً ولا ينظر بظائل . وقد قالت العرب في أمثالها العالم كالكعبة يأتيها البعداء ويرزقها القرباء وأنشد بعض شيوخنا المسج بن حاتم

لا ترى عالماً يحل يقوم * فيسألوه غير دار الهوان

فما أوجد السلامة والصحة مجرعتين في إنسان

فاذا حلما مكاناً حقيقاً * فهما في النفوس معشوقتان

هذه مكرمة المتبعة بيت الله يسبحى لجمها الثقلان

على حال واحد وهو العلم البرهاني الذي لا يتغير ولا يدخله الشك بوجه من أوجوه* والفوائد التي هي بذاتها فضائل لا تكون في حال من الأحوال غير فضائل فكذلك العلوم بها أما الذكاء فهو سرعة انتداح النتائج وسهولتها على النفس * أما الذكر فهو ثبات صورة ما يتخلصه العقل أو الوهم من الأمور وأما التعقل فهو مراعاة بحث النفس عن الأشياء الموضوعية بقدر ما هي عليه وأما إسقاء الذهن فهو استعداد النفس لاستخراج المطلوب . وأما حودة الذهن وقوته فهو تأمل النفس لما قد لز من المقدم * وأما سهولة التعلم فهي قوة للنفس وحده في الفهم بها تدرك الأمور النظرية

ويرى أزهى دالبة في الحج لها أهلها القرب المكان

فصل فاما ما يجب أن يكون عليه العلماء من الاخلاق التي بهم ألبق ولهم أزم فالتواضع
ومجانبة العجب لان التواضع عطف والعجب منفر وهو بكل أحد قبيح وبالعلماء أقبح
لان الناس بهم يقتدون وكثيرا ما يداخلهم الانجاب لتوحد بهم بفضيلة العلم ولو أنهم نظروا
حق النظر وعلموا جو حب العلم لكان التواضع بهم أولى ومجانبة العجب بهم أحرى لان
العجب نقص ، بنا في الفضل لاسيما مع قول النبي صلى الله عليه وسلم ان العجب ليا كل
الحسنات كما أن كل النارا الخطب فلا يفي ما أدركوه من فضيلة العلم بما لحقهم من نقص
العجب . وقدر وى عبد الله من عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قليل
العلم خير من كثير العبادة وكفى بالمرء علما اذا عبد الله عز وجل وكفى بالمرء جهلا اذا أعجب
برأيه . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه تعلموا العلم وتعلموا العلم السكينة والخم وتواضعوا
لن تعلموا وليتواضع لكم من تعلمونه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا تقوم عليكم بجهلكم .
وقال بعض السلف من تكبر بعلمه وترفع وضعه الله به ومن تواضع بعلمه رفعه وعلا انجابه
انصراف نظره الى كثرة من دونهم من الجهال وانصراف نظره عن فوقهم من العلماء
فانه ليس مثناه في العلم الا وسيد من هو أعلم منه اذا علم أكثر من أن يحيط به بشر . قال الله
تعالى ترفع درجات من نشأ يعبى في العلم وفوق كل ذى علم عليم . قال أهل التأويل فوق
كل ذى علم من هو أعلم منه حتى ينتهى ذلك الى الله تعالى وقيل لبعض الحكماء من يعرف
كل العلم قال كل الناس . وقال الشعبي ما رأيت مثلى وما أشاء أن ألقى رجلا أعلم منى
الاقتبعت له يد كراشعبي هذا القول تفضيلا لنفسه فيستعجب منه وانما ذكره تعظيما للعلم
عن أن يحاط به فينبغي لمن علم أن ينظر الى نفسه بتقصير ما قصر فيه ليسلم من عجب ما أدرك
منه . وقد قيل في منشور الحكم اذا علمت فلا تفكر في كثرة من دونك من الجهال ولكن انظر
الى من فوقك من العلماء وأنشدت لابن العبد

من شاء عيشا هينيا يستفيد به * في دينه ثم في دنياه اقبالا
فلينظرن الى من فوقه أدبا * لينظرن الى من دونه مالا

وقلما تجد العلم معبىا وما أدرك مفقرا الامن كان فيه مقلا ومقصرا لانه قد يجهل
قدره ويحسب انه نال بالدخول فيه أكثر فاما من كان فيه متوجها ومنه مستكبرا فهو
يعلم من بعد غايته والجهز عن ادراك نهايته ما يصد عن العجب به . وقد قال الشعبي العلم
ثلاثة اشبار فمن نال منه شبرا شمعنا فنفه وطن أنه ناله ومن نال الشبرا لثاني صغرت اليه نفسه
وعلم أنه لم ينله وأما الشبرا الثالث فهي بات لينا له أحدا يدا وما أدرك به من حال أنى
صنفت في البيوع كتابا جعلت فيه ما استطعت من كتب الناس وأجهدت فيه نفسي
وكددت فيه خاطري حتى اذا غر ب واستكمل وكذت أعجب به وتصورت أنى أشد
الناس اضطلاعا بعلمه حضري وأنا في مجلسي اعرابيان فسألتني عن بيع عقده في البادية
على شرط فغضت أربغ مسائل لم أعرف لواحدة منهن جوابا فطرت مفكرا وبخالي
وحالهما معتبرا فقالا ما عندك فياسا نالك جواب وأنت زعيم هذه الجماعة فقلت لا فقالا

الفضائل التي تحت

العفة

الحياء * الدعة * الصبر *

السخاء * الحرية * القناعة *

الدمانة * الانتظام حسن

الحدى * المسألة * الوار

الورع * أما الحياء فهو

انحصار النفس خوفا

اثبات القبايح والخذل من

الذم والسب الصادق *

وأما الدعة فهي سكون

النفس عند حركة الشهوات

وأما الصبر فهو مقاومة

النفس الهوى لثبات نقد

لقبايح الذات وأما السخاء

فهو التوسط في الاعطاء

وهو أن يتفق الأموال فيما

ينبغي على مقدار ما ينبغي

وعلى ما ينبغي وتحت السخاء

خاصة أنواع كثيرة فخصما

فما بعد كثرة الحاجة اليها

وأما الحرية فهي فضيلة

للنفس بها يكتسب المال

من وجهه ويعطى في

وجهه وتتمتع من اكسابه

وأما لك وانصرفا ثم أتيا من يتقدمه في العلم كثير من أصحابي فسالاه فاجابهما مسرعا بما
أقنعهما وانصرفا عنه راضين بحجابه حامدين لعمه فيقبت مر تبكا وبجاءهما وحالي معتبرا واني
لعلني ما كنت عليه من المسائل الى وقتي فكان ذلك زاجر نصيحة وينذر عظة تذلل بها قياد
النفس وانخفض لها جناح العجب وتوفيقا مخمته ورشداً أوثقته وحق على من ترك العجب
بما يحسن أن يدع التكلف لما لا يحسن فقد عيانتهى الناس عنهما واستعاذوا بالله منهما
ومن أوضح ذلك بياننا استعادة الحافظ في كتاب البيان حيث يقول اللهم اننا نعوذ بك من
فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل ونعوذ بك من التكلف لما لا يحسن كما نعوذ بك من
العجب بما يحسن ونعوذ بك من شر السلاطة والهدر كما نعوذ بك من شر البخل والحصر ونحن
نستعذ بالله تعالى مثل ما استعاذ فلنفس لمن تكلف ما لا يحسن غاية ينتهي اليها ولا حد يقف
عنده ومن كان تكلفه غير محدود فأخلق به أن يضل ويضل . وقدرى عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه قال من سئل فأفتى بغير علم فقد ضل وأضل . وقال بعض الحكماء من العلم أن
لا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم فحسبك جهلا من عقلك أن تنطق بما لا تفهم ولقد أحسن
زيادة بن زيد حيث يقول

أذا ما أنتهي على تنهايت عنده * أطال فأملى وأتناهى فاقصرا
ومخبرنى عن غائب المرء فضله * كفى الفعل عما غيب المرء مخبرا

فإذا لم يكن الى الاطاعة بالعلم سبيل فلا عار أن يجهل بعضه واذ لم يكن في جهل بعضه عار لم يقيح
به أن يقول لأعلم فيما ليس يعلم . وروى أن رجلا قال يا رسول الله أى البقاع خير وأى
الانقاع شر فقال لا أدري حتى أسأل جبريل . وقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه وما
أزدد هاعلى القلب إذا سئل أحدكم فيما لا يعلم أن يقول الله أعلم وأن العالم من عرف أن ما يعلم
فيما لا يعلم قليل . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما إذا ترك العالم قول لا أدري أصيبت
مقاتله . وقال بعض العلماء هلك من ترك لا أدري . وقال بعض الحكماء ليس لى من فضيلة
العلم الا على ما لى لست أعلم . وقال بعض البلغاء من قال لا أدري علم قدرى ومن اتحل
ما لا يدري أهمل فهو لى ولا ينبغي للرجل أن صار فى طبقة العلماء الا فاضل أن يستنكف

من تعلم ما ليس عنده ليسلم من التكلف . وقد قال عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام
يا صاحب العلم تعلم من العلم ما جعلت وعلم الجهال ما علمت . وقال علي بن أبي طالب رضى الله
عنه خمس خدوهن عني فلو ركبتم الفلك ما وجدتهن الا عندى الا لا يرحون أحد الا ربه
ولا يخافن الا ذنبه ولا يستنكف العالم أن يعلم لما ليس عنده وإذا سئل أحدكم عما لا يعلم
فليقل لا أعلم ومنزلة الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد . وقال عبد الله بن عباس
رضى الله عنهما لو كان أحدكم يكتفى من العلم لاكتفى منه موسى على نبينا وعليه السلام وما
قال هل أتبعك على أن تعلم ما علمت رشداً و قيل للجليل بن أحمد هم أدركت هذا العلم قال
كنت اذا لقيت عالماً أخذت منه وأعطيته وقال بن زهر من العلم أن لا تحقر شيئاً من العلم
ومن العلم تفضيل جميع العلم . وقال المنصور راسر بلى أى لك هذا العلم قال لم أرغب عن
قليل أستفيده ولم أبخل بكثير أفسده على أن العلم يقتضى ما بقى منه ويستثنى ما تأخر عنه

من غير وجهه وأما
القتاعة فهي التساهل في
الماكل والمشرب والزينة
وأما الدانة فهي حسن
انقياد النفس لما يحسن
وتسرعها الى الجليل . وأما
الاتظام فهو حال للنفس
تقودها الى حسن تقدير
الأمر وترتيبها كما ينبغي
وأما حسن الهدى فهو حجة
تكميل النفس بالزينة
الحسنة . وأما المسألة فهي
مواد تحصل للنفس
عن ملكة لا اضطرار فيها
* وأما الوقار فهو سكون
النفس وثباتها عند
الحركات التي تكون في
المطالب . وأما الورع فهو
زوم الأعمال الجميلة التي
فيها كمال النفس .

الفضائل التي تحت
الشجاعة

كبر النفس العجدة عظم
الهمة الثبات الصبر
الحلم عدم الطيش

وليس للراغب فيه قناعة ببعضه . وروى عن ابن مسعود رضي الله عنه
 أنه قال من هو مان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا أما طالب العلم فانه يزداد للرجح رضا
 ثم قرأ أنما يحسني الله من عبادہ العلماء وأما طالب الدنيا فانه يزداد طغيانا ثم قرأ كلا ان
 الانسان ليطغى أن أراه استغنى ولكن مستغلا للفضيلة منه ليزداد منها ومستكثرا للتقصية
 فيه لينتهي عنها ولا يقنع من العلم بما أدرك لان القناعة فيه زهد والزهديسه ترك والتبرك
 لمجهل . وقد قال بعض الحكماء عليك بالعلم والا كثار منه فان قليله أشبهه شيء بقليل الخير
 وكثيره أشبهه شيء بكثيره وان عيب الخير الاقله فاما كثرة فانها أمانة . وقال بعض البلغاء
 من فضل علمك استقلالك لعلمك ومن كمال عقلك استظهارك على عقلك ولا ينبغي أن
 يجهل من نفسه مبلغ علمها ولا يتجاوز بها قدر حقها ولأن يكون بها مقصرا فيذعن
 بالانقياد أولى من أن يكون بها مجاوزا فيكف عن الزيادة لان من جهل حال نفسه كان
 لغيره أجهل وقد قالت عائشة رضي الله عنها يا رسول الله متى يعرف الانسان به قال اذا
 عرف نفسه وقد قسم الخليل بن أحمد أحوال الناس فيما علموه أو جهلوه أو بعده أقسام
 متقابلة لا يخلو الانسان منها فقال الرجال أربعة رجل يدرى ويدري أنه يدرى فذلك عالم
 فاسأله ورجل يدرى ولا يدري أنه يدرى فذلك ناس فذكره ورجل لا يدرى ويدري أنه
 لا يدرى فذلك مسترشد فارشدوه ورجل لا يدرى ولا يدري أنه لا يدرى فذلك جاهل فارقدوه
 وأنشد أبو القاسم الأمدى

إذا كنت لا تدري ولم تل بالذي * يسائل من يدرى فكيف اذا تدري
 جهلت ولم تسأل بانك جاهل * فمن لي بان تدري بانك لا تدري
 اذا كنت من كل الامور مغميا * فكأن هكذا أرضا بطاك الذي يدرى
 ومن أعجب الاشياء أنك لا تدري * وأنك لا تدري بانك لا تدري

وليكن من شيتته العجل يعلمه وحش النفس على أن تأتمر بما أمر به ولا يكن ممن قال الله
 تعالى فيهم مثل الذين حلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الجبار يحمل أسفارا . فقد قال
 قتادة في قوله تعالى وانه لذو علم لما علمناه يعني أنه عامل بما علم . وروى عن النبي صلى الله
 عليه وسلم أنه قال ويل لجماع القول ويل للصبرين يريد الذين يستمعون القول ولا يعملون به
 . وروى عبد الله بن وهب عن سفيان أن الخضر علي نبينا وعليه السلام قال لموسى عليه
 السلام يا ابن عمران تعلم العلم لتعلم به ولا تتعلمه لتعلم به فيكون عليك بوره ولغيرك نوره .
 وقال علي بن أبي طالب انما زهد الناس في طلب العلم لما روي من قوله انتفاع من علم بما علم
 وقال أبو الدرداء أخوف ما أخاف اذا وقت بين يدى الله أن يقول قد علمت فإذا علمت اذا
 علمت وكان يقال خير من القول فاعله وخير من الصواب قائله وخير من العلم حامله
 . وقيل في منشور الحكم لم ينتفع بعلمه من ترك العمل به . وقال بعض العلماء ثمره العلم أن يعمل به
 وثمره العمل أن يثر عليه . وقال بعض الصالحاء العلم يثب بالعلم فان أجابه أقامه والا ارتحل .
 وقال بعض العلماء خيرا العلم مانع وخير القول ماردع وقال بعض الأدباء ثمره العلوم
 العمل بالعلوم وقال بعض البلغاء من تمام العلم استعماله ومن تمام العمل استقلاله فمن

الشهامة احتمال الكد
 والفرق بين هذا الصبر
 والصبر الذي في العفة ان
 هذا يكون في الامور
 الهائلة وذلك يكون في
 الشهوات الهائلة أما
 كبر النفس فهو الاستانة
 بالنسب والاعتدال على
 حمل الكراه فصاحبه
 ألدأبوهل نفسه للامور
 العظام مع استغفائه لها
 وأما التبعة فهي ثقة النفس
 عند المخاوف حتى لا
 يخامرها جرع . وأما عظم
 الهمة فهي فضيلة للنفس
 تحتمل بها سعادة الخلد
 وضدها حتى الشدائد التي
 تكون عند الموت . وأما
 الثبات فهو فضيلة للنفس
 تقوى بها على احتمال الآلام
 ومقاومتها في الأحوال
 خاصة . وأما الخلم فهو فضيلة
 للنفس تكسبها الطمأنينة
 فلا تكون شغوة ولا يجرعها
 الغضب بسهولة وسرعة .

استعمل علمه لم يخل من زشاد ومن استقل عمله لم يقصر عن مراد * وقال حاتم الطائي
ولم يحمده وامن عالم غير عامل * خلافا ولا من عامل غير عامل
وأوطر قاتل المجدع و جاف قطيعة * وأقطع عجز عندهم عجز حازم
لأنه لما كان علمه حجة على من أخذ عنه واقبسه منه حتى يلزمه العمل به والمصير اليه
كان عليه أمج وله أزم لان مرتبة العلم قبل مرتبة القول كما أن مرتبة العلم قبل مرتبة
العمل * وقد قال أبو العتاهية رجه الله

اسمع الى الاحكام تحم ملها الر واة اليك عنكا
واعلم هدت بناها * حجب تكون عليك منك
ثم ليجنب أن يقول ما لا يفعل وأن يأمر بما لا يأمر به وأن يسر غير ما يظهر ولا يجعل قول
الشاعر هنا

اعمل بقولي وان قصرت في عملي * بنفسك فولي ولا يضرك تقصيري

عذرا له في تقصير يضره وان لم يضر غيره فان اضرار النفس بغيرها وبحسن لها مساو بها
فان من قال ما لا يفعل فقد مكر ومن أمر بما لا يأمر فقد خدع ومن أسر غير ما يظهر فقد
نافق * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال المكر والخديعة توصاحباهما في النار
على أن أمره بما لا يأمر مطروح وانكاره ما لا ينكره من نفسه مستقيم بل ربما كان ذلك
سببا لغيره المأمور بترك ما أمر به عنادا وارتكاب ما نهى عنه كيدا * وحكى أن اعرابيا
أقرب أن أبي ذئب فسأله عن مسألة طلاق فافتاه بطلاق امرأته فقال انظر حسنا قال نظرت
وقد باننت فولي اعرابي وهو يقول

أنت ابن ذئب أنتي الفقه عنده * فطلق حبي البت تب أنتاهله

اطلق في فتوى ابن ذئب حليتي * وعند ابن ذئب أهل وحلائله

فمن يجمله أنه لا يلزمه الطلاق بقول من لم يلزم الطلاق فاطنك بقول يجب فيه اشتراك
الأمر والمأمور كيف يكون مقبولا منه وهو غير عامل به ولا قابل له كلا * وقال أحمد

ابن يوسف وعامل بالقبحور يأمر بالركهاد يخوض في الظلم

أو كطبيب قد شفه سقم * وهو يدأوى من ذلك السقم

يا واعظ الناس غير معظ * ثوبك طهر أولا فلا تلم

(وقال آخر)

عوذ لسانك قل اللفظ * واحفظ كلامك أيا محفظ

اياك أن تعظ الرجال وقد * أصحبت محنتا جالي الوعظ

وأما الانقطاع عن العلم الى العمل والانقطاع عن العمل الى العلم اذا عمل بموجب العلم
فقد حكى عن الزهري فيه ما يغني عن تكلف غيره وهو أنه قال العلم أفضل من العمل لمن
جهل والعمل أفضل من العلم لمن علم وأما أفضل ما بين العلم والعبادة اذ لم يخل بواجب
ولم يقصر في فرض * فتدبر روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يبعث العالم والعابد
فيقال للعابد أدخل الجنة ويقال للعالم اتشد حتى تشفع للناس ومن آداب العلماء أن لا يخلوا

وأما السكون الذي نعى به
عدم الطيش فهو ما عند
الخصومة ما في الخروب
التي يذب بها عن الحريم
أو عن الشريعة وهو قوة
للنفس تقصر مكرها في
هذا الأحوال لشدها

وأما الشهامة فهي الحرص
على الأعمال العظام توقعا
للاحدوث الجميلة * وأما
احتمال الكد فهو قوة
للنفس بما تستعمل آلات
البدن في الأمور الحسية
بالتمرين وحسن العادة

الفصائل التي تحت

السوء

الكرم * الايثار * النيل *
المواساة * السماحة * المسامحة

أما الكرم فهو انفاق

المال الكثير بسهولة من

النفس في الأمور الجليلة

القدر والكثرة النفع كما

ينبغي وباقي شرائط السخاء

التي ذكرناها * وأما الايثار

فهو فضيلة للنفس بما يكف

يتعلم ما يحسنون ولا يعتنوا من افادته ما يعلمون فان الجهل به لئوم وظلم والمنع منه حسد وانهم
وكيف يسوغ لهم الجهل بما مضوه جودا من غير بخل وأولوه عقوا من غير بذل أم كيف
يجوز لهم الشح بما ان بذله زادون وان كتموه تناقص ووهى ولو استن بذلك من تقدمهم
لما وصل العلم اليهم ولا تقرر عنهم بانقرضهم وإصاروا على مرور الأيام حالاً وبتقلب
الأحوال وتناقصها أزدالا . وقد قال الله تعالى وإذا أخذ الله ميتات الذين أنزلنا الكتاب
لنتبينه للناس ولا تنكوه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تمنعوا العلم
أهله فان في ذلك فساد دينكم والتباس بصائركم ثم قرأ أن الذين يكتمون ما أنزلنا من
البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله وبلغهم اللاعنون
• وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من كتم علما يحسنه ألجسه الله يوم القيامة
بالحام من نار . وروى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال ما أخذ الله العهد
على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ العهد على أهل العلم أن يعلموا . وقال بعض الحكماء
إذا كان من قواعد الحكمة بذل ما ينقصه البذل فاحرى أن يكون من قواعدها بذل
ما يزيد به البذل . وقال بعض العلماء كما أن الاستفادة نافعة للتعلم كذلك الافادة قريضة
على المعلم . وقد قيل في منثور الحكم من كتم علما فساكنه جاهل . وقال خازن صفوان
ان لا فرح بافادتك المتعلم أكثر من فرح باستفادتك من العلم . ثم له بالتعلم نفعان أحدهما
ما بر جوه من ثواب الله تعالى فقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم التعليم صدقة فقال
تصدقوا على أخيك يعلم برشد ورأى يسدده . وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه
وسلم أنه قال تعلموا وعلما فان أجر العالم والمتعلم سواء قيل وأجرهما قال ما به مغفرة ومائة
درجة في الجنة والنفع الثاني زيادة العلم واتقان الحفظ فقد قال الخليل بن أحمد جعل
تعليمك دراسة للعلم وأجعل مناظرة المتعلم تنبيه على ما ليس عندك . وقال ابن المعتز
في منثور الحكم النار لا تنقصها ما أخذ منها ولكن يحمدها أن لا تحب خطبا كذلك العلم
لا يفنيه الاقتباس ولكن فقد الحاملين له سبب علمه فياك والجهل بما تعلم . وقال بعض
العلماء علم علمك وتعلم علم غيرك فإذا علمت ما جهلت وحفظت ما علمت فأعلم أن المتعلمين
ضربان مستدعي وطالب فاما المستدعي الى العلم فهو من استدعاه العالم الى التعليم
لما ظهر له من جودة كانه وبان له من قوة خاطره فاذا وافق استدعاه العالم شهوة المتعلم
كانت نتيجة ادراكه الحياء وظفر السعداء لان العالم يستدعاه متوقفا والمتعلم بشهوته
مستكثر وأما طالب العلم لاداع يدعو وباعث يحده فان كان الداعي دينيا وكان المتعلم
فطنا ذكيا وجب على العالم أن يكون عليه مقبلا وعلى تعليمه متوقفا لا يخفي عليه مكنونا
ولا يطلو عنه مخزونا وان كان بليدا بعيد الفطنة فينبغي أن لا تمنع من اليسير فيعلم
ولا يحمل عليه بالكثر فيظلم ولا يجعل بلادته ذر بعلمه فانه الشهوة بالعيشة وألصق
مؤثر • وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تمنعوا العلم أهلها فظنوا ولا تنفعوا
في غير أهلها فتأثروا • وقال بعض الحكماء لا تمنعوا العلم أحدا فان العلم أمنع لجانبه فاما
ان لم يكن الداعي دينيا نظره فان كان مباحا كرجل دعاه الى طلب العلم حب النباهة

الانسان عن بعض حاجاته
التي تخصه حتى يبذله لمن
يسحقه • وأما النيل فهو
مرور النفس بالأفعال
العظام وابتهاجا بلزوم
هذه السيرة • وأما المواساة
فهي معاونة الأصدقاء
والمستحقين ومشاركهم في
الأموال والأقوات •
وأما السماحة فهي بذل
بعض ما لا يجب • وأما
المساحة فهي ترك بعض
ما يجب والجميع يكون
بالارادة والاختيار

الفصل الثاني في تحت

العدالة

الصداقة • الألفة • صلة
الرحم • المكافاة • حسن
الشركة • حسن القضاء •
التسودد • العادة • ترك
الحقد • مكافاة الشر بالخير
استعمال اللطف • ترك
المروءة في جميع الأحوال
ترك المعادة • ترك
الحكاية عن ليس بعدل

وطلب الرثاسة فالقول فيه بمقارب القول الأول في تعليم من قبل لان العلم يعطى الى الدين في ثاني حال وان لم يكن مبتدئا به في أول حال * وقد حكى عن سفيان الثوري أنه قال تعلمنا العلم لغير الله تعالى فاني أن يكون الا الله . وقال عبد الله بن المبارك طلبنا العلم للدنيا فدلنا على ترك الدنيا وان كان الداعي محظورا ذكر رجل دعاه الى طلب العلم شركا من ومكر باطن يريد أن يستعملهما في شبه دينه وحيل فقيهه لاجتذاب أهل السلامة منها مخلصا ولا عنهما مدفعا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أهلك أمتي رجلان عالم فاجر وجاهل متعبد * وقيل يارسول الله أي الناس شر قال العلماء اذا افسدوا فينبغي للعالم اذا رأى من هذه حاله أن يمتنع عن طلبته ويصرفه عن بعثته فلا يعينه على امضاء مكره واعمال شره فقد روى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال وارضع العلم في غير أهله كقتل الخنازير اللؤلؤ والجوهر والذهب . وقال عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام لا تلقوا الجوهر لاخنزير فالعلم افضل من اللؤلؤ ومن لا يستحقه شر من الخنزير * وحكى أن تليذا سأل طالبا عن بعض العلوم فلم يقبل له لم تمنعه فقال لكل تربة غرس ولكل بناء أس * وقال بعض البلغاء لكل ثوب لابس ولكل علم قابس * وقال بعض الادباء ارتل روضة توسطها خنزير وابلت لعلم حواء شر يروى بنى أن يكون للعالم فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقته وقدر استحقاقه ليعطيه ما يحمله بكاه أو يضعف عنه بسلادته فانه أرحم العالم وأنجح للتعليم * وقد روى ثابت عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله عبادا يعرفون الناس بالتوسم * وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه اذا أنال علم مالم أرفق لا علمت ما رأيت وقال عبد الله بن الزبير لا عاش بخير من لم يربأ به مالم يربع بينه * وقال ابن الرومي المني برى بأول رأى * آخر الامرين وراء الغيب لو ذعي له فسؤاؤد كى * ماله في ذكائه من ضريب لا يروى ولا يقلب طرفا * واكف الرجال في تقلب

واذا كان العالم في توسم المتعلمين بهذه الصفة وكان بقدر استحقاقهم خبر الم يضع له عناء ولم يجزع على يده صاحب وان لم يتوسمهم وخفيت عليه أحوالهم ومبلغ استحقاقهم كانوا اواباه في عناء مكده وتعب غير مجد لانه لا يعدم أن يكون فيهم ذكى محتاج الى الزيادة وبليد يكتفي بالقليل فيخبر الذكى منه ويحجز بالليلد عنه ومن يردد أصحابه بين عجز وخبر ملوه وملهم . وقد حكى عبد الله بن وهب أن سفيان بن عبد الله قال قال الخضر لوسى عليهما السلام يا طالب العلم ان القائل أقل ملالة من المستمع فلا تمل جلساءك اذا حدثتهم ياهومى واعلم ان قلبك وعاء فانظر ما تحسوف وعائل * وقال بعض الحكماء خير العلماء من لا تقل ولا يعل . وقال بعض العلماء كل علم كثر على المستمع ولم يطاوعه الفهم ازيد القلب به عبي واغما يتنع سمع الآذان اذا قوى فهم القلوب في الابدان وربما كان لبعض السلاطين رغبة في العلم لقضية نفسه وكرم طبعه فلا يجعل ذلك تذريعة في الانسباط عنده والادلال عليه بل يعطى ما يستحقه بسلطانه وعلو يده فان للسلطان حق الطاعة والاعظام وللعالم حق القول والاكرام ثم لا ينبغي أن يبتدئه الأبعد الاستدعاء ولا يزيد على قدره الا كنفاء فر بما

مرضى * البحث عن سيرة من يحكى عنه * العدل * ترك لفظه واحده لآخر فيها لمسلم فضلا عن حكاية توجب حدا وقدما وقتلا أو قطعاً * ترك السكون الى قول سفيان الناس وسقطهم * ترك قول من يكذب بين الناس ظاهرا باطنا أو يخف في مسألة أو يلج بالسؤال * فان هؤلاء برضيم النبي اليسير فيقولون لأجله حسنا ويسقطهم اذا منعوا السير فيقولون لأجله قبيحا ترك الشر في كسب الخلال وترك ركوب الذنائة في الكسب لأجل العيال * الرجوع الى الله وإلى عهده وميثاقه عند كل قول يتلفظه أو لفظ يلحظه أو خطرة في أعدائه وأصدقائه * ترك اليمين بالله وشئ من أممائه وصفاته رأسا وليس يعدل

أحب بعض العلماء اظهار علمه للسلطان فاكثره فصار ذلك ذريعة الى مله ومفضيا الى بعده فان السلطان متقسم الافكار مستوعب الزمان فليس له في العلم فراغ المتقطعين اليه ولا صبرا المنفردين به . وقد حكى الاصمعي رحمه الله قال قال الرشيد يا عبد الملك أنت أعلم منا ونحن أعقل منك لا تعلمنا في ملا ولا تسرع الى تذكرينا في خلا وأتركنا حتى نبتدئك بالسؤال فاننا بليغ من الجواب حدا لاستحقاق فلا تزدنا لأن يستدعي ذلك منك وانظر الى ما هو أطف في التأديب وأنصف في التعليم وبلغ بأو خ لفظ غاية التقويم ولغير ج تعليم مخرج المذاكرة والمحاضرة لا مخرج التعليم والأفادة لأن لتأخير التعليم خجلة تقصير يجعل السلطان عنها فان ظهر منه خطأ أو زلل في قول أو عمل لم يجاهره بالرد وعرض باستدراك زله واصلاح خله . وحكى ابن عبد الملك بن روان قال للشعبي كم عطاءك قال ألفين قال لحنك قال لما ترك أمير المؤمنين الأعراب كرهت أن أعرب كلامي عليه ثم لعذر أتباعه فيما يحاتب الدين وبضاد الحق موافقت له ومتابعة طواه فبرما زالت أقدام العلماء في ذلك رغبة أو رهبة فضلوا وأضلوا مع سوء العاقبة وقبح الآثار * وقدرى الحسن البصرى رحمه الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزال هذه الامة تحت يداي وفي كتفيها لم يعارقرؤها أمراءها ولم يزك صلحاءها فجاءها ولم يعارأ خيارها فأذا فاعلوا ذلك رفع عنهم يده ثم سلب عليهم جبارتهم فساموهم سوء العذاب وضر بهم البقاة والفقر وملا قلوبهم رعبا * ومن آدابهم نزاهة النفس عن شبه المكاسب والقتاعة بالمسور عن كد المطالب فان شبهة المكسب اسم وكد الطلب بذل والأجر أجدر به من الائمه والعز أليق به من الذل * وأنشدني بعض أهل الأدب لعلي بن عبد العزيز القاضى رحمه الله تعالى يقولون لي فيك انقباض وانما * رأوا رجلا عن موقف الذل أحما أرى الناس من داناتهم هان عندهم * ومن أكرمته عزه النفس أكرما ولم أقض حق العلم ان كان كبا * بدا طمع صبرته لى سلا وما كل برق لاح لى يستغفرنى * ولا كل من لا قيت أرضاه منعما اذا قيل هذا منهل قلت قد أرى * ولكن نفس الحر تحتل التلما انهى عنها عن بعض ما لا يشينها * مخافة أغوال العدا في أولها ولم أتبدل في خدمة العلم مهجتي * لا أخدم من لا قيت لكن لأخدما أ أشقى به غرسا وأجنيه ذلة * اذا فاتباع الجهل قد كان أحرما ولأن أهل العلم صافوه صانهم * ولوعظموه في النفوس لعظما ولكن أهانوه فهان ودنسوا * بحياه بالاطماع حتى تبهما

على أن العلم عوض من كل لذة ومن عن كل شهوة ومن كان صادق النية فيه لم يكن له همة فيما يجيد بديامته * وقال بعض البلغاء من تفرد بالعلم لم توحشه خلوه ومن تسلى بالكتب لم تفتقه سلوه ومن أنسه قراءة القرآن لم توحشه مفارقة الإخوان * وقال بعض العلماء لا سمير كالعلم ولا ظهير كالعلم * ومن آدابهم أن يقصدوا وجه الله بتعليم من علوا ويطلبوا ثوابه بارشاد من أرشدوا من غير أن يعتاضوا عليه عوضا ولا يتسوا عليه رزقا *

من لم يكرم زوجه وأهلها المتصلين بها وأهل المعرفة الباطنية . وخير الناس خيرهم لاهله وعشيرته والمتصلين به من أخ أو ولد أو متصل بأخ أو ولد أو قريب أو نسيب أو شريك أو جاز أو صديق أو حبيب . ومن أحب المال حبا مفرط لم يؤهل لهذه المرتبة . فان حرصه على جمع المال يصد عنه استعمال الرأفة وامتناع الحق وبذل ما يجب ويضطره الى الخيانة والكذب والاختلاق والارزومع الواجب والاستقصاء واستحباب الدائق والحبة والمذرة لمسع الدين والمروفة . وربما نفق أموالا لجة محبة منه للحمدة وحسن الثناء ولا يريد بذلك وجه الله وما عنده . بل يتخذها مصيدة ويحصل ذلك مكسبه ولا يعلم أن ذلك

قال الله تعالى ولا تشعروا بآياتي ثمنا قليلا * قال أبو العالية لا تأخذوا عليه أجرا وهو مكتوب عندهم في الكتاب الأول ما بين آدم علم مجانا كما علمت مجانا * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أجرا المعلم كاجر الصائم القائم وحسب من هذا أجره أن يلتبس عليه أجرا * ومن آدابهم نصع من علمه والرفق بهم وتسهيل السبيل عليهم وبذل المجهود في رفدهم ومعونتهم فان ذلك أعظم لاجرهم وأسنى لذكرهم وأنشر لعلومهم وأرسخ لعلومهم * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال املحى كرم الله وجهه باعلى لأن يهدي الله بك رجلا خيرا ما طاعت عليه الشمس * ومن آدابهم أن لا يعنفوا متعلا ولا يحقره وانشأوا لا يستغفروا مبتدئا فان ذلك ادعى اليهم وأعطف عليهم وأحث على الرغبة فيما لديهم * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال علموا ولا تعنفوا فان المعلم خير من المئنف * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال وقر وامن تتعلمون منه وقر وامن تعلمونه * ومن آدابهم أن لا يعنوا طالبا ولا يؤيسوا متعلا لما في ذلك من قطع الرغبة فيهم والزهد فيما لديهم واستمرار ذلك مفض الى انقراض العلم بانقراضهم . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ألا أبشركم بالفقيه كل الفقيه قالوا بلى يا رسول الله قال من لم يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤيسهم من روح الله ولا يدع القرآن رغبة الى مساواه الا لاخير في عبادة ليس فيها نفعه ولا علم ليس فيه نفعهم ولا قراءة ليس فيها تدبر فهذه جملة كافية والله ولي التوفيق

عليه سنة ومسية * اما الصداقة فهي محبة صادقة يهتم معها بجميع اسباب الصديق وأشار بفضل الخبرات التي تمكن فعلها به . وأما الالفه فهي اتفاق الآراء والاعتقادات . وتحدث عن التواصل فيعتقد معها التضافر على تدبير العيش * وأما صلة الرحم فهي مشاركة ذوى اللحمة في الخبرات التي تكون في الدنيا . وأما المكافاة فهي مقابلة الاحسان بمثله أو بزيادة عليه . وأما حسن الشركة فهو الأخذ والاعطاء في المعاملات على الاعتدال الموافق للجميع * واما حسن القضاء فهو مجازاة بعمل يغفر ندم ولا من * وأما التودد فهو طلب مودات الاكفاء واهل الفضل بحسن

باب ادب الدين

اعلم أن الله سبحانه وتعالى انما كاف الخلق متعبداته والزمهم مفترضاته وبعث اليهم رسلا وشرع لهم دينه لغير حاجته الى تكليفهم ولا ضرورة قاده الى تعبدهم وانما قصد نفعهم تفضلا منه عليهم كما تفضل بما لا يحصى عذامن نعمة بل النعمة فيما تعبدهم به أعظم لان نفع ما سوى المتعبدات مختص بالدنيا العاجلة ونفع المتعبدات يشتمل على نفع الدنيا والآخرة وما جمع نفع الدنيا والآخرة كان أعظم نعمة وأكثر تفضلا وجعل ما تعبدهم به مأخوذا من عقل متبوع وشرع مسموع فالعقل متبوع فيما لا يمنع منه الشرع والشرع مسموع فيما لا يمنع منه العقل لان الشرع لا يرد بما يمنع منه العقل والعقل لا يبيع فيما يمنع منه الشرع فلذلك توجه التكليف الى من كل عقله فارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون فبلغهم رسالته وأزمهم بحمته وبين لهم شريعته وتلا عليهم كتابه فيما أحله وحرمه وأباحه وحظره واستحبه وكرهه وأمر به ونهى عنه وما وعده من الثواب لمن أطاعه وأوعده من العقاب لمن عصاه فكان وعده ترغيبا ووعده تهديبا لان الرغبة تبعث على الطاعة والرغبة تكفي عن المعصية والتكليف يجمع أمر بطاعة ونهي عن معصية ولذلك كان

كمال وحالة جواز رفقا منه مخلقه لما سبق في علمه أن فيهم الجمل المبادر والبطيء المتناقل ومن لاصبر له على أداء الكل لا يكون مأخبل به من هيئات عبادته غير قادر في فرض ولا مانع من أجر فكان ذلك لمن نعمة علينا وحسن نظره إلينا وكان أول ما فرض بعد تصديق نبيه صلى الله عليه وسلم عبادات الابدان وقد قدمها على ما يتعلق بالاموال لان النفوس على الاموال أشنع وما يتعلق بالابدان أسهم وذلك الصلاة والصيام فتقدم الصلاة على الصيام لان الصلاة أسهل فعلا وأيسر عملا وجعلها مشتملة على خضوع له وإبتال اليه فالخضوع له رغبة منه والابتال اليه رغبة فيه ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم إذا قام أحدكم الى صلاته فاعلم بان يحريه فلينظر بم ينأجيه وروى عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه انه كان كلما دخل عليه وقت صلاة اصفر لونه مرة وأجر أخرى فقل له في ذلك فقال أتني الأمانة التي عرضت على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملتها أنا فلا أدرى أؤمى فيها أم أحسن ثم جعل لها شرطاً والأزمة من رفع حدث وإزالة الخس ليستديم النظافة للقاء ربه والطهارة لاداء فرضه ثم ضمنها تلاوة كتابه المنزل ليتدبر ما فيه من أوامره ونواهيه ويعتبر بانحياز الفطنة ومعانيه ثم علقها باوقات راتبة وأزمان مترادفة ليكون ترادف أزمانها وتتابع أوقاتها سبباً لاستدامة الخضوع له والابتال اليه فلا تنقطع الرغبة منه ولا الرغبة فيه وأذا لم تنقطع الرغبة والرغبة استدام صلاح الخلق وبحسب قوة الرغبة والرغبة يكون استيفاءها حال الكمال أو التخصير فيها حال الجواز * وقدر روى عن النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة مكمل لمن وفى وفى له ومن طفف فقد علم ما قال الله في المطففين * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من هانت عليه صلاته كانت على الله تعالى عز وجل أهون * وأنشدت لبعض الفصحاء في ذلك

أقبل على صلواتك الجنس * كم مصعب وعساة لا يمسي
واستقبل اليوم الجديد بتوبة * تمحو ذنوب صبيحة الأمس
فليفعل بوجهك الغض البلى * فعل التذلل بصورة الشمس

ثم فرض الله تعالى الصيام وقدمه على زكاة الاموال لتعلق الصيام بالابدان وكان في الإجماع حث على رحمة الفقراء وأطعامهم وسد جوعاتهم لما عاينوه من شدة الحاجة في صومهم وقد قيل ليوسف على نبينا وعليه السلام أتجوع وأنت على خزائن الارض فقال أخاف أن أشبع فأنسى الجائع ثم لما في الصوم من قهر النفس وإدلالها وكسر الشهوة المستولية عليها وأشعار النفس ما هي عليه من الحاجة الى سبيل الطعام والشراب والمحتاج الى الشيء دليل به وبهذا احتج الله تعالى على من اتخذ عيسى على نبينا وعليه السلام وأمه إلهين من دونه فقال ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الازل وأمه صدقة كانا يا كلان الطعام فجعل احتياجهما الى الطعام نقصا قيمهما عن أن يكونا إلهين وقد وصف الحسن البصري رحمه الله تعالى نقص الانسان بالطعام والشراب فقال مسكين ابن آدم محتوم الاجل مكتوم الامل مستور العلل يتكلم بلحم وينظر بشعم ويسمع بعظم أسير

رذائل ما أنا واصفه * ان
الارض لما كانت في غاية
البعد من السماء قيل انها
وسطها بالجملة المر كرم
الدائرة هو على غاية البعد
من المحيط وإذا كان الشيء
على غاية البعد من شيء
آخر فهو من هذه الجهة
على القطر * فعلى هذا
الوجه ينبغي ان يفهم معنى
الوسط من الفضيلة اذا
كانت بين رذائل بعدها
منها أقصى البعد ولهذا اذا
انحرفت الفضيلة عن
موضعها الخاص بها أدنى
انحراف قريب من رذيلة
أخرى ولم تسلم من العيب
بحسب قربها من تلك
الرذيلة التي تميل اليها ولهذا
صعب جداً وجود هذا
الوسط ثم التمسك به بعد
وجوده أصعب * لذلك
قالت الحكماء أصابة نقطة
الخدق أعسر من العدول
عنها وزوم الصواب بعد

جوعه صريع شبعه تؤذيه البقه وتنتنه العرقه وتقتله الشرقة لا علك لنفسه ضر ولا نفعاً
 ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً فانظر الى اطفه بنا فمياً أو وجهه من الصيام علينا كيف انقظ
 العقول له وقد كانت عنه غافلة أو متغافلة ونفع النفوس به وإن كنت متنتعة ولا نأفئة
 ثم فرض زكاة الاموال وقدمها على فرض الحج لأن في الحج مع اتفاق المال سفرًا شاقاً
 فكانت النفس الى الزكاة أسرع احاطة منها الى الحج فكان في ايجابها مواساة للفقراء
 ومعونة لذوى الحاجات تكفهم من البغضاء وتمنعهم من التقاطع وتبعثهم على التواصل
 لان الآمل وصول والاراجى هائب واذا زال الآمل وانقطع الرجاء واشتدت الحاجة وقعت
 البغضاء واشتد الحمد فحدث التقاطع بين أرباب الاموال والفقراء وقعت العداوة بين
 ذوى الحاجات والاغنياء حتى تقتضى الى التغالب على الاموال والتغريب بالنفوس هذا
 مع ما في أداء الزكاة من تمرين النفس على السماحة المحمودة ومجانبة الشغ المذموم لان
 السماحة تبعث على اداء الحقوق والشغ يصد عنها وما يبعث على اداء الحقوق فأجدر
 به جداً وما صد عنها فأخلق به ذماً • وقد روى أبوهريرة رضي الله عنه أن النبي صلى
 الله عليه وسلم قال شر ما أعطى العبد شغ هالغ • وجن خالغ • فسبحان من دبر بالمطيف حكمته
 وأخفى عن فطنتنا جزيل نعمته حتى استوجب من الشكر باخفائها أعظم مما استوجبه
 بآياتها • ثم فرض الحج فكان آخر فرضه لانه يجمع عملاً على بدن وحققاً في مال
 فجعل فرضه بعد استقرار فرض البدن وفروض الاموال ليكون استئناسهم بكل واحد
 من النوعين ذريعة الى تسهيل ما جمع بين النوعين فكان في ايجابها تذكرة ليرحمهم الحشر
 بمفارقة المال والاهل وخضوع العزيز والذليل في الوقوف بين يديه واجتماع المطيع والعاصي
 الى بهيمة والرغبة اليه واقتلاع اهل المعاصي عما اجترحوه وتذم المذنبين على ما أسلفوه
 فقل من حج الا وادى فدية من ذنبه واقتل اعمن معصيته ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم
 من علامة المحجة المبرورة أن يكون صاحبها بعد ما خيرا منه قلبها وهذا صحيح لان التذم على
 الذنوب مانع من الاقدام عليها والتوبة مكفرة لما سلف منها فإذا كف عما كان يقدم عليه
 أبى عن محبة توبته وجهته التوبة تقتضى قبول محبته ثم به بما عافى فيه من مشاق السفر
 المؤدى اليه على موضع النعمة فراهة الآثمة وأنسية الاوطان ليعزوا على من سلب هذه
 النعمة من أبناء السبيل ثم اعلم عسا هذه حرمة الذي أنشأ منه دينه وبعث فيه رسوله صلى
 الله عليه وسلم ثم تشاهده دار الهجرة التي أعز الله بها اهل طاعته وأذل بنصرة نبيه محمد
 عليه الصلاة والسلام اهل معصيته حتى خضع له عظماء المتحيرين وتذل له زعماء المنكبرين
 أنهم يستمر عن ذلك المكان المنقطع ولا تقوى بعد الضعف اليه حتى طبق الارض شرقاً
 وغرباً بالابحجرة ظاهرة ونصر عزير فاعتبر اهل حمل الله الشكر ووفقت للتقوى انعامه
 عليك فيما كلفك واحسانه اليك فيما تعبدك فقد وكلت الي فطنتك وأحلتك على
 بصيرتك بعد أن كنت لك راداً صديقاً ونجاشقاً فوقاً هل تحسن نهوضاً بشكره اذا فعلت
 ما أمرك وتقبلت ما كلفك كالا انه لا يوليك نعمة توجب الشكر الا وصلها قبل شكر ما صلف
 بنعمة توجب الشكر في المؤتلف • وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما ما منع الله أن كثر من أن

ذلك حتى لا يخطأها العسر
 وأصعب • وذلك ان
 الاطراف التي تسمى
 رذائل من الافعال
 والاحوال والزمان وسائر
 الجهات كثيرة جداً
 • ولذلك كانت دواعي
 الشر أكثر من
 دواعي الخير ويجب
 ان تطلب أوساط تلك
 الاطراف بحسب كل فرد
 • فاما ما يجب على
 المؤلف فهو ان يذكر
 هذه الاوساط وقوانينها
 بحسب ما يليق بالصناعة
 لأعلى ما يجب على كل
 شخص شخص فان هذا
 غير ممكن فان التجار والصائغ
 وجميع أرباب الصناعات
 انما يحصل في نفوسهم
 قوانين وأصول فيعرف
 الغيار ضرورة الباب
 والسرير والصائغ صورة
 الخاتم والناج على الاطلاق
 فاما أشخاص ما قام في نفسه

تشكر الاما أعان عليه وذنوب ابن آدم أكثر من أن تغفر الاماعني عنه * وأنشدت
لنصور بن اسماعيل الفقيه المصري رحمه الله تعالى

شكر الاله نعمة * موجبة لشكره

فكيف شكرى بره * وشكره من به

وإذا كنت عن شكر نعمه عاجز فكيف بك إذا قصرت فيما أمرك أو فرطت فيما كفلك
ونعمه أعوذ عليك لو فعلته هل تكون لسواي نعمه إلا كفورا ويبداية العقول
الأمزجورا وقد قال الله تعالى يعرفون نعمه الله ثم ينكرونها • قال مجاهد أي يعرفون
ما عده الله عليهم من نعمه وينكرونها بقولهم انهم ورثوها عن آبائهم واكتسبوها
بأنفسهم • وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله يا ابن آدم ما أنصفتني
أتحب اليك بالنعم وتقتني بالمعاصي خبري اليك نازل وشركك الذي صاعدكم من ملك
كريم يصعد اليك منك يعمل قبيح • وقال بعض صلحاء السلف قد أصبح بنامن نعم الله تعالى
ما لا تحصى مع كثرة مانعني فلا ندري أيهما نشكر أجمل ما يشترأ قبيح ما يستحقني على
من عرف موضع النعمة أن يقبلها امتثالاً لكاف منها وقبولها يكون بادائها ثم يشكر الله
تعالى على ما أنعم من أسدائها فان بنامن الحاجة إلى نعمه أكثرها كلفنا من شكر نعمه فان
نحن أدينا حق النعمة في التكليف تفضل بإسداء النعمة من غير جهة التكليف فلزم
النهتان ومن لم تمتعه النعمتان فقد أوفى حظ الدنيا والآخرة وهذا هو السعيد بالاطلاق
وان قصرنا في أداء ما كلفنا من شكره قصر عنا ما لا تكليف فيه من نعمه فنفرت النعمتان
ومن نفرت عنه النعمتان فقد سلب حظ الدنيا والآخرة فلم يكن له في الحياة حظ ولا في الموت
راحة وهذا هو الشقي بالاستحقاق وليس يختار الشقوة على السعادة ذل ولا يصح ولا عقل سليم
* وقد قال الله تعالى ليس بامانكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجزيه • وروى
الأعمش عن سليم قال قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه يا رسول الله ما أشده هذه الآفة من
يحمل سوءاً يجزيه فقال يا أبا بكران المصيبة في الدنيا جزاء واختلاف المفسرون في تأويل
قوله تعالى سنعذبهم مرتين فقال بعضهم أحدا العذاب في الدنيا والثاني عذاب
القبر • وقال عبد الرحمن بن زيد أحدا العذاب بين مصائبهم في الدنيا في أهوالهم وأولادهم
والثاني عذاب الآخرة في النار وليس وان نال أهل المعاصي لذته من عيش أو أدر كوا أمينة
من دنيا كانت عليهم نعمة بل قد يكون ذلك استدراجاً ونعمة • وروى ابن أبي عمير عن عتبة
ابن مسلم بن عامر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إذا رأيت الله تعالى يعطي العباد
ما يشاؤون على معاصيهم أباه فانما ذلك استدراج منهم ثم تلافوا نسوا ما ذكروا به فقتلنا
عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون • فاما
المحرمات التي يمنع الشرع منها واستقر للتكليف عقلاً وأشرعاً بالنهي عنها فتنقسم قسمين
منها ما تكون للنفس داعية إليها والشهوات باعثة عليها كالسفاح وشرب الخمر فقد
جزأ الله عنها القوة الباعث عليها وشدة الميل إليها من الزجر أحدهما حد عاجل
يرتدع به الجريء والثاني وعيد أجل يزجر به التقى ومنها ما تكون النفس نافرة منها

فانما يستقر بها بتلك
القوانين ولا يمكنه تعرف
الأشخاص لأنها بالانهاية
* وذلك ان كل باب وخاتم
انما يعمل بمقدار ما ينبغي
وعلى قدر الحاجة وبحسب
المادة والصناعة لا تضمن
الامعرفة الاصول فقط *
واذ قد ذكرنا معنى الوسط في
الاخلاق وما ينبغي أن يفهم
منه فلنذكر هذه الاوساط
لتفهم منها الاطراف التي
هي ردائل شر ورفق
وبالله التوفيق

(أما الحكمة) فهي وسط
بين السفه والبله وأعني
بالسفه ههنا استعمال
القوة الفكرية فيما لا ينبغي
وكما لا ينبغي * وسماه
القوم الجريء وأعني بالبله
تعطيل هذه القوة
واطراحها وليس ينبغي
أن يفهم أن البله ههنا
نقصان القوة قبل ما ذكرته
من تعطيل القوة الفكرية

والشهوات مصر وقتعتها كما كل انبياء والمستغذرات وشرب السموم المتلفات فاقتصر
الله في الزجر عنها بالوعيد وحده دون الخلد لأن النفوس مستعدقة في الزجر عنها ومصروفة
عن ركوب المخطور منها ثم أكد الله زجره بانكار المنكرين لها فوجب الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر ليكون الأمر بالمعروف تأكيداً لكيد الأوامر والنهي عن المنكر تأسيساً
لزجره لأن النفوس الأشرة قد ألهمتها الصبوة عن اتباع الأوامر وأذهلتها الشهوة عن
تذكار الزجر وكان انكار المجانسين أنزجرها وتوبيخ المخاطبين أبلغ فيها ولذلك قال النبي
صلى الله عليه وسلم ما أقر قوم المنكرين أظهرهم إلا أنهم الله بعذاب محتضر . وإذا كان
ذلك فلا يخلو حال فاعلى المنكر من أحد الأمرين أحدهما أن يكونوا أحاد متفرقين
وأفراد متباعدين لم يتحضر بوائيه ولم يتطافروا عليه وهم رعية مهجورون وأشذاذ
مستضعفون فلا خلاف بين الناس أن أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر مهم المنكدة
وظهور القدرة واجب على من شاهد ذلك من فاعليه أو سمعه من فاعليه وإنما اختلفوا في
وجوب ذلك على منكره هل وجب عليهم بالعقل أو بالشرع فذهب بعض المتكلمين
إلى وجوب ذلك بالعقل لأنه لما وجب بالعقل أن تمتنع من القبيح وجب أيضاً بالعقل
أن تمتنع غيره منه لأن ذلك أدعى إلى مجانبته وأبلغ في مفارقتها . وقد روى عبد الله بن
المبارك رحمه الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن قوماً ركبوها سفينة فاقسموا فأخذ
كل واحد منهم موضعاً فنقرر رجل منهم موضعاً بفأس فقالوا ما تصنع فقال هو مكاني
أسنع فيه ما شئت فلم يأخذوا على يديه فهلكوا وهلكوا وذهب آخرون إلى وجوب ذلك
بالشرع دون العقل لأن العقل لو أوجب النهي عن المنكر ومنع غيره من القبيح لوجب
مثله على الله تعالى ولما حاز وروى الشرع بأقرار أهل الذمة على الكفر وترك التكبير
عليهم لأن واجبات العقول لا يجوز إبطالها بالشرع وفي وروى الشرع بذلك دليل
على أن العقل غير موجب لانكاره فاما إذا كان في ترك انكاره مضرة لاحقة بمنكره وجب
انكاره بالعقل على القولين معاً وأما إن لحق المنكر مضرة من انكاره ولم تلحقه من كفه
واقارره لم يجب عليه الانكار بالعقل ولا بالشرع أما العقل فلا يمتنع من اجتلاب المضار
التي لا يوازها نافع وأما الشرع فقد روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه قال أنكر المنكر بسدك فان لم تستطع فبلسانك فان لم تستطع فبقلمك
وذلك أضعف الأيمان . فان أراد الاقدام على الانكار مع لحوق المضرة به نظر فان لم يكن
إظهار التكبر مما يتعلق بأمر من الله ولا إظهار كلمة الحق لم يجب عليه التكبر إذا خشي
بغالب الظن تلفاً أو ضرراً ولم يخش منه التكبر أيضاً وان كان في إظهار التكبر إحراز دين
الله تعالى وإظهار كلمة الحق حسن منه التكبر مع خشية الأضرار والتلف وان لم يجب عليه
إذا كان الغرض قد يحصل له بالتكبر وان انتصر أو قتل وعلى هذا الوجه قال النبي صلى
الله عليه وسلم أن من أفضل الأعمال كلمة حق عند سلطان جائر . فاما إذا كان يقتل قبل
حصول الغرض قبح في العقل أن يتعرض لانكاره وكذلك لو كان الانكار يزيد المنه
اغراء بفعل المنكر ولجأ في الاكثار منه قبح في العقل انكاره والحال الثانية أن يكون

بالإرادة * وأما إذا كان فهو
وسط بين الحب والبلادة
فإن أحد طرفي كل وسط
افراط والاخر تقريط أعنى
الزيادة عليه والنقصان
منه فأنشئت والدهاء
والخيل الرديئة كلها
إلى جانب الزيادة فيما
ينبغي أن يكون الذكاء
فيه * وأما البلادة والبله
والجهل عن ادراك المعارف
فهى كلها إلى جانب
النقصان من الذكاء * وأما
الذكر فهو وسط بين
النسيان الذي يكون
باهمال ما ينبغي أن يحفظ
وبين العناية بما لا ينبغي
أن يحفظ * وأما العقل
وهو حسن التصور
فهو وسط بين الذهاب
بالنظر في الشيء الموضوع
إلى أكثر مما هو عليه *
وبين القصور بالنظر فيه
عما هو عليه وأما سرعة
الفهم فهى وسط بين
اختطاف خيال الشيء من
غير أحكام لفهمه

فعل المنكر من جماعة قد تظافر واعليه وعصبة قد تحزبت ودعت اليه وقد اختلف الناس في وجوب انكاره على مذاهب شتى فقالت طائفة من أصحاب الحديث وأهل الآثار لا يجب انكاره والاولى بالإنسان أن يكون كافا ممسكا وملازا لبيته وادعائيا منكرا ولا يستغفر وقالت طائفة أخرى ممن يقول بظهور المنتظر لا يجب انكاره ولا التعرض لآثاره إلا أن يظهر المنتظر فيتولى انكاره بنفسه ويكونوا أعوانه وقالت طائفة أخرى منهم الأصم لا يجوز للناس انكاره إلا أن يحتمعوا على امام عدل فيجب عليهم الانكار معه وقال جمهور المتكلمين انكار ذلك واجب والدفع عنه لازم على شرطه من وجود أعوان يصلحون له فاما مع فقد الاعوان فعلى الإنسان الكف لأن الواحد قد يقتل قبل بلوغ الغرض وذلك قبيح في العقل أن يتعرض له فهذا ما كد الله تعالى به أوامره وأيديه زواجه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يختلف من أحوال الأمرين به والناس فيه عنه ثم ليس يحلحوال الناس فيما أمر به ونهى عنه من فعل الطاعات واجتناب المعاصي من أربعة أحوال فمنهم من يستحب إلى فعل الطاعات ويكف عن ارتكاب المعاصي وهذا أكمل أحوال أهل الدين وأفضل صفات المتقين فهذا يستحق جزاء العاملين وثواب الطيعين * روى محمد بن عبد الملك المدائني عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الذنب لا ينسى والبر لا يسى والدبان لا يموت فكن كما شئت وكما تدن تدان * وقد قيل كل محصد ما يزرع ويحزى بما يصنع بل قالوا زرع يومك حصا دغدك ومنهم من يمنع من فعل الطاعات ويقدم على ارتكاب المعاصي وهي أحب أحوال المكلفين فهذا يستحق عذاب اللاهي عن فعل ما أمر به من طاعته وعذاب المجترى على ما أقدم عليه من معاصيه وقد قال ابن شبرمة عجبت لمن يحتمى من الطيبات مخافة الداء كيف لا يحتمى من المعاصي مخافة النار فاخذ ذلك بعض الشعراء فقال

جسمك قد أفتيت بالحي * دهر من البارود والحار
وكان أولى بأن تحتمى * من المعاصي خذ النار

وقال ابن صباوة أنا أنظر نافعنا الصبر على طاعة الله تعالى أهون من الصبر على عذاب الله تعالى وقال آخر اصبر واعباد الله على عمل لا غنى لكم عن ثوابه واصبر واعمل لاصبر لكم على عقابه وقيل للفضيل بن عياض رضي الله عنه رضي الله عنه فقال كيف يرضى عني ولم أرضه ومنهم من يستحب إلى فعل الطاعات ويقدم على ارتكاب المعاصي فهذا يستحق عذاب المجترى لأنه تورط بغلبة الشهوة على الاقدام على المعصية وإن سلم من التفسير في فعل الطاعة * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ألقوا عن المعاصي قبل أن يأخذكم الله تناسا الهل الكسر والبت القطع * ولذلك قال بعض العلماء أفضل الناس من لم تقصد الشهوة دينه ولم تترك الشهوة يقينه * وقال حماد بن زيد عجبت لمن يحتمى من الاطعمة لضراتها كيف لا يحتمى من الذنوب لمعراتها * وقال بعض الصالحين أهل الذنوب مرضى القلوب * وقيل للفضيل بن عياض رضي الله عنه ما يحب الأشياء فقال قلب عرف الله عز وجل ثم عصاه * وقال بعض الالبياء يدل بالطاعة العاصي وينسى عظيم

وبين الابطاء عن فهم حقيقة . واما صفاء الذهن فهو وسط بين غلبة النفس عن استخراج المطلوب وبين التهاب يعرض فيها قيمتها من استخراج المطلوب واما جودة الذهن وقوته فهو وسط بين الافراط في التأمل لما زعم من المقدم حتى يخرج منه إلى غيره وبين التفريط فيه حتى يقصر عنه أو ما سهوله التعلم فهي وسط بين المبادرة اليه بسلاسة تثبت معها صورة العلم وبين التعصب عليه وتعدره (وأما العفة) فهي وسط بين رذيلتين وهما الشره ونهم الشهوة وأعنى بالشرة الانهماك في اللذات وانخروج فيها عما ينبغي وأعنى بنهم الشهوة السكون عن الحركة التي تسلب الخواصة الجميلة

المعاصي • وقال رجل لابن عباس رضي الله عنهما أيما أحب إليك رجل قليل الذنوب قليل العمل أو رجل كثير الذنوب كثير العمل فقال ابن عباس رضي الله عنهما لا أعدل بالسلامة شيئا • وقيل لبعض الزهاد ما تقول في صلاة الليل فقال خف الله بالنهار وغم بالليل وسميع بعض الزهاد رجلا يقول لقوم أهلككم النوم فقال بل أهلككم اليقظة • وقيل لابي هريرة رضي الله عنه ما التفتوي فقال أجرت في أرض فيأشوك فقال نعم فقال كيف كنت تصنع فقال كنت أتوقى قال فتوق الخطايا • وقال عبد الله بن المبارك

أيضمن لي فتى ترك المعاصي • وأرهقه الكفالة بالملاص

أطاع الله قوم واستراحوا • ولم يفرحوا غصص المعاصي

ومنهم من يمتنع من فعل الطاعات ويكف عن ارتكاب المعاصي فهذا يستحق عذاب اللاهي عن دينه المنذر بقله يقينه • وروى أبو داود بسند الخولاني عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كانت صحيف مومي (علي نبينا وعليه السلام) كلها عبرا عجبت لمن أيقن بالنار ثم يضل ويحبت لمن أيقن بالنار ثم يتعب ويحبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلهام ثم يطعمهم اليها • ويحبت لمن أيقن بالموت ثم يفرح ويحبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم لا يعمل • وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اجتهدوا في الليل فإن قصر بكم ضعف فكفوا عن المعاصي وهذا واضح المعنى لأن الكف عن المعاصي ترك وهو أسهل وعمل الطاعات فعل وهو أثقل ولذلك لم يجمع الله تعالى ارتكاب المعصية بعذر ولا يفر عن تركها بعذر وإنما أباح ترك الأعمال بالأعذار لأن العمل قد يهجر المعذور عنه • وقال بكر بن عبد الله رحمه الله امرأ كان قويا فاعمل فرتة في طاعة الله تعالى أو كان ضعيفا فكف عن معصية الله تعالى • وقال عبد الأعلى بن عبد الله السامي رحمه الله تعالى

الصور ينقص والذنوب تزيد • وتقال عثرات الفتى فيعود

دل يستطيع بخود ذنب واحد • رجل جوارحه عليه شهود

والمرء يسأل عن سيئه فيستهي • تقليلها وعن الممات يحيسد

واعلم أن الأعمال الطاعات ومجانسة المعاصي آفتين أحدهما تكسب الوزر والآخرى توهن الأجراما المكسبة للوزر فالحجاب بما سلف من عمله وقدم من طاعته لأن الإعجاب به يفضي إلى حالته من مذمومتين أحدهما أن المحجب بعمله يمتن به والمتمن على الله تعالى جاحد لنعمه • قال ابن عباس رضي الله عنهما أوحى الله تعالى إلى نبي من أنبيائه أما زدك في الدنيا فقد استجلبت به الراحة وأما انقطاعك إلى فهو عزك فهذا لك بوقيت أنا والشانية أن المحجب بعمله مدله والمدل بهلج مجترئ والمجترئ على الله عاص • وقال موريق البجلي خير من المحجب بالطاعة أن لا يأتي بطاعة • وقال بعض السلف ضاحك معترف بذنبه خير من يالك مدل على ربه وبالك نادم على ذنبه خير من ضاحك متترف بلهوه • وأما الموهنة للأجر فالثمة بما أسلف والركون إلى ما قدم لأن الثقة تؤل إلى أمرين اثنين أحدهما يحدث إذا كالا على ماضى وتقصير فيما يستقبل ومن قصر واتكل لم يرج أجرا ولم يؤد مشكرا

التي يحتاج إليها البدن في ضروراته وهي ما رخص فيه صاحب الشريعة والعقل

وأما الفضائل التي تحت العفة فإن الحياء وسط بين رذيلتين • أحدهما الوقاحة والآخرى الخرق • وأنت تقدر على أن تلحق أطراف الفضائل الأخرى التي هي رذائل وربما وجدت لها أسماء بحسب القصور ربما وجدت لها أسماء وليس بعسر عليك فهم معانيها والسلوك فيها على السبيل التي سلكتها (وأما الشجاعة) فهي وسط

بين رذيلتين أحدهما الجبن والآخرى التهور • أما الجبن فهو الخوف مما لا ينبغي أن يخاف منه • وأما التهور فهو الاقدام على ما لا ينبغي أن يقدم عليه (وأما الصفاء) فهو وسط بين رذيلتين أحدهما

والثاني أن الواثق آمن والأمن من الله تعالى غير خائف ومن لم يخف الله تعالى هانت عليه
أوامره وسهلت عليه زواجه * وقال الفضيل بن عياض ربه المرء من الله تعالى على قدر
علمه بالله تعالى * وقال مرق العجلي لأن آيت ناعما * وأصبح نادما أحب إلى من أن آيت
قائما وأصبح ناعما * وقال الحكماء ما بينك وبين أن لا يكون فيك خبر إلا أن ترى أن فيك
خبرا * وقيل لربعة العدوية رحمة الله هل علمت عملاقا ترى أنه يقبل منك قالت
إن كان شيء تخوف أن يرد على عملي * وقال ابن السماك رحمة الله عليه أنه يقبل منك
ما أعظم فيه الخطر وأنه في ما أقل فيه الحذر * وحكى أن بعض الزهاد وقف على
جمع فنادى بأعلى صوته يا معشر الأغنياء لكم أقول أقول استكثروا من الحسنات فإن ذنوبكم
كثيرة * ويا معشر الفقراء لكم أقول أقول من الذنوب فإن حسناتكم قليلة * فينبغي
أحسن الله إليك بالتوفيق أن لا تصنع بحجة جسمك وفرأغ وقتك بالتقصير في طاعة ربك
والثقة بسا على عملك فاجعل الاجتهاد غنمة يحسنك والأهل فرصة فراغك فليس كل الزمان
مستعدا ولا مافات مستندركا وللغراغ زينغ أوند من اللغو ميل أو أسف * وقال عمر بن
الخطاب راحة للرجال غفلة والنساء غفلة * وقال بزرجه ران يكن الشغل مجاهدة
فالغراغ مقسدة * وقال بعض الحكماء إياكم والخلوات فإنها تنفسد العقول وتقصد المحلول
* وقال بعض البلغاء لا تمض يومك في غير منفعة ولا تضع مالك في غير صنعة فالعمر أقصر
من أن تنفذ في غير المنافع والمال أقل من أن تبصر في غير الصنائع والعاقل أجل من
أن يبقى أيامه فيما لا يعود عليه نفعه وخيره وينقى أيامه فيما لا يحصل له ثوابه وأجره وأبلغ
من ذلك قول عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم البئر ثلاثة المنطق والنظر والصمت
فمن كان منطق في غير ذكركم قد بلغا ومن كان نظره في غير اعتبار فقد سها ومن كان
صمته في غير فكر فقد هدا وعلم أن للإنسان فيما كلف من عباداته ثلاث أحوال إحداها
أن يستوفيه من غير تقصير فيها ولا زيادة عليها والثانية أن يقصر فيها والثالثة أن يزيد عليها
فأما الحال الأولى فهي أن يأتي بها على حال الكمال من غير زيادة فيها ولا زيادة تنطوع على
رأيتها فهي أوسط الأحوال وأعلاها لأنه لا يمكن منه تقصير فيدم ولا تكثير فيجوز * وقد
روى سعيد بن أبي سعيد رضى الله عنه عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه
وسلم قال سددوا وقاربوا ويسروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة
• وقال الشاعر

عليك بأوسط الأمور رافها * نجاه ولا تركب ذلولا ولا صعبا

وأما الحال الثانية * وهو أن يقصر فيها فلا يخلو حال تقصير من أربعة أحوال أحداها
أن يكون لئلا يفرج عنه أو مرض أضعف عن أداء ما كلفه فهذا يخرج عن حكم
المقصرين ويلحق بأحوال العاملين لاستقرار الشرع على سقوط ما دخل تحت البجز
• وقتب جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من عامل كان يعمل علفا يقطعه
عنه مرض الا واكل الله تعالى به من يكتب له ثواب عمله • والحال الثانية أن يكون تقصيره
فيما اعتارا بالمساحة فيه ورجاء المغفرة فهذا يحدود العقل مغرور بالجهل فقد

السرف والتبذير والاخرى
الجل والتقتير * أما التبذير
فهو بذل ما لا ينبغي ان
لا يستحق وأما التقتير فهو منع
ما ينبغي عن إسحق (وأما
العدالة) فهي وسط بين الظلم
والانظلام * أما الظلم
فهو التوصل الى كثره
المقتنيات من حيث لا ينبغي
كما لا ينبغي * وأما الانظلام
فهو الاستغناء والاستحانة
في المقتنيات لمن لا ينبغي
وكما لا ينبغي * ولذلك يكون
لبسائر أموال كثيرة لأنه
يتوصل اليها من حيث
لا يجب ووجوه التوصل
اليها كثيرة * وأما المنظلم
فمقتنياته وأمواله يسيرة
جدد لأنه يتركها من حيث
لا يجب * وأما العادل
فهو في الوسط لأنه يقتني
الاموال من حيث يجب
ويتركها من حيث لا يجب
* فالعدالة فضيلة يخفف
بها الانسان من نفسه ومن

جعل القطن ذخرا والرجاء عدة فهو كن تطعم سفرا بغير زاد طنا بانه سيحده بالغاوز الجسدية
 فيفضي به القطن الى الملكة وهلا كان الحذر أغلب عليه وقد ندب الله تعالى اليه . وحكى
 أن اسرائيل بن محمد القاضي قال لقيني مجنون كان في الخرابات فقال يا اسرائيل خفا الله
 خوفا يشغلك عن الرجاء فان الرجاء يشغلك عن الخوف وفر الى الله ولا تفر منه . وقيل لمحمد
 ابن واسع رحمه الله ألا تبكي فقال تلك حلية الآمنين . وحكى أن أباحازم الأعرج أخبر
 سليمان بن عبد الملك بوعيد الله للذين فقال سليمان ابن رحمه الله قال قريب من الحسين
 . وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ما انتفعت ولا انتظت بعد رسول الله صلى الله
 عليه وسلم بمثل كتاب كتبه الى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أما بعد فان الانسان
 ليس له درك ما لم يكن ليفوته ويسوءه فوث ما لم يكن ليسدرك فلا تكن بما تلتبه من دنياك
 فرحا ولا ما فاتك منها ترجحا ولا تكن ممن يرحوا الآخرة بغير عمل ويؤخر التوبة بطول الأمل
 فكان قدوا والسلام . وقال محمود الوراق رحمه الله

أخاف على المحسن المتقي * وأرجو لذى المفوات المسمى
 فذلك خوفي على محسن * فكيف على الظالم المعتدى
 على أن ذا الزرع قد يستفيق * ويستأنف الزرع قلب المتقي

والحال الثالثة أن يكون تقصيره فيه ليستوفي ما أدخل به من بعد فبدأ بالسيئة في التقصير
 قبل المستفيضة في الاستيفاء اغترار بالآمل في أمهاله ورجاء لتلاقي ما سلف من تقصيره
 وأخلاه فلا ينتهي به الأمل الى غاية ولا يقضي به الى نهايه لان الأمل هو في ثاني حال
 كهو في أول حال * فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من يؤمل أن يعيش غدا
 فانه يؤمل أن يعيش أبدا ولعمري أن هذا صحيح لان لكل يوم غدا فاذا يقضي به الأمل الى
 الغفوت من غير درك ويؤديه الى جاء الى الإهمال من غير تلاف ينصير الأمل خيبة والرجاء
 اياسا * وقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أول
 صلاح هذه الأمة الزهد واليقين وفسادها بالحل والأمل . وقال الحسن البصري رحمه
 الله ما أطال عبد الأمل الأساء العمل وقال رجل لبعض الزهاد بالبصرة ألك حاجة بيقداد
 قال ما أحب أن أبسط أجلي الى أن تذهب الى يقداد ونحوه . وقال بعض الحكماء الجاهل
 يعتمد على أمه والعاقل يعتمد على عمله . وقال بعض البلغاء الأمل كالسراب غر من
 رآه وخاب من رجاها . وقال مجاهد بن زيد دخلت على المأمون وكنت يومئذ وزيره فرأيت
 قائما ويده رقيقة فقال يا محمد أقرأت ما فيها فقلت هي في يد أمير المؤمنين فرمى بها الى
 فاذا فيها مكتوب

انك في دار الهامة * يقبل فيها عمل العامل
 أما ترى الموت محيطا بها * يقطع فيها أمل الآمل
 فجعل بالذنوب لما تشتهي * وتأمل التوبة من قابل
 والموت يأتي بعد ابنته * ماذا فعل الحازم العاقل

فلما قرأتها قال المأمون رحمه الله تعالى هذا من أحكم شعركراته . وقال أبو حازم الأعرج

غيره من غير أن يعطى
 نفسه من النافع أكثر
 وغيره أقل * وأما في
 الضار فبالعكس وهو أن
 لا يعطى نفسه أقل وغيره
 أكثر لكن يستعمل
 المساواة التي هي تناسب
 ما بين الأشياء ومن هذا
 المعنى اشتق اسمه أعني
 العدل * وأما الحائر فانه
 يطلب لنفسه الزيادة من
 المنافع وغيره النقصان
 منها وأما في الأشياء
 الضارة فانه يطلب لنفسه
 النقصان وغيره الزيادة
 منها * فقد ذكرنا الأخلاق
 التي هي خيرات وفنائل
 وأطرافها التي هي شرور
 وذائل على طريقي
 الإيجاز وحدنا ما يحد
 منها ورسمنا ما يرسم
 وشرح كل واحد منها
 على سبيل الاستقصاء فيما
 بعد إن شاء الله تعالى *
 وينبغي أن نخلص في هذا

نحن لا نريد أن نموت حتى نتوب ونحن لا نتوب حتى نموت * وقال بعض البلغاء زائد
الاهمال رائدا لاهمال * والحال الرابعة أن يكون تقصيره فيه استغفالا للاستغفار
وزهدا في التمام واتصارا على ما سخط وقلة أكتراث بما بقي فهذا على ثلاثة أضرب أحدها
أن يكون ما أخل به تصرفه غير قاذح في فرض ولا مانع من عبادة كمن اقتصر في العبادة
على فعل واجباتها وعلى مفترضاها وأخل بمسئولاتها وهياتها فهذا مسمى فيما ترك
إساءة من لا يستحق وعيدا ولا يستوجب عتابا لأن أداء الواجب يسقط عنه العقاب
واخلاله بالمسئول يمنع من اكمال التواب * وقد قال بعض الحكماء من تهاون بالدين هان
ومن غالب الحق لأن * وقال الشاعر

ويصون توبته وبته * ترك غير ذلك لا يصونه
وأحق ما صان الفتى * ورعا أمانته ودينه

والضرب الثاني أن يكون ما أخل به من مفروض عبادة لكن لا بقدر ترك ما بقي فيما
مضى كمن أكل عبادات وأخل بغيرها فهذا أسوأ حالا ممن تقدمه لما استغفرت من الوعيد
واستوجبه من العتاب والضرب الثالث أن يكون ما أخل به من مفروض عبادة وهو
قاذح فيما عمل منها كالعبادة التي يرتبط بعضها ببعض فيكون المقصر في بعضها تاركا
لجميعها فلا يحسب له ما عمل لاخلاله بما بقي فهذا أسوأ أحوال المقصرين وحاله لاحقة
بأحوال التاركين بل قد تكاف ما لا يسقط فرضا ولا يؤدي حقا فتدساوى التاركين
في استحقاق الوعيد وزاد عليهم في تكلف الأيقيد فصار من الآخرين أعمالا الذين
ضل سعيهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ثم عمله لا يقطن لشأنه ولا يشعر بحسراته وقد
خسر الدنيا والآخرة ويقطن للسعي من ماله ان وهى واخلى * وأنشدني بعض أهل العلم

أبني ان من الرجال بهيمة * في صورة الرجل السميع المبصر
فطن بكل مصيبة في ماله * واذا عاب بدينه لم يشعر

وأما الحال الثالثة وهو أن يزيد فيما كلف فهذا على ثلاثة أقسام أحدها أن تكون الزيادة
ربا للناظرين وقسعا للخلق حتى يستعطف به القلوب النافرة ويخضع به العقول
الواهية فيتهرج بالصالحاء وليس منهم ويتدلس في الأخيار وهو ضدهم * وقد ضرب
رسول الله صلى الله عليه وسلم للرائي بعلمه مثلا فقال المتشبع بما أملك كلابس ثوب زور
يريد المتشبع بما أملك المتزين بما ليس فيه وقوله كلابس ثوب زور هو الذي يلبس ثياب
الصالحاء فهو برأيه محروم الأجود موم الذكر لأنه لم يقصد وجه الله تعالى فيزجر عليه
ولا ينجي رباؤه على الناس فيحمد به قال الله تعالى فمن كان ير جوقه ربه فليعمل عملا
صالحا ولا يشرك بعبادته به أحدا قال جميع أهل التأويل معنى قوله ولا يشرك بعبادة
ربه أحدا أي لا يرائي بعلمه أحدا فجعل الرأى شركا لأنه جعل ما يقصده وجه الله تعالى
مقصودا به غير الله تعالى * وقال الحسن البصري رجه الله تعالى في قوله تعالى ولا تجهر
بصلواتك ولا تخافتن بها قال لا تجهر بهار بآء ولا تخافتن بها حياء وكان سفيان بن عيينة
رجه الله تعالى يتأول قوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والإحسان ويأذن القريب ويمنهى

الموضع شكرا رجا الحق
طالب هذه الفضائل
فنقول * اننا قد بينا فيما
تقدم ان الانسان من بين
جميع الحيوان لا يكتفي
بنفسه في تكميل ذاته *
ولابد له من معاونه قوم
كثيري العدد حتى يتم به
حياة طيبة ويحجز أمره
على السداد * ولهذا قال
الحكماء ان الانسان مدني
بالطبع أي هو محتاج الى
مدنية فيها خلق كثير لئتم
له السعادة الانسانية فكل
بالطبع وبالضرورة
يحتاج الى غيره فهو لذلك
مضطرا الى مصاناة الناس
ومعاشرتهم العشرة الجميلة
ومحبتهم المحبة الصادقة
لأنهم يكملون ذاته
ويتممون انسانيته وهو
أضنا بفعل بهم مثل ذلك
فإذا كان كذلك بالطبع
وبالضرورة فكيف يؤثر
الانسان العاتل العارف

عن الفحشاء والمنكر والبغى أن العدل استواء السريرة والعناية في العمل لله تعالى والاحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سريرته وكان غيره يقول العدل شهادة أن لا إله إلا الله والاحسان الصبر على أمره ونيه وطاعة الله في سره وجهه وابتغاء ذي القربى صلة الأرحام وينهي عن الفحشاء يعني الزنا والمنكر القبايح والنجس والكبر والظلم وليس يخرج الراء بالاعمال من هذا التأويل أيضا لأنه من جملة القبايح * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أخوف ما أخاف على أمتي الراء الظاهر والشهوة الخفية * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أشد الناس عذابا يوم القيامة من يرى أن فيه خيرا ولا خير فيه * وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لا تفعل شيئا من الخير ياء ولا تتركه حياء * وقال بعض الحكماء كل حسنة لم يرد بها وجه الله تعالى فلما تفرج الراء وغرمت أسوء الجزاء وقد يقضى الراء بصاحبه إلى استنزاع الناس به كاحكى أن طاهر بن الحسين قال لابي عبد الله المروزي منذ كمرت إلى العراق يا أبا عبد الله قال دخلت العراق منذ عشرين سنة وأنا منذ ثلاثين سنة صائم فقال يا أبا عبد الله سأنتك عن مسألة فاجبت عن مسألتين * وحكى الأعمش رحمه الله أن أعرابيا صلى فاطال وإلى جانبه قوم فقالوا أما أحسن صلاتك فقال وأنا مع ذلك عائم صلى فاتحيتني وصام فرائبي * فغضب القلوص عن المصلي الصائم

فانظر إلى هذا الراء مع قبحه ما أدله على ضعف عقل صاحبه وورع ما ساعد الناس مع ظهور رباؤه على الاستهزاء بنفسه كالذي حكى أن زاهدا نظرا إلى رجل في وجهه محجاة كبيرة وارتفاع إلى باب السلطان فقال مثل هذا الدرهم بين عينيك وأنت واقف ههنا فقال أنه ضرب على غير السكة وهذا من أجوبة الخلاعة التي يدفع بها تهجين المذمة واندها تسحق الناس من الأشعث بن قيس قوله وقد خفف صلاته مرة فقال بعض أهل المسجد خففت صلاتك جدا فقال أنه لم يخاطبها رياء فخلص من تنقيصهم حتى الرياء عن نفسه ورفع التصنع في صلاته وقد كان الانكار لولا ذلك متوجها عليه واللوم لاحقا به وورأوأمامه بعض المساجد فاذا رجل يصلي وهو يبكي فقال له أنت لو كان هذا في بيتك فلم ير ذلك منه حسنا لأنه اتهمه بالرياء ولعله كان يرشاهه فكيف عن صار الراء أغلب صفاته وأشهر سماته مع أنه أقيم فاعمالهم من هبوب التسميم بما جمل ولذلك قال عبد الله بن المبارك أفضل الزهاد أخفاء الزهد ورعاً أحسن ذوالفضل من نفسه ميلا إلى المراءاة فبعثه الفضل على ذلك ما نازعته النفس من المراءاة فكان ذلك بلغ في فضله كالذي حكى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أحسن على المنبر يوم خرجت منه فقال أيها الناس اني قد مثلت بين أن أخافكم في الله تعالى وبين أن أخاف أيد فيكم فكان أن أخاف الله نبيكم أحب إلى الآواني وقد فسدت وهما أنا نازل أعبدا لوضوء فكان ذلك منه زجر لنفسه لتكف عن نزاعها إلى مثله * وقال عمر بن عبد العزيز لمجد بن كعب القرظي عظمي فقال لا أرضى نفسي لك واعظا لاني أجلس بين الغني والفقير فأميل على الفقير وأوسع للغني ولأن طاعة الله تعالى في العمل لوجهه لأغنيه * وحكى أن قوما أرادوا سفر الحفاذ واعن الطريق فاتتوا إلى

بنفسه التفرد والقتل ولا يتعاطى ما يرى الفضيلة في غيره * فإذا القوم الذين رأوا الفضيلة في الراء ونزلت مخالطة الناس وتفردوا عنهم أما ملازمة المغارات في الجبال وأما بناء الصوامع في المفاوز وأما بالسباحة في البلدان لا يعمل لهم شيء من الفضائل الإنسانية التي عدناها * ذلك أن من لم يخاطب الناس ولم يسأكنهم في المدن لا تظهر فيه العفة ولا العدة ولا السخاء ولا العدالة بل تصير قواه ولمكانة التي ركبت فيه باطلة لأنها لا تتوجه لآلئ خير ولا إلى شر فاذا بطلت ولم تظهر أفعالها الخاصة بها صار واعتزلت الجهادات والموتى من الناس ولذلك يظنون ويظن بهم أنهم أعفاء وليسوا بأعفاء وأنهم عدول وليسوا بعدول

راهب فقالوا قد ضلنا فكيف الطريق فقال ههنا وأومأ يده إلى السماء * والقسم الثاني أن يفعل الزيادة اقتداءً بغيره وهذا قد تميزه بحالسة الاختيار الأفاضل وتجدده بكثرة الاتقياء الأماثل * ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل * فإذا كثرتهم المجالس وطاولهم المؤانس أحب أن يقتدى بهم في أفعالهم ويتأسى بهم في أعمالهم ولا يرضى لنفسه أن ينقص عنهم ولأن يكون في الخير دونهم فتيته المنافسة على مساواتهم وربما دعتهم الحمية إلى الزيادة عليهم والمكثرة لهم فيصيروا سبيل السعادة وباعتنا على استزادته والعرب تقول لولا الوثام لهلك الأنام أي لولا أن الناس يرى بعضهم بعضاً فيقتدى بهم في الخير لم يكونوا * ولذلك قال بعض البلغاء من خير الاختيار صحبة الأخيار ومن شر الاختيار مودة الأشرار وهذا صحيح لأن لصاحبة تأثيراً في اكتساب الأخلاق فتصلح أخلاق المرء بمصاحبة أهل الصلاح وتفسد بمصاحبة أهل الفساد * ولذلك قال الشاعر

رأيت صلاح المرء يصلح أهله * ويعدهم عند الفساد إذا فسد
يعظم في الدنيا بفضل صلاحه * ويحفظ بعد الموت في الأهل والولد
وأشد في بعض أهل الأدب لابي بكر الخوارزمي

لأنه يصيب الكسلان في حالته * كم صالح بفساد آخر يفسد

عدوى البليد إلى الجليل سريعة * والجبر يوضع في الرماذ فيضد

والقسم الثالث أن يفعل الزيادة ابتداءً من تقسم التماسا لثوابها ورغبة في اللفظ بها فهذا من نتائج النفس الزكية ودواعي الرغبة الوافية الدالين على خلوص الدين وصحة اليقين وذلك أفضل أحوال العاملين وأعلى منازل العابدين وقد قيل للناس في الخير أر بعقمتهم من يفعل ابتداءً ومنهم من يفعل ابتداءً ومنهم من يتركه استحساناً ومنهم من يتركه حرماناً فمن فعله ابتداءً فهو كريم ومن فعله اقتداءً فهو حكيم ومن تركه استحساناً فهو ردي ومن تركه حرماناً فهو شقي ثم لما يفعله من الزيادة حالتان أحدهما أن يكون مقصداً فيها وقادر على الدوام عليها فهي أفضل الحالتين وأعلى المنزلتين عليها انقراض أخبار السلف وتبعهم فيها فضلاء الخلف - وقدرت عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أيها الناس أفعالوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا عمل من الثواب حتى يملأ من العمل وخير الأعمال ما ديم عليه والعرب تقول القصد الدوام وأنت السابق الجواد ولأن من كان صحيح الرغبة في ثواب الله تعالى لم يكن له مسرة إلا في طاعته - وقال عبد الله بن المبارك قلت لراهب متى عيدك قال كل يوم لأعصى الله فيه فهو يوم عيد أنظر إلى هذا القول منه وإن لم يكن من مقاصد الطاعة ما يلقه في حب الطاعة وأحسه على بذل الاستطاعة * وخرج بعض الزهاد في يوم عيسى في هيئة رثة فقيل لم تخرج في مثل هذا اليوم في مثل هذه الهيئة والناس متزينون فقال ما ينزين الله تعالى بمثل طاعته والحالة الثانية أن يستكثر منها استكثران من لا ينقض بدوامها ولا يقدر على اتصالها فهذا ر بما كان بالمقصر أشبه لأن الاستكثران من الزيادة إما أن يمنع من أداء اللازم فلا يكون الاقتصار

وكذلك في سائر الفضائل أعني أنه إذا لم يظهر منهم أضداد هذه التي هي شرور ظن بهم الناس أنهم أفاضل وليست الفضائل أعداء ما بل هي أفعال وأعمال تظهر عند مشاركة الناس ومساكنتهم وفي المعاملات وضروب الاجتماعات ونحن إنما نصلم وتتعلم الفضائل الانسانية التي نساكن بها الناس ونخالطهم ونصبر على إذا هم لنصل منها وبها إلى سعادات آخر إذا صرنا إلى حال آخرى * وتلك الحال غير موجودة لنا الآن

والقالة الثانية *

(الخلق)

الخلق حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية * وهذه الحال تنقسم إلى قسمين * منها ما يكون طبعياً من أصل المزاج كالإنسان الذي

لأنه متطوع بزيادة أحدثت نقصا وبقتل منع فرضا وأما أن يهجز عن استدامة الزيادة ويمنع من ملازمة الاستكثار من غير إخلال بلازم ولا تقصير في فرض فهي إذا قصرة المدى قليلة البتة ولتقليل العمل في طول الزمان أفضل عند الله عز وجل من كثير العمل في قصر الزمان لأن المستكثر من العمل في الزمان القصير قديم زمانا ويترك زمانا فربما صار في زمان تركه لها أو ساءها والمقل في الزمان الطويل مستيقظ الأفكار مستديم التذكار * وقدر وى أبو صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن للسلام شرة وللشدة قفرة فمن سدد وقارب فارحوه ومن أشير إليه بالأصابع فلا تعذوه * فقل للسلام شرة وهي الأفعال في الأكثار وجعل للشدة قفرة وهي الإهمال بعد الاستكثار فلم يخل بما أثبت من أن تكون هذه الزيادة بقصيرا أو إخلالا ولاخير في واحد منهما وأعلم جعل الله العلم حاكما للآل وعليك والحق قائدا للآل واليك أن الدنيا إذا وصلت قنعتا موبقة وإذا غارت ففجعتا محترقة وليس لوصولها دوام ولا من فراقها بد فرض نفسك على قطيعتها لتسلم من تبعاتها وعلى فراقها لتأمن بجهاتها فقد قيل المرء مقترض من عمره المنقرض مع أن العمر وإن طال قصير والفراق وإن تم يسير وأنشدت لعل بن محمد رحمه الله تعالى

إذا كلمت للمرء مستون حجة * فلم يحفظ من ستين الأب سلسها
ألم تر أن النصف بالليل حاصل * وتذهب أوقات المقبل بحمسه
فتأخذ أوقات الهوم بحصة * وأوقات أوجاع تميم بحسها
فما صل ما يتبقى له سدس عمره * إذا صدقته النفس عن علم حسها

وربما نفع نفسك لذلك ترتب على أحوال ثلاث وكل حالة منها تشعب وهي لتسهيل ما يليها سبب فالحالة الأولى أن تصرف حب الدنيا عن قلبك فانها تهلك عن آخرتك ولا تحصل سعيك لها فتتعلك حظك منها وتوق إلى كون إليها ولا تكن أمانها . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من أشرب قلبه حب الدنيا وركن إليها التناط منها يشغل لا يفرغ عنها وأمل لا يبلغ منتهاه وحرض لا يدرك مداه . وقال عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام الدنيا لا بليس مز رعة وأهلها له حراث . وقال علي بن أبي طالب مثل الدنيا مثل الحية لئن مسها قاتل سمها فأعرض عما أعجبك منها لقله ما يعجبك منها وضع عنك همومها لما أيقنت من فراقها . وكن أحذر مما تكون لها وأنت آنس ما تكون بها فان صاحبها كلما اطمان منها إلى السرور أو شخصه عنها مكره وإن سكن منها إلى آسأس أزاله عنها إلى الجحش * وقال بعض البلغاء الدنيا لا تصفو ولا تبار ولا تبتقي لصاحب ولا تخلص من فتنة ولا تخلص من مخنة فأعرض عنها قبل أن تعرض عنك واستبدل بها قبل أن تستبدل بك فان نعيمها يتقل وأحوالها تتبدل ولذاتها تفتى وتبعاتها تبتقي . وقال بعض الحكماء انظر إلى الدنيا نظرا زاهدا المفارق لها ولا تأملها تأمل العاشق الزامق بها . وقال بعض الشعراء

ألا انما الدنيا كاحلام نائم * وما خير عيش لا يكون بدائم
تأمل إذا ما نلت بالأمس لذة * فافنتها هل أنت الا كالحالم

يحرركه أدنى شئ نحو غضب ويهيج من أقل سبب وكالإنسان الذي يحين من أسير شئ كالذي يفزع من أدنى صوت يطرق سمعه أو يرتاع من خبر يسمعه كالذي يفسك فحكا مقسطا من أدنى شئ يعجبه كالذي يغتم ويحزن من أسير شئ يشاء * ومنها ما يكون مستفادا بالعادة والتدريب وربما كان مبدوءا بالروية والفكر ثم يستمر عليه أولا فاولا حتى يصير ملكة وخلقا * ولهذا اختلف التمدد في الخلق فقال بعضهم الخلق خاص بالنفس غير الناطقة وقال بعضهم قد يكون للنفس الناطقة فيه حظ * ثم اختلف الناس أيضا اختلافا ثانيا فقال بعضهم من كان له خلق طيب لم ينقل عنه وقال آخرون

فكم غافل عنه وليس بغافل * وكمن غافل عنه وليس بنائم
وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من هو ان الدنيا على الله أن لا يعصى الا فيها
ولا ينال ما عنده الا بتركها . وروى سفيان أن الخضر قال لموسى عليه السلام يا موسى
أعرض عن الدنيا وابذرها وراةك فانها ليست لك بدار ولا فيها محل قرار وانما جعلت الدنيا
للعباد ليتزودوا منها للعاد * وقال عيسى بن مريم عليه السلام الدنيا تنطرد فاعبروها
ولا تعمروها * وقال علي كرم الله وجهه يصف الدنيا ولها عناء وآخرها فناء حلالها
حساب وجرامها عقاب من صح فيها آمن ومن مرض فيها ندم ومن استغنى فيها فتن ومن
افتقر فيها خزن ومن ساء ما فاته ومن قعد عنها آتته ومن نظر اليها أعجمته ومن نظر بها
بصرته . وقال بعض البلغاء ان الدنيا تقبل اقبال الطالب وتدر بارادى الحارب وتصل
وصال الملول وتفارق فراق المحول فخيرها يسير وعيشها قصير واقبالها خديعة وادبارها
خبيثة ولذا انها فانية وتبعا تباينة فاغتم غفوة الزمان وانتزف فرصة الامكان وخذ من
نفسك لنفسك وترود من يومك لغدك * وقال وهب بن منبه مثل الدنيا والآخره مثل
ضربتين ان أرضيت احدهما ما أخضعت الأخرى * وتل عبد الحميد الدنيا منارل فرأى
ونازل * وقال بعض الحكماء الدنيا اما تظمه تنازلها واما ته ترائلها * وقيل في منشور الحكم
من الدنيا على الدنيا دليل وقال الشاعر

تمتع من الأيام ان كنت حازما * فانك منها بين فناء وأمر
إذا أبقت الدنيا على المردية * فخافته منها فليس بضائر
فلن تعدل الدنيا جناح بعوضة * ولا وزن ذر من جناح لظائر
فأرضى الدنيا بالموطن * ولا أرضى الدنيا جزاء لكافر

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الدنيا يومين يوم فرح ويوم هم وكلاهما زائل
عنك فعدوا ما زول وأتمبوا نفوسكم في العمل لما لا يزول . وقال عيسى بن مريم عليه
السلام لا تنازعوا أهل الدنيا في دنياهم فينازعكم في دينكم فلا دنياهم أصبتم ولا دينكم
أبقيتم . وقال علي بن أبي طالب لا تكن ممن يقول في الدنيا يقول الزاد دين ويعمل فيها
عمل الراغبين فان أعطى منها لم يشبع وان منع منها لم يقنع بهجر عن شكره أو في ويتنى
الزيادة فيما بقي وينهى الناس ولا ينتهى ويأمر بما لا يأبى يحب الصالحين ولا يعمل
بمعلمهم ويبغض الطالحين وهم منهم . وقال الحسن البصري الدنيا كلها غم فما كان
منها من سرور وفور ربح . وقال بعض العلماء ان الدنيا كثيرة التغيير سريرة التذكير
شديدة المكر دائماً القدر فاقطع أسباب الهوى عن قلبك واجعل أبعادك بقية يومك
وكن كأنك ترى ثواب أعمالك . وقال بعض الحكماء الدنيا امام مصيبة موجعة واما منية
مفجعة . وقال الشاعر

خل دنياك انها * يعقب الخير شرها * هي أم تغسق من
نسلها من يسيرها * كل نفس فانها * تتبني ما يسرها
والمنيا تسمو قها * والاماني تغرها * فاذا استحلت الحنى

ليس شيء من الاخلاق
طبيعا للانسان ولا يقول
انه غير طبيعي * وذلك
انما طبعوا على قبول
الخلق بل تنقل بالتأديب
والمواعظ اما ربنا أوطياً
* وهذا الرأي الأخير هو
الذي تختاره لاننا شاهد
عيانا وان الرأي الاول
يؤدى الى ابطال قوة
التمييز والعقل والى رفض
السياسات كلها وترك
الناس في ما هم ملين والى
ترك الاحداث والاصبيان
على ما يتفق أن يكونوا
عليه بغير سياسة ولا تعلم
وهذا ظاهر الشناعة جدا
وأما الواقيون فظنوا
أن الناس كلهم يخلقون
أخيارا بالطبع ثم بعد
ذلك يصبرون وأشرا را
بمجانسة أهل الشر والميل
الى الشهوات الرذيلة التي
لا تتمتع با تآديب فيهم
فيها ثم يتوصل اليها من

أعقب الخلوها * يستوى في ضريحه * عبد أرض وحرها

فأذارت نفسك من هذه الحالة بما وصفت اعتصمت منها ثلاث خلال احداهن أن تكني
اشفاق الحب وحذر الوامق فليس بشفق ثقة ولا لحاذر راحة والثانية أن تأمن الاغترار
بلاهيها فسلم من عادية وادعيا فان الالهى بهامعروور والمغروور بها مذعور والثالثة أن
تسرح من تعب السسى لها ووصب الكد فيها فان من أحب شيئا طلبه ومن طلب شيئا
كذله والمكذوب فيها شقى ان نظفر ومجروم ان خاب * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال لكعب يا كعب الناس غاديان فغاديان بنفسه فعتقها وموبق بنفسه فوثقها * وقال
عيسى بن مريم عليهما السلام تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل ولا تعملون
للاخرة وأنتم لا ترزقون فيها الا بعمل * وقال بعض البلغاء من تكذ الدنيا أن لا تبقى
على حاله ولا تخلو من استحاله تصليح جانبها بافساد جانب وتسريح صاحبها بمساءة صاحب
فالكون المياخطر والتمهيا غرور * وقال بعض الحكماء الدنيا سر نرجعة الهمة والدهر
حسود لا ياتي على شيء الا غيره ولبن عاش حاجة لا تنقضى ولما بلغ مزدك من الدنيا أفضل
ما سميت اليه نفسه نبذها وقال هذا سرور لولا أنه غرور ونعيم لولا أنه عديم وملك لولا أنه
هلك وغناء لولا أنه فناء وحسب لولا أنه ذميمة ومجود لولا أنه مفقود وغنى لولا أنه معنى
وارتفاع لولا أنه اتضاع وعلاء لولا أنه بلاء وحسن لولا أنه حزن وهو يوم وثق له بغد
* وقال بعض الحكماء تكمل الدنيا بغير واحد من راغب وزاهد فلا راغب فيها استبقت
ولا زاهد فيها كفت * وقال أبو العتاهية

هى الدار دار الازى والقدى * ودار الفناء ودار العسير
فلولتها بجحذا فيرها * لم تلم تقض منها الوطر
أبا من يؤمل طول الخلود * وطول الخلود عليه ضرر
اذما كبرت وبان الشباب * فلا خير في العيش بعد الكبر

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع ونفس لا تشبع
وتلب لا يشبع وعين لا تلمع هل يتوقع أحدكم الاغنى مطعيا أو فقرا منسيا أو مرضا
مفسدا أو هوما مقيدا أو الدجال فهو شر غائب ينتظر أو الساعة وال ساعة أدهى وأمر .
وحكى أن الله تعالى أوحى الى عيسى بن مريم عليه السلام أن هب لي من قلبك الخشوع
ومن يندك الخشوع ومن عينك الدموع فاني قريب . وقال عيسى بن مريم عليه السلام
أوحى الله الى الدنيا من خدمتي فاحذميه ومن خدمك فاستخدمه وقال بعض البلغاء ذم من
طول أملك في قصر عملك فان الدنيا ظل الغمام وحلم النيام فمن عرفها تم طلبها فقد أخطأ
الطريق وحرم التوفيق . وقال بعض الحكماء لا يؤمن منك اقبال الدنيا جليلك من ادبارها
عنتك ولا من دولتك من ادالة منك . وقال آخر ما مضى من الدنيا كالم يكن وما بقى منها
كما قدم مضى وقيل لزا همد قد خلعت الدنيا كيف محت نفسك عنها فقال أيقنت أنى أخرج
منها كارهة فرأيت أن أخرج منها طائما . وقيل لحرقة بنف النعمان ما لك بتكين فقالت
رأيت لأهلى غصارة ولن عتلى دار فرحا الامتلات ترعا . وقال ابن السماك من جرعه

كل وجه ولا يفكر في
الحسن منها والقيبح وقوم
آخرون كانوا قبل هؤلاء
ظنوا أن الناس خلقوا من
الطينة السفلى وهى كند
العالم فهم لاجل ذلك أشرار
بالطبع * وانما يصبرون
أخبارا بالتأديب والتعلم
الآن فيهم من هو قفاية
الناس لا يصلحه التأديب
وفهم من ليس قفاية الشر
فيمكن أن ينتقل من الشر
الى الخير بالتأديب من
الصبا ثم بمجالسة الاخبار
وأهل الفضل * فأما
جاليوس فانه رأى أن
الناس فيهم من هو خير
بالطبع وفيهم من هو شرير
بالطبع وفيهم من هو
متوسط بين هذين . ثم
أفسد المذهبن الاولين
الذين ذكرناهما * أما
الاول فيأن قال ان كان
كل الناس أخبارا بالطبع
وانما ينتقلون الى الشر

الدنيا حلوتها بجله البهاجته الآخرة مرارتها التجافيه عنها . وقال صاحب كلياته ودمسته
طالب الدنيا كشارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا وكان عمر بن عبد العزيز
يقول بهذه الأبيات

نهارك يا مغرور سهو وغفلة * وليك نوم والأسي لك لازم
تسر بما يغني وتفرح بالمنى * كما سر بالذات في النوم عالم
وشغلك فيما سوف تتركه غبه * كذلك في الدنيا تعيش البهائم
وسمع رجل يقول لصاحبه لا أراك الله مكرها فقال كأنك دعوت على صاحبك بالموت
إن صاحبك ما صاحب الدنيا فلا بد أن يرى مكرها * وقال أبو العتاهية
إن الزمان ولو يليق * ناله له الخناش
خطواته المهركا * تكأنت سواكن

والحال الثانية من أحوال ربا ضلكت لها أن تصدق نفسك فيما مضت من رغائبها وأتلتك
من غرائبها فتعلم أن العطية فيها مرتجة والخفة فيها مستردة بعد أن تبقى عليك ما استحققت
من أوزار ووصولها إليك وخسران خروجهائك * فقدر روى عن النبي صلى الله عليه
وسلم أنه قال لا نزول قدام ابن آدم حتى يسئل عن ثلاث شباب فيم أبلاه وعمره فيم أفناه وماله
من أين اكتسبه وفيم أنفق * وروى عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال في المال
ثلاث خصال قالوا وما هن يا روح الله قال يكسبه من غير حله قالوا فإن كسبه من حله قال
يضعه في غير حقه قالوا فإن وضعه في حقه قال يشقه عن عبادته ويدخل أبوا حزم على
بشر بن مروان فقال يا أباحزم ما المخرج مما نحن فيه قال تنظر ما عندك فلا تضعه إلا في
حقه وما ليس عندك فلا تأخذه إلا بحقه قال ومن يطيق هذا يا أباحزم قال فمن أجل ذلك
ملئت جهنم من الجنة والناس أجمعين * وعبرت اليهود عيسى بن مريم عليه السلام بالفقر
فقتل من الغنى دهيم ودخل قوم منزل عابد فلم يجدوا شيئا يقعدون عليه فقال لو كانت الدنيا
دار مقام لا تأخذنا لها أنانا * وقيل لبعض الزهاد ألا تومى قال بماذا أومى والله ما لنا
شي ولا لنا عند أحدي ولا لأحد عندنا شي أنظر إلى هذه الراحة كيف تبجلها وإلى السلامة
كيف صار إليها ولذلك قبل الفسقر ملك ليس فيه محاسبة * وقيل لعيسى بن مريم عليها
السلام ألا تترجى فقال إنما نحب التكاثر في دار البقاء وقيل لودعوت الله تعالى أن يرزقك
جارا فقال أنا أكرم على الله من أن يجعلني خادم جار * وقيل لأبي حازم رضى الله عنه
ما مالك قال شتان الرضا عن الله والغنى عن الناس وقيل له أنك لمسكين فقال كيف
أكون مسكينا ومولاي له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى . وقال
بعض الحكماء رب مغبوط بمسرة هي دأؤه ومرحوم من سقم هو شفاؤه * وقال بعض
الأدباء الناس أشتات ولكل جمع شتات * وقال بعض البغاة الزهد بجمعة اليقين وجمعة
اليقين بنو الدين فمن صح يقينه زهد في الثراء ومن قوى دينه أيقن بالجزاء فلا تفرنك
جمعة نفسك وسلامة أمسك فقد العمر قليلة وجمعة النفس مستحيلة * وقال بعض الشعراء
رب مغرور وسيعاش به * علمته عين معترسه

بالعلم فبالضرورة أما
أن يكون تعلمهم الشرور
من أنفسهم وأما من غيرهم
فإن تعلموا من غيرهم
فإن المعلمين الذين علموهم
الشر أشرار بالطبع *
فليس الناس إذا كلهم
أخيارا بالطبع * وإن كانوا
تعلوه من أنفسهم فاما
أن يكون فيهم قوة يشناقون
بها إلى الشر فقط فهم إذا
أشرار بالطبع . وأما أن
يكون فيهم مع هذه القوة
التي تشناق إلى الشر قوة
أخرى تشناق إلى الخير ألا
إن القوة التي تشناق إلى
الشر غالبه قاهرة التي تشناق
إلى الخير وعلى هذا أيضا
يكونون أشرارا بالطبع
وأما الرأي الثاني فأنه
أفسده مثل هذه الجمحة .
وذلك أنه قال إن كان كل
الناس أشرارا بالطبع
فأما أن يكونوا تعلموا الخير
من غيرهم أو من أنفسهم
ونعيد الكلام الأول بعينه

وكذلك الدهر مائة * أقرب الاشياء من عرسه

فاذا رقت نفسك من هذه الحال بما وصفت اعتصمت منها ثلاث خلال احسدها من فصيح نفسك وقد استسلمت اليك والنظر لها وقد اعتمدت عليك فان عاش نفسه مغبون والخمر عنهما أقون والثالثة الزهد فيما ليس لك لتكفي تكلف طلبه وتسلم من تبعات كسبه والثالثة انتهاز الفرصة في مالك أن تضعه في حقه وأن تؤتيه لمسحقه ليكون لك ذخرا ولا يكون عليك وزرا . فقد روي أن رجلا قال يا رسول الله إني أكره الموت قال ألك مال قال نعم قال قدم مالك فان قلب المؤمن عند ماله . وقالت عائشة رضي الله عنها ذبحنا شاة فتصدقنا بها فقلت يا رسول الله ما بقي الا كنفها . وحكى أن عبد الله بن عبيد الله بن عتبة بن مسعود باع دارا بمائتين ألف درهم فقيل له اتخذ لولدك من هذا المال ذخرا فقال أنا أجعل هذا المال ذخرا لي عند الله عز وجل وأجعل الله ذخرا لولدي وتصدق بما عوتب سهل بن عبد الله المروزي في كثرة الصدقة فقال لو أن رجلا أراد أن ينتقل من دار إلى دار أو كان يسيق في الأولى شيئا . وقال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم ما لنا نكره الموت قال لانكم أخرجتم آخرتكم وعجزتم دنياكم فكرهتم أن تنتقلوا من العيران إلى الخراب . وقيل لعبد الله بن عمر ترك زبد بن خارجة مائة ألف درهم فقال لا كنها الا تتركه . وقال الحسن البصري رحمه الله ما أنعم الله على عبد نعمة الا وعليه فيها تسعة الاسمين بن داود عليه السلام فان الله تعالى قال له هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب وقال أبو حازم ان خوفينا من شر ما أعطينا لم بضربا فقدما زوى عنا * وقال بعض السلف قدموا كالا يكون لكم ولا تخلفوا كالا فيكون عليكم . وقال ابراهيم بن القوم السؤل يدعون أبا بكر يقولون أوجهن لنا آخره شيئا . وقال سعيد بن المسيب مر بي صلة ابن أشيم فاعتلكت أن نهضت إليه فقلت يا أبا الصهباء ادع لي فقال رغبك الله فيما بقي وزهدك فيما بقي ووهب لك اليقين الذي لا تسكن النفس الا إليه ولا يعول في الدين إلا عليه ولما نقل عبد الملك بن مروان رأى غسالا يلوي يده ثوبا فقال وددت اني كنت غسالا لا أعيش إلا بما كتبه يوم فاقوم ما قبل ذلك أبا حازم فقال الحمد لله الذي جعلهم يتقون عند الموت ما نحن فيه ولا تتقي نحن عنده ما هم فيه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك يا ابن آدم من مالك الا ما أكلت فأفنت أو لبست فألبيت أو أعطيت فأفصيت . وقال خالد بن صفوان بت ليلى أتممت فكسبت البحر الأخضر والذهب الأحمر فاذا بكفني من ذلك رغيفان وكوزان وطمران * وقال مورق الجلي يابن آدم توفي كل يوم مرقق وأنت تحزن وينقص عرك وأنت لا تحزن تطلب ما يطغى وعندك ما يكفيك * وقال أبو حازم إنما بيننا وبين الملوك يوم واحد ما أمس فقد مضى فلا يجدون لذته وانما هو من غد على وجل وانما هو اليوم فاعسى أن يكون * وقال بعض السلف تعز عن الشيء اذا منعتك لقله ما يصيبك اذا أعطيتك * وقال بعض الحكماء من ترك نصيبه من الدنيا استوفى حظه من الآخرة * وقال آخر ترك التلبس بالدنيا قبل التئيب بها أهون من رفضها بعد ملاستها * وقال آخر ليكن طلبك للدنيا

* ولما أفسد هذين المذهبين
صحح رأى نفسه من الأمور
البينة الظاهرة * وذلك
أنه تظاهر جدا أن من
الناس من هو خيرا بالطبع
وهم قليلون وليس ينتقل
هؤلاء إلى الشر ومنهم من
هو شرير بالطبع وهم
كثيرون وليس ينتقل
هؤلاء إلى الخير * ومنهم
من هو متوسط بين هذين
وهؤلاء قد ينتقلون
بصاحبة الاختيار ومواعظهم
إلى الخير وقد ينتقلون
بمقاربة أهل الشر واغوائهم
إلى الشر
وأما من سطوطا ليس فقد
بين في كتاب الأخلاق
وفي كتاب المقولات أيضا
أن الشرير قد ينتقل
إلى التآديب إلى الخير *
ولكن لنس على الإطلاق
لأنه يرى أن تكرار المواقف
والتأديب وأخذ الناس
بالسياسات الجيدة

اضطرازا وتذكر في الأمور اعتبارا وسعيك لمعادك ابتدارا * وقال آخر الزاهد لا يطلب المفقود حتى يفقد الموجود وقال آخر من آمن بالآخرة لم يحرص على الدنيا ومن أيقن بالمجازاة لم يؤثر على الحسنى وقال آخر من حاسب نفسه مرج ومن غفل عنها خسر * وقال أبو العتاهية

أرى الدنيا لمن هي في يديه * عذابا كلما كثرت لديه
تمين المكرمين لها بصغر * وتكرم كل من هانت عليه
إذا استغثت عن شيء فدعسه * وخدما أنت محتاج إليه

وحكى الأصمعي رحمه الله قال دخلت على الرشيد رحمه الله عليه يوما وهو ينظر في كتاب ودموعه تسيل على خده فلما أبصرني قال أرايت ما كان مني قلت نعم بأمر المؤمنين فقال أما إنه لو كان لأمر الدنيا ما كان هذا ثم رمى إلي بالقرطاس فاذا فيه شعرا في العتاهية رحمه الله تعالى

هل أنت معتبر عن خربت * منه غداة قضى دسا كره
وعين أذل الدهر مصرعه * فتبأرت منه عسا كره
وعين خلعت منه أسرته * وتعطلت منه منابر
أبن الملوكة وأبن عزهم * صاروا مصيرا أنت صائر
يا مؤثر الدنيا للذلة * والمستعد لمن يفاخره
نل ما بدالك أن تنال من الدنيا فان الموت آخره

فقال الرشيد رحمه الله عليه والله لكان في أخاطب بهذا الشعر دون الناس فلم يلبث بعد ذلك الإيسار حتى مات رحمه الله ثم الحالة الثالثة من أحوال راضت لها أن تكشف لنفسك حال أجلك وتصرفها عن غرور أملك حتى لا يطيل لك الأمل أجل قصيرا ولا ينسبك موتا ولا نشورا * وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في بعض خطبه أيها الناس إن الأيام تطوى والأعمار تقنى والأبدان تبلى وإن الليل والنهار يترا كضأن كرا كض البريد يقربان كل بعيد ويختلان كل جديد وفي ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات ورغب في الباقيات الصالحات * وقال مسعر كرم من مستقبل يوما وليس يستكملها ومن نظر غدا وليس من أجله ولو رأيت الأجل ومسيره لأبغضت الأمل وغروره * وقال رجل من الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم من أكس الناس قال أكثرهم ذكر الموت وأشدهم استعدادا له أولئك الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة * وقال عيسى بن مريم عليه السلام كما تنامون كذلك تموتون وكما تستيقظون كذلك تبعثون * وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أيها الناس اتقوا الله الذي أن قلتم سمع وإن أضمرتم علم وبادروا الموت الذي أن هربتم أدرككم وإن أقمتكم أخذكم * وقال العلاء بن المسيب ليس قبل الموت شيء إلا الموت أشد منه وليس بعد الموت شيء إلا الموت أيسر منه * وقال بعض الحكماء إن الباقي بالماضي معتبرا ولا تخبر بالأول مزدجرا والسعيد لا يركن إلى الخلدع ولا يعتبر بالطمع * وقال بعض الصالحين إن بقاءك إلى فناء وفناءك إلى بقاء خذ من فناءك الذي لا يبقى لبقاءك الذي لا يفنى * وقال بعض العلماء أي عيش يطيب وليس لموت

الفاضلة لا بد أن يؤثر ضروب التأثير في ضروب الناس فمنهم من يقبل التأديب ويهتدي إلى الفضيلة بسرعة ومنهم من يقبله ويهتدي إلى الفضيلة ببطء * ونحن نؤلف من ذلك قياسا وهو هذا * كل خلق يمكن تغييره * ولشيء مما يمكن تغييره هو بالطبع * فاذا لا خلق ولا واحد منه بالطبع * والمقدمتان محبتان والقياس متبع في الضرب الثاني من الشكل الأول * أما قصص المقسمة الأولى * وهي أن كل خلق يمكن تغييره فقدت كلمنا عليه وأوتحناء وهو بين من العيان وما استدللنا به من وجوب التأديب ونفعه وتأثيره في الأحداث والصبيان ومن القرائع الصادقة التي هي سياسة

طبيب * وقال بعض البلغاء كل امرئ يجرى من عمره الى غاية تنتهي اليها مده أجله
وتتطوى عليها صحيفة عمله فخذ من نفسك لنفسك وقس يومك بامسك وكف عن سئائك
وزد في حسناتك قبل ان تستوفى مده الأجل وتقصّر عن الزيادة في السعي والعمل
* وقيل في متنور الحكم من لم يتعرض للنوائب تعرض له * وقال أبو العتاهية

ما للقابر لا تحية * ب اذا دعاهن الكتيب
حفر مسقفة عليه * هن الجنادل والكتيب
فيهن ولدان وأط * غال وشبان وشيب
كم من حبيب لم تكن * نغمى بفرقة تطيب
غادرته في بعضهن * بن مجذلا وهو الحبيب
وسلوت عنه وانما * عهدي برؤيته قريب

وعظ النبي صلى الله عليه وسلم رجلا فقال أنزل من الدنيا تعش حرا وأقل من الذنوب بين
عليك الموت وانظر حيث تضع ولدك فان العرق دساس وقال الرشيد لابن السماك رحمهما
الله تعالى عظمي وأوجز فقال اعلم أنك أول خليفة عموت . وعزى اعرابي رجلا عن ابن صغير
له فقال الحمد لله الذي نجاه مما هتأمن الكدر وخلصه مما بين يديه من الخطر . وقال بعض
السلف من عمل الآخرة أحرزها والدنيا ومن آثر الدنيا حرّمها والآخرة . وقال بعض الصالحين
استغنم نفوس الأجل وامكان العمل واقطع ذكر المآذير والعمل فانك في أجل محدود
ونفس معدود وعمر غير محدود وقال بعض الحكماء الطبيب معذور اذا لم يقدر على دفع
المحذور وقال بعض البلغاء اعمل على المرتحل فان حادى الموت يحدوك ليوم لاس يحدوك
وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن قال بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم
غريبه ولا أمله * يموت من جأله ومن دنا من حتفه * لم تغن عنه حيله
وما بقاء آخر * قد غاب عنه أوله والمرء لا يصعبه * في القبر إلا عمله
(وقال أبو العتاهية)

لأنا من الموت في لخط ولا نفس * وإن تمتع بالجناب والحرس
واعلم بان سهام الموت قاصدة * لكل مدرع منها ومترس
ترجوا النجاة ولم تسلك مسالكها * ان السفينة لا تجرى على اليس

فانارضت نفسك من هذه الحالة بما وصفت اعتصمت منها ثلاث خلال احدها ان تكن في
تسويق أهل بزيك وتسويل محال يؤذيك فان تسويق الأمر غرار وتسويل المحال
ضرار والثانية أن تستيقظ لعل آخرتك وتغنم ببقية أجلك بخير عملك فان من قصر أمه
واستقل أجله حسن عمله والثالثة أن يهون عليك نزول ما ليس عنه محيص ويسهل عليك
حلول ما ليس الي دفعه سبيل فان من تحقق أمر اوطأ لحلولة فهان عليه عند نزوله
وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا يذنبه بالتفكير قلبك وجاف عن النوم جنبك
واتق الله ربك وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يذنبه الله عنه عظمي فقال
ارض بالقوت وخف من الفتوت واجعل صومك الدنيا وفطرك الموت وقال عمر بن

الله تلتقه * وأما صحيح
المقدمة الثانية وهي انه
لا شيء مما يمكن تغييره هو
بالطبع فهو ظاهر أيضا
* وذلك اننا لا نرم تغيير
شيئ مما هو بالطبع أبدا
* فان أي أحد لا يروم
أن يغير حركة النار التي الى
فوق بان يعود لها الحركة
الى أسفل ولأن يعود
الحركة الى أعلى يروم
بذلك ان يغير حركة الطبيعة
التي الى أسفل * ولو رآه
ما صرح به تغيير شيء من هذا
ولما يجرى بجوار أعمى
الأمر التي هي بالطبع
فقد صحت المقدمةتان
ومع التأليف في الشكل
الأول وهو الضرب الثاني
منه وصار بهانا * فأما
مراتب الناس في قبول
هذه الآداب التي فيها
خلقها والمساعدة على تعلمها
والحرص عليها فانها كثيرة
وهي تشاهد وتبين فيهن

عبد العزيز رضي الله عنه ما رأيت يقينا لاشك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من يقين نحن فيه
فلئن كنا مقرين بالحق ولئن كنا حادين لإهلاكه وقال الحسن البصري رحمه الله عليه
نهارك ضيفك فاحسن اليه فانك إن أحسنت اليه أو تحل بمحمدك وإن أسأت اليه أو تحل
بذلك وكذلك ليلاك وقال الجاحظ في كتاب البيان وجسدكم توبا في حجر يا بن آدم لو
رأيت يسير ما بق من أجلك لذهبت في طويل ما ترجو من أملاك ولرغبت في الزيادة من
عملك ولقصرت من حرصك وحيك وانما يلقاك غدا فذلك لو قد زلت بك قدمك وأسلك
أهلك وحشيتك وتبرأ منك التريب وانصرف عنك الحبيب ولما حضر يشر من منصور
الموت فرح فقيل له أتفرح بالموت فقال أتجعلون قدومي على خالق أرجوه كقافلي مع
مخلوق أخافه وقيل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه في مرضه الذي مات فيه لو أرسلت إلى
الطبيب فقال قد رأي قالوا فقال لك قال قال اني فعال لما أريد وقيل للربيع بن خثيم
وقد اعتل ندعوك بالطبيب قال قد أردت ذلك فذكرت عادا وثودا وأصحاب الرس وقرونا
بين ذلك كثيرا وعلمت أنه كان فيهم الداء والمداوى فهلكوا جميعا وسئل أنوش ران متى
يكون عيش الدنيا ألد قال إذا كان الذي ينبغي أن يهلك في حياته معمولا وقال بعض الحكماء
من ذكر المنية تنسى الامنية وقال بعض الأدباء عن الموت تسلس وهو كربة تسلس وقال
بعض البلغاء الأمل محاب الأجل وأنشد بعض أهل الادب ما ذكر أنه لعلى رضي الله عنه

ولو أنا إذا متنا تركنا * لكان الموت راحة كل حي

ولكننا إذا متنا بعثنا * ونسئل بعدنا عن كل شيء

(وقال بعض الشعراء)

ألا انما الدنيا مقيل لراكب * قضى وطرا من منزل ثم هجرا

وراح ولا يدري علام قدومه * ألا كل ما قدمت تلقى موقرا

وروى سعيدين مسعود رضي الله عنه أن أبا الدرداء رضي الله عنه قال يا رسول الله أوصني
فقال صلى الله عليه وسلم اكسب طيبا واعمل صالحا واسأل الله تعالى رزقي يوم يوم واعدد
نفسك من الموت وكتب الربيع بن خثيم إلى أخ له قدم جهازك وأفرغ من زادك وكن وصي
نفسك والسلام وقال بعض السلف أصاب الدينار من حذرهما وأصابت الدينار من أمنها ومر
محمد بن واسع رحمه الله عليه بقوم فقيل هؤلاء زهاد فقال ما قدر الدينار حتى يحمدين زهد
فيها وقال بعض الحكماء السعيد من اعتبر باسمه واستظهر لنفسه والشقي من جمع لغيره
وبخل على نفسه وقال بعض البلغاء لا تبت عن غير وصية وإن كنت من جسمك في محبة
ومن عمرك في فسحة فان الدهر خائن وكل ما هو كائن كائن وقال بعض الشعراء

من كان يعلم أن الموت مدركه * والقبور مسكنه والبعث مخرجه

وأنه بين جنات ستهججه * يوم القيامة أو نار ستهججه

فكل شيء سوى التقوى به مسمج * وما أقام عليه منه أسمجه

تري الذي اتخذ الدنيا لهوطنا * لم يدرك أن الدنيا سوف ترجمجه

وروى جعفر بن محمد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه

وخاصة في الاطفال فان
اخلاقيهم تظهر فيهم منذ
بدء نشأتهم ولا يستر عنها
بروية ولا فكر كما يفعل
الرجل النائم الذي انتهى
في نشته ويكاله الى حيث
يعرف من نفسه ما يستخرج
منه فيخفه بضر ومن
الحيل والأفعال المضادة
لما في طبعه وأنت تتأمل
من اخلاق الصبيان
واستعدادهم لقبول الأدب
أو نفورهم عنه أو ما يظهرون
في بعضهم من الفحشة وفي
بعضهم من الحياء وكذلك
ما ترى فيهم من الجود
والبخل والرحمة والقسوة
والحسن والفساد ومن
الأحوال المتفاوتة ما تعرف
بمراتب الانسان في قبول
الأخلاق الفاضلة وتعلم
معها نهم ليسوا على رتبة
واحدة وإن فيهم المتوائمين
والمتنعمين والسهل السلس
والفظ المسر والخشيع

قال في بعض خطبه أيها الناس ان لكم نهاية فانتهاوا الى نهايتكم وان لكم معالم فالتفتوا الى معالمكم وان المؤمن بين مخافتين أجل قدمضى لا يدري ما الله صانع فيه وأجل قدبقي لا يدري ما الله قاض فيه فليترؤد العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لأخوته ومن الحياة قبل الموت فان الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتكم للآخرة فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعجب ولا بعد الدنيا دار إلا الجنة والنار . وقال الحسن البصري رحمه الله عليه أمس أجل واليوم عمل وغدا أمل * فخذوا بالعتاهية هذا المعنى فنظمه شعرا
ليس فيما مضى ولا في الذي يأتي * تسلك من لذة مستعجلا
انما أنت طول عمرك ما عسرت في الساعة التي أنت فيها
عمل النفس بالكفاف والا * طلبت منك فوق ما يكفها
وقيل لزيد ما لك تشقى على العصا ولست بكبير ولا مريض فقال اني أعلم اني مسافر وأنها دار بلفة وأن العصا من آلة السفر * فآخذ بعض الشعراء فقال
جئت العصا لضعف أو جئت لجلها * علي ولا أني تخنيت من كبر
ولكنني ألتفت نفسي جلها * لاعلمها اني مقيم على سفر
وقال بعض المتصوفة الدنيا ساعة فاجعلها طاعة * وقال ذو القرنين عليه السلام مرتعنا في الدنيا جاهلين وعشنا فيها غافلين وأخرجنا منها كارهين * وقال عبد الحميد المرء أسير عمر يسير * وقيل في بعض المواعظ عجبا لمن يخاف العقاب كيف لا يكف عن المعاصي وعجبا لمن يرجو الثواب كيف لا يعمل * وقال بعض الحكماء المسمى همت وان كان في دار الحياة والمحسن حي وان كان في دار الاموات وكل بالآثر يومه أو غده * وقال بعض السلف الله المستعان على السنة تصف وقلوب تعرف وأعمال تتخالف * وقال آخر الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما * وقال آخر اعملوا الآخرة تركم في هذه الايام التي تسير كأنها تطير * وقال آخر الموت تصاراك فخذ من دنياك لا خراك * وقال آخر عبد الله الخنذر الخنذر فوالله لقد سرت حتى كأنه قد غفر وقد أمهل حتى كأنه قد أهمل * وقال آخر الايام صحائف أعمالكم فخلدوها أجل أفعالكم * وقيل في مشور الحكم اقبل نصيح المشيب وان يحجل وقيل ما طلعت الشمس الا وعظت بالمس * وقال محمد بن بشير رحمه الله
مضى أمسك الا دني شهيد امعدلا * ويومك هذا بافعال شهيد
فان تلك بالاس اقرت اساءة * فتن باحسان وأنت جيسد
ولا ترج فعل الخير منك الى غد * لعل غسدا ياتي وأنت فقيد
وروي أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما رأيت مثل الجنة نام طابها وما رأيت مثل النار نام هارها . وقال عيسى بن مريم عليه السلام ألا ان أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين ينظروا الى باطن الدنيا حين نظر الناس الى ظاهرها والى أجل الدنيا حين نظر الناس الى عاجلها فاما قوامها ما خشوا أن يميت قلوبهم وتركوها ما عملوا أنه سيتركهم . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه الناس طالبان يطلبان فطالب يطلب الدنيا فارضوها في حجره فانه ربما أدرك الذي يطلبه منها

والشرب . والمتوسطون

بين هذه الاطراف في مراتب
لا تخصي كثرة واذا أهملت
الطباع ولم ترض بالتأديب
والتقويم نشأ كل انسان
على سوم طبعه وبقي عمره
كله على الخال التي كان
عليها في الطفولة وتبع
ما وافقه في الطبع اما
الغضب واما اللذة واما
الزراعة واما الشره واما
غير ذلك من الطباع
المضمومة

الشريعة

والشريعة هي التي تقوم
بالاحداث وتعودهم
الى الفاعل المرضية وتبعد
نفسهم لقبول الحكمة
وتطلب الفضائل والبلوغ
الى السعادة الانسية
بالفكر الصحيح والقياس
المستقيم وعلى الوالدين
أخذهم بها وبسائر الآداب
الجيدة بغزو وبالسبايات
من الضرب اذا دعت

فهلك بما أصاب منها وطالب يطلب الآخرة فإذا رأيت طالبا يطلب الآخرة فنافسوه فيها ودخل
أبوالرداء رضي الله عنه الشام فقال يا أهل الشام اسمعوا قول أخ ناصح فاجتمعوا عليه فقال
مالي أراكم تبثون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون ان الذين كانوا قبلكم بنوا أمشيدا
وأملوا بعدوا وجعوا كثيرا فصيح أمهم غروا ووجههم ثورا ومساكنهم قبورا وقال أبو
حازم ان الدنيا غرت أنوما فعملوا فيها بغير الحق فعاجلهم الموت فظفروا ما هم لمن لا يحمدهم
وصاروا لمن لا يعذرهم وقد خلقنا بعدهم فينبغي أن ننظر لنذي كرهناه منهم فخبثته والذي
غبطناهم به ففسدته * ومربعض الزهاد باب الملك فقال باب جديد وموت عتيد وسفر
بعيد * ومربعض الزهاد برجل قد اجتمع عليه الناس فقال ما هذا قالوا له مسكين سرق منه
رجل جبة ومربه آخر فأعطاه جبة فقال صدق الله ان سعيكم لستى * وقال بعض الحكماء
ما أنصف من نفسه من لا يقن بالحشر والحساب وزهد في الاجر والثواب * وقال آخر
بطول الامل تقسو القلوب واخلص التية تغل الذنوب * وقال آخر اياك والتي
فانها من بضائع النوكى وتبسط عن الآخرة والاولى * وقال آخر قصر أم لك فان العمر
قصير واحسن سبرتك فاليريسر * وقال عبد الله بن المعتز رحمه الله

نسبر الى الآجال في كل ساعة * وأيامنا تطوى وهن وراحل
ولم نر مثل الموت حقا كانه * اذا ما تخطتبه الاماني باطل
وما أقيع التفريط في زمن الصبا * فكيف به والشيب في الرأس نازل
ترحل عن الدنيا بزمان النقي * فعمرك أيام تعد قلائل
وكان عبد الملك بن مروان يمتثل بهذين البيتين

فاعمل على مهل فانك ميت * واكبح لنفسك أيها الانسان
فكان ما قد كان لم يك اذ مضى * وكان ما هو كائن قد كان
ونظر سليمان بن عبد الملك في المرأة فقال أنا الملك الشاب فقالت له جارية له
أنت نعم المتاع لو كنت تبقى * غير أن لبقاء الانسان
ليس فيما بدا لتاملك عيب * كان في الناس غير انك فاني

وزي عبد العزيز بن عبد الصمد عن أبيان عن أنس قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه
وسلم على ناقته الجذعاء فقال أيها الناس كان الموت فيها على غيرنا كتب وكان الحق
فيها على غيرنا وجب وكان الذين نشيع من الاموات سفر عما قليل النار اجعون بنوهم
اجداثهم ونأكل كل تراثهم كأننا مخلدون بعدهم قد نسينا كل واعظته وأمسنا كل جانحة
طوي لمن شغلته عييه عن عيب غيره وأنفق من مال كسبه من غير معصية ورحم أهل
الدين والمسكنة وخالف أهل الفقه والحكمة طوي لمن أذب نفسه وحسنت خليقته
وصلحت سيرته طوي لمن عمل بعلم وأنفق من فضل وأمسك من قوله وسعته السنة
ولم يعد ما يبدعه * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال زوروا القبور وتذكروا
بها الآخرة وغسلوا الموتي فان معالجة الاجساد الخاوية موهظة بلغة * وحفر الربيع
ابن خيثم في داره قبر افكان اذا وجد في قلبه قسوة جاءها فاضطجع في القبر فبك ما شاء الله

اليه الحاجة أو التوب يخاف
ان صدتهم أو الاطماع في
الكرامات أو غيرها مما
يميلون اليه من الراحة
أو يحذرونه من العقوبات
حتى اذا تعودوا ذلك
واسقموا عليه مدة من
الزمان كثرة أمكن فيهم
حيث أن يعملوا براهين
ما أخذوه تقليدا أو ينهوا
على طرق الفضائل
واكسابها والبسوغ الى
غاياتها بهذه الصناعة التي
نحسن بهددها والله
الموافق

واللناس في ترتيب هذه
الآداب وساقها أولا فاولا
الى الكمال الاخير طريق
طبيعي يشبه فيها بفعل
الطبيعة * وهو أن ينظر
الى هذه القوى التي تحدث
فيها أسبق البنا وجود
فيبدأ بتقويمها ثم بما يليها
على النظام الطبيعي وهو
بين ظاهرها * وذلك أن أول

ثم يقول رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت ثم رد على نفسه فيقول قد أَرَجَعْتُكَ
خَفَتِي فَصَكْتُ كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ . وقال أبو محرز الطفاوى كفتك القبور مواضع
الأم السالفة * وقيل لبعض الزهاد ما أبلغ العظا قال النظر الى محلة الاموات فأخذه
أبو العتاهية فقال

وعظمتك أحداث صمت * ونعتك أزمنة خفت

وتكلمت عن أوجه * تبلى وعن صور سبت

وأرتك قبرك في الحيا * وأنت حي لم تمت

يا سامعا بمنيتي * ان المنية لم تفت

فاربعا انقلب الثما * تحفل بالقوم الثمت

ووجد على قبر مكتوبا قهرنا من قهرنا فصرنا للتأخرين عبرة . وعلى آخر من أمل البقاء
وقدر رأى مصارعنا فهو مغرور . وقيل في منشور الحكم ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه .

وقال بعض الحكماء من لم يمت لم يفت . وقال بعض الصالحاء لنا من كل ميت عظة بحاله وعبرة

بماله . وقال بعض العلماء من لم يتعظ بموت ولد لم يتعظ بقول أحد . وقال بعض البلغاء

ما نقصت ساعة من أملك الا يبعثه من نفسك فأخذه أبو العتاهية فقال

ان مع الدهر فاعلم غدا * فانظربا ينقضى يحيى وغدا

ما ارتد طرف امرئ ببلذته * الا وشئ يموت من جسده

ولمات الاسكندر قال بعض الحكماء كان الملك أمس أنطق منه اليوم وهو اليوم أعظم

منه أمس فأخذ أبو العتاهية هذا المعنى فقال

كفى خزنا بدفنك ثم اتى * نفضت تراب قبرك عن يديا

وكانت في حيا تلك عظام * وأنت اليوم أعظم منك حيا

وقال بعض الحكماء لو كان الخطايا ربح لاقتضع الناس ولم يتعاسوا فأخذه هذا المعنى

أبو العتاهية فقال

أحسن الله بنا ان الخطايا لا تنفوح

فاذا المستور * بين ثوبيه فضوح

وهذا جميعه مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم لو تكاسفت ما تدافتم . وكتب جزل

الى أبي العتاهية رحمه الله

يا أبا اسحق اتى * واثق منك بوند

فأعنى بأبي أ : مت على عيني برشدك

فأجابه بقوله *

أطع الله بجهلك * راغباً أو دون جهلك

أعطاؤك الذى تط * لب من طاعة عبدك

وقال بعض الحكماء من سره بهو ساءته نفسه فأخذه هذا المعنى أبو العتاهية فقال

ابن ذى الابر كلنا زاعمته * مشرع زاد فى فناء أبية

ما يحدث فيها هو الشئ
العام للحيوان والنبات
كاه ثم لا يزال يختص بشئ
شئ يتميز به عن نوع نوع
الى أن يصير الى الانسانية
فلذلك يجب أن تبدأ
بالشوق الذى يحصل فينا
للغذاء فتقوم به ثم بالشوق
الذى يحصل فينا الى
الغضب ومحبة الكرامة
فتقوم به ثم بآخره وهو
الشوق الذى يحصل فينا
الى المعارف والعلوم
فتقوم به * وهذا الترتيب
الذى قلنا انه طبيعى إنما
حكمنا فيه بذلك لما ظهر
فينا منذ أول نشونا أعنى
اننا نكون أولا أجنة ثم
أطفالا ثم أناسا كاملين
وتحدث فينا هذه القوى
مرتبة فاما أن هذه الصناعة
هى أفضل الصناعات كلها
اعنى صناعة الاخلاق التى
تعنى بقوياد أفعال الانسان

ما بقاه الاب المخلع عليه * بديب الشباب بينه
وفي معناه ما حكى عن زرين حبش انه عاش مائة وعشرين سنة فلما حضرته الوفاة أشد
يقول اذا الرجال ولدت أولادها * وارثعت من كبر أجسادها
وجعلت أسقامها نعتادها * تلك زروع قد دنا حصادها
﴿وكتب رجل الى صالح بن عبد القدوس﴾
الموت باب وكل الناس داخله * قلت شعري بعد الباب ما الدار
﴿فأجاب بقوله﴾

الدار حناث عدن ان علمت بما * رضى الاله وان خالفت فالنار
هما محلان ما للناس غيرهما * فانظر لنفسك ماذا أنت مختار

بحسب ما هو انسان فيتين
بما أقول

﴿الانسان﴾

لما كان للجوهر الانساني
فعل خاص لا يشاركه فيه
شي من موجودات العالم
كما ينهه فيما تقدم وكان
الانسان أشرف موجودات
عالمنا لم تصدر عنه أفعاله
بحسب جوهره وشبهناه
بالفرس الذي اذا لم تصدر
عنه أفعال الفرس على
التمام استعمله كان الحمار
بالاكاف وكان وجوده
أرواح له من عديمه *
وجب أن تكون الصناعة
التي تعنى بتجويد أفعال
الانسان حتى تصدر عنه
أفعاله كلها تامة كاملة
بحسب جوهره ورفعته
عن رتبة الأخس التي
يسحق بها المقت من الله
والقرار في العذاب الاليم

باب ادب الدنيا

اعلم أن الله تعالى لنا فقدرته وبالع حكمته خلق الخلق بتدبيره وفطرهم بتقديره فكان
من لطيف ما دبره وبديع ما قدره أنه خلقهم محتاجين وفطرهم عاجزين ليكونوا للشي
منفردا وبالقدر مختصا حتى يشعرنا بقدرته أنه خالق وبعمائه أنه رازق فنذعن
بطاعته رغبة ورهبة ونقر بتقائنا بحجز أوحاجة ثم جعل الانسان أكثر حاجة من جميع
الحيوان لأن من الحيوان ما يستقل بنفسه عن جنسه والانسان مطبوع على الافتقار الى
جنسه واستعانة صفة لازمة لطبعه وخلقة قائمة في جوهره ولذلك قال الله سبحانه وتعالى
وخلق الانسان ضعيفا يعني عن الصبر عما هو اليه مفتقر واحتمال ما هو عنه عاجز ولما كان
الانسان أكثر حاجة من جميع الحيوان كان أظهر بحجز الان الحاجة الى الشي افتقار اليه
والمفتقر الى الشي عاجزه . وقال بعض الحكماء المتقدمين استغنأوك عن الشي خير من
استغنائك به وانما خص الله تعالى الانسان بكثرة الحاجة وظهور الحاجة ونعمة عليه ولطفائه
ليكون ذل الحاجة ومهانة الجهز بمنعانه من طغيان الغنى وبني القدرة لان الطغيان مركز
في طبعه اذا استغنى والغبى مستول عليه اذا قدر وقد أنشأ الله تعالى بذلك عنه فقال كلا ان
الانسان ليطغى أن زأما استغنى ثم ليكون أقوى الامور شاهدا على نفسه وأوضحها دليلا على
بحجزه . وأنشدني بعض أهل الادب لابن الرومي رحمه الله

أعيرتني بالنقص والنقص شامل * ومن ذا الذي يعطي الكمال فيكمل
وأشهد أني ناقص غير أنني * اذا قيس بي قوم كثير تغلوا
تفاضل هذا الخلق بالفضل والحجا * ففي أيما هذين أنت مفضل
ولو منح الله الكمال ابن آدم * نخلده والله ماشاء يفعل

ولما خلق الله الانسان ماس الحاجة تظاهر الجهز جعل لنيل حاجته أسبابا وادفع بحجزه حيلة
دله عليها بالعقل وأرشد اليها بالفطنة . قال الله تعالى والذي قدر قهدي . قال مجاهد

قدراً أحوال خلقه فهدى إلى سبيل الخير والشر . وقال ابن مسعود في قوله تعالى وهديناه
 الجدين يعني الطريقين طريق الخير وطريق الشر ثم لما كان العقل دالاً على أسباب ما تدعو
 إليه الحاجة جعل الله تعالى الإدراك والتفكر موقوفاً على ما قسم وقد ركس الاعتدال في
 الأرزاق على عقولهم وفي العجز على فطنهم لتدوم له الرغبة والرغبة وهظهر منه التقي والقدرة
 وربما عجز هذا المعنى على من ساء ظنه بخالقه حتى صار سبباً لصلاله كما قال الشاعر

سبحان من أنزل الأيام منزلها * وصير الناس مرفوضاً ومرفوقاً

فعاقل فطن أعيت مذاهبه * وجاهل خرق تلقاه مرزوقاً

هذا الذي ترك اللباب حائرة * وصير العاقل الخير رزديقا

ولو حسن ظن العاقل في صحة نظره لعلم من علل المصالح ما صار به صديقا لا زديقا لان
 من علل المصالح ما هو ظاهر ومنها ما هو غامض ومنها ما هو مغيب حكمته استأثر بها
 * ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم حسن الظن بالله من عبادة الله ثم ان الله تعالى
 جعل أسباب حاجاته وحيل عجزه في الدنيا التي جعلها دار تكليف وعمل كما جعل الآخرة
 دار قرار وجزاء فمن لذلك أن يصرف الإنسان إلى دنياه مخطئاً من عنايته لأنه لا غنى له عن
 التزويع منها الآخرة ولا له بدمن سداخله فيها عند حاجته وليس في هذا القول نقض لما
 ذكرنا قبل من ترك فضولها وزجر النفس عن الرغبة فيها بل الراغب فيها ملوم وطالب
 فضولها مذموم والغربة إنما تختص بما جاوز قدر الحاجة والفضول إنما يطلق على
 ما زاد على قدر الكفاية . وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فإذا فرغت فانصب
 وإلى ربك فارغب . قال أهل التأويل فإذا فرغت من أمور دنياك فانصب في عبادة
 ربك وليس هذا القول منه ترغيباً لنبيه صلى الله عليه وسلم فيها ولكن نذيراً له إلى أخذ البلغة
 منها وعلى هذا المعنى قال صلى الله عليه وسلم ليس خيركم من ترك الدنيا الآخرة ولا الآخرة
 للدنيا ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال
 نعم المطية الدنيا فأرسلوا بملوككم الآخرة . وذر رجل الدنيا عند علي بن أبي طالب كرم
 الله وجهه فقال رضي الله عنه الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار نفاق لمن نهم عنها ودار
 غنى لمن تزود منها * وحكي مقاتل أن أبا راهيم الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام
 قال يا رب حتى متى أترد في طلب الدنيا فيقول له أمسك عن هذا فليس طلب المعاش
 من طلب الدنيا . وقال سفيان الثوري رحمه الله عليه مكتوب في التوراة إذا كان في
 البيت برفعت عبد وإذا لم يكن فاطلب يا ابن آدم حرك يدك بسبب للرزق . وقال بعض
 الحكماء ليس من الرغبة اكتساب ما يصون العرض فيها . وقال بعض الأدباء ليس
 من الحرص اجتلاب ما يقوت البدن . وقال محمود الوراق

لا تبسع الدنيا وأيامها * فما وإن دارت بك الدائرة

من شرف الدنيا ومن فضلها * أثبها تستدرك الآخرة

فإذا قدر لم يبيناه النظر في أمور الدنيا فواجب ستر أحوالها والكشف عن جهة انتظامها
 واختلاطها لتعلم أسباب صلاحها وفسادها ومواد عمرانها وأحوالها لتتقي عن أهلها شبه

أشرف الصناعات كلها

وأكرمها * وأما سائر

الصناعات الأخر فمراتبها

من الشرف بحسب مراتب

جوهر الشيء الذي تستعمله

وهذا ما ظهر جلياً من

تصنيع الصناعات لان

فيها الدباغة التي تعني

باصلاح جلود البهائم

المتينة وفيها صناعة

الطب والعلاج التي تهتم

باصصلاح الجواهر

الشرقية الكريمة وهكذا

الهمم المتفاوتة التي

ينصرف بعضها إلى العلوم

الدنيئة وبعضها إلى العلوم

الشرقية * وأما كانت

جواهر الموجودات

متفاوتة في الشرف في

المعاد والنبات والحيوان *

أما في الحيوان فكجواهر

الديدان والحشرات اذا

قسن إلى جوهر الانسان

* وأما في جوهر الموجودات

الحيرة وتنجي لهم أسباب الخيرة فيقصدوا الامور من ابوابها ويعتدوا صلاح قواعدها
 وأسبابها . واعلم أن صلاح الدنيا معتبر من وجهين أولهما ما ينظم به أمور مجتمعاتها
 والثاني ما يصلح به حال كل واحد من أهلها فهم أشيان لصلاح لأحدهما الإيصاحيه لان
 من صلحت حاله مع فساد الدنيا واختلال أمورها لن يعدم أن يتعدى اليه فسادها ويقدر
 فيه اختلالها لان منها يستمد ولها يستعد ومن فسدت حاله مع صلاح الدنيا وانظم
 أمورها لم يجد لصلاحها ذلة ولا لاستقامتها أثر لان الانسان دنياه نفسه فليس يرى
 الصلاح الا اذا صلحت له ولا يجد الفساد الا اذا فسدت عليه لان نفسه أخص وحاله أخص
 فصار نظره الى ما يخصه مصروفا وفكره على ما يحسه موقوفا واعلم أن الدنيا لم تكن قط
 لجميع أهلها مسعدة ولا عن كافة ذوبها معرضة لان اعراضها عن جميعهم عطب
 واسعادها الكافهم فساد لا تلافهم بالاختلاف والتباين وانفاقهم بالمساعدة والتعاون
 فاذا تساوى جميعهم لم يجد أحدهم الى الاستعانة بغيره سبيلا وبهم من الحاجة والجهز
 ما وصفنا فيذ هو أضعف ويهلكوا عجزا واذا تباينوا واختلقوا صاروا مؤثقتين بالمعونة
 متواصلين بالحاجة لان ذا الحاجة وصول والمحتاج اليه موصول . وقد قال الله تعالى
 ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم . قال الحسن مختلفين في الرزق فهذا
 غنى وهذا فقر ولذلك خلقهم يعني للاختلاف بالثقل والفقر . وقال الله تعالى والله فضل
 بعضكم على بعض في الرزق غير أن الدنيا اذا صلحت كان اسعادها موفورا واعراضها
 ميسورا الا انها اذا مضت هتكت وأودعت واذا استردت رفقت وأبقت واذا فسدت الدنيا
 كان اسعادها مكمرا واعراضها غفرا لانها اذا صلحت كدت وأتعبت واذا استردت استأصلت
 وأبجحت ومع هذا فصلاح الدنيا صلح تسائر أهلها لوفور أماناتهم وظهور دياناتهم
 وفسادها فساد تسائر أهلها لقله أماناتهم وضعف دياناتهم وقدر جسد ذلك في مشاهد
 الحال تجر به وعرفا كما يقتضيه دليل الحال تعليل لا وكشفا فلا شيء أنفع من صلاحها
 كما لا شيء أضر من فسادها لان ما تقوى به ديانات الناس وتتوفر أماناتهم فلا شيء أحق به
 نفسهما كما أن ما به تضعف دياناتهم وتذهب أماناتهم فلا شيء أجدر به ضرا * وأنشدت
 لابي بكر بن دريد

الناس مثل زمانهم * قد الحذا على مثاله
 ورجال دهر كمثل دهر * رك في قلبه وحاله
 وكذا اذا فسد الزمان * نجرى الفساد على رجاله

واذ قد بلغ بنا القول الى ذلك فسنبدأ بذكر ما يصلح الدنيا ثم نتلو به وصف ما يصلح به حال
 الانسان فيها . اعلم أن ما به تصلح الدنيا حتى تصير أحوالها منتظمة وأمورها ملتزمة
 ستأشياء هي قواعدها وان تفرعت وهي دين متبع وسلطان قاهر وعدل شامل وأمن
 عام وخصب دائم وأمل فسيح . فاما القاعدة الأولى فهي الدين المتبع فلا به تصرف النفوس
 عن شهواتها ويعطف القلوب عن اراداتها حتى يصير قاهر السرائر زاجر للضمائر
 رقيب على النفوس في خلواتها نصوحا لحاق في ملأها وهذه الامور لا يوصل بغير الدين

الاخر فظاهر لمن أراد أن
 يحصيهما فالصناعة والهمة التي
 تصرف الى أشرفها أشرف
 من الصناعة والهمة التي
 تصرف الى الادون منها
 * ويجب أن يعلم ان اسم
 الانسان وان كان يقع
 على أفضلهم وعلى أدونهم
 فان بين هذين الطرفين
 أكثر مما بين كل متضادين
 من البعد * وان رسول
 الله صلى الله عليه وسلم
 قال * ليس شيء خير من
 ألف مثله الا الانسان
 * وقال عليه الصلاة
 والسلام الناس كابل
 مائة لا يجسد فيها راحلة
 واحدة * وقال الناس
 كاستنان المشط وفي بعضها
 كاستنان الجمار واغا
 يتفاضلون بالعقل والاخير
 في محبة من لا يعرف لك
 من الفضل ما تعرف له
 وفي نظائر هذه أشياء كثيرة
 تدل على هذا المعنى وان

المساوي لا يصلح الناس الاعليها فكان الدين أقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها
وأجدي الأمور نفعاً في انتظامها وسلامتها ولذلك لم يحل الله تعالى خلقه مذ فطرهم
عقلاء من تكليف شرعي واعتقاد ديني يتقادون لحكمه فلا تختلف بهم الآراء ويستسلمون
لامره فلا تصرف بهم الأهواء وأغاختلف العلماء رضى الله عنهم في العقل والشرع هل
جا أمجئاً واحداً أم سبق العقل ثم تبعه الشرع فقالت طائفة جاء العقل والشرع
معاً مجئاً واحداً لم يسبق أحدهما صاحبه * وقالت طائفة أخرى سبق العقل ثم تبعه
الشرع لأن بكال العقل يستدل على صحة الشرع . وقد قال الله تعالى أحسب الإنسان
أن يترك سدى وذلك لا يؤجر منه إلا عند كمال عقله فثبت أن الدين من أقوى القواعد في
صلاح الدنيا وهو الفرد الواحد في صلاح الآخرة وما كان به صلاح الدنيا والآخرة فثبت
بالعقل أن يكون متمسكاً وعليه محافظا * وقال بعض الحكماء الأدب أدبان أدب شريعة
وأدب سياسة فأدب الشريعة ما أدى الفرض وأدب السياسة ما عمر الأرض وكلاهما
يرجع إلى العدل الذي به سلامة السلطان وعمارة البلدان لأن من ترك الفرض فقد ظلم
نفسه ومن خرب الأرض فقد ظلم غيره * وقال سعد بن جهم ما صحبه أديباً نفعه حتى
يصح الدين والخلق * وأما القاعدة الثانية فهي سلطان قاهر تتألف من رهبة الله والهواء
المختلفة وتجتمع لديه القلوب المتفرقة وتنكشف بسطوته الأيدي المتغالبية وتنتع من
خوفه النفوس العادية لأن في طابع الناس من حب المغالبة على ما أتروه والقهر لمن
عاندوه ما لا يكفون عنه إلا بجانح نوري ورايع ملي * وقد أفصح المتنبي بذلك في قوله
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى * حتى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس فان تجدد * ذاعقة فلعله لا يظلم
وهذه العلة المانعة من الظلم لا تخلو من أحد أربعة مآشياء إما عقل زاجر أو دين حاجر
أو سلطان رادع أو مجز صائد فإذا تأملت ما لم تجد خامساً يقرن بها ورهبة السلطان أبلغها
لأن العقل والدين ربما كانا مضعوفين أو بدواعي الهوى مغلوبين فتكون رهبة السلطان
أشد زجراً وأقوى ردعاً * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال السلطان ظل الله
في الأرض يأمر إليه كل مظلوم * وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله ليزع
بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله
حراس في السماء وحراس في الأرض حراسه في السماء الملائكة وحراسه في الأرض
الذين يقضون أرزاقهم يذوقون الناس * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال
الامام الجائر خير من الفتنة وكل لاخبر فيه وفي بعض الشرح * وقال أبوهريرة رضي الله
عنه سبب الهجم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهى عن ذلك وقال لا تسبوهوا فانها
عمرت بلاد الله تعالى فعاش فيها عباد الله تعالى * وقال بعض البلغاء السلطان في نفسه
امام متبوع وفي سيرة دين مشرع فان ظلم لم يعدل أحلفي حكم وان عدل لم يحسر أحد
على ظلم * وقال بعض الأدباء أن أقرب الدعوات من الإجابة دعوة السلطان الصالح وأولى
الحسنات بالاجر والثواب أمره ونهي في وجوه المصالح فهذه آثار السلطان في أحوال الدنيا

الشاعر الذي قال

ولم أر أمثال الرجال تقاونا
إلى المجد حتى عد ألف بواحد
وان كان عنده أنه قد بالغ
فانه قد قصر والجائر المروى
عن النبي عليه الصلاة
والسلام اني وزنت بامتي
فرحمتهم أصدق
وأوضح * وليس هذا في
الإنسان وحده بل في كثير
من الجواهر الأخرى وان
كان في الإنسان أكثر
وأشد تفاوتا فبين السيف
المعروف بالمصصام وبين
السيف المعروف بالكهام
تفاوتاً عظيماً * وكذلك
الحال في التفاوت الذي
بين الفرس الكريم وبين
البرذون المقرف فمن أمكنه
ان يرق بالصناعة أدون
هذه الجواهر مرتبة إلى
أعلاها فاشرف به
وبصناعته مما أكرمه
وأكرمه * فاما الإنسان

وما يفتنهم به أمورهما ثم لما في السلطان من حراسة الدين والدينا والذب عنهما ودفع الأهواء
منه وحاسة التبديل فيه وزج من شذوذه بارتداد أربعي فيه بعناد أوسعي فيه بفساد وهذه
أمور إن لم تحسم عن الدين بسلطان قوى ورعاية وإفنية أسرع فيه تبديل ذوى الأهواء
وتحرير غزوى الآراء فليس دين زال سلطانه إلا بدلت أحكامه وطمست أعلامه وكان
لكل زعيم فيه بدعة ولكل عصر فيه وهامة أثر كيان السلطان أن لم يكن على دين تجتمع
به القلوب حتى يرى أهلها الطاعة فيه فرضا والتناصر عليه حتما لم يكن للسلطان لبث
ولا لآبائه صفو وكان سلطان قهر ومفسدة دهر ومن هذين الوجهين وجب إقامة
امام يكون سلطان الوقت وزعيم الأمة ليكون الدين محروسا بسلطانه والسلطان جاريا
على سنن الدين وأحكامه * قال عبد الله بن المعتز الملك بالدين يبقى والدين بالملك بقوى
واختلف الناس هل وجب بالعقل أو بالشرع فقالت طائفة وجب بالعقل لانه معلوم
من حال العقل أغلى اختلا فهم الفزع إلى زعيم مندوب للنظر في مصالحهم وذهب
آخرون إلى وجوبه بالشرع لان المقصود بالامام القيام بأمر شرعية كاقامة الحدود
واستيفاء الحقوق وقد كان يجوز الاستغناء عنها بان لا يراد التعبد بها بان يجوز الاستغناء
عما لا يراد إلا الهأأولى وعلى هذا اختلافوا في وجوب بعثة الأنبياء فن قال بوجوب ذلك
بالعقل قال بوجوب بعثة الأنبياء ومن قال بوجوب ذلك بالشرع منع من وجوب بعثة
الأنبياء لانهما كان المقصود ببعثتهم تعريفا لمصالح الشرعية وكان يجوز من المكلفين
أن لا تكون هذه الأمور مصالحة لهم لم يجب بعثة الأنبياء إليهم فاما إقامة امامين أو ثلاثة
في عصر واحد وبلد واحد فلا يجوز اجتماعا فاما في بلدان شتى وأمصار متباعدة فقد
ذهبت طائفة شاذة إلى جواز ذلك لان الامام مندوب للمصالح واذا كان انسان في بلد
أو ناحيتين كان كل واحد منهما أقوم بما في يده وأضبط لما لديه ولانه لما جاز بعثة
نبيين في عصر واحد ولم يؤد ذلك إلى ابطال النبوة كانت الامامة أولى ولا يؤدى ذلك إلى
ابطال الامامة وذهب الجمهور إلى أن اقامة امامين في عصر واحد لا يجوز شرعا لما روى
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا بويع أميران فاقتلوا أحدهما * وروى عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال انا أوليتم أبابكر تجلوه قويا في دين الله عز وجل ضعيفا في دينه
واذا أوليتم عمر تجلوه قويا في دين الله عز وجل قويا في دينه وان أوليتم عليا تجلوه هاديا مهديا
فحين بظاهر هذا الكلام أن اقامة جميعهم في عصر واحد لا يصح ولو صح لا شأنا له ولنه
عليه والذي يلزم سلطان الأمة من أمور هاسبعة أشياء أحدها حفظ الدين من تبديل فيه
والحث على العمل به من غير إهمال له والثاني حراسة البيضة والذب عن الأمة من عدو
في الدين أو باغى نفس أو مال والثالث عمارة البلدان بالعمامة ومصالحها وتهذيب سبلها
ومسالكها والرابع تقدر ما يتولاه من الأموال بسنن الدين من غير تحريف في أخذها
واعطائها والخامس معاناة المظلومين والأحكام بالتسوية بين أهلها واعتماد النصفة في فصلها
والسادسة اقامة الحدود وعلى مستحقها من غير تجاوز فيها ولا تقصير عنها والسابع اختيار
خلقائه في الأمور أن يكون من أهل الكفاية فيها والامانة عليها فاذا فعل من أفضى إليه

من بين هذه الجواهر فهو
مستعد بضروب من
الاستعدادات لضروب من
القمامات * وليس ينبغي
أن يكون الطمع في
استصلاحه على مرتبة
واحدة وهذا شيئين
فيما بعد بعثة الله وعونه
الآن الذي ينبغي أن يعلم
الآن أن وجود الجواهر
الإنسانية متعلق بقدرته
فاعله وخالفه تبارك
وتقدس اسمه وتعالى فاما
تجويد جواهره ففوض
إلى الإنسان وهو معلق
بارادته * فاعرف هذه
الجملة إلى أن تلخص في
موضعها ان شاء الله تعالى
ونقد قمنا في صدر هذا
الكتاب أن قلنا بنسني
ان نعرف نفوسنا ما هي
ولاى شئ هي ثم قلنا ان

سلطان الالهة ما ذكرنا من هذه الاشياء السبعة كان مؤيداً لحق الله تعالى فيهم مستوجباً
لطاعتهم ومناعتهم مستحقاً للصلق ميلهم ومحبتهم وان نصرعنا ولم يتم بحققها وواجبها
كانها مؤاخذاً ثم هو من الرعية على استنطان معصية ومقت يتربصون القرص
لاظهارهما ويتوقعون الدوائر لاعلانها * وقد قال الله تعالى قل هو الله ادرك على أن يبعث
عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم سبيحاً * وفي قوله تعالى عذاباً من
فوقكم أو من تحت أرجلكم تأويلان أحدهما أن العذاب الذي هو من فوقهم أمراء
السوء والذي من تحت أرجلهم عبيد السوء وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما والثاني
أن العذاب الذي هو من فوقهم الرجم والذي من تحت أرجلهم الخسف وهذا قول مجاهد
وسعيد بن جبير وفي قوله تعالى أو يلبسكم سبيحاً تأويلان أحدهما أنه الأهواء المختلفة
وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما والثاني أنه الفتن والاختلاط وهذا قول مجاهد *
وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من أمير على عشرة إلا وهو يجي يوم القيامة
مغلولاً يده إلى عنقه حتى يكون عمله هو الذي يطلعه أو يوقه * وروى عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه قال خير أمتكم الذين يحبونهم ويحبونكم وشر أمتكم الذين يبعضونهم
ويبعضونكم وتلعنونهم وبلغونكم وهذا الصحيح لأنه إذا كان ذا خير أحسن وأجود
وإذا كان ذا شر أبغضهم وأبغضوه * وقد كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى سعد بن
أبي وقاص رضي الله عنه أن الله تعالى إذا أحب عبداً أحبه إلى أخاه فاعرف منزلتك من
الله تعالى عز وجل من الناس واعلم أن ملائكة عند الله مثل ما عندك فكان هذا موضعاً
لعمى ما ذكرنا وأصل هذا أن خشية الله تبعث على طاعته في خلقه وطاعته في خلقه
تبعث على محبته فذلك كانت محبتهم دليلاً على خيره وخشيته وبغضهم دليلاً على شره
وقلة مراقبته * وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبعض خلفائه أو صيكت أن تخشى
الله في الناس ولا تخشى الناس في الله * وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه اني
أخاف الله فيما تقلدت فقال له استأخاف عليك أن تخاف الله وأخاف عليك أن
لا تخاف الله وهذا واضح لان الخائف من الله تعالى مأمون * كالذي روى عن عمر بن
الخطاب رضي الله عنه أنه قال لابن مريم السلولى وكان هو الذي قتل أخاه زيداً والله اني
لا أحبك حتى تحب الارض الدم قال أفمنعني ذلك حقاً قال لا قال فلا يضربني أيا مني على الحب
النساء * وروى عبد الرحمن بن محمد قال أصدق طلحة بن عبد الله أم كلثوم بنت أبي بكر مائة
ألف درهم وهو أول من أصدق هذا القدر فربما لباب على عمر بن الخطاب رضي الله
عنه فقال ما هذا قالوا صدق أم كلثوم ابنة أبي بكر فقال أدخلوه بيت المال فخير بذلك
طلحة وقيل له كله في ذلك فقال ما أنا بفعل لأن كان عمر يرى له فيه حقاً لا يرد له كل شيء
وان كان لا يرى فيه حقاً ليردنه قال فلما أصبح عمر أمر بالمال فدفع إلى أم كلثوم * وحكى أن
الرشيد جبرئيل ألقاه في كتب على حائط الحبس

أما والله إن انظلم شؤم * وما زال المسيء هو الظلوم
إلى ديان يوم الدين تمضي * وعند الله يجتمع الخوصوم

لكل جوهر موجود كما لا
خاص به وفصلاً لا تشاركه
فيه غيره من حيث هو
ذلك الشيء وقد بينا ذلك
في غاية البيان في الرسالة
المسعدة وإذا كان ذلك
محفوظاً فحق مضطرون
إلى أن نعترف الكمال
الخاص بالإنسان والفعل
الذي لا يشاركه فيه غيره
من حيث هو إنسان
لنحرص على طلبه
وتخصيله ونجتهد في
البلوغ إلى غايته ونهايته
* ولما كان الإنسان
مركباً لم يجوز أن يكون
كأله وفعله الخاص به كمال
بسانته وأفعاله الخاصة
بها والا كان وجود
المركب باطلاً كالحال
في الخاتم والسرير . فإذا
له فعل خاص به من حيث
هو مركب وإنسان

ستعلم في المعاد اذا التقينا * غدا عند الملك من الظلوم

فاخير الرشيد بذلك فيكي بكاء شديدا ودعا بابي العتاشية فاستجله وهوب له ألف دينار وأطلقه وأما القاعدة الثالثة فهي عدل شامل يدعو الى الالفه ويبعث على الطاعة وتعزبه البلاد وتتم به الاموال ويكثر معه النسل ويأمن به السلطان فقد قال الهرزان لهرحين رآه وقد نام متبذلا عدلت فأمنت فمت وليس شيء أسرع في خراب الارض ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور لانه ليس يقف على حد ولا ينتهي الى غاية ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ينش الزاد الى المعاد العدوان على العباد * وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث منجيات وثلاث مهلكات فاما المنجيات فالعدل في الغضب والرضى وخشية الله في السر والعلانية والقصد في الغنى والفقر وأما المهلكات فشح مطاع وهو مبتغى وعجاب المرء بنفسه * وحكى أن الاسكندر قال للحكام الهند وقد رأى قلة الشرائع بهم صارت سنن بلادكم قليلة قالوا لا عطاء لنا الحق من أنفسنا ولعدل ملوكنا فابتا فقال لهم أئما أفضل العدل أو الشهاعة قالوا اذا استعمل العدل أغنى عن الشهاعة * وقال بعض الحكماء بالعدل والانصاف تكون مدة الائتلاف * وقال بعض البلغاء ان العدل ميزان الله الذي وضعه للخلق ونصبه للحق فلا تخالفه في ميزانه ولا تعارضه في سلطانه واستعن على العدل بخطين قلة اطمع وكثرة الورع فاذا كان العدل من احدى قواعد الدنيا التي لا انتظام لها الا به ولا صلاح فيها الا معه وجب أن يندأ العدل الانسان في نفسه ثم يده في غيره فاما عدله في نفسه فيكون بحملها على المصالح وكفها عن القبايح ثم بالوقوف في أحوالها على عدل الامر من من تجاوز أو تقصير فان تجاوز فيها جور والتقصير فيها ظلم ومن ظلم نفسه فهو لغيره أظلم ومن جار عليها فهو على غيره أجور * وقد قال بعض الحكماء من نوى في نفسه ضاع وأما عدله في غيره فقد يتقسم حال الانسان مع غيره على ثلاثة أقسام فالقسم الاول عدل الانسان فيمن دونه كالسلطان في رعيتيه والرئيس مع صحبائه فعده فيهم يكون باربعة أشياء باتباع الميسور وحذف المعسور وترك التسليط بالقوة وابتغاء الحق في الميسور فان اتباع الميسور أدم وحذف المعسور أسلم وترك التسليط أعطف على الحقمة وابتغاء الحق أبعث على النصرة وهذه أمور ان لم تسلم للزعيم المدبر كان الفساد ينظره أكثر والاختلاف يتدبره أظهر * روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أشد الناس عذابا يوم القيامة من أشركه الله في سلطانه بفار في حكمه * وقال بعض الحكماء الملك ينبغي على الكفر ولا ينبغي على الظلم * وقال بعض الادباء ليس للعاثر جار ولا تهرله دار * وقال بعض البلغاء أقرب الاشياء صرعة الظلوم وأنفذ السهام دعوة المظلوم * وقال بعض حكماء الملوك العجب من ملك استفسد رعيته وهو يعلم أن عزه بطاعتهم * وقال أزدشبر بن بابك اذا رغب الملك عن العدل ورغب الرعية عن طاعته * وعو تب أو شروان على ترك عقاب المذنبين فقال لهم المرضى ونحن الاطباء فاذا لم نداوهم بالموافق لهم * والقسم الثاني عدل الانسان مع من فوقه كالرعيه مع سلطانها والصحابة مع رئيسها فقد يكون

لا يشاركه فيه شيء من الموجودات الاخر . فأفضل الناس أقدرهم على اظهار فعله الخاص والزهم له من غير تلون فيه ولا اخلال به في وقت دون وقت . واذا عرف الافضل فقد عرف الانقص على اعتبار الضد * فالكمال الخاص بالانسان كالان والذلك ان له قوتين احدهما العامة والاخرى الخاصة فلذلك يشتناق باحدى القوتين الى المعارف والعلوم وبالاخرى الى نظم الامور وترتيبها وهذان الكمالان هما اللذان نص عليهما الفلاسفة فقالوا

(الفلسفة)

تنقسم الى قسمين الى الجزء النظري والجزء العملي

بثلاثة أشياء باخلاص الطاعة وبذل النصرة وصدق الولاء فان اخلاص الطاعة
أجمع للشئ وبذل النصرة أرفع للوهن وصدق الولاء أنقى لسوء الظن وهذه أمور
إن لم تجتمع في المرة تسلط عليه من كان يدفع عنه واضطر إلى انتقاء من يتقى به
كما قال البصري

متى أحوجت ذا كرم تخطي * إليك ببعض أخلاق الثام

وفي استمرار هذا لنظام جامع وفساد صلاح شامل وقال أبو ريس أطع من فوقك بطعن
من دونك * وقال بعض الحكماء الظلم مسلبة النعم والبغي مجلبة النقم * وقال بعض الحكماء
إن الله تعالى لا يرضى عن خلقه الاستأديعية وحقه شكر النعم وتوصيح الأمة وحسن
الصناعة وزوم الشريعة * والقسم الثالث عدل الإنسان مع كفاؤه ويكون بثلاثة
أشياء بترك الاستطالة وبجانبه الدلال وكف الأذى لأن ترك الاستطالة آلاف ومجانبه
الدلال أعطف وكف الأذى أنصف وهذه أمور إن لم تخلص في الإكفاء أسرع فيهم
تقاطع الأعداء ففسدوا أو أفسدوا * وقدر في عمر بن عبد العزيز عن ابن عباس رضي
الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أنبئكم بشارا للناس قالوا بلى يا رسول الله
قال من أكل وحده ومنع رفقه وولد عبده (وفي نسخة بدل هذا من لا يرخصي خيره ولا يؤمن
شره) ثم قال ألا أنبئكم بشر من ذلك قالوا بلى يا رسول الله قال من بغض الناس ويغضونه
* وروى أن عيسى بن مريم عليه السلام قام خطيبا في بني إسرائيل فقال يا بني إسرائيل
لا تتكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموا ولا تمنعوا أهلها فتظلموهم ولا تكافروا
ظالمنا فيظلم فضلكم يا بني إسرائيل الأمور ثلاثة أمر تبين رشده فاتبعوه وأمر تبين
غيبه فاجتنبوه وأمر اختلفتم فيه فردوه إلى الله تعالى وهذا الحديث جامع لأدب
العدل في الأحوال كلها * وقال بعض الحكماء كل عقل لا يدارى به الكل فليس بعقل
تام * وقال بعض الشعراء

مادمت حيا فدار الناس كلهم * فانما أنت في دار المسدارة

من يدر داري ومن لم يدر سوف يرى * عما قليل ندعنا للنسائم

وقد يتعلق بهذه الطبقات أمور خاصة تكون عدلهم فيها بالتوسط في حالتي التقصير والسرور
لأن العدل مأخوذ من الاعتدال فما جاوز الاعتدال فهو زج عن العدل * وقد قالت
الحكماء الفضائل هيأت بين خطين ناقصتين وأفعال الخير تتوسط بين رذيلتين (فالْحَكْمَةُ)
واسطة بين الشر والجهالة (والشجاعة) واسطة بين التخم والحن (والعفة) واسطة
بين الشره وضعف الشهوة (والسكينة) واسطة بين السخط وضعف الغضب
(والغيرة) واسطة بين الحسد وسوء العادة (والقرف) واسطة بين الخلاعة والعرامة
(والتواضع) واسطة بين الكبر ودناءة النفس (والسخاء) واسطة بين التبذير والتقتير
(والحلم) واسطة بين إفراط الغضب وعدمه (والمودة) واسطة بين الخلاعة وحسن الخلق
(والحياء) واسطة بين القحة والحق (وإيقار) واسطة بين الهزء والسخافة وإذا كان
ما خرج عن الاعتدال إلى ما ليس باعتدال خرجوا عن العدل إلى ما ليس بعدل فالأولى

فاذا كمل الإنسان بالجزء
العلمي والجزء النظري فقد
سعد السعادة التامة * أما
كمال الأول بأحدى قوته
أعنى العالمية وهي التي
يشتاقي بها إلى العلوم فهو
أن يصير في العلم بحيث
يصديق نظره ونصح
بصيرته وتستقيم رويته
فلا يغط في اعتقاد ولا يشك
في حقيقة وينتهي في العلم
بأمور الموجودات على
التريب إلى العلم الإلهي
الذي هو آخر مرتبة
العلوم وينتهي به ويسكن
إليه ويطمئن قلبه وتذهب
حيرته ويغني له المطلوب
الأخروي حتى يتخذه وهذا
الكمال قدينا الطريق إلى
وأوضحنا سبله في كتب أخرى
* وأما الكمال الثاني الذي
يكون بالقوة الأخرى
أعنى القوة العاملة فهو
الذي نقصده في كتابنا
هذا وهو الكمال الخلق

اجتنابه والوقوف مع الاوسط اقتداء بالحديث * وقال بعض البلغاء البلد السوء يجمع السفلى
و يورث العلل والولد السوء يشين السلف ويهدم الشرف والجار السوء يفسد الشرف ويهتك
الستر فجعل هذه الاشياء بخروجها عن الاولى الى ما ليس باولى خروجا عن العدل الى ما ليس
بعادل ولست تجد فسادا الا بسبب تتبعته الخرج فيه من حال العدل الى ما ليس بعادل
من حالى الزيادة والنقصان فاذا لاشئ انفع من العدل كلالاشئ اضر مما ليس بعادل * واما
القباعده الرابعة فهي أمن عام تطمئن اليه النفوس وتنشرف فيه المحمم ويسكن اليه البرى
ويانس به الضعيف فليس لخائف راحة ولا خاذل طمأنينة * وقد قال بعض الحكماء الامن
أهنا عيش والعدل أقوى جيش لان الخوف يقبض الناس عن مصالحهم ويحجزهم
عن تصرفهم ويكفيهم عن اسباب المواد التي بها قوام اودهم وانتظام جلتهم لان الامن
من نتائج العدل والجور من نتائج ما ليس بعادل وقد يكون الجور نارة بمقاصد الآدميين
الخارجة عن العدل ونارة يكون سبباً حادثه من غير مقاصد الآدميين فلا تكون خارجة
عن حال العدل فن أجل ذلك لم يكن ماسبق من حال العدل مقنعاً عن أن يكون الامن في
انتظام الدنيا قاعدة كالعدل فاذا كان ذلك كذلك فالامن المطلق ماعم والخوف قد
يتنوع ناره ويعم فتتوهم بان يكون ناره على النفس وناره على الازل وناره على
المال وعمومه أن يستوجب جميع الأحوال ولكل واحد من أنواعه حظ من الوهن
ونصيب من الحزن وقد يختلف باختلاف أسبابه ويتفاضل بتباين جهاته ويكون بحسب
اختلاف الرغبة فيما خيف عليه فن أجل ذلك لم يحجز أن يصف حال كل واحد من أنواعه
بقدار من الوهن ونصيب من الحزن لاسيما والخائف على الشئ يختص الهم به منصرف
الفكر عن غيره فهو يظن أن لا خوف له الا به فيغفل عن قدر النعمة بالامن فيما
سواه فصار كالمرضى الذي هو بمرضه متشاغل وعماسواه غافل ولعل ما صرف
عنه أعظم مما ابتلي به

ومسذور من ترتيب قواه
وأفعاله الخاصة بها حتى
لا تتغالب وحتى تتسالم
هذه القوى فيه وتصدر
أفعاله كلها بحسب قوته
المميزه منتظمة مرتبة
كما ينبغي وينتهي الى
التدبير المدنى الذى
يرتب الأفعال والقوى بين
الناس حتى تنظم ذلك
الانتظام وسعدوا وسعادة
مشتركة كما كان ذلك في
الشخص الواحد * فاذا
الكمال الاول النظرى
منزله منزلة الصورة
والكمال الثانى العملى
منزله منزلة المادة وليس
يتم أحد هما الا بالآخر
لأن العلم مبدأ والعمل
تمام والمبدأ سلام
يكون ضائعاً والتمام بلا
مبدأ يكون مستحيلاً وهذا
الكمال هو الذى سميناه
غرضاً وذلك أن الغرض
والكمال بالذات هما شئ

على أنها تعقوا الكلام وانما * توكل بالادنى وان جل ما عصى

وحكى أن رجلاً قال واعرابى حاضرماً أشد وجع الضرس فقال الاعرابى كل داء أشد داء
وكذلك من عمه الامن كن استولت عليه الماسقية فهو لا يعرف قدر النعمة بامتنة حتى يخاف
كما لا يعرف الماسقية قدر النعمة حتى يصاب * وقال بعض الحكماء انما يعرف قدر النعمة
بمقاسة ضد هافاخذ ذلك أو تمام الطاقى فقال

والخادئات وان أصابك بؤسها * فهو الذى أفساك كيف نعيمها

فالاولى بالمعاقلة أن يتذكر عند مرضه وخوفه قدر النعمة فيما سوى ذلك من عاقبت وأمنه
وما انصرف عنه مما هو أشد من مرضه وخوفه فيستبدل بالشكوى شكرًا وبالجزع
صبراً فيكون فرحاً ممروراً * حكى أن يعقوب قال ليعوف عليه السلام حين
لقيه أى شئ كان خيرك بعدى قال لا تسأل عما فعله بى اخو قى سلتى عما صنعت بى
ربى * وقال الشاعر

لأنس فى الصحة أيام السقم * فان عقي تارك الحزم ندم

وأما القاعدة الخامسة فهي خصب دار تنسج النفوس به في الأحوال وتشتبك فيه ذوار
الاكتثار والاقلال فيقل في الناس الحسدو يقتني عنهم شياغض العلم وتنسج النفوس في
التوسع وتكثر الموااساة والتواصل وذلك من أقوى الدواعي لصالح الدنيا وانظام أحوالها
ولان الخصب يؤول الى الغنى والغنى يورث الامانة والسخاء وكتب عمر بن الخطاب
رضي الله عنه الى أبي موسى الاشعري لاتستقصن الاذا حسب وما ل فان ذا الحسب
يخاف العواقب وذا المال لا يرغب في مال غيره . وقال بعض السلف اني وجدت خير
الدنيا والآخرة في التقي والغنى وشر الدنيا والآخرة في الفجور والفقر . وقال بعض الشعراء
ولم أر بعد الدين خيرا من الغنى * ولم أر بعد الكفر شرا من الفقر
وبحسب الغنى يكون إقلال الخيل واعطاؤه واكثر الجواد وسخاؤه كما قال زهير
لئن كنت لا تولى ندى دون إمرة * فليست بمول نائلا آخر الدهر
وأى إناه لم يفض عنسملته * وأى بخيل لم يمل ساعة الوفر
واذا كان الخصب يحدث من أسباب الصلاح ما وصفت كان الجلب يحدث من أسباب
الفساد ما ضاها وكما أن صلاح الخصب عام فكذلك فساد الجلب عام وما عبه الصلاح
ان وجد وما عبه الفسادان فقد فاعرى أن يكون من قواعد الصلاح ودواعي الاستقامة
والخصب يكون من وجهين خصب في المكاسب وخصب في المواد فاما خصب المكاسب
فقد تنفرع من خصب المواد وهو من نتائج الامن المقترن بها وأما خصب المواد فقد
يتفرع عن أسباب الهمة وهو من نتائج العدل المقترن بها . وأما القاعدة السادسة فهي
أمل فسيح يبعث على اقتناء ما يقصر العمر عن استيعابه ويبعث على اقتناء ما ليس يؤمل في
دركه بحياة أو بابه ولولأن الثاني يرتفق بما أنشأه الأول حتى يصير به مستغنيا لا فقر
أهل كل عصر الى إنشاء ما يحتاجون اليه من منازل السكنى وأراضى الحرث وفي ذلك
من الاعواز وتعدرا الامكان ما لا يخفاء به فلذلك ما أرفق الله تعالى خلقه باتساع الآمال
الاحتمى عمره الدنيا فم صلاحها وصارت تنتقل بعمراتها الى قرن بعد قرن فيستم الثاني
ما بقاء الاول من عمارتها ويرم الثالث ما أحدثه الثاني من شعنها لتكون أحوالها على
الاعصار ملتزمة وأموهرها على جمرد الهوز منتظمة ولوقصرت الآمال ما تجاوز الواحد
حاجة يومه ولا تعدى ضرورة وقته ولكانت تنتقل الى من بعده خرابا لا يجد فيها بلغة
ولا يدرك منها حاجة ثم تنتقل الى من بعده بأسوأ من ذلك حال حتى لا ينجيها نيب ولا يمكن
فيها لبث * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الأمل رحمة من الله لا مقي ولولاه
لما غرس غارس شجر أو لأرضعت أم ولدا . وقال الشاعر

والنفوس وان كانت على وجل * من الميتة آمال تقو بها

فالمرء بسطها والدهر يقبضها * والنفس تنشرها والموت يطو بها

وأما حال الأمل في أمر الآخرة فهو من أقوى الأسباب في الغفلة عنها وقلة الاستعداد لها

وقد أفصح البيهقي عن رأيه بما تبين به حال الأمل في الأمرين فقال

وا كذب النفس اذا أحدثتها * أن صدق النفس يزي بالاهل

واحد وانما يختلفان
بالإضافة فاذا نظر اليه وهو
بعلى النفس ولم يخرج
الى الفعل فهو غرض
فاذا خرج الى الفعل وتم
فهو كمال * وكذلك الحال
في كل شيء لان السبب اذا
كان متصوّر الباقى وكان
علما باجزائه وتركيبه
وسائر أحواله كان غرضا
فاذا أخرجه الى الفعل
وقمه كان كمالا * فقد صم
من جميع ما قدمناه أن
الانسان يصير الى كماله
ويصدر عنه فعله الخاص
به اذا علم الموجودات كلها
أى يعلم كلياتها وحدودها
التي هي ذواتها لا اعراضها
وخواصها التي تصدرها
بلانها به . فانك اذا علمت
كليات الموجودات فقد
علمت جزئياتها بنحو ما
لان الجزئيات لا تخرج
عن كلياتها فاذا كملت
هذا التكامل قومه بالفعل

غير أن لا تكذبها بالتقى * واجزها بالبر لله الاجل
وفرق ما بين الآمال والاماني ان الآمال ما تقيدت بأسباب والاماني ما تحددت عنها فهذه
القواعد الست التي تصلح بها أحوال الدنيا وتنظم أمور جللتها فان كلفت فيها كل صلاحها
وبعيد أن يكون أمر الدنيا تاما كاملا وأن يكون صلاحها عاماشاملا لانها موضوعة على
التغير والفتاء منشأ على التصرم والاقضاء وسمع بعض الحكماء رجلا يقول قلب الله الدنيا
قال فاذا نستوى لانها مقلوبة * وقال بعض الشعراء

ومن عادة الأيام أن خطوبها * اذا سر منها جانب ساء جانب
وما عرف الأيام الاذمية * ولا الدهر الا وهلا والشارط اليب

وبحسب ما اختل من قواعدها يكون اختلالها

فصل * وأما ما يصلح به حال الانسان فيها فلا ثلثة أشياء هي قواعد أمره ونظام حاله
وهي نفس مطبوعة الى رشدها منتهية عن غيها وألفة جامعة تعطف القلوب عليها ويندفع
المكر ومها ومادة كافية تسكن نفس الانسان اليها ويستقيم أودهمها * فاما القاعدة
الأولى التي هي نفس مطبوعة فلانها اذا أطاعت ملكتها واذا عصته ملكته وعلكتها ومن لم
ملك نفسه فهو بأن لا علك غيرها أخرى ومن عصته نفسه كان بمعصية غيرها أولى * وقال
بعض الحكماء لا ينبغي للعاقل أن يطلب طاعة غيره ونفسه بمنفعة عليه * وقد قال الشاعر
أطعم أعان يطيعك قلب سعدي * وزعم أن قلبك قد عصاك

وطاعة نفسه تكون من وجهين أحدهما نصح والثاني انقياد فاما النصح فهو أن ينظر
الى الأمور بحقائقها فبرى الرشد او يستحسنه ويرى الغي واستقصه وهذا يكون
من صدق النفس اذا سلطت من دواعي الهوى ولذا لا تخيل من تفكر أبصر فاما الانقياد فهو
أن تسرع الى الرشد اذا أمرها وتتهى عن الغي اذا زجرها وهذا يكون من قبول النفس
إذا كفت منازعة الشهوات * قال الله تعالى ويرد الذين يتبعون الشهوات أن
تميلوا ميلا عظيما * وللنفس آداب هي تمام طاعتها وكامل مصلحتها وقد أفردها من هذا
الكتاب بابا واقتصرنا في هذا الموضع على ما قد اقتضاه الترتيب واستدعاه التقريب
* وأما القاعدة الثانية وهي الالفة الجامعة فلان الانسان مقصود بالآذية محسود بالنعمة
فاذا لم يكن آلفا ما لوفا منقطته أيدي حاسديه وتحكمت فيه أهواء أعادييه فلم تسلم له نعمة
ولم نصف له مدة فاذا كان آلفا ما لوفا انتصر بالآفة على أعادييه وامتنع من حاسديه
فصلت نعمته منهم وصفت مدته عنهم وان كان صفوا الزمان عسرا وسله خطرا * وقد روى
ابن جرير عن عطاء رجهما الله عن جابر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال
المؤمن آلف ما لوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وخيرا ما أنفعهم للناس * وروى
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله تعالى رضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا رضى لكم
أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعصموا بحبله جميعا ولا تفرقوا وأن تناصحوهم من وراء
الله أمركم ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال وكل ذلك حث منه صلى الله
عليه وسلم على الالفة والعرب يقول من قل ذل * وقال قيس بن عاصم

المنظوم ورتب القسوى
والملكات التي قبلت ترتيبا
عليها كما سبق علمك به
* فاذا انتهت الى هذه
الرتب فقد صيرت عالما
وحذرك واستحققت أن
تسمى عالما صغيرا لان
صور الموجودات كلها
قد حصلت في ذاتك
فصرت أنت هي بضمها
ثم نظمتها بأفمالك على
نحو استطاعتك فصرت
فيها خليفة لمولك خالق
الكل جلست عظمته فلم
تخط فيها ولم تخرج عن
نظامه الاول الحكيم
فتصير حينئذ عالما تاما
• والتام من الموجودات
هو الدائم الوجود والدائم
الوجود هو الباقي بقاء
سرمديا فلا يفوتك حينئذ
شي من النعم المقيم لآنك
بهذا الكمال مستعد لتقول
القبض من المولى دائما
أبدًا وقد قربت منه

ان القداح اذا اجتمعن فرامها * بالكسر ذو حنق و بطش أبد
عزت فلم تكسر وان هي بذت * قالوهن والتكسر للتبذد

واذا كانت الالف تعباً أثبتت جميع الشمل وتمنع الذل اقتضت الحال ذكر أسبابها وأسباب
الالف خمسة وهي الدين والنسب والمصاهرة والمودة والبر فأما الذين هم الأول من
أسباب الالف فلانه يبعث على التناصر ويمنع من التقاطع والتدابير وبمثل ذلك روى
رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه . فروى سفيان عن الزهري عن أنس رضي الله عنه قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً
لا يحل لاسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث . وهذا وان كان اجتماعهم في الدين يقتضيه فهو على
وجه التحذير من تذكريات الجاهلية وإحسان الصلاة فقد بعث رسول الله صلى الله عليه
وسلم والعرب أشد تقاطعاً وتعادياً وأكثر إخلافاً وتعادياً حتى أن بني الأب الواحد يتفرون
أحراباً فيشتري بينهم بالعزب والاقتراف أحقاد الأعداء وإحسان البعداء وكانت الانصار
أشد هم تقاطعاً وتعادياً وكان بين الأوس والخزرج من الاختلاف والتباين أكثر من
غيرهم إلى أن أسلفوا ذهبت إحتهم وانقطعت عداوتهم وصاروا بالاسلام إخواناً
متواصلين وبالفقه الذين أعوانا منهم ناصرين . قال الله تعالى واذكروا إذ كنتم أعداء
فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً يعني أعداء في الجاهلية فألف بين قلوبكم بالاسلام .
وقال تعالى أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وذايعني حبا وعلى حسب
التألف على الدين تكون العداوة فيه اذا اختلف أهلها فان الانسان قد يقطع في الدين من
كان به براؤه عليه مشقة هذا الإيوعة من الجراح وقد كانت له المنزلة العالية في الفضل
والأثر المشهور في الاسلام قتل أباه يوم بدر وأتى برأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم طاعة
لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم حين بقى على ضلاله وانهم لم يطيعوه فلم تعطفه
عليه رحمة ولا كف عنه شفقة وهو من أبر الناس تعليلاً للدين على النسب وطاعة الله
تعالى على طاعة الأب . وفيه أنزل الله لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون
من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . وقد يختلف أهل
الدين على مذاهب شتى وآراء مختلفة فحدث بين المختلفين فيه من العداوة والتباين مثل
ما يحدث بين المختلفين في الأديان وعلى ذلك أن الدين والاجتماع على العقد الواحد فيما
كان أقوى أسباب الالف كان الاختلاف فيه أقوى أسباب الفرقة وإذا تكافأ أهل
الأديان المختلفة والمذاهب المتباينة ولم يكن أحد الفريقين أعلى بداً وأكثر عدداً
كانت العداوة بينهم أقوى والأحق فيهم أعظم لانه ينضم إلى عداوة الاختلاف تحاسد
الاكفاء وتنافس الأنظار . وأما النسب وهو الثاني من أسباب الالف فلان تعاطف
الأرحام وجية القرابة يبعثان على التناصر والالف ويمنعان من التخاذل والفرقة أنفة
من استعلاء الأبلع على الأقارب وتوقيان من تسلط الغرباء الأجانب . وقد روى عن
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أن الرحم اذا تماسست تعاطفت ولذلك حفظت العرب
أسماءها لما امتنع عن سلطان يقهرها ويكف الأذى عنها لتكون به متظافرة على من

القرب الذي لا يجوز أن
يحول بينك وبينه محاب
• وهذه هي الرتبة العليا
والسعادة القصوى .
ولو لأن الشخص الواحد
من أشخاص الداس يمكنه
تحصيل هذه المنزلة في
ذاته وتكميل صورته بها
واقام نقصانه بالترقي
إلى المكان سبيله سبيل
أشخاص الحيوانيات الأخر
أو كسبيل أشخاص
النبات في مصيرها إلى
الفناء والاستحالة التي
تلحقها والنقصانات التي
لا سبيل إلى تمامها .
ولا استحالة فيه البقاء
الابدي والنعيم السرمدي
والمصير إلى ربه ودخول
جنته . ومن لا يتصور
هذه الحالة ولا ينتهي إلى
علمها من المتوسطين في
العلم يقع له شكوك .
فيظن أن الانسان اذا
انتقض تركيبه الجسماني

ناولها متناصرة على من شاقها وعادها حتى بلغت بالغة الانساب تناصرا على القوى
 الايد وتحكمت به تحكم المسلط المشطط . وقد أعذرني الله لوط عليه السلام نفسه
 حين عدم عشيرة تنصره . فقال لمن بعث اليه لو ان لي بك قوة أو آوى الى ركن شديد بعني
 عشيرة مائة . وروى أبو سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رحم الله
 لوطا لقد كان يأوي الى ركن شديد بعني الله عز وجل . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 ما بعث الله تعالى من بعده نبيا الا في ثروة ومن قومه . وقال وهب لقد وردت الرسل على لوط
 وقالوا ان ركنك لشديد . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان لا يترك المرأة
 مفرا حتى يضمها الى قبيلة يكون فيها . قال الراشي المفرج الذي لا ينتهي الى قبيلة يكون
 منها وكل ذلك حدث منه صلى الله عليه وسلم على اللفة وكف عن الفرقة . ولذلك قال صلى
 الله عليه وسلم من كثرة سواد قوم فهو منهم واذا كان النسب بهذا المزمع الالفة فقد
 تعرض له عوارض تمنع منها وتبعث على الفرقة المنافية لها فاذا نذرتم أن نصف حال
 الانساب وما يعرض لها من الاسباب فجملة الانساب أمتها تنقسم ثلاثة أقسام قسم
 والدون وقسم مولودون وقسم مناسيون ولكل قسم منهم منزلة من البر والصلة وعارض
 يطرأ فيبعث على العقوق والقطيعة . فأما والدون فهم الآباء والأمهات والأجداد
 والأجدات وهم موسومون مع سلامة أحوالهم بخلقين أحدهما لازم بالطبع والثاني حادث
 باكتساب فأما ما كان لازما بالطبع فهو الحذر والشفاق وذلك لا ينتقل عن الوالد
 بحال . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الولد مجله بمجمله مجتمعة تحزنه فأخبر
 أن الحذر عليه نكسب هذه الاوصاف ويحدث هذه الاخلاق وقد ذكره قوم طلب الولد
 كراهة لهذه الحالة التي لا يعتمد على دفعها عن نفسه لازما وطبعيا وحدوثها حتما . وقيل
 ليعين بن زكريا عليها السلام ما بالاك تكره الولد فقال مالي وللولد ان عاش كذني وان
 مات هذني . وقيل لعيسى بن مريم عليها السلام الا تنزج فقال انما يحب التكاثر في دار
 البقاء وأما ما كان حادثا بالاكتساب ففيه المحبة التي تنمي مع الاوقات وتنشع مع تغير
 الحالات . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الولد ألوط بعني أن حبه يلتصق
 بنباط القلب . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لكل شيء ثمرة وثمره ألقب الولد
 فان انصرف الولد عن حب الولد فليس ذلك لبعض منه ولكن لسوءة حدثت من عقوق
 أو تقصير مع بقا الحذر والاشفاق الذي لا يزول عنه ولا ينتقل منه . فقد قال محمد بن علي
 رضي الله عنه ان الله تعالى رضى الآباء للابناء فحذرهم فثبتهم ولم يوصهمهم ولم يرض الابناء
 للآباء فواصاهمهم وان شر الابناء من دعاهم للتقصير الى العقوق وشر الآباء من دعاهم البر
 الى الافراط والامهات أكثر اشفاقا وأوفر حبا لما يشر من الولادة وعاش من التربية
 فانهم ارق قلوبا وألين نفوسا وبحسب ذلك وجب أن يكون التعطف عليهم أو فرجاء
 لقلوبهم وكفاء لحقهم وان كان الله تعالى قد أشرك بينهم في البر وجمع بينهما في الوصية
 فقال تعالى ووصيناكم بوالديه حسنا . وقد زوى ان رجلا أتى الى النبي صلى الله عليه
 وسلم فقال ان لي أما أنا مطيعها أقعد لها على ظهري ولاأصرف عنها وجهي وأرد لها كسبي

يطل وتلاشي كالحال في
 الحيوانات الاخر وفي
 النبات فيفسد يستحق
 اسم الاحاد ويخرج عن
 سمة الحكمة وسنة
 الشريعة

كمال الانسان في
 الذات المعنوية

وقد ظن قوم ان كمال
 الانسان وفائته هما في
 الذات الحسية وانها هي
 الخير المطلوب والسعادة
 القصوى * وظنوا ان
 جميع قواء الاخر انما
 ركبت فيه من أجل هذه
 الذات والتوصل اليها وان
 النفس الشريفة التي
 سميناها ناطقة انما وهبت
 لمسيرتها الاتصال
 وبعبزها ثم يوجهها نحو
 هذه الذات لتكون الغاية
 الاخيرة هي حصولها
 على النهاية والغاية
 الجسمانية * وظنوا
 أيضا أن قوى النفس

فهل خزينتها قال لا ولا بنفرة واحدة قال ولم قال لأنها كانت تخضع لك وهي تحب حياتك وأنت تخضع لها وتحب موتها . وقال الحسن البصري حق الوالد أعظم وبر الوالد أكرم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أنها كم عن عقوق الامهات ووأد البنات ومنع وهات . وروى خالد بن معدان عن المقدام قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله يوصيكم بآمهاتكم ثم يوصيكم بالاقرب فالاقرب * وأما المولدون فهم الأولاد وأولاد الأولاد والعرب تسمى ولد الولد الصغوة وهم يختصون مع سلامة أجواهم بخلقين أحدهما لازم والآخر منتقل فاما اللززم فهو اللفة للآباء من تهضم أو خول واللفة في الآبناء في مقابلة الأشفاق في الآباء وقيل خطأ وتعام الطائي هذا المعنى في شعره فقال فأصحت يلقاني الزمان لاجله * بأعظام مولود واشفاق والد فاما المنتقل فهو الادلال وهو أول حال الولد والادلال في الآبناء في مقابلة المحبة في الآباء لان المحبة بالآباء أخص والادلال بالآبناء أعم * وقدر وى عن عمر أنه قال قلت يا رسول الله ما بالناس ترقى على أولادنا لا يرقون علينا قال لا نولدناهم ولم يلدونا ثم الادلال في الآبناء قد ينتقل مع الكبر الى أحد أمرين إما البر والاعظام وإما الى الخفاء والعقوق فان كان الولد رشيدا أو كان الأب برا عطفوا صار الادلال برا واعظاما * وقدر وى الزهرى عن عامر بن شراحيل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجبر بن عبد الله ان حق الوالد على الولد أن يخشع له عند الغضب ويؤثره على نفسه عند النصب والسغب فان المكافئ ليس بالواصل ولكن الواصل من إذا نطعت رحمه وصلها وان كان الولد غاويا أو كان الولد جافيا صار الادلال قطعية وعقوقا * ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم رحم الله امرأ أعان ولده على بره وبشر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بولود فقال ربحانة أشبهها ثم هو عن قريب ولدنا أو وعدو صار * وقد قيل في منشور الحكم العقوق شكل من لم يشكل * وقال بعض الحكماء إنك ربحانك سبعا وخادمك سبعا ووزيرك سبعا ثم هو صديق أو وعدو * وأما المناسبون فهم من عدل الآباء والآبناء ممن يرجع بتعصيب أو رحم والذي يختصون به الحبة الباعثة على النصرة وهي أدنى رتبة اللفة لان اللفة تمتع من التضم وليس لها في كراهة الخول نصيب الآن يقترن بهما بيعت على اللفة وحجة المناسبين انما تدعو الى النصرة على البعداء والاجانب وهي معرضة لحسد الاداني والاقارب هو كونه الى منافسة صاحب بال صاحب فان حوسب بالتواصل والتسلاط تأكدت أسبابها واقترن بحمية النسب مصافاة المودة وذلك أوكد أسباب اللفة وقد قيل لبعض قريش أما أحب اليك أخوك أو صديقك قال أخى إذا كان صديقا * وقال مسلمة بن عبد الملك العيش في ثلاث سعة المنزل وكثرة الخدم وموافقة الأهل * وقال بعض الحكماء البعيد قريب بجمودته والقريب بعيد بعداوته وأن أهملت الحال بين المتناسبين ثقة بحمة النسب واعتمادا على حمية القرابة غلب عليها مقت الحسد ومنازعة التنافس فصارت المناسبة عداوة والقرابة بعدا * وقال الكندي في بعض رسائله الأب رب والولد كد والآخر فغ والعم غم والخال وبال والاقارب عقارب *

الناتفة أعنى الذكر والحفظ والروية كلها تراد تلك الغاية قالوا وذلك ان الانسان اذا نذر كرا الذات التي كانت حصلت له بالمطاعم والمشارب والمنا كح اشتاق اليها وأحب معاودتها فقد صارت منفعة الذكر والحفظ انما هي اللذات وتخصيلها * ولاجل هذه الفنون التي وقعت لهم جعلوا النفس الميزة الشريفة كالعباد المهين وكالاجير المستعمل في خدمة النفس الشهوية لتخدمها في المآكل والمشارب والمنا كح وترتيبها وتعدادها اعتادا كاملا موافقا * وهذا هو رأى الجمهور من العامة الرعاع وجهال الناس السقاط * والى هذه الخيرات التي جعلوها غاياتهم تشوقوا عند ذكر

وقال عبد الله بن المعتز لحومهم لحي وهم بأكلونه * ومادهايات المرأة الأكاربه
ومن أجل ذلك أمر الله تعالى بصلته الأرحام وأثنى على واصلها فقال تعالى والذين يصلون
ما أمر الله أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب قال المفسر وهي الرحم
التي أمر الله بوصلها ويخشون ربهم في قطعها ويخافون سوء الحساب في المعاقبة عليها
وروى عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله عز وجل أنا
الرحمن وهي الرحم اشتقت لها من اسمي اسمان فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته
وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال صلة الرحم مناة للعبد منارة للآمال محبة في الأهل
منسأة في الأجل * وقال بعض الحكماء بلوا أرحامكم بالحقوق ولا تجفوها بالعقوق * وقال
بعض البلغاء صلوا أرحامكم فإنها لا تبلى عليها أصولكم ولا تهضم عليها فروعكم * وقال
بعض الأدباء من لم يصلح لأهله لم يصلح لك ومن لم يذب عنهم لم يذب عنك * وقال بعض
الفحهاء من وصل رحمه وصله الله ورحمه ومن أجار جاره أعانه الله وأجاره * وقال محمد بن
عبد الله الأزدي

وحسبك من نذل وسوء صنعة * مناواة ذى القربى وأن قيل قاطع
ولكن أواسه وأنسى ذنوبه * ترجعه يوما إلى الواحد
ولا يستوى في الحكم عبدان واصل * وعبد لأرحام القرابة قاطع

وأما المصاهرة وهي الثالث من أسباب الألفة فلأنها استحداث مواسلة وتمازج مناسبة
صدر عن رغبة واختيار وتعقل على خير وإيثار فاجتمع فيها أسباب الألفة ومواد المصاهرة
قال الله تعالى ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم
مودة ورحمة يعني بالمودة المحبة وبالرحمة الغنى والشفقة وهما من أوكد أسباب الألفة
وفيها تأويل آخر قال الحسن البصري رحمه الله أن المودة النكاح والرحمة الولد * وقال
تعالى والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة اختلف
المفسرون في الحفدة فقال عبد الله بن مسعود هم أختان الرجل على بناته وقال عبد الله
ابن عباس رضي الله عنهما هم ولد الرجل وولد ولده * وروى عنه أنهم بنو امرأة الرجل
من غيره وهو حفدة لحفدهم في الخدمة وسرعتهم في العمل ومنه قولهم في القنوت واليك
نسعي ونحفد أي نسرع إلى العمل بطاعتك ولم تزل العرب تجتذب البعده وتتألف الأعداء
بالمصاهرة حتى يرجع المنافر مؤانسا ويصير العدو مؤاليا وقد يصير للصهر بين الاثنين
ألفه بين القبيلتين وموالاته بين العشيرتين * حكى عن خالد بن زيد بن معاوية أنه قال
كان أبغض خلق الله عز وجل إلى آل الزبير حتى تزوجت منهم رمله فصار وأحب خلق
الله عز وجل إلى * وفيها يقول

أحب بنى العوام طر الأجلها * ومن أجلها أحب أخوالها كابا
فان تسلي نسلي وان تقتصرى * يحيط رجال بين أعينهم صلبا

ولذلك قيل للمرأة على دين زوجها لما يستنزه الميل إليها من المتابعة ويختدب الحب لها من
الموافقة فلا يجد إلى المخالفة سبيلا ولا إلى المباينة ومشاقة طريقا وإذا كانت المصاهرة

الجنة والقرب من بارئهم
عز وجل * وهي التي
يسألونهار بهم تبارك
وتعالى في دعواتهم
وصلواتهم * وإذا خلوا
بالبادات وتركوا الدنيا
وزهدوا فيها فاغنا ذلك
منهم على سبيل القبر
والمرابحة في هذه بعينها
كانهم تركوا قلبها يصلوا
إلى كسبرها وأعرضوا
عن الغائبات منها ليلقوا
إلى البقيات * الأناك
تجدهم مع هذا الاعتقاد
وهذه الأفعال إذا ذكر
عندهم الملائكة والخلق
الأعلى الأشرف وما نزههم
الله عنه من هذه
القافورات علموا بالجنة
أنهم أقرب إلى الله تعالى
وأعلى رتبة من الناس
وانهم غير محتاجين إلى شيء
من حاجات البشر بل
يعلمون أن خالقهم وخالق
كل شيء الذي تولى أبلع

للتكاح بهذه المنزلة من الالفه فقد ينبغي لعقدها أحد خمسة أوجه وهي المال والجمال والدين
والالفه والتعفف . وقد روى سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه
وسلم أنه قال تنكح المرأة لأربع لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها فعليك بذات الدين تربت
بذلك فإن كان عقد النكاح لأجل المال وكان أقوى الدواعي اليه فإلّا أذها هو المنكوح
فإن اقترنت بذلك أحد الأسباب الباعثة على الائتلاف حاز أن يلبث العقد وتقوم الالفه فإن
تجرّد عن غيره من الأسباب وعرا عما سواه من المواد فأخلق بالعقد أن يخل وبالفقه
أن تزول لاسيما إذا غلب الطمع وقل الوفاء لأن المال أن وصل اليه فقد يبتغي سبب
الالفه به فقد قيل من ودك أشي نولى مع انقضائه وإن أعوز الوصول اليه وتعدت القدرة
عليه أعقب ذلك استبانة الأس بعد شدة الأمل فحدثت منه عداوة الخائب بعد استحكام
الطمع فصارت الوصلة فرقة والالفه عداوة وقد قيل من ودك طمعاً فليكن أبغضك إذا
أس منك . وقال عبد الحميد من عظم لك كئناك استقلت عندك ألاك فإن كان
العقد رغبة في الجمال فذلك أدوم للأفقه من المال لأن الجمال صفة لازمة والمال صفة زائلة
ولذلك قيل حسن الصورة أول السعادة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
قال أعظم النساء بركة أحسنهن وجهاً وأقلهن مهراً فإن سلبت الحال من الأدلّال المفضي
إلى المال استدامت الالفه واستحكمت الوصلة وقد كانوا يكرهون الجمال البارع المأما
يحدث عنه من شدة الأدلّال وقد قيل من بسطه الأدلّال قبضه الأدلّال وأما ما يخاف
من محبة الرغبة وبلوى المنازعة . وقد حكى أن رجلاً شاور حكيماً في التزوج فقال له افعل
وإياك والجمال البارع فإنه مرعى أتيق فقال الرجل وكيف ذلك قال كما قال الأول

ولن تصادف مرعى عمر أبدا * الأوجدت به آثار متجعب

وأما ما يخافه اللبيب من شدة الصبوة بتوقاه الحازم من سوء عواقب الفتنة . وقد قال
بعض الحكماء إياك ومحاطة النساء فإن لحظ المرأة سهم ولفظها سم . ورأى بعض الحكماء
صياداً يكلم امرأة فقال يا صياداً حذراً تصاد . وقال سليمان بن داود عليهما السلام لابنه
امش وراء الأسد ولا تمس وراء المرأة وتسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه أة تقول هذا
البيت ان النساء رياحين خلقن لكم * وكلكن يشتهي شم الرياحين

فقال رضي الله عنه

ان النساء شياطين خلقن لنا * نعوذ بالله من شر الشياطين

وان كان العقد رغبة في الدين فهو أوثق العقود حالاً وأدومها ألفه وأجدها بداء عاقبة لأن
طالب الدين متبع له ومن اتبع الدين اتقاده فاستقامت له حاله وأمن زله . ولذلك قال
النبي صلى الله عليه وسلم فاطر (لعل ههنا رواية أخرى فإن التي تقدمت فعليك) بذات
الدين تربت بذلك وفيه تأويلان أحدهما تربت بذلك أن لم تغفر بذات الدين والثاني أنها
كلمة تذكر لبالغة ولا يرا دها سوء كقولهم ما أشجعهم قاله الله وإن كان العقد رغبة في الالفه
فهذا يكون على أحد وجهين إما أن يقصده المكاثرة باجتماع الفريقين والمظاهرة بتناصر
الفتين وإما أن يقصده تألف أعباء متسلطين استكفاء لعاديتهم وتسكيناً لصلواتهم وهذان

الكل هو بمنزلة عن
هذه الاشياء معتمداً عنها
غير موصوف بالذمة والتمتع
مع التمكن من إيجادها
وان الناس يشاركون
في هذه الذات الخنافس
والديدان وصغار الحشرات
والهجم من الحيوان وأما
يناسبون الملائكة بالعقل
والتمييز ثم يجمعون بين هذا
الاعتقاد والاعتقاد الأول
وهذا هو الحب الجيب
وذلك أنهم يرون عياناً
ضرواً بهم بالأذى الذي
يلحقهم بالجوع والعري
وضروب النقص وحاجتهم
إلى مداواتها بما يدفعها
عنهم فإذا زالت آثارها
وعادوا إلى حال السلامة
منها التذوا بذلك ووجدوا
للاراحة ولا يشعرون
أنهم إذا اشتاقوا إلى الذمة
المأكل فقد اشتاقوا أولاً
إلى ألم الجوع وذلك أنهم
إن لم يؤلموا بالجوع لم يلتذوا

الوجهان قد يكونان في الامثال وأهل المنازل ودلعي الوجه الاول هو الرغبة ودلعي الوجه الثاني هو الربة وهما سببان في غير المتناكحين فان استدام السبب دامت الالفة وان زال السبب زال والى الرغبة والرغبة خفيف والزوال الالفة الا ان ينضم اليها أحد الاسباب الناعمة عليها والمقر به لها وان كان المقدرة في التعفف فهو الوجه الحقيقي المبني بعقد النكاح وما سوى ذلك فاسباب معلقة عليه ومضافة اليه . وروى أنه لما نزل قوله تعالى يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجهما قال النبي صلى الله عليه وسلم خلق الرجل من التراب فهمه في التراب وخلق المرأة من الرجل فهمه في الرجل . وروى عطية بن بشر عن عكاف بن رفاعة الهلالي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له يا عكاف ألت زوجة قال لا قال فانت اذا من اخوان الشياطين ان كنت من رهبان النصارى فالحق بهم وان كنت منافق . تتنا النكاح فكان هذا القول منه حشاعلي ترك الصادو باعثاعلي التكاثر الاولاد . ولهذا المعنى كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول للقال من غز وهم اذا افضيت الى نساكهم فالكس الكس يعنى في طلب الولد فلزم حيث في عقد التعفف تحكم الاختيار فيه والتماس الادوم من دواعيه وهي نوعان نوع يمكن حصر شر وطه ونوع لا يمكن لاختلاف اسبابه وتغاير شر وطه فاما الشر وطه المحسورة فيه فثلاثة شروط احدها الذنب المفضى الى السر والعفاف والمؤدى الى القناعة والكفاف * قال ابوهريرة رضي الله عنه لا يعدل مؤمن مؤمنة ان كره منها خلقا رضى منها خلقا وخطب رجل من عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بيته كانت عنده فقال لا أرضاها لك قال ولم وفي دارك نشأت قال انها تشرف قال لا بالى فقال الآن لا أرضاها لى معنى هذا قول بعض العلماء من رضى بصبغة من لا خير فيه لم يرضى بصبغته من فيه خير والشرط الثاني العقل الباعث على حسن التقدير الآخر بصواب التدبير فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال العقل حيث كان ألوف وما ألوف * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عليكم بالودود والودود لا تنكحوا الجماء فان صحبتها بلاه وولدها ضياع والشرط الثالث الاكفاء الذين ينتفى بهم العار ويحصل بهم الاستكثار فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تخبروا بالنطفكم ولا تضعوها الا في الاكفاء * وروى ان أكرم من رضى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا تحمليكم جمال النساء عن مراحة النسب فان الماكح الكريمة مبرجة للشرف * وقال ابو الاسود الدؤلى لبنيه قد احسنت اليكم صغارا وكبارا وقل ان تولدوا قالوا وكيف احسنت الينا قبل ان تولد قال اخترت لكم من الامهات من لا تسبون بها أو تشدد باليأس فأول احسانى اليكم تخيرى * لما جده الاعراق بادعافها

بالا كل وهكذا الحال في سائر الذات الاخر الا ان هذا الحال في بعضها أظهر منها في بعض * وستكم عسى أن صورقا لجميع واحدة وأن الذات كلها انما تحصل للذات بعد الام تعلقه لان اللذة هي راحة من ألم وان كل لذة حسية انما هي خلاص من الألم أو أدنى في غير هذا الموضع * وسيظهر عند ذلك ان من رضى لنفسه بتحصيل الذات البدنية وجعلها غاية وأقصى سعادته فقد رضى باخس العبودية لآخس المولى لانه يصير نفسه الكريمة التي تناسب بها الملائكة عبد النفس الدنيا التي تناسبها المختار بر وانما نفس والد بدن وخسائس الحيوان التي تشركه في هذا الحال وقد تعجب جالينوس في

وأما اللهيرة فالطوبى لهزولة وأما النهرية فالبحور المدبرة وأما الهذرية فالقصور الدمية
وأما القوت فذات الولد من غيرك * وقال شيخ من بني سليم لابنه يابن إياك والرقوب
الغصوب القلوب الرقوب التي تراقبه أن عوت فتأخذ ماله * وأوصى بعض الأعراب
ابنه في التزوج فقال إياك والحنانة والمناة والأناة والحنانة التي تحزن لزوج كان لها والمناة
التي تمن على زوجها بما هو الأمانة التي تثن كسلا وتمارضا * وقال أوفى بن دهم النساء
أربع فنهت معهن لها شيئا أجمع ومنهن ممنع تضر ولا تنفع ومنهن مصدع تفرق ولا تجمع
ومنهن غيث وقع بيلدا فامرغ * وقال الشاعر

أرى صاحب النسوان يحسب أنها * سواء وبون بينهن بعيد
فنهت جنات بني ظلالها * ومنهن نيران هن وقود
وأشداً بالعناء عن أي زيد

إن النساء كاشجار بنبتن معا * منهن من وبعض المرمأ كول
إن النساء ولو صورتن من ذهب * فنهت من هفوات الجهل تخيل
إن النساء متى نبهن عن خلق * فانه واجب لا بد مفعول
وما وعدنك من شروفين به * وما وعدنك من خير فمطلول

فأما النوع الآخر فانه لا يمكن حصر شروطه لانه قد يختلف باختلاف الأحوال وينتقل به قل
الإنسان والأزمان فانه لا يستغنى به عن موافقة النفس ومتابعة الشهوة ليكون آدم لخال
اللفة وأمد لأسباب الوصلة فان رأى الملعول لا يبقى على حاله والميل المدخول لا يدوم على
دخله فلا بد أن ينتقل الى إحدى حالتين إما الى الزيادة والكمال وإما الى النقصان والزال
* حكى ابن رجا قال لملى كرم الله وجهه انى أحب وأحب معاوية فقال رضى الله عنه أما
الآن فانت أعور فأما أنت أبرأ وأما أن تعي فاذا كان كذلك فلا بد من كشف السبب الباعث
على هذا النوع فانه لا يتخلو من ثلاثة أحوال (أحدها) أن يكون لطلب الولد والاحد فيه
التماس الجدانة والبكارة لانها أخص بالولادة * وقدر روى عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال عليكم بالابكار فانهن أعذب أفواها وأنتق أرحاما وارضى بالسر ومعى قوله أنتق
أرحاما أى أكثر أولادها * وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه عليكم بالابكار فانهن أكثر حبا
وأقل خنا وهذه الحمال هي أولى الأحوال الثلاثة لان النكاح موضوع لها والشرع
واربها * وقدر روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال سوداء ولود خير من حسناء عاقر
والعرب تقول من لا يلد لأولاد وقد كانوا يختارون لمثل هذه الحمال انكاح البعداء الأجانب
ويرون أن ذلك أنجب الولد وأبهى للخلق ويحبون انكاح الأهل والأقارب ويرونه مضرا
بخلق الولد بعيدا من نجابته * روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أغربوا لاتضروا
* وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال يابن السائب قد ضوتيم فأنكحوا فى
الغرباء * وقال الشاعر

تجاوزت بنت العم وهي حبيبة * مخافة أن يضوى على سليلي

وكانت حكما للمقدمين يرون أن أنجب الأولاد خلقا وخلقاً من كان سن أمه بين العشرين

كتابه الذى سماه باخلاق
النفس من هذا الرأى
وكثرا سجنها للقوم الذين
هذه من تنهم من العقل
الا أنه قال أن هولاء الخبيثاء
الذين سرتهم أسوأ السير
وأرداها إذا وجدوا انسانا
هذرا ربه ومذهبه نصره
وفهو به ودعوا إليه
ايوهمو بذلك أنهم غير
منفردين بهذه الطريقة
لأنهم يظنون أنهم متى وصف
أهل الفضل والنبل من
الناس بمثل ما هم عليه
كان ذلك عذرا لهم وتغويها
على قسوم آخرين فى
مثل طريقهم وهؤلاء
هم الذين يفسدون
الأحداث بإيهامهم ان
الفضيلة هي ما تدعوهم اليه
طبيعة البدن من الملاذ
* وأن تلك انفضاء ل
الأخرى المملكية أمان
تكون باطلة ليست بشئ
البتة وأمان تكون غير

والثلاثين وسن أبيه ما بين الثلاثين والخمسين والعرب تقول ان ولد الغيرة لا يجب وان
أحب النساء الفروك لان الرجل يغلبها على الشهوة في الرجال وقالوا ان الرجل اذا
أكرم المرأة وهي مذكورة ثم أذكرت أنجبت (والحالة الثانية) أن يكون المقصود به
القيام بما يتولاه النساء من تدبير المنازل فهذا وان كان مختصا بعبادة النساء فليس بالزم
حالات الزوجات لانه قد يجوز أن يعانیه غيرهن من النساء ولذلك قيل المرأة روحانة وليست
بقهر ماته وليس في هذا المقصد تأثير في دين ولا دفع في مروءة والا حذفت مثل هذا التماس
ذوات الاسنان والحنكة ممن قد خبرن تدبير المنازل وعرفن عادات الرجال فانهم أقوم بهذه
الحال (والحالة الثالثة) أن يكون المقصود به الاستمتاع وهي أذم الاحوال الثلاث وأوهنها
للمروءة لانه يتقاده في خلاقة البهيمية ويتابع شهوته الذميمة * وقد قال الحارث بن النضر
الازدي شر النكاح زكاح الغلة الآن يفعل للث لكسر الشهوة وقهرها بالاضعاف لها عند
الغلبة أو تمكن النفس عند المنازعة حتى لا تطمع له عين لريبة ولا تنزع نفسه الى فحور
ولا تلحقه في ذلك ذم ولا يناله وصم وهو الجسد أجدر بالثناء أحق وتزوره في مثل هذه
الحال عن استبدال الحرائر الى الاماء كان كل مروءة وأبلغ في صيانتها وهذه الحال تقف
على شهوات النفوس لا يمكن أن يرجح فيها ألى الامور وهي أخطر الاحوال بالمنكوحه لان
لشهووات غايات متناهية يزول بزوالها ما كان متعلقا بها فتتصير الشهوة في الابتداء كراهية
في الانتهاء ولذلك كرهت العرب البنات ووأدتهن أشفاقا علمت وجية طعن من أن يتبدلن
للتسام بهذه الحال وكان من تخوف من قتل البنات لرفعة ومجده كان موتهن أحب اليه وأثر
عنده ولما خطب الى عقیل بن علقمة ببنته الجبر قال يا ابني وان سيق الى المهر ألف وعبدان
وذود عشر أحب اصهارى الى القبر * وقال عبد الله بن طاهر

لكل أبي بنت براعي شؤنها * ثلاثة أصهار اذا جد الصهر

فيعمل براعيها وخدر يكنها * وقبر يوارىها وأفضلها القبر

فصل * وأما المؤاخاة بالمودة وهي الرابع من أسباب الالفه لانها تكسب بصادق
الميل اخلاصا ومساواة وتحدث بخلوص المصافاة ونقاء ومحاماة وهذا أعلى مراتب الالفه
ولذلك آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه لتزبد ألفتهم ويقوى نظامهم
وتناصرهم * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عليكم باخوان الصفا فانهم زينة
في الرخاء وعصمة في الداء وروى أبو اليزيد عن سهل بن سعد أن النبي صلى الله عليه وسلم
قال المرأة كثير باخيه ولا خير في محبة من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى له * وقال عمر بن
الخطاب رضي الله عنه لقاء الإخوان جلاء الأخران * وقال خالد بن صفوان ان أعجز الناس
من قصر في طلب الإخوان وأعجز منهم من ضيع من ظفر به منهم * وقال علي كرم الله
وجهه لابنه الحسن بابني الغريب من ليس له حبيب * وقال ابن المعتز من اتخذ أخوانا كانوا
له أعوانا * وقال بعض الأدباء أفضل الذخائر أخوفي * وقال بعض البلغاء صديق مساعد
عند وساعد * وقال بعض الشعراء

هضموم رجال في أمور كثيرة * وهني من الدنيا صديق مساعد

ممكنة لاحد من الناس
والناس ما تلون بالطبع
الحسد الى الشهوات
فيكثر اتباعهم وتقل
الفضلاء فيهم * وإذا تنبه
إلى أحد بعد الآخر أحد منهم
إلى أن هذه الذات اغما
هي لضرورة الحسد وان
بدنه مركب من الطبايع
أنتزادة أغشى الحرارة
والبرودة واليبوسة
والرطوبة وأنه اغما يعالج
بالأكل والشرب أمراضا
تحدث به عند الانحلال
لحفظ تركيبه على حالة
واحدة أبدا ما أمكن ذلك
فيه * وأن علاج المرض
ليس بسعادة تامة
والأحسة من الألم ليست
بقاية مطلوبة ولا خير
مخض وان السعيد التام
هو من لا يعرض له مرض
ألبته * وعرف مع ذلك
أخصان الملائكة الارار
الذين اصطفاهم الله

نكون كروح بين جسمين قسمت * فحسماهما جسمان والروح واحد
وقيل انما سمي الصديق صديقا لصدقه والعدو عدوا لعدوه عليك * وقال ثعلب انما
سمي الخليل خليلا لان محبته تغفل للقلب فلا تدع فيه خلا الاملاته وأنشد
الرياشي قول بشار

قد تغفلت مسلك الروح مني * وبه سمي الخليل خليلا

والمؤاخاة في الناس قد تكون على وجهين أحدهما اخوة مكتسبة بالاتفاق الجاري مجرى
الاضطرار والثانية مكتسبة بالقصد والاختيار فاما المكتسبة بالاتفاق فهي أو كدحالا
لأنها تنعقد عن أسباب تعود اليها والمكتسبة بالقصد تنعقد لها أسباب تنقاد اليها وما كان
جارا بالطبع فهو أكرم مما هو حادث بالقصد ونحن نبدأ بالوجه الأول المكتسب بالاتفاق ثم
ن عقبه بالوجه الثاني المكتسب بالقصد أما المكتسب بالاتفاق فله أسباب ينبت فيهما ثم تنقل
في غاية أحواله المحدودة إلى سبع مراتب عما استكملت من رجا وقفت على بعضهم
ولكل مرتبة من ذلك حكم خاص وسبب موجب * قال الشاعر

ما هو ي إلا له سبب * ينبت منه وينشعب

فأول أسباب الاخاء التجانس في حال يجتمعان فيها أو بالتلفان بها فان قوى التجانس قوى
الاختلاف به وان ضعف كان ضعيفا ما لم تحدث عليه أخرى يقوى بها الاختلاف وانما كان
ذلك كذلك لان الاختلاف بالتشاكل والتشاكل بالتجانس فاذا عدم التجانس من وجهه
انقضى التشاكل من وجهه ومع انتفاء التشاكل بعد الاختلاف فثبت أن التجانس وإن تنوع
أصل الاخاء وقاعدة الاختلاف * وقد روى يحيى بن سعيد عن عمر بن عائشة رضي الله عنها
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا أرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر
منها اختلف وهذا واضح وهو التجانس متعارفة وينقده معتنا كره * وقيل في منشور
الحكم الاضداد لا تتفق والاشكال لا تفترق * وقال بعض الحكماء بحسن تشاكل
الاخوان يلبث التواصل * ولبعضهم

فلا تحقر نفسى وأنت خليلها * فكل امرء يصبو الى من يشاكل

وقال آخر

فقلت أئق قالوا أم من قرابة * فقلت لهم ان الشكول أقارب

نسي في رأي وعزى وهمتى * وأن فرقنا في الاصول المناسبات

ثم يحدث بالتجانس المواصلة بين المتجانسين وهي المرتبة الثانية فمن مراتب الاخاء وسبب
المواصلة بينهم وجود الاتفاق منهما فصارت المواصلة نتيجة التجانس والسبب فيه وجود
الاتفاق لان عدم الاتفاق منفرد * وقد قال الشاعر

الناس ان وافقتهم عدوا * أولا فان جناهم هم

كم من رباض لا أنيس بها * تركت لان طريقها وعمر

ثم يحدث عن المواصلة رتبة ثالثة وسببها الانسباط ثم يحدث عن الموائمة رتبة رابعة وهي
المصافاة وسببها خلوص النية ورتبة خامسة وهي المودة وسببها الثقة وهذه الرتبة هي أدنى

بقربه لا تلحقهم هذه
الآلام فلا يحتاجون الى
مدوا بها بالاكل والشرب
* وان الله تعالى منزّه
متعال عن هذه الاوصاف
عارضوه بان بعض البشر
أشرف من الملائكة وان
الله تعالى أجبل من أن
يذكر مع الخلق
* وشاعده وسفهوا رايه
وأوقعوا له شبا باطلة حتى
يشك في صحته تنبه إليه
وأرشده عقله إليه

والهيب الذي لا ينقضى
هو أنهم مع رأيهم هذا
اذا وجدوا واحدا من
الناس قد ترك طريقهم التي
يعملون اليها واستهان بالله
واقتصر على ما أنبت
الارض عظموه وكثر
تعجبهم منه واهلوه
للمراتب العظيمة وزعموا
انه ولي الله وصفيه وانه شيء

الكمال في أحوال الأخاء وما قبلها أسباب تعود إليها فإن اقترنت بها المعاضدة فهي الصداقة ثم يتحدث عن المودة رتبة سادسة وهي المحبة وسببها الاستحسان فإن كان الاستحسان لفصائل النفس حدثت رتبة سابعة وهي الاعظام وإن كان الاستحسان للصورة والحركات حدثت

رتبة ثامنة وهي العشق وسببه الطمع * وقد قال المؤمن رحمه الله تعالى

أول العشق مزاج وولع * ثم يزداد إذا زاد الطمع

كل من هوى وإن عالت به * رتبة الملك لمن هوى تسع.

وهذه الرتبة آخر الرتب المحدودة وليس لها حوزة رتبة مقدرة ولا حالة محددة لأنها قد تؤدي إلى مجازاة النفوس وإن تميزت فواتها وتفضي إلى مخاطبة الأرواح وإن تفرقت

أجسادها وهذه حالة لا يمكن حصرها فيها ولا الوقوف عند نهايتها وقد قال الكندي الصديق أنسان هو أنت لأنه غيرك * ومثل هذا القول المروي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه

حين أقطع طمعي بن عبد الله أرضا وكتب لها كتابا وأشهد فيه ناسا منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاني طمعي بكتابه إلى عمر ليختمه فامتنع عليه فرجع طمعي مغضبا إلى أبي بكر رضي الله عنه وقال والله ما أدري أنت الخليفة أم عمر فقال بل عمر لكنه أنا وأما المكتسبة

بالقصد فلا بد لها من داع يدعو إليها وباعت يبعث عليها وذلك من وجهين رغبة ووافة فأما الرغبة فهي أن يظهر من الإنسان فضائل تبعث على إخاله وتوسم بحصول بدعوى اصطفاؤه وهذه الحالة أقوى من التي بعدها الظهور بالصفات المطلوبة من غير تكلف لطلبها

وإنما يخاف عليها من الاغترار بالتصنع لحافليس كل من أظهر الخير كان من أهلها ولا كل من تخلق بالحسنى كانت من طبعه والمتكلف للشيئ مناف له الآن بدوم عليه مستحسنه

في العقل أو متدبنا به في الشرع فيصير مطيعا به لا مطبوعا عليه لأنه قد تقدم من كلام الحكماء ليس في الطبع أن يكون ما ليس في التطبع ثم نقول من المتعذرين تكون أخلاق

الفاضل كاملة بالطبع وإنما الأغلب أن يكون بعض فضائله بالطبع وبعضها بالتطبع الجارى بالعادة بحري الطبع حتى يصير ما تطبع به في العادة أغلب عليه مما كان مطبوعا

عليه انخالف العادة ولذلك قيل العادة طبع ثاب * وقال ابن الرومي رحمه الله واعلم بأن الناس من طينة * يصدق في انطبائها الثالب

لولا علاج الناس أخلاقهم * إذا لفاح الجمال الألاب وأما النافقة فهي أن يفترق الإنسان لوحشه أنفراده ومهانة وحدته إلى اصطفاؤه من يأنس

بمؤاخاته ويتقرب بصرته ومولاته * وقد قالت الحكماء من لم يرغب في ثلاث بلى يست من لم يرغب في الإخوان بلى بالعداوة والخذلان ومن لم يرغب في السلامة بلى بالشدائد

والامتهان ومن لم يرغب في المعروف بلى بالتدائم والخسران ولعمري إن أخوان الصديق من أنفس النخائر وأفضل العداواتهم سهماء النفوس وأولياء النوائب * وقد قالت الحكماء رب صديق أود من شقيق وقيل معاوية أي أحب إليك قال صديق يجيبني إلى الناس

* وقال ابن المعتز القريب بعداؤه بعيد والبعيد بعدة قريب وقال الشاعر لمودة من يحبك محلصا * خير من الرحم القريب الكاشع

بالمك وإنه أرفع طبقه من البشر ويخضع سعون له ويدلون غاية الدلو وبعدون أنفسهم اشتياها بالاضافة إليه

والتسبب في ذلك هو أنهم وإن كانوا من أقرن الرأى وسفاهته على ما ترى فإن

فهم من تلك القردة الأخرى الكريمة الميزة وإن كانت ضعيفة ما يريهم فضيلة

ذوي الفضائل فيضطرون إلى أكرامهم وتعظيمهم

قوى النفس الثلاث وإذا كانت القوى ثلاثا كما

قلنا مرارا فادونها النفس البهيمية وأوسطها النفس

السبعية وأشرفها النفس الناطقة والإنسان إنما

صار إنسانا بأفضل هذه النفوس أعنى الناطقة وبها شارك الملائكة وبها

باين البهائم فأشرف الناس من كان حفظه من هذه النفس

أكثر وانصرف إليه أتم

وقال آخر

يخونك ذواقربي مراراً وبعثاً * وفي لك عند العهد من لاتناسه
فاذا عزم على اصطفاء الاخوان سبرأحوالهم قبل اخلائهم وكشف عن أخلاقهم قبل
اصطفايهم لما تقدم من قول الحكماء أسبر تخبر ولا تبعثه الوحدة على الاقدام قبل التجربة
ولاحسن الظن على الاعتراض بالنصنع فان الملق مصائد العقول والنفاق تدليس اللفظ
وهما حمية المتصنع وليس فيمن يكون النفاق والملقى بعض بجاياء خير يرجى ولا صلاح
يؤمل ولأجل ذلك قالت الحكماء اعرف الرجل من فعله لا من كلامه واعرف محبته من
عينه لا من لسانه * وقال خالد بن صفوان انما نفقت على اخواني لاني لم أستعمل معهم
النفاق ولا قصرت بهم عن الاستحقاق وقال حماد بن محمد

كم من أخ لك ليس تنكره * مادمت في دنياك في يسر
متصنع لك في مودته * يلقاك بالترحيب والبشر
فاذا عدا والذهر ذو غير * دهر عليك عدا مع الدهر
فأرفض باجمال مودته من * يقل المقل ويعشق المثري
وعليك من حاله واحدة * في العسر اما كنت واليسر

على أن الانسان موسوم بسيما من قارب ومنسوب اليه أفاعيل من صاحب * قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب * وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه صاحب
مناسب * وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ما من شيء أدخل على شيء ولا أخرج على
النار من الصاحب على الصاحب * وقال بعض الحكماء اعرف أخاك بأخيه قلبك * وقال
بعض الأدباء يظن بالمرء ما يظن بقرينه * وقال عدى بن زيد

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارن يقتدي
إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم * ولا تصعب الأردى قدردى مع الردى

فلزم من هذا الوجه أيضاً ان يتحزم من دخله السوء ويحجب أهل الرب ليكون وفور
العرض سليم الغيب فلا يلام بعلامه غيره وهذا قبل التثبت والارتياح ومداومة الاختيار
والابتلاء متعذراً بل مفقود وقد ضرب ذوالرمة مثلاً بالماء فيمن حسن ظاهره وخبث باطنه
فقال ألم تر أن الماء يخضب طمعه * وان كان لون الماء أبيض صافياً
ونظر بعض الحكماء إلى رجل سوء حسن الوجه فقال أما البيت فحسن وأما الساكن
فردى فأخذ بحظمة هذا المعنى فقال

رب ما بين التباين فيه * منزل عامر وعقل خراب

وأنشد في بعض أهل العلم

لا تر كن إلى ذي منظر حسن * قرب رائقة قد ساء مخبرها

ما كل أصفر دينا زلصفرة * صفرا العقارب أرداها وأنكرها

ثم قد تقدم من قول الحكماء من لم يقدم الامتحان قبل الثقة والثقة قبل الانس أثمرت
مودته ندما * وقال بعض البلغاء مضاربة قبل اختيار أفضل من مؤاخاة على اغترار

وأوفر ومن غلبت عليه
أحدى النفسين الاخرين
انخطعن من تبعاً لانسائه
بحسب غلبة تلك النفس
عليه فانظر رجلاً الله أن
تضع نفسك وأين تحب أن
تنزل من المنازل التي رتبها
الله تعالى للوجودات فان
هذا أمر موكل اليك
ومرود والى اختيارك فان
شئت فانزل في أهزل البهايم
فانك تكون منهم وان
شئت فانزل في منازل السباع
وان شئت فانزل في منازل
الملائكة وكن منهم وفي
كل واحدة من هذه المراتب
مقامات كثيرة فان بعض
البهايم أشرف من بعض
وذلك لقبول التأديب لان
الفرس انما أشرف على
الجمار لقبولها للأدب
وكذلك في البازي فضيلة
على الغراب واذا تأملت
الحوان كله وجدت القابل
لله تديب الذي هو أثر

* وقال بعض الأدباء لا تثق بالصديق قبل الخبرة ولا تقع بالصدوق قبل القدرة *
وقال بعض الشعراء

لا تصمدن امرأ حتى تجربه * ولا تنمنه من غير تجرب
فخذك المرء ما لم تله خطاً * ودمه يعد جد شر تكذيب

وإذا قلنا من هذين الوجهين سر الأخوان قبل إخطائهم وخبرة أخلائهم قبل اصطفتهم
فإن لخصال المعبرة في إخطائهم بعد المجانسة التي هي أصل الاتفاق أربع خصال
(فإنه لخصلة الأولى) عقل موفور يهدي إلى مراد الأمور فإن الحق لا تثبت معه مودة ولا
تدوم لصاحبه استقامة * وتروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال البدء بالوهم وصحبة
الاحق شوم * وقال بعض الحكماء عداوة العاقل أقل ضرراً من مودة الاحق لأن الاحق
ربما ضرر وهو يقدر أن يتفهم والعامل لا يتجاوز الحد في مضربه فيضربه لها حد يقف عليه
العقل ومضرة الجاهل ليست بذات حد والمحدود أقل ضرراً مما هو غير محدود * وقال المنصور
للسيب بن زهير ما مدد العقل فقال بحالسة العقلاء * وقال بعض البلغاء من الجهل بحجة
ذوي الجهل ومن المجال مجادلة ذوي الخيال * وقال بعض الأدباء من أشار عليك بأصطناع
جاهل أو عاجز لم يحل أن تكون صدقاً جاهلاً أو عدواً قاعلاً لأنه يشير بما يضرك ويحتال فيما
يصنع منك * وقال بعض الشعراء

إذا ما كنت مقتداً خيلاً * فلا تثقن بكل أحمى إياه
فإن خبرت بينهم فألصق * بأهل العقل منهم والحياء
فإن العقل ليس له إذا ما * تقاضت الفضائل من كفاء

(وإنه لخصلة الثانية) الدين الواقف بصاحبه على الخير إن تارك الدين عدو لنفسه فكيف
يرجى منه مودة غيره * وقال بعض الحكماء اصططف من الأخوان ذا الدين والحسب والرأى
والأدب فإنه ردة لك عند حاجتك ويد عند نائبك وأنس عند وحشتك وزين عند غائبتك
* وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه

أخلاء الرخاء هم كثير * ولكن في البلاء هم قليل
فلا تغررك خلتهم قواخي * فمالك عند نائبه خليل
وكل أخ يقسول أنا وفي * ولكن ليس يفعل ما يقول
سوى خيل له حسب ودين * فذاك لما يقول هو الفعول
(وقال آخر)

من لم يكن في الله خطته * فخلقه منه على خطر

(وإنه لخصلة الثالثة) أن يكون محمود الأخلاق مرضى الأفعال مؤثر الخير أمر به كاره الشر
ناهياً عنه فإن مودة الشرير تركيب الأعداء ونفسد الأخلاق ولا خير في مودة تجلب
عداوة وتورث مذمة فإن المتبوع تابع لصاحبه * وقال عبد الله بن المعتز أخوان الشر
كشجر النار يحرق بعضها بعضاً وقال بعض الحكماء مخاضة الأشرار على خطر الصبر على
صحبتهم ككوب البحر الذي من سلم منه يبد من التلف فيه لم يسلم بقلبه من الخدر منه وقال

النطق أعنى النفس
الناطق أفضل من سائر
وهو يتدرج في ذلك إلى
أن يصير إلى الحيوان الذي
هو في أفق الإنسان
أعنى الذي هو أكل البهائم
وهو في أخس مراتب
الإنسانية وذلك أن أخس
الناس هو من كان قليل
العقل قريباً من البهيمة
وهو القوم الذين في
أقصى الأرض المعورة
وسكان آخر ناحية الجنوب
والشمال لا يتصلون عن
القرود إلا بشئ قليل من
التمييز وبذلك القدر
يستحقون اسم الإنسانية
ثم يتميزون ويتزايدون
في هذا المعنى حتى يبلغوا
إلى وسط الأقاليم ويعتدل
فيهم المزاج القابل لصورة
العقل فيصير فهم العاقل
الناس والمميز العالم ثم
يتفاضلون في هذا المعنى
أيضاً إلى أن يصيروا إلى

غاية ما يمكن للإنسان أن يبلغ اليه من قبول قوة العقل والخلق . فيصير حينئذ في الأفق الذي بين الإنسان والملاك ويصير فيهم القابل للوحي والمطبق لجل الحكمة فتفيض عليه قوة العقل ويسج اليه نور الحق ولا حالة للإنسان أعلى من هذه مادام انسانا *

ثم أرجع التفهيري إلى النظر في الرتبة الناقصة التي هي أدون مراتب الإنسان فأنك تجد القوم الذين تضعف فيهم القوة الناطقة وهم القوم الذين ذكرناهم في أفق النهاية فتوى فيهم النقص الجسمية فيملكون إلى شهواتها المأخوذة بالحواس كالما كول والمشرب والملبوس وسائر الزوات الشبيهة بها وهؤلاء هم الذين تجذبهم الشهوات القوية بقوة نفوسهم البهيمية حتى يرتكبوها ولا يرتدحوا عنها . ويقدر ما يكون فيهم من القوة العاقلة يستهينون منها حتى يستروا بالبيوت ويتواروا بالظلمات إذا هموا بلذة تنصهم . وهذا الخفاء منهم هو الدليل على قبحها فان الجبل بالاطلاق هو

بعض البقاء بحسب الاشراق تورث سوء الظن بالاختيار . وقال بعض البلغاء من خير الاختيار بحسب الاختيار ومن شر الاختيار بحسب الاشراق . وقال بعض الشعراء بحسب السفيه سقاء رأى * ومن عقل بحسب الحكيم فانك والتقرين معاسواء * كما قد اديهم من الاديم (والخصلة الرابعة) أن يكون من كل واحد منهم اميل الى صاحبه ورغبة في مؤاخاته فان ذلك أو كدلال المؤاخاة وأمد لاسباب المصافاة اذ ليس كل مطلوب اليه طالب ولا كل مرغوب اليه راغب ومن طلب هودة تمتنع عليه ورغب الى زاهد فيه كان معني خائبا كما قال الصديقي وطلبت منك مودة لم أعطاها * ان المعنى طالب لا يظفر وقال العباس بن الاحنف

فان كان لا دينيك الاشفاعه * فلا خير في وديكون بشافع
وأقسم ما ترى عتابك عن قتي * ولكن لعلني انه غير نافع
واني اذالم أزم الصبر طائعا * فلا دينه منكمرا غير طائع
فاذا استكملت هذه الخصال في انسان وجب أخاؤه وتبين اصطفاؤه وبحسب وفورها فيه يجب أن يكون اميل اليه والتمتقه وبحسب ما يرى من غلبه احداهما عليه يجعل مستغلا في الخلق الغالب عليه فان الاخوان على طبقات مختلفة وأنحاء متشعبة ولكل واحد منهم حال يخص به في المشاركة وثمة تسدها في الموازنة والمطافرة وليس تتفق أحوال جميعهم على حد واحد لان التباين في الناس غالب واختلافهم في الشيم ظاهر . وقال بعض الحكماء الرجال كالشعر شرا به واحد وثمره مختلف فأخذ هذا المعنى منصور بن اسمعيل فقال
بنو آدم كالنبت * وتبت الارض ألوان
فمنهم شجر الصند * لوالكافور والبان
ومنهم شجر أفض * ما يحمل قطران

ومن رام اخوانا تتفق أحوال جميعهم رام متعذرا بل لو اتفقوا كان ر بما وقع به خلل في نظامه اذ ليس الواحد من الاخوان يمكن الاستعانة به في كل حال والالمجبولون على الخلق الواحد يمكن أن يتصرفوا في جسم الاعمال واغما بالاختلاف يكون الائتلاف . وقد قال بعض الحكماء ليس بليبي من لم يعاشر بالمر وف من لم يجتمع معاشرته بدا . وقال المأمون الاخوان ثلاث طبقات طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه وطبقة كالدار والمحتاج اليه أحيانا وطبقة كالدار والمحتاج اليه أبدا ولعمري أن الناس على ماود فهم لا الاخوان منهم وليس من كان منهم كالدار من الاخوان العدو من بل هم من الاعداء المحذورين واغما ياجون المودة استكفا فالشهرهم وتجر زامن مكاشفتهم فدخلوا في عداد الاخوان بالمظاهرة والمساورة وفي الاعداء عند المكاشفة والمهاجرة . قال بعض الحكماء مثل العدو والصالح اليك كالخنظرة الخضراء أوراقها القاتل مذاقها . وقد قيل في منشور الحكم لا تعترن بمقاربة العدو فانه كالماء وان أطبل اخفانه بالنار لم يمتع من اطفائها . وقال يزيد بن الحكم الثقفي

الذي يتظاهره ويستحب
 انراجحه واذا عنته * وهذا
 القبح ليس بشئ أكثر من
 النقصانات اللازمة للبشر
 وهي التي يشناقون الى
 ازالتها * وأخشها هو
 أنقصها * وأنقصها
 أحوجها الى الستر والدفن
 ولو سألت القوم الذين
 يعظمون أمر اللذة
 ويجعلونها المختار المطلوب
 والنهاية الإنسانية لم
 يتكثروا الوصول الى أعظم
 الخيرات عندهم * وما
 بالكثرة دون موافقتها خيرا
 ثم تسرونها أثروا سترها
 وكتمانها فضيلة وحرمة
 وإنسانية والمخارجه بها
 وانظارها بين أهل الفضل
 وفي جماع الناس خساسة
 وقحة تظهر من انقطاعهم
 وتبليدهم في الجواب
 ما تعلم به سوء مذهبهم
 وخبت سريرتهم * وأظلم
 خطا من الإنسانية اذا
 رأى انسانا فاضلا أحسنه
 وقره وأحب أن يكون
 مثله * إلا الشاذ منهم الذي
 يبلغ من خساسة الطبع
 وتزارة الإنسانية ووقاحة
 الوجه الى أن يقيم على
 نصرة ما هو عليه من غير
 محبة رتبة من هو أفضل
 منه

﴿الواجب على العاقل﴾

فإذا يجب على العاقل أن

تكاشرفي فخكا كأنك ناصح * وعينك تبدي ان صدرك لى دوى
 لسانك معسول ونفسك علقم * وشرك مبسوط وخبرك ملتوى
 فليت كفاها كان خبرك كله * وشرك عني ما رتوى الماء رتوى

فأذا خرج من كان كالداء من عداد الاخوان فالاخوان هم الصنفان الآخران اللذان من
 كان منهم كالغذاء وكالدواء لان الغذاء قوام للنفس وحياتها والدواء علاجها وصلاحها
 وأفضلها من كان كالغذاء لان الحاجة اليه أعم واذا غيّر الاخوان وجب أن ينزل كل منهم
 حيث نزلت به أحواله اليه واستقرت خصاله وخلاله عليه فن قويت أسبابه قويت
 الثقة به وبحسب الثقة به يكون الركون اليه والتعويل عليه * وقال الشاعر
 ما أنت بالسبب الضعيف وانما * تنجح الامور بقوة الأسباب
 فاليوم حاجتنا اليك وانما * يدعى الطبيب لشدة الاوصاب

وقد اختلفت مذاهب الناس في اتخاذ الاخوان فمنهم من يرى أن الاستكثار منهم أولى
 ليكونوا أقوى منعة ويدا وأوفر تحميا ووقدا وأكثر تعاونا وتفقداء * وقيل لبعض
 الحكماء ما العيش قال اقبال الزمان وعز السلطان وكثرة الاخوان * وقيل حلية
 المرء كثرة اخوانه ومنهم من يرى أن الاقلال منهم أولى لانه أخف انقلا وكفيا وأقل
 تنازوا وخلفا * وقال الاسكندر المستكثر من الاخوان من غير اختيار كالمتوقر من
 الحجارة * والمقل من الاخوان المختبر لهم كالذى يختبر الجوهر * وقال عمرو بن العاص
 من كثراخوانه كثر غرماؤه * وقال ابراهيم بن العباس مثل الاخوان كالنار قليلها
 متاع وكثيرها موار * ولقد أحسن ابن الرومي في هذا المعنى ونبه على الغلة حيث يقول

عدوك من صديقك مستفاد * فلا تستكثر من الحبيب
 فان الداء أكثر ما تراه * يكون من الطعام والشراب
 ودع عنك الكثير فكثير * يعاف وكثير قليل مستطاب
 فما الحج الملاح بمسرويات * وتلقى الرى في النطف العذاب

وقال بعض البلغاء ليكن غرضك في اتخاذ الاخوان واصطناع النعماء تكثير العدة لا تكثير
 العدة وتحصيل النفع لا تحصيل الجمع فواحد يحصل به المراء خبر من ألف تكثير الاعداد
 واذا كان التجانس والتشاكل من قواعد الاخوة وأسباب المودة كان وفورا العقل وتطور
 الفضل يقتضى من حال صاحبه قلة اخوانه لانه روم مثله وبطلب شكله وأمثلة من ذوى
 العقل والفضل أقل من أصداده من ذوى الحق والنقص لان الخيار في كل شئ هو الأقل
 فلذلك قل وفورا العقل والفضل * وقد قال الله تعالى ان الذين يتادونك من وراء الحجرات
 أكثرهم لا يعقلون * قل بهذا التعليل اخوان أهل الفضل لقلتهم وكثراخوان ذوى النقص
 والجهل أكثرهم * وقد قال في ذلك الشاعر

لكل امرئ شكل من الناس مثله * فأكثرهم شكلا أقلهم عقلا
 وكل اناس آلفون لشكلهم * فأكثرهم عقلا أقلهم شكلا
 لان كثير العقل است بواجده * له في طريق حين يسلكه مثلا

يعرف ما انتلي به الانسان
من هذه النقائص التي في
جسمه وحاجاته الضرورية
الى ازالها وتكميلها بما
بالغذاء الذي يحفظه
اعتدال مزاجه وقوام
حياته فينال منه قدر
الضرورة في كماله . ولا
يطلب اللذة لعينها بل قوام
الحياة التي تتبعه اللذة
فان تجاوز ذلك قليلا
فيقتدر ما يحفظ رتبته
في مروءته * ولا ينسب
الى الذناءة والجل بحسب
حاله ومروءته بين الناس
واما باللاس فالذي يدفع
به اذى الحر والبرد
ويستر العورة * فان تجاوز
ذلك فيقدر ما لا يستغفر
ولا ينسب الى الشح على
نفسه والى أن يسقط
بين اقاربه وأهل طبقة *
واما بالجوع فالذي يحفظ
نوعه وتبقى به صورته اعنى
طلب النسل فان تجاوز
ذلك فيقدر ما لا يخرج به
عن السنة ولا يتعدى
ما ملكه الى ما ملك غيره
ثم يلتمس الفضيلة في نفسه
العاقلة التي بها صار انسانا
ويستظر الى النقائص التي
في هذه النفس خاصة
فيروم تكميلها بطاقته
 وجهده * فان هبذه
الخصرات هي التي لا تفسد
واذا واصل اليها لم ينع عنها

وكل سفيه طائش ان فقدته * وجدت له في كل ناحية عدلا
واذا كان الامر على ما وصفنا فقد تنقسم احوال من دخل في عدد الاخوان اربعة اقسام منهم
من يعين ويستعين ومنهم من لا يعين ولا يستعين ومنهم من يستعين ولا يعين ومنهم من
يعين ولا يستعين فاما المعين والمستعين فهو معاوض منصف يؤدي ما عليه ويستوفي ما له
فهو كالقرض يسعف عند الحاجة ويسترد عند الاستغناء وهو مشكور في معونته ومعدور
في استعانتة فهذا عدل الاخوان واما من لا يعين ولا يستعين فهو متر وك قد منع خيره
وقهر شره فهو لا صديق يرجى ولا عدو يخشى * وقد قال المغيرة بن شعبه رضي الله عنه
التارك للاخوان متر وك اذا كان كذلك فهو كالصوره الممثلة بركل حسنها ويخونك
نفسها فلا هو مذموم لم تمنع شره ولا هو مشكور لم تمنع خيره وان كان باليوم أجدر *
وقد قال الشاعر

وأسوأ أيام الفتى يوم لا يرى * له أحد يرى عليه ويشكر
غير أن فساد الوقت وتغير أهله * يوجب شكر من كان شره مقطوعا وان كان خيره ممنوعا
كما قال المتنبي

انالني زمن ترك القبيح * من أكثر الناس احسان واجال
واما من يستعين ولا يعين فهو لئيم كل ومعين مستذل قد قطع عنه الرغبت بسط فيه الرهبة
فلا خيره يرجى ولا شره يؤمن وحسب لئيمه من رجل مستثقل عند اقلاله ويستثقل عند
استنقلاة فليس مثله في الاخاء حظ ولا في الودان نصيب وهو من جعله المأمون من داء
الاخوان لا من دوائهم ومن سمهم لا من غذائهم * وقال بعض الحكماء شر ما في الكريم أن
يمنعك خيره وخير ما في اللئيم أن يكف عنك شره * وقال ابن الرومي

عذرنا النسل في ابداء شرك * برده الانامل عن جنائه
بخا للعوسج الملون أبدى * لناسوكا بلا ثمر نراه

واما من يعين ولا يستعين فهو كريم الطبع مشكور الصنع وقد حاز فضيلتي الانشاء
والاكتفاء فلا يرى تقبلا في ثابته ولا يقعد عن نهضة في معونته فهذا أشرف الاخوان نفسا
واكرمهم طبعافيني لمن أوجده الزمان مثله وقل أن يكون له مثل لانه البر البر الكريم والبر
التيمن أن يثنى عليه خنصره وبعض عليه ناجده ويكون به أشد مناهضة متفائس أموا له وسنى
خائره لان نفع الاخوان عام ونفع المال خاص ومن كان أعم نفعا فهو بالادخار أحق وقال
الفرزدق

بعضي أخوك فلا تلق له خلفا * والمال بعد ذهاب المال مكتسب
وقال آخر

لكل شيء عذمته عوض * وما للقد الصديق من عوض
ثم لا ينبغي أن يزهد في خلق أو خلقين ينكرهما منه اذا رضى سائر أخلاقه وجدأ كثر شيه
لان اليسير مغفور والكمال معوز * وقد قال الكندي كيف تريد من صديقك خلقا واحدا
وهو ذو طبائع أربع مع ان نفس الانسان التي هي أخص النفوس به ومدبرها اختياره

الحياة ولا تتوارى عنها
بالخبطان والظلمات
ويظاها ربها أبدا بين
الناس وفي الخاف * وهي
التي يكون بها بعض الناس
أفضل من بعض وبعضهم
أكثر إنسانية من بعض
وبغذ وهذه النفس
بغذاتها الموافقة لها المقيم
أنقصها كما يغذو تلك
بأغذيتها الملائمة لها * فان
غذاء هذه هو العلم
والزيادة في المعرفة
والارتياض بالصدق في
الآراء وقبول الحق حيث
كان ومع من كان والنفور
من الكذب والباطل
كيف كان ومن أين جاء *
من اتفق له في الصبايا
يرى على أدب الشريعة
ويؤخذ بوظائفها
وشرائطها حتى يتعود
ثم ينظر بعد ذلك في كتب
الأخلاق حتى تتأكد تلك
الأداب والمحاسن في نفسه
بالبراهين * ثم ينظر في
الحساب والهندسة حتى
يتعود صدق القول وصحة
البرهان فلا يسكن إلا إليها
ثم تندرج (كما رسمناه في
كتابنا المرسوم بترتيب
السعادات ومنازل
العلوم) حتى يبلغ إلى
أقصى مرتبة الإنسان
فهو السعيد الكامل

وارادته لاتعطيه قيادها في كل ما يريد ولا تحببه إلى طاعته في كل ما يحب فكيف بنفس
غيره وحسبك أن يكون لك من أخيك أكثره * وقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه ما نبه
الأخ خير من فقدته ومن لك بأخيك كما فخذ الشعراء هذا المعنى فقال أبو العاتية
أأخى من لك من بنى الدنيا بكل أخيك من لك
فاستبق بمضك لا يملكك كل من أعطيت كل
وقال أبو تمام الطائي

ماغبن المغبون مثل عقله * من لك يوما بأخيك كله
وقال بعض الحكماء طلب الانصاف من قلة الانصاف * وقال بعض البلغاء لا يزهدنك في
رجل جدت سيرته وارتضيت وتيرته وعرفت فضله وبطنت عقله عيب يحيط به كثرة
فضائله أو ذنب صغير تستغفر له قوة وسائله فانك لن تجد ما بقيت مهذبا لا يكون فيه عيب ولا
يقع منه ذنب فاعتبر نفسك بعد أن لا تراها بعين الرضا ولا تجر فيهما على حكم الهوى فان في
اعتبارك واختبارك لها ما يؤثر سلك مما تطلب ويعطفك على من يذنب * وقد قال الشاعر
ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها * كفى المرء نبلا أن تعد معاياه
وقال النابغة الذبياني

ولست عسيتق أخا لئله * على شعث أي الرجال المهذب
وليس يتقص هذا القول ما وصفنا من اختياره واختبار الحاصل الأربع فيه لأن ما عوز
فيه معفو عنه وهذا لا ينبغي أن توحشك فترة تجد هامته ولأن تسمى الظن في كبوة تكون
منه ما لم تحقق غيره وتيقن تنكره ولا يصرف ذلك إلى فترات النفوس واستراحات
الخواطر فان الإنسان قد يتغير عن مرآة نفسه التي هي أخس النفوس به ولا يكون ذلك
من عداوة لها ولا ملل منها * وقد قيل في منشور الحكم لا يفسدك الظن على صديق قد
أصلحك اليقين له * وقال جعفر بن محمد لابنه يابن من غضب من أخوانك ثلاث مرات
فلم يقل فيلسوفاً اتخذ لنفسك خلا * وقال الحسن بن وهب من حقوق المودة أخذ
عقوب الأخوان والأغصاء عن تقصير أن كان * وقد روى على رضي الله عنه في قوله تعالى
فاصفع الصفع الجميل قال الرضا بن عتاب * وقال ابن الرومي
هم الناس والدنيا لا بد من فدى * يلعبين أو يكدن مشربا
ومن قلة الانصاف أنك تبتني إلى * مهذب في الدنيا ولست المهذبا
وقال بعض الشعراء

نواصلنا على الأيام باق * ولكن هجرنا مطر الربيع
بروعك صوبه لكن نراه * على علاته داني الزروع
معاذ الله أن نلقى غضبا * سوى دل المطاع على المطيع
وانشدني الأزدي

لا يؤيسنك من صديق نبوة * ينو القسي وهو الجواد الخنصر
فأذنبنا فاستبقه وثأه * حتى تقي به وطبعك أكرم

فلنكره جد الله تعالى على
الموهبة العظيمة والمنحة
الحسنة * ومن لم يتق له
ذلك في مبدأ نشوءه ثم ابتلى
بأن يربسه والده على
رواية الشعر الفاحش
وقبول أكاذيبه
واستحسان ما يوجد فيه
من ذكرك القبايح ونيل
الذات كما لو وجد في شعر
امرئ القيس والتابغة
واشابهما * ثم صار بعد
ذلك إلى رؤساء يتقرؤنه
على روايتها وتقول مثلها
ويجزلون له العطية
* وامتنع باقران
يساعدونه على تناول
الذات الجسدية * ومال
طبعه الى الاستكثار
من المطاعم والملابس
والمرابك والزينة
وارتباط الخيل الفره
والعبيد الوقرة * كما اتفق
لي مثل ذلك في بعض
الاوراق * ثم انهم كفها
واشتغل بها عن السعادة
التي اهل لها فليعد جميع
ذلك شقاء لانعيا وخسرانا
لاربحا ولجتهد على
التدريج الى فطام نفسه
منها * وما أصعب ذلك
الأنه على كل حال خسير
من التماضي في الباطل
* وليعلم الناظر في هذا
الكتاب اني خاصة
تدبرجت الى فطام نفسي

وأما الملل وهو السربع التغير الوشيك التناكر فوداده خطر واخاؤه غرر لانه لا يبقى
حالة ولا يتخلون استحالته * وقد قال ابن الرومي

إذا أنت عانيت الملل فافنا * تخط على صحف من الماء أحرفا
وهيه ارفعوى بعدا لعتاب لم تكن * مودته طبعافصارت تكلفا
وهم نوعان منهم من يكون مله استراحة ثم يعود الى المعهود من اخائه فهذا أسلم المملين
وأقرب الجلين يساح في وقت استراحته وحين فترته ليرجع الى الحسنى ويؤوب الى
الاخاء وان تقدم المثل بما نظمه الشاعر حيث قال

وقالوا يعود الماء في النهر بعدما * عفت منه آثار وجفت مشارعه
فقلت الى أن يرجع الماء عائدا * ويعشب شطاه تموت ضفادعه
لكن لا يطرح حقه بالتوهم ولا سقط حرمة بالتظنون * وقال الشاعر
إذا ما حال عهد أخيل يوما * وحادهن الطريق المستقيم
فلا تجهل بلومك واستدمه * فان أخطا الحفاظ المستديم
فان تسلك زلة منه والا * فلا تسعدن الخلق الكريم
ومنهم من يكون مله ترك اطراف احوال يرجع اخاء ولا وذا ولا يتدكر حفاظ ولا عهدا
كما قال أشجع بن عمرو السلمي

اني رأيت لها مواصلة * كالسم تفرغه على الشهد
فاذا أخذت بمعهد ذمتها * لعب الصدود بذلك العهد
وهذا أذم الرجل حاله لان مودته من وساوس المخاطر وعوارض الشهوات وليس
الاستدراك الخال معه بالافلاح قبل المخالطة وحسن المتاركة بعد الورطة كما قال العباس
ابن الاحنف تداركت نفسي فزيتها * وبغضتها فيك آمالها
وما طابت النفس عن سلوة * ولكن جلت عليها
وما مثل من هذه حاله الا كما قد قال ابراهيم بن حرمه

فانك واطراحك وصل سلى * لاحوى في مودتها تكوب
كثاقبة لحي مستعار * لاذن بها فاشانها الثقوب
فأدت حلى جارتها اليها * وقد بقيت باذنها لندوب

واذا وصفت له اخلاق من سببه وتهدت عليه احوال من خبره وأقدم على اصطفاؤه اخا
وعلى اتخاذه خذنا زمته حيثنحذقوقه ووجب عليه حرمانه * وقال عمر بن مسعدة
العبودية عبودية الاخاء لا عبودية الرق * وقال بعض الحكماء من جادل عبوديته فقد جعلك
عديلا لنفسه فأول حقوقه اعتقاد عبوديته ثم يسانمه بالانسياط اليه في غير محرم ثم يصحبه في
السرو والعلاية ثم يخفف الاثقال عنه ثم معاونته فيما يئوبه من حادثة أو يناله من نكبة
فان مراقتبه في الظاهر نفاق وتركه في المشقة أؤم * وقد روى عن النبي صلى الله عليه
وسلم أنه قال خير أصحابي المعين للث على دهرك وشرهم من سعى للث بسوق ٧ يومه وقيل
بارسول الله أي الاصحاح خير قال الذي اذا ذكرت أعانك وواساك وخير منه من اذا

نسيت ذكرك * وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه خيرا اخوانك من واساك وخير منه من كافاك وكان أبوهريرة رضي الله عنه يقول اللهم اني أعوذ بك من لا يلمس خالص مودتي الا بموافقة شهواتي ومن ساعدني على سرور ساعتي ولا يفكر في حوادث غدتي * وقال بعض البلغاء عقود الغادر محمولة وعهوده مدخولة * وقال بعض البلغاء ما وذلك من أهمل وذلك ولا حيلك من أبغض حيلك * وقال بعض الشعراء

وكل أخ عند الهوى باملأطف * ولكننا الاخوان عند الشدائد

وقال صالح بن عبد القدوس شرا الاخوان من كانت مودته مع الزمان اذا أقبل فاذا أدر الزمان أدر عنك فخذ هذا المعنى الشاعر فقال

شرا الاخلاء من كانت مودته * مع الزمان اذا ما خاف أو رغب

اذا ورت احرا فاحذر عداوته * من بزرع الشوك لا يحصده عينا

ان الصدوق وان أبدى مسالمة * اذا رأى منك يوما فرصة وثبا

وينبغي أن يتوق الافراط في محبة فان الافراط داع الى التقصير ولان تكون الحال بينهما ناسية أولى من أن تكون متناهية * وقد روى ابن سيرين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أحب حبيبتك هو ناسيا عسى أن يكون بغيبك يوما ما وأبغض بغيبك هو ناسيا عسى أن يكون حبيبتك يوما ما * وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يكن حيلك كافا ولا بغيبك تلقا * وقال أبو الاسود الدؤلي

وكن معدنا للغير واصفح عن الاذى * فانك را ما علمت وسامع

وأحبب اذا أحببت حبا مقاربا * فانك لا تدري متى أنت نازع

وأبغض اذا أبغضت غير مبان * فانك لا تدري متى أنت راجع

وقال عدي بن زيد

لأننا من من مبغض قريب داره * ولأن من محب أن يل فيبعدا

وانما يلزم من حق الاخاء بذل المجهود في النصع والتناهي في رعاية ما بينهما من الحق فليس في ذلك افراط وان تناهي ولا مجاوزة حد وان أكثر وأوفى فتستوى حالتها ما في الغيب والمشهد ولان يكون مغيبهما أفضل عن مشهدهما أولى فان فضل المشهد على الغيب لزم وفضل الغيب على المشهد كرم واستواءهما حفاظ * وقال بعض الشعراء

على الاخواني رقيب من الصفا * تبيد اليأسى وهو ليس يبيد

يذكر نبيهم في مغيب ومشهدى * فسيان منهم غائب وشهد

واني لاسمعي أخى أن أبره * قربا وأن أحقوه وهو بعيد

وهكذا يقصد التوسط في زيارته وغشيانه غير مقل ولا مكثرفان تقايل الزيادة داعية الهجران وكثرة سبب الملل * وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لابي هريرة رضي الله عنه يا أبا هريرة زرع غبارا زرع دجيا * وقال لبيد

توقف عن زيارة كل يوم * اذا كثرت ملك من تزور

وقال آخر

بعسد الكبير واستحكم
العادة وجاهدتها جهادا
عظيما * ورشيت لك
أيها الفاحص عن الفضائل
والطالب للادب الحقيقي
عما رضيت لنفسى بل
سبل فحاوزت لك في
النصيحة الى أن أشرت
عليك بما فاتني في ابتداء
أمرى لتسدره أنت *
ودلتك على طريق العجاة
قبل أن يتيه في مفاوز
الفلاة وقد تمت لك السفينة
قبل أن تغرق في بحر
المهالك فآله الله في نفوسكم
معاشرا الاخوان والاولاد
يستسلوا للحق وتأدبوا
بالادب الحقيقي لا الزور
وخذوا الحكمة البالغة
واتهجوا الصراط المستقيم
وتصوروا حالات أنفسكم
وتذكروا قواها واعلموا
أن أصعب مثل ضرب لكم
من نفوسكم الثلاث التي
مردكم في المقالة الاولى
مثل ثلاثة حيوانات مختلفة
جعت في مكان واحد
ملك وسبع وخنزير فأيها
غلب بقوة قوة الباقيين
كان الحكم كله * ولنسلم من
تصور هذا المثال أن
النفس لما كانت جوهرها
غير جسم ولا شيء فيها من
قوى الجسم واعراضه
كما بينا ذلك في صدر هذا
الكتاب كان اتحادها

وأتصلها بخلاف اتحاد
الاجسام وأتصل بعضها
ببعض

﴿ النفوس الثلاث ﴾

وذلك ان هذه الانفس
الثلاث اذا اتصلت صارت
شيئا واحدا ومع انها تكون
شيئا واحدا فهي باقية
التغير وباقية القوى تنور
الواحدة بعد الواحدة
حتى كأنها لم تتصل بالآخرى
ولم تتحد بها وتستجدي
أضواء الواحدة للآخرى حتى
كأنها موجودة ولا قوة لها
تتفرز بها وذلك أن اتحادها
ليس بان تتصل نهايتها
ولان تتلاقى سطوحها كما
يكون ذلك في الاجسام
بل تصير في بعض الأحوال
شيئا واحدا وفي بعض
الأحوال أشياء مختلفة
بحسب ما نهج قوة بعضها
أو تسكن ولذلك قال
قوم ان النفس واحدة ولها
قوى كثيرة وقال آخرون
بل هي واحدة بالذات
كثيرة بالعرض وبالموضوع
وهذا شئ يخرج الكلام
فيه عن غرض الكتاب
وسيربك في موضعه
وليس بترك في هذا
الوقت أن تعتقد أي هذه
الآراء شئت بعد ان تعلم
ان بعض هذه كرامة أدبية
بالطبع وبعضها مهينة
عامة للادب بالطبع وليس

أقلل زيارتك الصديق ولا تطل * هجرانه فليل في هجرانه
ان الصديق يلج في غشيانه * لصديقه فليل من غشيانه
حتى تراه بعد طول سروره * بمكانه مثاقلا بمكانه
واذا فاقني عن صيانته نفسه * رجل تنقص واسخف بشانه

وبحسب ذلك فليكن في عتابه فان كثرة العتاب سبب للقطعة واطراح جميعه دليل على قلة
الاكثر ان باهر الصديق وقد قيل عليه المعادة قلة المبالاة بل تتوسط حالتا تركه وعتابه
فيسامح بالمشاركة ويستصلح بالمعاقبة فان المسامحة والاستصلاح اذا اجتمعا لم يلبث معهما
نفور ولم يبق معهما وجد * وقد قال بعض الحكماء لاكثر من معاقبة اخوانك فيهن
عليهم سخطك * وقال منصور الثوري

أقلل عتاب من استربت بوجه * لمست نبال مودة بعتاب

﴿ وقال بشار بن برد ﴾

اذا كنت في كل الأمور معاتبنا * صديقك لم تلق الذي لاتعاتبه
وان أنت لم تشرب ممرار على القذى * ظمئت وأى الناس تصفو مشارب
ففس واحدا أوصل أخاك فانه * مقارب ذنب مرة ومجانبة

ثم من حق الاخوان أن تغفروا هفوتهم وتستزلفهم لان من رام برئاشا من الهفوات سليما
من الزلات رام أمرهم عوزا وافترح وصفا معجزا * وقد قالت الحكماء أي عالم لا يهفو وأى
صارم لا ينبو وأى جواد لا يكيو وقالوا من حاول صديقا بما من زلته ويدوم اغتيابه به
كان كضال الطريق الذي لا يزداد لنفسه اتعابا الا زداد من غايته بعدا وقيل لخالد بن
صفوان أى اخوانك أحب إليك قال من غفر زلي وقطع عيلى وبلغنى أملى * وقال
بعض الشعراء ما كدت ألخص عن أخى نعمة * الا تدمت عواقب الفحص
وأندشت عن الربيع للشافى رضى الله عنه

أحب من الاخوان كل موائى * وكل غضيض الطرف عن عثرانى
يوافقنى في كل أمر أريده * ويحفظنى حيا وبعد وفاتى
فن لى بهذا ليت أنى أصيبته * فقاسمته مالى من الحسنات
تصفحت اخوانى وكان أقلهم * على كثرة الاخوان أهل ثقافى
(وأندش ثلعب)

اذا أنت لم تستقبل الامر لم تجد * بكفيلك في إداره متعلقا

اذا أنت لم تترك أخاك وزلة * اذا زلها أو شككها أن تفرقا

وحكى الاصمعي عن بعض الاعراب انه قال تناس مساوى الاخوان بدوم لك ودوم * ووصى
بعض الادباء أخاه فقال كن للودع انظما وان لم تجد محافظا وللحل واصلا وان لم تجد مواصلا
وقال رجل من ابدال يزيد بن المهلب

اذا لم تجدوا زعن أخ عند زلة * فلست غدا عن عثرى محاورا

وكيف يربحك البعيد لنفعه * اذا كان عن مولاك خيرك عاجزا

فيما استعداد لقبول
الادب وبعضها عادمة
للالادب لأنها تقبل
التأديب وتقاد للتي هي
أدبية أما الكرمية الأدبية
بالطبع فالنفس الناطقة
وأما العادمة للادب وهي
مع ذلك غير قابلة له فهي
النفس البهيمية وأما التي
عدمت الادب ولكنها
تقبله وتتقاده فهي النفس
الغضبية وأما وهب الله
تعالى لنا هذه النفس
خاصة لتستعين بها على
تقويم البهيمية التي لا تقبل
الادب وقد شبه القدماء
الانسان وحاله في هذه
الانفس الثلاث بانسان
راكب دابة قوية يقود
كلها أو يفقد القنص فان
كان الانسان من بينهم هو
الذي يروض دابته وكلية
يصرفهما ويطيعانه في
سيره ونصيبه وسائر
تصرفاته فلا شك في رغد
العيش المشترك بين الثلاثة
وحسن أحواله لان
الانسان يكون مرفهافي
مطامه يجرى فرسه حيث
يجب ويكايح ويطلق كلبه
أيضا كذلك اذا نزل
واستراح أراحهما معه
وأحسن القيام عليهما
في المطعم والمشرب
وكفاية الاعضاء وغير
ذلك من مصالحهما وإذا

ظلمت أحمأ كلفته فوق وسعه * وهل كانت الاخلاق الاغرائزا
وقال أبو سعود كاتب الرضى كنفاني مجلس الرضى فشكى رجل من أخيه فأنشد الرضى
اعنذر أخاك على ذنوبه * واستر وغط على عيوبه
واصبر على بهت السفرة * مولل زمان على خطوبه
ودع الجواب تفضلا * وكل الظلوم الى حسيه
واعلم بان الحسب عن مد الغيث أحسن من ركوبه
وحكى عن بنت عبد الله بن مطيع أنها قالت لزوجهاطلمة بن عبد الرحمن بن عوف
الزهرى وكان أجود فارس في زمانه ما رأيت قوما ألامن اخوانك قال مه ولم ذلك قالت
أراهم اذا يسرت لرموك * وإذا عسرت تركوك قال هذا والله من كرمهم يا توننا في حال
القوة بنا عليهم ويتركوننا في حال الضعف بنا عنهم فانظر كيف تأول بكرمه هذا التأويل
حتى جعل قبيح فعلهم حسنا وظهر غدرهم وفاء وهذا يحسن الكرم ولباب الفضل وبمثل
هذا يلزم ذوى الفضل أن يتأولوا الحقوق من اخوانهم * وقد قال بعض الشعراء
اذا ما بدت من صاحب لك زلة * فكأن أنت محتال الزلته عذرا
أحب الفتى ينفي الفواحش سمعه * كأن به عن كل فاحشة وقرا
سلم دواعي الصدر لا بساط أذى * ولا مانع خيرا ولا قاتل هجرا
والداعي الى هذا التأويل شأن التغافل الحادث عن الغفلة والتألف الصادر عن الوفاء *
وقال بعض الحكماء وجبت أكثر أمور الدنيا لا تجوز الا بالتغافل * وقال أكرم بن صبيح
من شدد نغره ومن تراخى تألف والشرف في التغافل * وقال شبيب بن سبية الارباب المعافل
هو الفطن التغافل * وقال الطائي

ليس الغبي يسيد في قومه * لكن سيد قومه المتغابي
وقال أبو العتاهية

ان في صفة الاخاء من الناس * س وفي خلة الوفاء لقله
فالبس الناس ما استطعت على التقصص والالم تستقيم لك خله
عش وحيدا ان كنت لا تقبل العذ * روان كنت لا تحاور زله
من أب واحد وأم خلقنا * غير أنافي المال أولادعله

وما يتبع هذا الفصل تألف الاعداء بما يشيهم من البغضاء ويعطفهم على المحبة وذلك قد
يكون يصنفون من البر ويختلف بسبب اختلاف الاحوال فان ذلك من سمات الفضل
وشروط السوء دفاهه ما أحدي عدم عدوا ولا يقدح حاسدا وبحسب قدر النعمة تكثر الاعداء
والحسنة كما قال البحرى

ولن تستبين الدهر موقع نعمة * اذا أنت لم تدلل عليها بحاسد

فان أغفل تألف الاعداء مع وفور النعمة وظهور الحسنة توالى عليه من مكر حلبيهم وبادرة
سفيهم ما تصير به النعمة غراما والزعامه ملاما وروى بن المسيب عن أبي هريرة رضى الله عنه
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس العقل بعد الايمان بالله تعالى التودد الى الناس *

كانت البهيمة هي الغالبة ساءت حال الثلاثة وكان الانسان مضطربا فعندهما ١٠٥ فلم تطع فارسها وغلبت فان برأت

عشبا من بعيد عدت
فحوه وتعسفت في عدوها
وعسدت عن الطريق
النهي فاعترضتها الاودية
والوهاد والشوك والشجر
فتقدمتها وتورطت فيها
ولحق فارسها ما يلحق مثله
في هذه الاحوال فيصيبهم
جميعا من انواع المكاره
والاشراف على الهلكة
ملا خفاء فيه

وكذلك ان قوى الكلب لم
يطع صاحبه فان رأى من
بعيد صيدا أو ما يظنه صيدا
أخذ نحوه فخذب الفارس
وفرسه ولحق الجميع من
الضرر والضرأ ضعاف
ما ذكرناه * وفي تصور
هذا المثل الذي ضرب به
القدماء تنبيه على حال
هذه النفوس ودلالة على
ما وهبه الله عز وجل
للانسان ومكنه منه
وعرضه له وما يضعه
بهميان خالقه تعالى فيه
عند اهمال السياسة
واتباعا أمرها تين
القوتين وتبعد لهما وهما
الذات ينبغي أن يتبعها
بتأمره عليهم ما من أسوأ
حالا ممن أهمل سياسة الله
عز وجل وضع نعمته
عليه وترك هذه القوى فيه
هاتجة مضطربة تغالب
وصار الرئيس متهاربا
والملك منها مستعبدا
يتقلب معها في المهالك

وقال سليمان بن داود عليهما السلام لانه لا تستكثر أن يكون لك ألف صديق فالألف قليل
ولا تستقل أن يكون لك عدو واحد فالواحد كثير فتنام بن الروى هذا المعنى فقال
فكثر من الاخوان ما استطعت انهم * بطون اذا استجبتهم وظهور
وليس كثيرا ألف خيل وصاحب * وان عدوا واحدا لكثير
وقيل لعبد الملك بن مرون ما أدبت في مذك هذا قال مودة الرجال * وقال بعض الحكماء
من علامة الاقبال اصطناع الرجال * وقال بعض البلغاء من استصلح عدوه زاد في عدده
ومن استفلس صديقه نقص من عدده * وقال بعض الادباء المحجب بمن يطرح عاقلا كافيا
لما يضره من عدوته ويصطنع عاجزا جاهلا لما يظهره من محبته وهو قادر على استصلاح
من يعاديه بحسن صنائه وأباده وأنشد عبد الله بن الزبير ثلاثة أبيات جامعة لكل ما قالته
العرب وهي للأفوه واسمه صله بن عمرو حيث يقول

بلوت الناس قرنا بعد قرن * فلم أر غير خصال وقال
وذقت حمارة الاشياء جميعا * فقاطع أمر من السؤال
ولم أر في الخطوب أشد هولاً * وأصعب من معاداة الرجال

وقال القاضي التنوخي

ان العدو بوجه لا قطوب به * يكاد يقطر من ماء البشاشات
فاخر الناس من يلقي أعاديه * في جسم حقد وثوب من مودات
الرفق بمن وخير القول أصدقه * وكثرة المزح مفتاح العدوات
وأنشدت عن الربيع الشافعي رضي الله عنه

لما عفوت ولم أحقد على أحد * أرحمت نفسي من هم العدوات
انى أحبي عدوى عند رؤيته * لادفع الشر عنى بالتحيات
وأظهر البشر للانسان أبغضه * كأنما قد حشى قلبي محبات
الناس داء دواء الناس قريحهم * وفي اعتزالهم قطع المودات

وليس وان كان يتألف الأعداء ما مورا إلى مقاربتهم منسوباً ينبغي أن يكون لهم راكنا
وهم واثقاي يكون منهم على حذر ومن مكرهم على تحرز فان العداوة اذا استحكمت في
الطباع صارت طبعاً لا يستحيل وجيلة لا تزول وانما يستكني بالتألف اظهارها واستدفع به
اضرارها كالتأثير يستدفع بالماء احراقها ويستفاد به انضاجها وان كانت محرقة بطبع
لا يزول وجوه لا يتغير * وقال الشاعر

وانما عجزت عن العدو وقذاره * واضمح له ان المزاح وفاق
فالنار بلاد الذي هو صدها * تعطي النضاج وطبعها الاحراق

فصل * وأما البر وهو الخاف من أسباب الألفة فلا نه يوصل الى القلوب الطافا
ويشبه المحبة وانطفا فالذلك نذب الله تعالى الى التعاون به وقرنه بالتقوى له فقال وتعاونوا
على البر والتقوى لان في التقوى رضا الله تعالى وفي البر رضا الناس ومن جمع بين رضا الله
تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته * وروى الاعمش عن خزيمة عن ابن مسعود

قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول جبلت القلوب على حب من أحسن اليها
وبغض من أساء اليها * وحكى أن الله تعالى أوحى الى داود على نبينا وعليه السلام
ذكر عبادي احسان اليهم ليحبوني فانهم لا يحبون الا من أحسن اليهم وأنشدني أبو الحسن
الهاشمي
الناس كلهم عبا * ل الله تحت ظلاله
فأحبهم طرا اليه * أبرهم لعباله

والبر نوعان صلة ومعروف فأما الصلة فهي التبرع ببذل المال في الجهات المحودة لغرض
مطلوب وهذا يبعث عليه سماحة النفس وسخاؤها ويمنع منه شحها وإياؤها قال الله تعالى
ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون * وروى محمد بن ابراهيم التيمي عن عرو بن الزبير
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال السخي قريب من الله عز وجل قريب من الجنة قريب
من الناس بعيد من النار والخيل بعيد من الله عز وجل بعيد من الجنة بعيد من الناس
قريب من النار . وقال صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم رفع الله عنك أباك العذاب الشديد
اسخاها وبلغه صلى الله عليه وسلم عن الزبير أسألك فخذ عمامته اليه وقال يا زبير أنا
رسول الله إليك والى غيرك يقول أنفق أنفق عليك ولا توك فأوك عليك وروى أبو الدرداء
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من يوم غربت فيه شمس الا وملكان يناديان اللهم
أعط متقنا خلفا وممساكنا وأنزله في ذلك القرآن فأما من أعطى واتقى وصديق بالمسنى
فستيسره اليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فستيسره اليسرى * قال ابن
عباس رضي الله عنهما يعني من أعطى فيما أمر واتقى فيما حظر وصديق بالحسنى يعني بالخلف
من عطائه فنعقد هذا قال ابن عباس رضي الله عنهما لسادات الناس في الدنيا السخياء وفي
الآخرة الاتقاء وقيل في مشورا الحكم الجود عن موجود وقيل في المثل سودد الجود كماله بلا
جنود وقال بعض الحكماء الجود حارس الاعراض * وقال بعض الادباء من جاد ساد ومن
أضعف ازداد * وقال بعض الفقهاء جودا رجل يحببه الى أضداده ويحبه اليه بغضه الى أولاده
وقال بعض الفقهاء خيرا الاموال ما استرق حرا وخيرا الاعمال ما استحق شكرا وقال صالح بن
عبد القدوس

ويظهر عيب المرء في الناس ببخله * ويسنره عنهم جميعا سخاؤه

تغبط بأتواب السخاء فاني * أرى كل عيب فالسخاء غطاؤه

وحذا السخاء بذل ما يحتاج اليه عند الحاجة وأن يوصل الى محققه بقدر الطاقة وتند بيز ذلك
مستصعب ولعل بعض من يحب أن ينسب الى الكرم ينكر حذا السخاء ويجعل تقدير العطفية
فيه نوعان الخل وان الجود بذل الموجود وهذا تكلف يفضي الى الجهل بمقدور الفضائل
ولو كان الجود بذل الموجود لما كان للسرف موزعا ولا للتبذير موقعا وقد ورد الكتاب فيهما
وصات السنة بالنهي عنهما واذا كان السخاء محمدا فن وقف على حده سمي كرميا وكان
للحمد مستحقا ومن قصر عنه كان بخيلا وكان للذم مستوجبا * وقد قال الله تعالى ولا
تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هون خيرا لهم بل هون لهم سيطلقون ما بخلوا به
يوم القيامة وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أقسم الله تعالى بعزته لا يجاوره بخيل
على حسن طاعتها ثم

وصفناها ووصفنا
أحوالها * نسأل الله
عصمته ومعونته على
تهذيب هذه النفوس حتى
تنتهي فيها الى طاعة الله
التي هي نهاية مصالحنا
وبها نجاتنا وصلاحنا الى
الفوز الأكبر والتعظيم
السرمدى

في سياسة النفس العاقلة *
وقد شبه الحكماء من
أهمل سياسة نفسه
العاقلة وترك سلطان
الشهوة يستولى عليها
برجل معه ياقوته حراء
شريفة لا قيمة لها من
الذهب والفضة جلالة
ونفاسة * وكان بين يديه
نار تضطرم فرماها في
جبا حبا حتى صارت
كاسا لا منقعة فيها غسرت
تفسر ضرر وب منافعا *
فقد علمنا الآن ان النفس
العاقلة اذا عرفت شرف
نفسها وأحسب بمرتبها
من الله عز وجل أحسنت
خلافته في تربية هذه
القوى و سياستها ونهضت
بالقوة التي أعطاها الله
تعالى الى محلها من كرامة
الله تعالى ومزنتها من
العز والشرف ولم تخضع
للسبعية ولا البهيمية . بل
تقوم النفس الغضبية
التي سميناها سبعة
وتقودها الى الادب بمحلمها
على حسن طاعتها ثم

تستنهضها في أوقات هيجان هذه النفس البهيمية وحركتها الى الشهوات حتى يقع بهذه سلطان تلك وتستخدمها وروى

في تأديبها وتستعين بقوة هذه على تآني تلك * وذلك ان هذه النفس الغضبية قابلة ١٠٧ للادب قوية على قمع الاخرى كما

قلنا * وتلك النفس
الهممية عادمة للادب
غير قابلة له * وأما النفس
الناطقسة أعنى العاقلة
فهي كما قال أفلاطون بهذه
الالفاظ * اما هذه فيمنزلة
الذهب في اللبن والانعطاف
* وأما تلك فيمنزلة الحديد
في الصلابة والامتناع *
فان أنت آثرت الفعل
الجليل في وقت وحادثتك
القوة الاخرى الى السدة
والى خلاف ما آثرت
فاستعين بقوة الغضب
التي تشير وتبيح بالانفة
والحمية واقهر بها النفس
الهممية * فان غلبت
مع ذلك ثم دمت وانفت
فأنت في طريق الصلاح
فتم عزيمتك واحذر ان
تعادلك بالطمع فيك
والغلبة لك * فان لم تفعل
ذلك ولم تكن العقبي في
الغلبة لك كنت كما قال
الحكيم الاول * اني أرى
أكثر الناس يدعون
محملاً لافعال الجسلة ثم
لا يهتمون المونة فيهاب على
علمهم بغفلتها فيعلمهم
الترف ومحبة البطالة *
فلا يكون بينهم وبين من
لا يحب الافعال الجيلة فرق
اذا لم يهتموا بمونة الصبر
ويصبروا الى تعلم تمام
ما آثروه وعرفوا فضله *
واذكر مثل البشر التي تدرى
فيها الاعي والنصير فيكرنان

وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال طعام الجواد دواء وطعام الجبيل داء وسمع رسول الله
صلى الله عليه وسلم رجلاً يقول الشعر أعجز من الخاتم فقال لمن الله الشجع ولعن الظالم
* وقال بعض الحكماء الجبل جلياب المسكنة * وقال بعض الادباء الجبل ليس له خليل
* وقال بعض البلقاء الجبل حارس نعمته وخازن ورثته * وقال بعض الشعراء
اذا كنت جاعاً عالمك مسكاً * فأنت عليه خازن وأمين
تؤذيه مذموماً الى غير حامد * فيأكله عفواً وانتدفين
وتظاهر بعض ذوي النباهة بحب الثناء مع امسالك فيه فقال بعض الشعراء
أراك تؤمل حسن الثناء * ولم يرزق الله ذاك الجبلا
وكيف يسود أخو بطنه * بمن كثير او يعطى قليلا
وقد ينحسب الثناء وحسب المال لان الثناء يبعث على البذل وحسب المال يمنع منه فان ظهر
كان حب الثناء كاذباً * وقد قال بعض الشعراء
جعت امرئ من صناع الخرم بينهما * تبه الملوك وأخلاق الممالك
أردت شكر بالبر ولا صلة * لقد سلكت طر يقا غير مسلول
ظننت عرضك لم يفرع بقارعة * وما أراك على حال بمترك
لست سمعت الى مال حفظته * فاسمعت الى شيء سوى النوك
وقد يحدث عن الجبل من الاخلاق المذمومة وان كان ذو ربة الى كل مذمومة اربعة اخلاق
ناهيك بها اذا ما وهي الحرص والشره وسوء الظن ومنع الحقوق فاما الحرص فهو شدة
الكدح والاسراف في الطلب وأما الشره فهو استغلال الكفاية والاستكثار لغير حاجة
وهذا فرق ما بين الحرص والشره * وقد روى العلامة جري عن أبيه عن سالم بن مسروق قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لا يجز به من العيش ما يكفيه لم يجد ما عاش ما يغنيه *
وقال بعض الحكماء الشره من غرأ اللوم وأما سوء الظن فهو عدم الثقة بمن هو لها أهل
فان كان بالخالق كان شكاً يؤل الى ضلال وان كان بالخلق كان استهانة يصير بها محتاناً
وخواناً لان ظن الانسان بغيره بحسب ما يراه من نفسه فان وجد فيها خيراً ظنه في غيره
وان رأى فيها سوءاً اعتقده في الناس * وقد قيل في المثل كل اناة ينضح بما فيه فان قيل قد تقدم
من قول الحكماء ان الخرم سوء الظن قيل تأويله قلنا لا استرسال اليهم لاعتقاد سوء فهم
وأما منع الحقوق فان نفس الجبل لا تسمح بغير اقبحها ولا تنقاد الى ترك مطلوبها فلا
تدع الحق ولا تجيب الى انصاف واذا آل الجبيل الى ما وصفنا من هذه الاخلاق المذمومة
والشيم اللثيمة لم يبق معه خير مرمج ولا صلاح مأمول * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال للانصار من سيدكم قالوا الخرمين قيس على بجلي فيه فقال صلى الله عليه وسلم وأى داء
أدوا من الجبل قالوا وكف ذلك يا رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم ان قومنا نزلوا بساحل
البحر فكموا الجبلهم نزول الاضياف بهم فقالوا البعد الرجال متاعن النساء حتى يعتذر الرجال
الى الاضياف بعد النساء وتعتذر النساء بعد الرجال ففعلوا وطال ذلك بهم فاشتغل الرجال
بالرجال والنساء بالنساء وأما السرف والتبذير فان من زاد على حدا السخا فهو مسرف ومبذر
وهو بالذم جدير * وقد قال الله تعالى ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين * وروى عن النبي

في الهلكة سواء لان الاعي أعذر * ومن وصل من هذه الآداب الى مرتبة يعتد بها واكتسب بها الفضائل التي عندنا فقد

وجب عليه نادب غيره وافاضة ١٠٨ ما أعطاه الله على أبنائه جنسه ﴿فصل﴾ في نادب الأحداث والصبيان

صلى الله عليه وسلم أنه قال ما عال من اقتصد * وقد قال المأمون رحمه الله لا خير في السرف ولا سرف في الخير * وقال بعض الحكماء صديق الرجل قصده وسرفه عدوه * وقال بعض البلغاء لاكثر مرمع اسراف ولا قليل مع احترام واعلم أن السرف والتبذير قد يفتقر معناهما فالسرف هو الجهل بمقادير الحقوق والتبذير هو الجهل بمواقع الحقوق وكلاهما مذموم وذم التبذير أعظم لأن المسرف يخطئ في الزيادة والمبذر يخطئ في الجهل ومن جهل مواقع الحقوق ومقاديرها بما له وأخطأها فها هو كمن جهلها بفعاله فتعداها وكما أنه يقبذ بزه قد يضع الشيء في غير موضعه فهكذا قد يعدل بعن موضعه لأن المال أقل من أن يوضع في كل موضع من حق وغير حق * وقد قال معاوية رضي الله عنه كل سرف فباؤه حق مضيع * وقال بعض الحكماء الخطأ في إعطاء ما لا ينبغي ومنع ما ينبغي واحد * وقال سفيان الثوري رضي الله عنه الحلال لا يحتمل السرف وليس يتم السخاء ببذل ما في يده حتى تسخو نفسه عما يبدغيه فلا يعمل إلى طاب ولا يكف عن بذل * وقد حكى أن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم الخليل على نبينا وعليه السلام أتدري لما اتخذت خليلاً قال لا يارب قال لا رأيتك تحب أن تعطى ولا تحب أن تأخذ * وروى سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال قال رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله مرني بعمل يحسن الله عليه ويحسن الناس فقال أزهدي الدنيا يحبك الله وأزهدي في أيدي الناس يحبك الناس وقال أيوب السخيتاني لا يبذل الرجل حتى يكون فيه خصلتان العفة عن أموال الناس والتجاوز عنهم وقيل لسفيان ما أزهدي الدنيا قال أزهدي الناس وكتب كسرى إلى ابنه هرم بن أبيه استقل الكثير مما تعطى واستكثر القليل مما تأخذ فان قرع عيون الكرام في الإعطاء وسروا للثام في الأخذ ولا تعد الشجع أمناً ولا الكذاب حراً فانه لا عفة مع الشجع ولا مروءة مع الكذاب * وقال بعض الحكماء السخاء سخاء أن أشرفهما سخاؤك عما يبدغيك * وقال بعض البلغاء السخاء أن تكون بحال متبرعاً وعس مال غيرك متورعاً * وقال بعض الصالحاء الجود غاية الزهد والزهد غاية الجود * وقال بعض الشعراء

إذا لم تكن نفس الشريف شريفة * وإن كان ذاق قسداً لفس له شرف
والبذل على وجهين أحدهما ما ابتدأ به الإنسان من غير سؤال والثاني ما كان عن طلب وسؤال فاما المبتدأ به فهو أطبعهما سخاءه وأشرهما إعطاءه وسئل على كرم الله وجهه عن السخاء فقال ما كان منه ابتداء فاما ما كان عن مسألة انشياء * وقال بعض الحكماء أجل النوال ما وصل قبل السؤال * وقال بعض الشعراء

وفتي خلا من ماله * ومن المروءة غير خال
أعطاك قبل سؤاله * وكفا لك مكره السؤال

وهذا النوع من البذل قد يكون لتسعة أسباب
فالسبب الأول أن يرى خلة تقدر على سدها وفاقة فيمكن من إزالتها فلا يدعه الكرم والتدين
الآن يكون زعيم صلاحها وكفيل نجاحها رغبة في الاجر أن تدين وفي الشكر أن تكرم
وقال أبو العتاهية

عاقلاً وهذه القوى كثيرة وبعضها ضروري في وجود الأخرى إلى أن ينتهي إلى الغاية الأخيرة * وهي التي لا تتراد

خاصة نقلت أكثره من كتاب بروسن) قد قلنا
نما تقدم أن أول قوة تظهر في الإنسان وأول ما تكون هي القوة التي يشاق بها إلى الغذاء الذي هو سبب كونه حياً فيحركه بالطبع إلى اللبث يلتصقه من الثدي الذي هو معدنه من غير تعلم ولا توقيف أو يحدث له مع ذلك قوة على التماسه بالصوت الذي هو مادته ودليله الذي يدل به على اللذة والأذى * ثم تستزايد فيه هذه القوة وينشوق بها أبداً إلى الازدياد والتصرف بها في أنواع الشهوات * ثم تحدث فيه قوة على التحرك نحوها بالآلات التي تخلق له الشوق إلى الأفعال التي تحصل له هذه * ثم يحدث له من الحواس قوة على تحصيل الأمور ويرتسم في قوته الخيالية مشكلات فيتشوق إليها * ثم تظهر فيه قوة الغضب التي يشاق بها إلى دفع ما يؤذيه ومقاومة ما يمنعه من منافعه فان أطاق بنفسه أن يتقم من مودياته انتقم منها والآن النفس معونة غيره وانصرف بالديه بالتصويت والكاء * ثم تحدث له الشوق إلى تغيير الأفعال الإنسانية خاصة أولاً ولا حتى يصير إلى كماله في هذا التميز فيسمى حينئذ

لغاية أخرى وهو الخير المطلق الذي يتشوقه الانسان من حيث هو انسان فأول ١٠٩ ما يحدث فيه من هذه القوة الحياء

وهو الخوف من ظهور شئ قبيح منه * ولذلك فلنأخذ أول ما ينبغي أن يغرس في الصبي ويستدل به على عقله الحياء فانه يدل على أنه قد أحسن التقيج ومع احساسه به هو محذره ويحجبه ويخاف أن يظهر منه أوفيه فإذا نظرت إلى الصبي فوجدته مسجيا مطرقا بطرفه إلى الارض غير وقاح الوجه ولا محلق اليك فهو أول دليل نجابته والشاهد لك على أن نفسه قد أحست بالجميل والتقيج وان حياءه هو انحصار نفسه خوفا من قبح يظهر منه وهذا ليس بشئ أكثر من اثبات الجليل وأهرب من القبح بالتهيز والعقل وهذه النفس مستعدة للتأديب صالحة للعناية لا يجب أن تهمل ولا تترك ومحاطة الاضداد الذين يفسدون بالمقارنة والمداخلة وان كانت بهذه الحال ممن الاسب تتعدا لقبول الفضيلة فان نفس الصبي ساذجة لم تنتش بعد بصورة وليس لها رأى ولا عزيمتها على شئ إلى شئ فإذا نشئت بصورة وقبلتها أنشأ عليها واعتادها

فالأولى بمثل هذه النفس ان تنهأ ابدأ على حب الكرامة ولا سيما ما يحصل له من بالدين دون المال ومنه ويخوف من المذمة على أدنى

ما الناس إلا آله معتلة * للخير والشر جميعا فله

والسبب الثاني أن يرى في ماله فضلا عن حاجته وفي يده زيادة عن كفايته ف يرى انتهاز الفرصة فيها ف يضعها حيث تكون له ذمرا موعدا وغما مستحدا * وقد قال الحسن البصري رحمه الله ما أنصفك من كافك إجلاله ومنعك ماله وقيل لهند بنت الحسن من أعظم الناس في عينك قالت من كان لي اليه حاجة * وقال الشاعر

وما ضاع مال ورث الحمد أهله * ولكن أموال الخيل تضيع

والسبب الثالث أن يكون التعريض بقبه عليه لفظته وإشارة يستدل عليها بكمه فلا بدعه الكرم أن يغفل ولا الحياء أن يكف * وقد حكى أن رجلا سار بعض الولاة فقال ما أهزل برز وثلك فقال يده مع أيدينا فوصلها كفاء بهذا التعريض الذي بلغ ما لا يبلغه صريح السؤال ولذلك قال أكرم من صيني السخاء حسن الفطنة والثر سوء التعافل * وحكى أن عبيد الله بن سليمان لما نقلوا زارة المعتضد كتب إليه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر

أبي دهرنا أسعافنا في نفوسنا * وأسعافنا في نجب ونكرم

فقلت له تعماك فسم أعما * ودع أمرنا أن المهم مقدم

فقال عبيد الله ما أحسن ما شكأ أمره بين أضعاف مدحه وقضى حاجته * وقال بعض الشعراء

ومن لا يرى من نفسه مذكر لها * رأى طلب المستعدين ثقيلًا

والسبب الرابع أن يكون ذلك رعاية ليدأ جزاء على صنيعه فيرى تأديبه الحق عليه طوعا ما أنفه وأما شكرا ليكون من أسر الامتنان طليقا ومن رقى الاحسان وعبد ديتنه عتيقا قال بعض الحكماء الاحسان رقى والمكافأة عتيق * وقال أبو العتاهية ترجمه الله تعالى وليست أبادي الناس عندي غنية * ورب يدعني أشد من الاسر والسبب الخامس أن يؤثر الاذعان بتدعيه والاقرار بتعظيمه فوطيد الرئاسة هو لها محب وعلى طلبها مكب * وقد قال الشاعر

حب الرئاسة داء لا دواء له * وقل ما تجد الراضين بالقسم

فتستصعب عليه اجابة النفوس له طوعا لا بالاستعطاف واذعائها بالارغبة والاستعاف وقد قال بعض الادباء بالاحسان يرتبط الانسان وقال بعض البلغاء من بذل ماله أدرك أماله وقال بعض الشعراء

أترجو أن تسود بلا عناء * وكيف يسود ذو الدعة الخيل

والسبب السادس أن يدفع به سطوة أعدائه ويستكف به نفار خصمائه ليصير واله بعد الخصومة أعوانا وبعد العداوة أخوانا أما لصيانة عرض وأما لمحرسة مجده * وقد قال أبو تمام الطائي

ولم يجمع شرق وغرب لقاصد * ولا المحقق كف امرئ والدراهم

ولم أرك لمعروف تدعي حقوقه * مغارم في الأقوام وهي مغام

وقال بعض الادباء من عظمت مرافقه أعظمه مرافقه

وبلز ومن سنه وظائفه ثم يلدح الاخيار عنده ويمدح هو في نفسه اذا ظهر شئ جميل منه ويخوف من المذمة على أدنى

فمجب يظهر منه ويؤاخذ بآفته لما كل ١١٠ والمشارب والملابس الفاخرة وزين عنده خلق النفس والترفع عن الحرص في الماء كل خاصة وفي

والسبب السابع أن رب به سالف صنعه أولاها وراعي به قديم نعمه أسداها كيلا ينسى ما أولاها ويضاع ما أسداها فان مقطوع البرضائع ومهمل الاحسان ضال * وقد قال الشاعر

وسمت امرأ بالبر ثم أطرحته * ومن أفضل الاشياء رب الصنائع
وقال محمد بن داود الاصبهاني

بدأت بنهي أو جبت لي حمة * عليك فعد بالفضل فالهوا داحد
والسبب الثامن المحبة تؤثر بها المحبوب على ماله فلا يرضن عليه بمرغوب ولا ينفس عليه بمطلوب للذة التي هي عنده أحظى والى نفسه أشهى لان النفس الى محبوبيها أشوق والى ما يليه أسبق * وقد قال الشاعر

فازرتكم عسدا ولكن ذا الهوى * الى حيث بهوى القلب تهوى به الرجل
وهذا وان دخل في أقسام العطاء فخرج عن حده السخاء وهكذا الخامس والسادس من هذه الاسباب وانما ذكرنا ههنا ما تحت أقسام العطاء

والسبب التاسع وليس بسبب أن يفعل ذلك لغیر ما سبب وانما هي سعيه قد فطر عليها وشيعة قد طبع بها فلا يميز بين مستحق ومحرور ولا يفرق بين محمود ومذموم كما قال بشار

ليس يعطيك للرجاء ولا لا * تخوف لكن يذطم العطاء
وقد اختلف الناس في مثل هذا هل يكون منسوباً الى السخاء فجمداً وخارجاً عنه فقديم وقال يوم هذا هو السخي طبعاً والجواد كراماً هو أحق من كان به محموداً واليه منسوباً وقال أبو تمام

من غير ما سبب بدني كفي سبياً * للحر أن يجتدي حوا بلا سبب
وقال الحسن بن سهل اذا لم أعط الامسحقاً فكاني أعطيته غير بما وقال الشرف في السرف فقل له لا خير في السرف فقال ولا سرف في الخير * وقال الفضل بن سهل الجعفي بن رجو من فوّه كيف يحرم من دونه * وقال بشار

وما للناس الا صاحبك فمنهم * سخي ومغلول اليمين من الجعل
فسامح بدا ما أمكنتك فانها * ثقل وتثرى والعوائل في شغل
وقال آخر وهذا خارج من السخاء المحمود الى السرف والتبذير المذموم لان العطاء اذا كان لغیر سبب كان المنع لغیر سبب لان المال يقل عن الحقوق ويقصر عن الواجبات فاذا أعطى غير المستحق فقد منع مستحقاً وما يناله من الذم يمنع المستحق أكثر مما يناله من الحمد لا عطاء

غير المستحق وحسبك ذماً بمن كانت أفساله تصدر عن غير تبذير وتوجد لغیر علة وقد قال الله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتعند ملوماً محسوراً فنهى عن بسطها سراً فكأنه ينهاه عن قبضها بخلاف فعله على استواء الامر بن ذماً وعلى اتفاقهما لوما * وقال الشاعر

وكان المال بائناً فكننا * بنذره وليس لنا عقول
فلما أن تولى المال عنا * عقلنا حين ليس لنا فضول

الملابس

ويعلم أن اول الناس بالملابس الملونة والمنقوشة النساء الا أن يزين للرجال ثم العبيد وانحول وان الاحسن باهل النبل والشرف من اللباس البياض وما أشبه حتى يترى على ذلك ويسمعه من كل من يقرب منه ويتكرر عليه ولم يتركه وغفلت من تسمع منه ضد ما ذكرته لاسيما من اتراه ومن كان في مثل سته ممن يعاشره ويلاعه وذلك أن الصبي في ابتداء نشوه يكون على الأكثر قبيح الأفعال إما كاهها وإما أكثر ما فانه يكون كذوباً ويضرب ويحكى ما لم يسمعه ولم يره ويكون حسوداً سارفاً فيما ألجوا ذات فضول أضربى بنفسه وبكل أمر يلبسه ثم لانزال به التاديب والسنة والتعزيب حتى ينتقل في أحوال بعد أحوال فذلك يشي أن يؤخذ ما دام طفلاً بما ذكرناه وبذلك يطل بمحفظ

محاسن الاخبار والاشعار التي تجرى مجرى ما تعود به الادب حتى يتأكد عنده بروايتها وحفظها والذاكرة قالوا

بها جميع ما قدمنا * ويحذر النظر في الأشعار السخيفة وما فيها من ذكر ١١١ العشق وأهلها وما يؤهمه أصحابها أنه

قالوا ولان العطاء والمنع اذا كانا غير علة أنضيا لئلا يذم الممنوع وقلة شكر المعطى أما الممنوع
فلانه قد فضل عليه من سواءه وأما المعطى فانه وجد ذلك اتفاقا وربما أسهل بالاتفاق اضعا فاما
فصار ذلك مقصدا الى اجتلاب الذم واحباط التشكر وليس فيما أفضى الى واحد منهما ما خير
يرجى وهو جدير بأن يكون شرا يتيقن ومثل هذا كان منع الجميع ارضا للجميع وعطاء يكون
المنع أرضى منه خسران مبين فاما اذا كان المذل والعطاء عن سواك فشر وطه معتبره من
وجهين أحدهما في السائل والثاني في المسؤول فأما ما كان معتبرا في السائل فثلاثة شروط
الشرط الأول أن يكون السؤال لسبب والطلب لموجب فان كان للضرورة ارتفع عنه
الحرج وسقط عنه اللوم * وقد قال بعض الحكماء للضرورة توقيح الصورة * وقال
بعض الشعراء

ألا فبح الله الضرورة انها * تكلف أعلى الخلق أدنى الخلائق

ولله در الاتساع فانه * بين فضل السبق من غير سابق

وقال الكميت اذا لم تكن الا لاسنة مكرها * فلا رأى للضرر الا ركوبها

فان ارتفعت الضرورة ودعت الحاجة فيما هو أولى الامر بأن يكون وان جاز أن لا يكون
فالنفس المسامحة تغلب الحاجة وتسمع في الطلب وترعى ما يستقام به الامر وان ناله ذل
ولحقه وهن فيتأول صاحبها قول المعتز

وربما كان مكروا الامور الى * محبوبها سببا ما مثل سبب

والنفس الشريفة تطالب الصيانة وترعى الزهارة وتحتمل من الضرر ما احتملت ومن الشدة
ما أطاقت فيسقي تحملها ويدوم تصونها فتكون كما قال الشاعر

قد تكسب المرء خزايا * ومن دونها حالة مصنفيه

كما يكسب خدحه حمرة * وعلمته ورم في الرية

فلا يرى أن يتدنس بمطالب الشؤم ومطامع اللؤم فان النهايم الوحشية تأتي ذلك وتأنف
منه قال الشاعر

وليس اللبث من جوع يغاد * على حين تطيف بها الكلاب

فكيف بالانسان الفاضل الذي هو أكرم الحيوان جنسا وأشرفه نفسا هل يحسن به أن يرى
لوحش البهائم عليه فضلا * وقد قال الشاعر

على كل حال يا كل المرء زاده * على البؤس والضرر والحدنان

والفضل في مثل ما قبل لبعض الزهاد لو سألت جارا أعطاك فقال والله ما أسأل الدنيا
من يملكها فكيف بمن لا يملكها ووصف بعض الشعراء قوما فقال

اذا افتقر وأغضوا على الضرر حسنة * وانأسروا عادوا سرا الى الفقر

فأما من يسأل من غير ضرورة مستولا حاجة دعت فذلك صريح اللؤم ومحض الدناءة وقلمنا
نجد مثله لمهلوظا أو ممولنا نوظا لان الحرمان قاده الى اضيق الارزاق واللؤم ساقه الى
أحب المطاعم فلم يبق لوجهه ماء الا رافقه ولان الاذاقة كما قال عبد الصمد بن المعذل
لابي تمام الطائي

ضرب من الظرف ورقة
الطبع * فان هذا
الباب مفسدة للاحداث
حدا * ثم مدح بكل
ما يظهر منه من خلق جميل
وفل حسن ويكرم عليه
فان خالف في بعض
الاقوات ما ذكرته فالاولى
أن لا يوجب عليه ولا يكشف
بانه أقدم عليه بل يتغافل
عنه تغافل من لا يحظر
بياه انه قد تجاسر على
مثله ولا همه لاسيما ان
ستره الصبي واجتهد في أن
يخفي ما فاضل عن الناس
فان عاد فلو جع عليه سرا
وليغظم عنده ما أتاه *
ويحذر من معاودته فانك
ان عودته التوبيخ
والمكاشفة تجلبه على
الوقاحة وحرضته على
معاودة ما كان استقصيه
وهان عليه سماع الملامة
في ركوب قبائح الذات
التي تدعو اليها نفسه
وهذه الذات كثيرة جدا

آداب المطاعم

والذي ينبغي أن يبدأ به
في تقويم آداب المطاعم
فيهم أولا انها انما تراد
للمسحاة لا للذة * وان
الاغذية كلها انما خلقت
وأعدت لنا لتصح بها
أبداننا وتصير مادة حياتنا
فهى تجري تجري الادوية
لتدوى بها الجوع
والآلام الحادث منه فكما

أن الدواء لا يرام للذة ولا يستكثر منه للشهوة فكذلك الاطعمة لا ينبغي أن يتناول منها الا ما يحفظ صحة البدن ويدفع ألم

الجوع ونعم من المرض فحقمرعنه ١١٢ قدر الطعام الذي يستغظه أهل الشره ويقبح عنده صورة من شره اليه وينال

منه فوق حاجته به او لا
يواقفه حتى يقصر على لون
واحد * ولا يرغب في
الالوان الكثيرة واذا
جلس مع غيره لا يبادر الى
الطعام ولا يدع النظر الى
ألوانه ولا يحدق اليه شديدا
ويقصر على ما يليه ولا
يسرع في الاكل ولا يوالى
بين القلعة بسرعة ولا يعظم
اللقمة ولا يتلعها حتى
يخمد مضغتها ولا يطلع يده
ولا ثوبه ولا يلمظ من يواكبه
ولا يتبع نظره ما وقع به
من الطعام ويعود ان يثر
غيره بما يليه ان كان افضل
ما عنده ثم يضبط شهوته
حتى يقتصر على أدنى الطعام
وادوه وبأكل اخبر الفقار
الذي لا ادم معه في بعض
الاقوات وهذه الآداب
وان كانت جميلة بالفقراء
فهي بالاغنياء افضل
وأجل وينبغي أن يستوفي
غذاه بالعشى فان استوفاه
بالنهار كسل واحتاج الى
النوم وتبدد فهمه مع ذلك
وان منع اللحم في أكثر
اوقاته كان أنفع له وقعا
في الحركة والتيقظ وقلة
الملاذبة بعثه على النشاط
والخفة * وأما الخلواء
والفاكهة فينبغي أن
يتمتع منها البتة ان أمكن
والأفلاحتناول أقل ما يمكن
فانها تسحق في بطنه
فتكثر انجلاؤه وتعود مع

ذلك على الشره ومحببة الاستكثار من الماء كل * ويعود ان لا يشرب في لال طعامه الماء فاما التبدد وأصناف لا

أنت بين اثنتين تبرز لنا * س وكلتا هما بوجه مزال
لست تنفلك طال الوصال * من حبيب أوطا بالسؤال
أى ماء لخر وجهه ليقى * بين ذل الهوى وذل السؤال
ولو استقبح العار وأنف من الذل لو جد غير السؤال مكتسبا يوفيه * ولقد رعى ما يهونه *
وقد قال الشاعر

لا تطلبن معيشة بتذل * فلما ينك رزقك المقدور
واعلم بانك آخذ كل الذي * لك في الكتاب مقدر مسطور
والشرط الثاني من شروط السؤال ان يضيق الزمان عن ارجائه ويقصر الوقت عن ابطائه
فلا يجد لنفسه في التأخير فسحة ولا في التماهي مهلة فيصير من المذورين وذخا في عداد
الضرطرين فأما اذا كان الوقت متساعا والزمان ممتدا فتجيب السؤال لثوم وقنوط *
وقال الشاعر

أبلى إغضاء الجفون على القذى * يقبى أن لا عسر الا مفرج
ألا بما ضاق القضاء بأهله * وأمكن من بين الاسنة مخرج
والشرط الثالث اختيار المسؤل أن يكون ممن جوا الاجابة مأمول النجح اما
لحرمة المسائل أو كرم المسؤل فان سأل لثيما ليري حمة ولا يولى مكرمة فهو في
اختياره ملوم وفي سؤاله محرم * وقد قال بعض البلغاء المخذول من كانت له الى
الاشام حاجة * وقد قال بعض البلغاء أنزل من اللثيم سائله * وأقل من البخل نائله
وقال بعض الشعراء

من كان يأمل أن يرى * من ساقط نيل لاسنبا
فلقد رجي أن يجتني * من عوسج رطب اجنبا
وأما الشروط المعتبرة في المسؤل فتلاثة

الشرط الاول ان يكتفى بالتعريض ولا يلجئ الى السؤال الصريح ليصون السائل عن ذل
الطلب فان الحال ناطقة والتعريض كاف * وقد قال الشاعر
أقول وستر الدجى مسبل * كإقال حين شكى الضفدع
كلاحي ان قلته ضائع * وفي الصمت حتى فما أصنع
وربما فهم المسؤل بالاشارة فالجأ الى التصريح بالعبارة تمجينا للسائل فيجلب ويستحي
فيكف كإقال أبو تمام

من كان مفقودا للحياة فوجهه * من غير زباب له زباب
والشرط الثاني أن يلقى بالبشر والترحب ويقابل بالطلاقة والتقريب ليكون مشكورا
أن أعطى ومعذورا ان منع * وقد قال بعض الحكماء ان صاحب الحاجة بالبشر فان
عمدت شكره لم تعذب عذره * وقال ابن لشك ان أبابكر بن دريد قد صد بعض الزوراء في
حاجة فلم يقضها له وطهر له منه ضجر فقال
لا تدخلك نخرة من سائل * فلخير دهره أن ترى مسولا

لا تجهن بالرد وجهه مؤمل * فبقاء عزك أن ترى مأمو لا

تلقى الكريم فتستدل بيشرة * وترى العيوس على اللثيم دليلا

واعلم بالنك عن قلبل صائر * خبر افكن خبر اروق جبالا

والشرط الثالث تصديق الأمل وتحقيق الظن به ثم اعتبار حاله وحال سائله فانها لا تخلو من

أربع أحوال فالحال الاول أن يكون السائل مستوجبا والمسؤل متمكنا فالاجابة ههنا

تستحق كرمنا وتستلزم مروءة وليس للرسميل الا ان استولى عليه الجبل وهان عليه الذم

فيكون كما قال عبد الرحمن بن حسان

اني رأيت من المكارم حسبكم * أن تلبسوا خرا الثياب وتشبعوا

فانذا تذكرت المكارم مرة * في مجلس أنستم به فتفتعوا

فنعوذ بالله من حره ودماله ومنع حسن حاله أن يكون مستودعا في صنيع مشكور وروبر

مذخور وقد قيل لجبل لم تجبست مالك قال للنواب فقيل له قد نزلت بك * وقال بعض

الشعراء

مالك من مالك الا الذي * قدمت فابذل طائعا مالكا

تقول أعمالى ولو فتشوا * رأيت أعمالك أحمى لكأ

وقد اسقط حق نفسه ورفع أسباب شكره فصارت ان لاحق له مذهبوما كشكوروما ثوما

كأجور * وقال أبو العتاهية

خزن الخيل على صالحه * اذ لم يتقبل بره ظهري

ما فاتني خير امرئ وضعت * عني بداه مؤنة الشكر

فاذا لم يكن للرد في مثل هذه الحال سبيل نظرفان كان التأخير مضرا فاجعل بذله وقطع مطله

وكانت اجابته فعلا وقوله عملا * وقد قالت الحكماء من مروءة المطلوب منه أن لا يلجئ الى

الحاج عليه * وقال مجيد بن حازم

ومنظر سؤالك بالعطايا * وأشرف من عطاياه السؤال

اذا لم تأتك المعروف طوعا * فدعه فالتسرة عنه مال

وان كان في الوقت مهلة توفي التأخير فسخة فقد اختلفت مذاهب الفضلاء فيه فذهب

بعضهم الى أن الاول فيجعل الوعد قولاً ثم يعقبه بالانجاز فعلا ليكون السائل مسرورا بتجليل

الوعد ثم بأجل الانجاز ويكون المسؤل موصوفا بالكرم ملحوظا بالوفاء * وقد روى عن النبي

صلى الله عليه وسلم أنه قال العدة عطية * وقال الفضل بن سهل لرجل سأله حاجة أععدك

اليوم وأجوبك غدا بالانجاز لنذوق حلاوة الأمل وأترين بثوب الوفاء * ووعده يحيى بن خالد

رجلا بحاجة سأله إياها فقيل له تعدوا أنت قادر فقال ان الحاجة اذ لم يتقدمها وعدني تنظر

صاحبه فتجده لم يجد سرور هال ان الوعد طعم والانجاز طعام وليس من فاجأه الطعام كن يجد

ريحه ويطعمه فدع الحاجة تختمر بالوعد ليكون لها طعم عند المصطنع اليه * وقال بعض

البلغاء اذا أحسنت القول فاحسن الفعل ليجتمع لك ثمرة اللسان وثمره الاحسان ولا تقل

مالا تقل فانك لا تخلو في ذلك من ذنب تكسبه أو تجزئ لزمه ومنهم من ذهب الى أن تجليل

الوقت حاجته اليه * ولا يفتخر على أقرانه بشئ مما يملكه والاداء من ما

١٤ - أدب الدنيا

البذل فعلا من غير وعد ألقى وتقدمه من غير توقيت ولا انتظار أحرى وإنما يقدم الوعد أحد رجلين إما معوز ينتظر وجده وأما شحيح يروض نفسه فوطئة وليس للوعدي غير هاتين الحالتين وجه يصح ولا رأى يتضمع مع ما يغيره الليل والنهار وتقلب به الحال من يسار وأعسار وقال بعض الشعراء

يا أيها الملك المقدم أمره شرقا وغربا
أمنن بختم محيقتي * مادام هذا الطين رطبا
وأعلم بأن حفافه * مما بعيد السهل صعبا
قالوا ولان في الرجوع عنه من الانكسار وفي توقع الوعد من مراة الانتظار وفي العود اليه من بذلة الاقتضاء وذلة الاحتذاء ما يكبر بره ويهون شكره * وقال الشاعر
ان الخواشيح ربما أزرى بها * عند الذي تنضي له تطو لها
فاذا ضمنت لصاحب اللئاحة * فاعلم بأن تمامها تجميلها
والحال الثانية أن يكون السائل غير مستوجب والمسئول غير متمكن في الرد فسهو في المنع
عذر غرائه يلين عند الدلينا ببقية الذم يظهر عذرا يذم عنه اللوم فليس كل مقل يعرف
ولا معذور ينصف * وقد قال أبو الغناية يصف الناس

يا رب ان الناس لا ينصفوني * فكيف وان أنصفتم ظلموني
فان كان لي شيء تصدوا لاخذ * وان حشأ أبي شيأهم منعوني
وان تالهم بذلي فلا شكر عندهم * وان أنا لم أبذل لهم شتموني
وان طرقتني نكبة فكهو لها * وان محبتي نعمة حسدوني
سأمنع قلبي أن يحن إليهم * وأغض عنهم ناظري وجفوني
واقطع أباي يوم سهولة * أقضي بهما عري وروم خزون
ألا ان أصني العيش ما طاب غمه * وما نلت في لذة وسكون
والحال الثالثة أن يكون السائل مستوجبا والمسئول غير متمكن فيأتي بالحمل على النفس
ما أمكن من يسير يسد به خلة أو يدفع به مذمة أو يوضح من أعذار المعوزين وتوقع التألمين
ما يجعله في المنع مقدورا والتوقع مشكورا * وقد قال أبو النصر العتي رحمه الله تعالى
الله يعلم أني لست ذا عجل * ولست ملتسقا في الضل على عللا
لكن طاقة مثلي غير خافية * والنبل يعذرك في القدر الذي جلا
وربما تحسر يحدث البهز بعد تقدم القدرة على فوت الصنعة وزوال العادة حتى صار
أضنى جسدا وأز يدكدا كما قال الشاعر

وكننت كبازا السوء قص جناحه * يرى حسرات كلما طار طائر
يرى طائرات الحق تخفق حوله * فيذكر اندر يش الجناحين وافر
والحال الرابعة أن يكون السائل غير مستوجب والمسئول متمكنا وعلى البذل قادر فينظر
فان خاف بالرد قدح عرض أو وقع بهاء ممض كان البذل مندوبا صيانة لاجودا * فقد روى
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما وقع به المرأة عرضة فهو له صدقة وان أمن من ذلك

كان له أو سلطان من أهله
ان اتفق * الى غضب
من هودونه أو استبداء
من لا يمكنه أن يردّه عن
هواه أو نطاولة عليه *
كن اتفق له ان كان خاله
وزر أو وجهه سلطانا فتطرق
به الى هضبه أقرانه وتلم
أخوانه وأستباحة أموال
جيرانه ومعارفه * وبنى
أن يعودان لا يصبقي في
بحالسه ولا يتمنظ ولا
يتشاءب بحضرة غيره * ولا
يضع رجلا على رجل ولا
يضر ب تحت ذقته بساعده
ولا يمد رأسه يده * فان
هذا دليل الكسل وأنه قد
بلغ به التقيج الى أن لا يحمل
رأسه حتى يستعين يده
ويعود أن لا يكذب ولا
يخلف البشة لأصادقا ولا
كاذبا * فان هذا أجمع
بال حال مع الحاجة اليه
في بعض الأوقات فأما
الصبي فلا حاجة به الى
اليمين ويعود أيضا قلة
الكلام فلا يتكلم الا
حوايا * واذا حضر من هو
أكبر منه اشتغل بالاستماع
منه والصمت له ويمنع من
حديث الكلام ويحجبه
ومن السب واللعن وفسو
القول * ويعود حسن
الكلام وظرفه وجبيل
اللقاء وكرمه ولا يحرص
له أن يستمع لأصداها
من غيره * ويعود خدمة
نفسه وماله وكل من كان أكبر منه * وأحوج الصبيان الى هذا الأدب وأولاد الأغنياء

ضعيف ولا يعبأ أحدًا إلا
بالقبول والسي من الادب
ويعود ان لا يوحش
اله بيان بل يبرهم ويكافهم
على الجليل بالكرمه مثلا
يتعود الرجوع على الصبيان
وعلى الصديق * وبغض
اليه الفضة والذهب
ويحذر منهما أكثر من
تحذير السباع والحيات
والعقارب والا فاني فان
حب الفضة والذهب آفته
أكثر من آفات السموم
وينبغي أن يؤذن له في بعض
الآوقات أن يلعب لعبا
جيلا لئلا يترسخ اليأس
تعب الادب ولا يكون في
لعبه ألم ولا تعب شديد
ويعود طاعة والده ومعلمه
ومؤدبه وان ينظر اليهم
بعين الجلالة والتعظيم
ويهابهم وهذه الآداب
النافعة للصبيان هي
للكبار من الناس أيضا
نافعة ولكنها للاحداث
أنفع لانها تعودهم بحبة
الفضائل وينشأون عليها
فلا تثقل عليهم تحجب
الذائل ويسهل عليهم
بعد ذلك جميع ما رسمه
الحكمة ونحوه الشريعة
والسنة * ويتادون
ضبط النفس عما تدعوهم
اليه من اللذات القبيحة
وتكفهم عن الانهماك في
شيئ منها والفكر الكثير
فيها وتسوقهم الى امرية

وسلم منه فن الناس من غلب المسألة وأمر بالبدل لئلا يقابل الرجا بالتحية والامل بالاياس
ثم لما فيه من اعتياد الرد واستسهال المنع المضى الى الشيخ وأشد الاصحى عن الكسائي
كانك في الكتاب وجدت * محرمه عليك فلا تحل
فما تدري اذا أعطيت مالا * أي أكثر من سماحك أم يقل
اذا حضر الشتاء فانت شمس * وان حضر المصيف فانت ظل
ومن الناس من اعتبر الاسباب وغلب حال السائل ويندب الى المنع اذا كان العطاء في غير
حق ليقوى على الحقوق اذا عرضت ولا يهز عنها اذا الرمت وتعين وقد قال بعض الشعراء
لا تجذب العطاء في غير حق * ليس في منع غريزي الحق يحل
انما الجود أن تجود على من * هو الجود والنسب منك أهل
فاما من أجاب السؤال وعبد البذل والنوال فقد صار بوعده مهرونا وصار وفاء بالوعد
مقرونا فالاعتبار بحق السائل بعد الوعد ولا سبيل الى مراعاة نفسه في الرد يستوجب
مع ذم المنع لوم الجمل ومقت القادر وهجمة الكذب ثم لا سبيل لمطلعه بعد الوعد لما في المطل
من تكدير الصنيع وتعيق الشكر والعرب تقول في أمثالها المطل أحد المنعين واليأس
أحد الصحين * وقال بشار بن برد
أطلت عليا منك يوما غمامة * أضاعت لنا رقا وأبطار شاشها
فلا عجبها بجلى قيا أس طامع * ولا غتها بأني فبروى عطا شاشها
ثم اذا أنجز وعده وأوفى عهده لم يتبع نفسه ما أعطى ويسران كانت يده العلياء فقد قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم البذل العليا خير من البذل السفلى * وقال الشاعر
فانك لا تدري اذا جاء سائل * أنت بما تعطيه أم هو أسعد
عسى سائل زوجا حانة منته * من اليوم * ولأن يكون له غد
وليكن من سرور رة اذا كانت الارزاق مقدره أن تكون على يده حارة ومن جهته واصلة
لا تنتقل عنه يمنع ولا تحول عنه بياض * وحكى أن رجلا شكى كثرة عياله الى بعض الزهاد
فقال انظر من كان منهم ليس رزقه على الله عز وجل فهو له الى منزلي * وقال ابن سيرين رجل
كان يأتيه على دابة فققد الدابة ما فعل برزوك قال اشتدت على مؤنته فبعته قال أفتراه
خلف رزقه عندك * وقال ابن الزرعي رحمه الله
ان لله غير مرعا * نرتبه وغير مائل ماء
ان لله بالبرية لطف * سبق الامهات والآباء
ثم ليكن غالب عطائه لله تعالى وأكثر قصده ابتغاء ما عند الله عز وجل كالذي حكاه أبو بكر
عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن اعرابيا أتاه فقال
يا عمر الخير جريت الجنة * اكس بنياتي وأمهنة
وكن لنا من الزمان جنه * أقسم بالله لتفعلنه
فقال عمر رضي الله عنه فان لم أفعل لم يكون ماذا فقال
* اذا أباحفص لاديهنه *

فقال فاذا ذهبت يكون ماذا فقال

الفلسفة العالية وترقيهم الى معالي الامور التي وصفناها في اول الكتاب من التقرب الى الله عز وجل ومجاورة الملائكة

يكون عن حالي لتسألته * يوم تكون الاعطيات هه
وموقف المسؤول بينهنه * إما الى النار وأما جنة

فبكي عمر رضي الله عنه حتى اخضلت لحيته ثم قال يا غلام اعطه قيصي هذا المذلل اليوم
لا أشعر أما والله لا أملك غيره وإذا كان العطاء على هذا الوجه خلا من طلب جزاء وشكر
وعري عن امتنان ونشر فكان ذلك أشرف للبائل وأهنأ للقابل وأما المعطي إذا التمس
بعطاءه الجزاء وطلب به الشكر والثناء فهو خارج بعطاءه عن حكم السخاء لانه ان طلب به
الشكر والثناء كان صاحب سمعة رباؤه وفي هذين من الذم ما ينافي السخاء وان طلب به
الجزاء كان تاجرا مترجحا لا يستحق جدا ولا مدحا * وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما
في تأويل قوله تعالى ولا تعن تستكثر انه لا يعطى عطية يلتمس بها أفضل منها * وكان
الحسن البصري رضي الله عنه يقول في تأويل ذلك لا تعن بعلمك * تستكثر على ربك *
وقال أبو العاتية

ولست بد أوليتها بغنيمة * اذا كنت ترجوا أن تعد لها شكرا

غنى المرء ما يكفيه من سد حاجة * فان زاد شأنا عاذاك الغنى فقرا

واعلم أن الكرم يجتدى بالكرامة واللفظ والثيم يجتدى بالمهانة والعنف فلا يجود الا خوفا
ولا يجيب الاعضا كما قد قال الشاعر

زأنتك مثل الجوز عمن له * صيحها ويعطى خبره حين يكسر

فاحذر أن تكون المهانة طريقا الى اجتذاب الخوف سبيلا الى اعطائك فيجري عليك
سفه الطعام وامتنان الثام ولكن جودك كمرار غيبة لا تؤما ورغبة كيلا يكون مع الوصية
كما قال العباس بن الانوف

صرت كافي ذالة نصبت * نضى للناس وهي تحترق

وأما النوع الثاني من البر فهو المعروف ويتنوع ايضا نوعين قولاً وعملاً فأما القول فهو
طيب الكلام وحسن البشر والتودد بحميل القول وهذا يبعث عليه حسن الخلق
ورقة الطبع ويجب أن يكون محمداً كالسخاء فانه ان أسرف فيه كان ملقاً مذموماً
وان توسط واقتصد فيه كان معروفاً وبراً محموداً * وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما
في تأويل قوله تعالى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير املاً انها
الكلام الطيب * وكان سعيد بن جبير يتأول انها الصلوات الخس * وروى
سعيد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال انكم لن تسعوا الناس
بأموالكم فليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق * وروى أن النبي صلى الله عليه
وسلم أشد عندة قول الاعرابي هذا

وحى ذوى الاضغان تسب قلوبهم * تحببكم الحسنى فقد رقع النعل

فان دحسوا بالكر فاعف نكرما * وان دحسوا عنك الحديث فلا تسئل

فان الذى يؤذيك منه سماعة * وان الذى قالوا ورائك لم يقبل

فقال النبي صلى الله عليه وسلم ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا وقيل للعتابي انك

مودته من الفضلاء خاصة
فاذا تجاوز هذه الرتبة
وبلغ أمانه الى أن يفهم
أغراض الناس وعواقب
الامور ففهم ان الغرض
الاخير من هذه الاشياء
التي يقصدها الناس
ويحرصون عليها من الثروة
واقتران الصنيع والعبد
والخيل والقرش وأشباه
ذلك انما هو لترفه البدن
وحفظ صحته وان يبقى على

اعتداله مدة ما وان لا تقع في
الاعراض ولا تنفعا ملمية
وان ينأى بسمعة الله عليه
ويستلذذ البقاء والحياة
السردية * وان اللذات
كلها في الحقيقة هي خلاص

من الآلام وراحات من
تعب فاذا عرف ذلك
وتحققه ثم تعود بالسيرة
الدائمة وعود الى باضات
التي تحرك الحرارة الغريزية
وتحفظ الصحة وتنفي
الكسل وتطرد السلافة
وتبعث النشاط وتذكى
النفس فمن كان ممولاً
مترفا كانت هذه الاشياء
التي رحمتها أصعب عليه
لكثرة من يحتف به
ويغويه ولو افقه طبيعة
الإنسان في أول ما نشأ
هذه اللذات واجاع
جهاز الناس على نيل
ما أمكنهم منها وطلب
ما تعذر عليهم بغاية
جهدهم فاما الفقراء فالاتى

عليهم أسهل بل هم قريبون الى الفضائل قادرون عليها متمكنون من نيلها والاصابة منها وحال المتوسطين تلقى

حشمتهم وخواصهم خوفاً عليهم من الأحوال التي ذكرناها ومن سماع ما حذرت منه * وكانوا يتقذرونهم مع ثقاتهم إلى النواحي البعيدة منهم * وكان يتولى تربيتهم أهل الجفاء وخشونة العيش ومن لا يعرف التسليم ولا الترفه وأخبارهم في ذلك مشهورة * وكثير من رؤسائهم في زماننا هذا يقولون أولادهم عندما ينشأون إلى بلادهم ليتعدوا بها هذه الأخلاق وبعدها عن عادات أهل اللذات الرديئة * وأذ قد عرفت هذه الطرق المحمودة في تأديب الأحداث فتسعدت بضاداتها أعني أن تنشأ على خلاف هذا المذهب من التآديب لم يرج فلحاحه ولا ينسب أن يستغل بصلاحه وتقويمه فانه قد صار بمنزلة الخنزير الوحشي الذي لا يطمع في رباضته فان نفسه العاقلة تصير خادمة لنفسه البهيمية ولنفسه الغضبية فهي منهكة في مطالها من الزروات * وكأنه لا سبيل إلى رياضة سباع الهائم الوحشية التي لا تثقل التأديب كذلك لا سبيل إلى رياضة من نشأ على هذه الطريقة واعتادها وأمعن قليلاً في السن *

تلقى العامة يشرون وتقريب قال دفع صنيعة بأيسر مؤنة واكتساب اخوان بأيسر مبدول وقيل في منشور الحكم من قل حياؤه قل أحباؤه * وقال بعض الشعراء بنى إن البرئى هين * وجهه طليق وكلام لين

وقال بعضهم

المرء لا يعرف مقداره * ما لم تبين للناس أفعاله وكل من يمتحن بشره * فنقل ما ينفعنى ماله

وأما العمل فهو بديل الجاه والأسعاب بالنفس والمعروف في النائية وهذا يبعث عليه حب الخير للناس وإيثار الصلاح لهم وليس في هذه الأمور سرف ولا لغايتها حد بخلاف النوع الأول لأنها وإن كثرت نهى أفعال خيرة تعود بتقنين تقع على فاعلها في اكتساب الاجر وجعل الذكر ونفع على المعان بها في التحفيف عنه والمساعدة * وقد روى محمد بن المنكدر عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال كل معروف صدقة * وقال النبي صلى الله عليه وسلم صنائع المعروف تقي مصارع السوء وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال المعروف كاسمه وأول من يدخل الجنة يوم القيامة المعروف وأهله * وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لا يزهدنك في المعروف كثر من كفره فقد يشكر الشاكر بأضعاف جهود الكافر * وقال الخطيئة

من يفعل الخير لا يعدم جوائزه * لا يذهب العرف بين الله والناس وأشهد الله يا بني

بدا المعروف غنم حيث كانت * تحملها كفور أم شكور ففي شكر الشكور لها جزاء * وعند الله ما كفر الكفور

فإنني لمن بقدر على ابتداء المعروف أن يهمل حذر فواته ويبادر به خيفة عجزه وليعلم أنه من فرص زمانه وغنائم أمانه ولا يهمل ثقة بقدرته عليه فكما وثق بقدره فانت فاعقت ندما ومقول على ممكنة زالت فأورثت خيلاً * وقد قال الشاعر

مازلت أسمع كم من واثق خجل * حتى ابتليت فكنت الواثق الخجل

ولو فطن لنوائب دهره وتحفظ من عواقب مكره لكانت مغناغم مذخورة ومغارمه مخبورة فتدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لكل شيء ثمرة وثمره المعروف نجيب السراح * وقيل لا فخر وإن ما أعظم المصائب عندكم فقال إن تقدر على المعروف ولا تصطنعه حتى يغوت وقال عبد الحميد بن أضرار الفرصة عرقها فليكن على ثقة من فوتها * وقال بعض الشعراء

إذا هبت رياحك فاغتمتها * فان لكل خافضة سكون ولا تغفل عن الاحسان فيها * فاندرى السكون متى يكون وإن درت نياقك فاحتلها * فما تدرى الفصل لمن يكون

وروى أن بعض وزراء بني العباس مطل راعيا إليه في عمل يستكفيه أيا فكتب إليه بعد طول المطل به

الهم الآن يكون في جميع أحواله عالما بتجسيرته ذاما لما عاتب على نفسه عازما على الاقتلاع والانتابة * فان مثل هذا

الحكمة وبالأكتاب على
التفلسف وأدق ذكرنا الخلق
المجود وما ينبغي أن يؤخذ
به الاحداث والاصيان
هن واصفون جميع القوي
التي تحدث للحيوان أولا
أولا الى أن ينتهي الى اقصى
الكمال في الانسانية فانك
شديدا الحاجة الى معرفة
ذلك لتتدبى على الترتيب
الطبيعى في تقويم واحد
منها فنقول
الاجسام الطبيعية
ان الاجسام الطبيعية
كلها تشتبك في الحد
الذى يجهها ثم تتفاضل بقبول
الانوار الشريفة والصور
التي تحدث فيها * فان
الجماد منها اذ قبل صورة
مقبولة عند الناس صار
بها افضل من الطينة الاولى
الى لا تقل تلك الصورة *
فاذا بلغ الى ان يقبل صورة
النبات صار بزيادة هذه
الصورة افضل من الجماد *
وتلك الزيادة هي الاغذية
والنمو والامتداد في
الاقطار واحتذاب ما وافقه
من الارض والماء وترك
ما لا يوافقهم ونقص
الفصلات التي تتولد فيه
من غذائه عن جسمه
بالصوغ وهذه هي الاشياء
التي يتفصل بها النبات
من الجماد وهي حال زائدة
على الجسمانية التي حددناها
وكانت حاصلة في الجماد *
وهذه الحالة الزائدة في النبات التي شرف بها على الجماد تتفاضل وذلك ان بعضه يفارق الجماد مفارقة

أما ندعوك طول الصبر منى * على استئناف منفعتي وشغلي
وعلمك أن ذا السلطان غاد * على خطيرين من موت وعزل
وأنت أن تركت قضاء حقى * الى وقت التفرغ والتخلي
ستمصغ نادما أسفامعزى * على قوت الصنيعه عند منى
وكتب بعض ذى الحرمان الى وال قد صر في رعاية حرمته يقول
أعلى الصراط تريد رعية حرمى * أم في الحساب تمن بالانعام
للتنع في الدنيا أردتلك فانتبه * لحوائجى من روضة النوام
وكتب أبو على البصري الى بعض وزراء وقد اعتذر اليه بكثرة الاشغال يقول
لنا كل يوم نوبة قد ننوبها * وليس لنا رزق ولا عندنا فضل
فان تعتذر بالشغل عنا فانا * تناطلك الآمال ما اتصل الشغل
واعلم أن المعروف شر وطا لا يتم الا بها ولا يكمل الامعها فن ذلك ستره عن اذاعة استطيع
لها واخفاؤه عن اشاعة يستدل بها * قال بعض الحكماء اذا اصطفت المعروف فاستره
واذا صنع البكار نشره ولقد قال دعيل الخزاعي
اذا انتقموا أعلنوا أمرهم * وان أنعموا أنعموا باكتنام
يقوم القعود اذا أقبلوا * وتقدم هديتهم بالقيام
على أن ستر المعروف من أقوى أسباب ظهوره وأبلغ دواعي نشره لما جلبت عليه النفوس
من اظهار ما خفي وإعلان ما كتم * وقال سهل بن هرون
خل اذا جشته يوما لتسأله * أعطاك ما ملكت كفاه واعتذرا
يخفي صنائعه والله يظهرها * ان الجميل اذا أخفبته ظهرا
ومن شروط المعروف تصغيره عن أن يراه مستكبرا وتقليله عن أن يكون مستكثرا فلا
يصير به ملا بطرا ومستظيلا أشرا * وقال العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه لا يتم
المعروف الا بثلاث خصال فجهله وتصغيره وستره فاذا جشته هنأته واذا صغرت عظمته واذا
سترته أتمته * وقال بعض الشعراء
زادك المعروف عندى عظما * انه عندك ميسور حقير
وتناسبت كأن لم تأته * وهو عند الناس مشهور خطير
ومن شروط المعروف محاربة الامتنان به وترك الإعجاب بفعله لما فيها من اسقاط الشكر
واحباط الاجر * فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اياكم والامتنان بالمعروف فانه
يطل الشكر ويمحق الاجر ثم تلا يتلو اوصد قائمك بانك والاذى * وسمع من سير بن زحلا
يقول لرجل فعلت اليك وفعلت فقال ابن سيرين أسكت فلا خير في المعروف اذا أحصى *
وقال بعض الحكماء المن مفسدة الصنيعه * وقال بعض الادباء كذمر معروف الامتنان وضع
حسبا امتنان * وقال بعض البلغاء من من معروفه أسقط شكره ومن أعجب بهلم أجبط أجره
وقال بعض الصفاة قوة المن من ضعف المن * وقال بعض الشعراء
أفسدت بالمن ما أسديت من حسن * ليس الكريم اذا أسدى بمنان

من غير زرع ولا بذور ولا يحفظ نوعه بالثمر والبذر ويكفيه في حدوثه امتزاج العناصر وهو بالرياح وطلوع الشمس فلذلك هو في أفق الجادات وقريب الحال منها ثم تزداد هذه الفضيلة في النبات فيفضل بعضه على بعض بنظام وترتيب حتى تظهر فيه قوة الأثمار وحفظ النوع بالبراز الذي يخلفه مثله فتصير هذه الحالة زائدة فيه ومميزة له عن حال ما قبله * ثم تقوى هذه الفضيلة فيه حتى يسير فضل الثالث على الثاني كفضل الثاني على الأول ولا يزال يشرف و يفضل بعضه على بعض حتى يبلغ إلى أفضقه ويصير في أفق الحيوان وهي كرام الشعر كاليتون والارمان والكرم وأصناف الفواكه لأنها بعد مختلطة القوى أعنى أن قوى ذكورها واناثها غير متميزة فهي تحبل وتلد أشبل ولم تبلغ غاية أفضقها الذي يتصل بأفق الحيوان * ثم تزداد وعن في هذا الأفق إلى أن تصير في أفق الحيوان فلا تختمل زائدة وذلك أنها إن قبلت زادة سيرة صارت حيوانا وخرجت عن أفق النبات فينشأ ثم تزدادها ويحصل فيها ذكورة وأنوثة وتقبل من فضائل الحيوان أموراً تتميز بها عن سائر النبات والشجر كالنخل الذي طالع أفق الحيوان

وقال أبو نواس

فامض لا تمن عليّ يدا * مثله المعروف من كلدرة

وأشدت عن الريح للشافعي رضي الله عنه

لا تحملن لمن بمن من الأتام عليك منه

واختر لنفسك حظها * واصبر فإن الصبر جنة

من الرجال على القلوب * بأشد من وقع الأسنة

ومن شروط المعروف أن لا يحتقر منه شيأ وان كان قليلا نورا اذا كان الكثير معروا كنت عنه عاجزا فان من حق سيرة منعت منه أعجزه كثيره فامتنع عنه وفعل قليل الخير أفضل من تركه فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تمنعكم من المعروف صغيره * وقال عبد الله بن جعفر لا تسخى من القليل فان المنع أقل منه ولا تمنع عن الكثير فانك أكرمته وقال الشاعر

اعمل الخير ما استطعت وان كا * ن قليلا فلن تحيط بكه

ومنى تفعل الكثير من الخير * اذا كنت تاركاً لقله

على أن من المعروف ما لا تكفه على مولي ولا مشقة على مسديه وانما هو جاء يستظل به الأدنى ويرتقى به التابع * وقال الشاعر

ظل الفقى يتنعم من دونه * وماله في ظله حط

واعلم أنك لن تستطيع أن يسع جميع الناس معروفاً لأن أوليهم أحسانك فاعتمد ذلك أهل الفضل منهم والحفاظ وأقصده ذوي الرعاية والوداد ليكون معروفاً فيهم ناميا وصنيعك عندهم زاكيا وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تنفع الصنعة إلا عند ذي حسب ودين * وقال النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد الله بعبد خيرا جعل صناعته في أهل الحفاظ * وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه

إن الصنعة لا تكون صنعة * حتى يصاب بها طريق المصنع

فاذا صنعت صنعة فاعمل بها * لله أول ذوى القرابة أودع

وقيل في منشور الحكم لا خير في معروف ولا غير معروف وقد ضرب الشاعر به مثلا فقال

كحمار السوء أن أشبعته * ربح الناس وإن طاع نقي

وقال بعض الحكماء على قدر الفارس يكون اجتناء الفارس فاخذ بعض الشعراء فقال

لعمرك ما المعروف في غير أهله * وفي أهله الأكبعض الودائع

فستوع ضائع الذي كان عنده * ومستودع ما عنده غير ضائع

ومال الناس في شكر الصنعة عندهم * وفي كفرها الأكبعض المزارع

فزرعة طابت وأضعف نيتها * ومزرعة أكدت على كل زارع

وأما من أسدى إليه المعروف واستطاع إليه الاحسان فقد صار باسرا المعروف موقوفا وفي ملأ الاحسان موقوفا وزمان كان من أهل المكافأة أن كان عليه وان لم يكن من أهلها أن يقابل المعروف بشره ويقابل الفاعل بشكره * فقد روى عن النبي صلى الله عليه

ذكورة وأنوثة وتقبل من فضائل الحيوان أموراً تتميز بها عن سائر النبات والشجر كالنخل الذي طالع أفق الحيوان

من الارض والسبي الى
الغذاء وقدر وى في الخبر
ما هو كالاشارة أو كالرمز
الى هذا المعنى وهو قوله
صلى الله عليه وسلم اكرموا
عماتكم الفحل فانها خلقت
من بقة طينة آدم فاذا تحرك
النبات وانقطع من افقه
وسى الى غذائه ولم يتقيد
في موضعه الى أن يصير
الى غذائه وكونت له آلات
أخر يتناول بها حاجاته التي
تكملها فقد صار حيوانا
وهذه الآلات تترادف
الحيوان من أول انقسه
وتفاضل فيه فيشرف فيه
بعضها على بعض كما كان
ذلك في النبات فلا يزال
يقبل فضيلة بعد فضيلة
حتى تظهر فيه قوة الشعور
بالذرة الاذى فتلد بوضوله
الى منافعه يتألم بوضول
مضاره اليه ثم يقبل الهام
الله عز وجل يأفه فيستسدى
الى مصالحة فيطلبها والى
أعداده فيهرب منها وما
كان من الحيوان في أول
أفنى النبات فإنه لا يتزوج
ولا يخلف المثل بل يتولد
كالذبدان والذباب
وأصناف الحشرات
الخسيسة ثم تترادف فيه
قبول الفضيلة كما كان
في النبات سواء * ثم
تحدث فيه قوة الغضب
التي ينهض بها الى دفع ما
يؤذيها فيعطى من السلاح
بحسب قوته وما يطبق استعماله فان كانت قوته الغضبية شديدة كان سلاحه تاما قويا

وسلم أنه قال من أودع معروفا فليشره فان نشره فقد شكره وان كتمه فقد كفره * وروى
الزهرى عن عمرو بن عاصم عن عائشة رضي الله عنها قالت دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأنا أنتمل بهذين البيتين

ارفع ضعيفك لا يحركك ضعفه * وما فتدركه العواقب قدغا
يجز بك أو يبقى عليك وان من * أتى عليك بما فعلت فقد جزي

فقال النبي صلى الله عليه وسلم ردى على قول اليهودى قالت الله لقد أتاني جبرائيل برسالة من
ربى تعالى أمارجل صنع الى اخيه صنعة فلم يجد لها جزاء الا الدعاء والثناء فقد كافأه * وقيل
في منشور الحكم الشكر قيد النعم * وقال عبد الحميد من لم يشكر الانعام فاعده من الانعام
وقيل في منشور الحكم نعمة كل نعمة شكرها * وقال بعض الحكماء كفر النعم من أمارات البطر
وأساب الغر * وقال بعض الفضلاء الكرم شكورا ومشكورا والتميم كفو را ومكفور *
وقال بعض البلغاء لازوال للنعمة مع الشكر ولا بقاء لها مع الكفر * وقال بعض الإدباء
شكر الاله بطلو الثناء * وشكر الولاة بصدق الولاة
وشكر النظيف بحسن الجزاء * وشكر الادون بحسن العطاء
وقال بعض الشعراء

فلو كان يستغنى عن الشكر ماجد * لعزمتك أو علمو مكان
لما أمر الله العباد بشكره * فقال اشكروا لى بها الثقلان

فان من شكر معروف من أحسن اليه ونشر إفضال من أنعم عليه فقد أتى حق النعمة وقضى
موجب الصنعة ولم يسبق عليه الاستدانة ذلك انما للشكر ليكون لازيد مستحقا ومتأبى
الاحسان مستوجبا * حكى أن الحاج أفى اليه يقوم من الخوارج وكان فيهم صديق له
فأمر بقتله اذ ذلك الصديق فاعفاه عنه وأعطاه ووصله فرجع الى حبل الى قطرى بن
الفيحاء فقال له عبد الله قتال عدو الله فقال هيأت غل يد اطلقها واسترق رقبته معتقها
وأنشأ يقول

أأقاتل الحاج في سلطانه * بيد تقرب بانها مولاته
انى اذا اخو الدناءة والذى * شهدت باقى فعله غدراته
ما اذا قول اذا وقفت ازاءه * فى الصف واحققت له فعلاته
أأقول جار على لاني اذا * لأحق من جارت عليه ولاته
وتحدث الاقوام صنائعا * غرست لى فظنلت نخلاته

وقيل في منشور الحكم المعروف رقى والمكافأة عتق ومن أشكر الناس الذى يقول
لا شكر لك معروفا همته به * ان اهتمامك بالمعروف معروف
ولا ألو ملك ان لم يحضه قدير * فالشى بالقدر المحتوم مصر وف
وهذا النوع من الشكر الذى يتجلى المعروف ويتقدم البرقة يكون على وجوه فيكون تارة
من حسن الثقة بالشكر وفى وضول بره واسداء عرفه ولا رأى لمن يحسن به فطن شاكر ان
يخلف حسن ظنه فيه فيكون كما قال العتاتى

فدأورت فيك أمانى بوعدي لى * وليس فى ورق الآمال الى غير
وقد يكون تارة من فرط شكر الرابى وحسن مكافأة الأمل فلا يرضى لنفسه الا بتجھيل الحق
واسلاف الشكر وليس لمن صادف لمعرفه بعد نازا كيا ومفرسا ناميا أن يقوت نفسه غفرا
ولا يجرمها رجحا فهذا وجه ثان وقد يكون تارة تهاونا للأموال وحبا للمسؤل ومحب
ما أسلف من الشكر يكون الذم عند اليااس * وقال بعض الأدباء من حكماء المتقدمين من
شكر ك على معبر وف لم تسده اليه فعاجله بالبر والا انعكس فصار نكما * وقال ابن الرومى
وما الخقد الا نواقم الشكر فى الفتى * وبعض السجيا يئسب الى بعض
خيث ترى حقد اعدلى ذى اساءة * فتم ترى شكا اعدلى حسن القرض
اذا الارض أدت ربع ما أنت زارع * من البذر فيها فى ناهيك من أرض
وأما من ستر معروفا النعم ولم يشكر على ما أولاه من نعمة فقد كفر النعم وحدا الصنيع عوان
من أذم الخلاق وأساو الطرائق ما استوجب به قبح الرد وسوء المنع * فقد روى أبو هريرة
رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يشكر الله من لا يشكر الناس * وقال
بعض الأدباء من لم يشكر نعمها استحق قطع النعمة * وقال بعض الفقهاء من كفر نعمة المقيسد
استوجب حرمان المزد * وقال بعض البلغاء من أنكر الصنيعه استوجب قبح القطيعه
وأشدنى بعض الأدباء ما ذكر أنه لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه
من جاور النعمة بالشكر * يخش على النعمة مغتالها
لوشكر والنعمه زادتهم * مقالة الله التى قالها
لئن شكرتم لأزيدنكم * لكنهم كفرهم غالها
والكفر بالنعمه يدعو الى * زوالها والشكر أبقي لها

وهذا آخر ما يتعلق بالقاعدة الثانية من أسباب الآفة الجامعة فاما القاعدة الثالثة فهى
المادة الكافية لان حاجة الانسان لازمة لا يعرى منها بشر * قال الله تعالى وما جعلناهم
جسد الا باكون الطعام وما كانوا خالدين فاذا عدم المادة التى هى قوام نفسه لم يدم له حياة
ولم تستقم له دنيا واذا تغدر شئ منها عليه لحقه من الوهن فى نفسه والاختلال فى دنياه بقدر
ما تغدر من المادة عليه لان الشئ القائم بغيره يكمل بكماله ويختل باختلاله ثم لما كانت المواد
مطلوبة لحاجة الكافة اليها أعوزت بغير طلب وعدمت لغير سبب وأسباب المودة مختلفة
وجهاات المكاسب متشعبة ليكون اختلاف أسبابها عللة لاختلافها وتشعب جهاتها
توسعة لطلابها كيلا يجتمعوا على سبب واحد فلا يلتزمون ويشتركون فى جهة واحدة فلا
يكفون ثم هداهم اليها يعقوبهم وأرشدهم اليها يطاعهم حتى لا يتكفوا اثلاثهم
فى المعاش المختلفة فيجوزوا ولا يعاونوا بتقدير موادهم بالمكاسب المتشعبة فيحصلوا الحكمة
منه سبحانه وتعالى المطلع على عواقب الأمور وقد أنبأ الله تعالى فى كتابه العزيز اخبارا
واذكارا فقال سبحانه وتعالى قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى فخلقهم ثم هدى فخلقهم ثم هدى فخلقهم
فى تأويل ذلك فقال قتادة أعطى كل شئ ما يصلحه ثم هدا وقال مجاهد أعطى كل شئ صورته
ثم هدا لمعيشته وقال ابن عباس رضى الله عنهما أعطى كل شئ زوجة ثم هدا لنكاحها

والقدرة على الخيل التى
تعيهم من مخاوفه * وأنت
ترى ذلك عبنا من الحيوان
الذى أعطى القرون التى
تجرى له بجرى الرماح
والذى أعطى الاياب
والخالب التى تجرى له
مجرى السكاكين والخناجر
والذى أعطى آله الرمي
التي تجرى له بجرى النبل
والنشاب * والذى أعطى
الحواجر التى تجرى له
مجرى الدبوس والظبرزين
فاما ما لم يعط سلاحا الضعفة
عن استعماله واقسلة
شجاعته ونقصان قوته
الفنسية ولانه لو أعطيه
لصار كالأعلى * فقد
أعطى آله الحرب والخيل
بجودة العدو والخفة والختل
والمرأغة كالارانب
وأشاهها واذا تصفحت
أحوال الموجودات من
السباع والوحش والظبر
رأيت هذه الحكمة
مستمرة فيها فبقائكم الله
أحسن الخالقين لا اله الا
هو فادعوه مخلصين له
الذين الحمد لله رب العالمين
فاما الانسان فقد عوز من
هذه الآلات كلها بان هدى
الى استعمالها كلها وسخرت
هذه كلها له وسقاكم على
ذلك فى موضعه فاما
أسباب هذه الاشياء كلها
والشكوك التى تعترض

ونعود الى ذكر مراتب الحيوان فنقول ان ما أهدى منها الى الازدواج وطلب النسل وحفظ الولد وتربيته والاشفاق عليه بالكن والعش والباس كأن شاهد فيما يلد ويبيض وتغذيه اما باللبن واما بقل الغذاء اليه فانه أفضل مما لا يمتدئ الى شيء منها * ثم لا تزال هذه الاحوال تزايد في الحيوان حتى يقرب من أفق الانسان فيقتد يقبل التأديب ويصير يقبولة للادب ذات فضيلة يتميز بها من سائر الحيوانات ثم تزايد هذه الفضيلة في الحيوانات حتى يشرف بها ضروب الشرف كالفرس والبازي المعلم ثم يصير من هذه المرتبة الى مرتبة الحيوان الذي يحاكي الانسان من تلقاء نفسه ويتشبهه من غير تعليم كالقردة وما أشبهها ويبلغ من ذكائها أن تستدكي في التأديب ان ترى الانسان يعمل عملا فتعمل مثله من غير أن تجوح الانسان الى تعب به او رياضة لها * وهذه غاية أفق الحيوان التي ان تجاوزها وقبل زيادة يسيرة خرج بها عن أفقه وصار في أفق الانسان الذي يقبل العقل والتمييز والنطق والآلات التي يستعملها الصور التي تلتجها * فاذا بلغ هذه الرتبة تحرك الى المعارف واشتاق الى العلوم وحدهت فيؤتيل

وقال تعالى يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا يعني معاشهم متى يزعون ومتى يغرسون وهم عن الآخرة هم غافلون * وقال تعالى وقد فرغنا أقدارها في أربعة أيام سواء للسائلين * قال عكرمة قد قدر كل بلدة منها ما يجعله في الأخرى لبعضهم من بعض بالتجارة من بلد الى بلد * وقال الحسن البصري وعبد الرحمن بن زيد قد رآ زاق أهلها سواء للسائلين الزيادة في أرقاقهم ثم ان الله تعالى جعل لهم مع ما هداهم اليه من مكاسبهم وأرشدهم اليه من معاشهم ديناً يكون حكماً وشرعاً يكون قياماً يصلوا الى موادهم بتقديره ويطلبوا أسباب مكاسبهم بتدبيره حتى لا يتفردوا بآرائهم فيقالوا وتستولى عليهم أهواؤهم فيقتطعوا * قال الله تعالى ولواتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض * قال المفسرون الحق في هذا الموضع هو الله جل جلاله فلاجل ذلك لم يجعل المواد مطلوبة بالالهام حتى جعل العقل هادياً اليها والدين قاضياً عليها لتم السعادة وتعم المصلحة ثم انه جعل قدرته جعل سدا حاجتهم وتوصلهم الى منافعهم من وجهين عبادة وكسب فاما المادة فهي حادثة عن اقتناء أصول نامية بذواتها وهي شيان نبت نام وحيوان متناسل * قال الله تعالى وأنه هو أغنى وأقنى قال أبو صالح أغنى خلقه بالمال وأقنى جعل لهم فنية وهي أصول الاموال وأما الكسب فيكون بالافعال الموصلة الى المادة والتصرف المؤدى الى الحاجة وذلك من وجهين أحدهما تقلب في تجارة والثاني تصرف في صناعة وهذان هما فرع لوحى المادة فصارت أسباب المواد المألوفة وجهات المكاسب المعروفة من أربعة أوجهها زراعة وتناج حيوان ورجح تجارة وكسب صناعة * وحكى الحسن بن زبارة مثل ذلك عن المأمون قال سمعته يقول معاش الناس على أربعة أقسام زراعة وصناعة وتجارة وامارة في خرج عنها كان كلا عليها واذا قد تقررت أسباب المواد بما ذكرناه فتنصف حال كل واحد منها يقول هو جزأما الأول من أساليبها وهي الزراعة فهي مادة أهل الحضر وسكان الامصار والمدن والاستعداد بها أعم نفعاً وفي ذرعها ولا ذلك ضرباً لله تعالى به المثل فقال مثل الذين يفتقرون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خير المال عين ساهرة أمين نائمة * وقال صلى الله عليه وسلم نعمت لكم الخلة تشرب من عين خيارة وتغرس في أرض خيارة وقال صلى الله عليه وسلم في الخل هي الراسخات في الوحل المطعيات في الحبل وقال بعض السلف خير المال عين خيارة في أرض خيارة تسهر اذا غمت وتشهد اذا غابت وتكون عقبا اذا مات * وروى هشام ابن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التسوا الرزق في خبايا الارض يعني الزرع وحكى عن المعتضد أنه قال رأيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه في المنام يسألني المسحاة وقال خذها فانها مغانج خزائن الارض وقال كسرى لبلو بذا مافية تاجي هذا فأطرق ساعة ثم قال ما أعرف له قيمة الا أن تكون مطرة في نيسان فانها تصلح من معاش الرعية ما تكون قيمته مثل تاج الملك ولقي عبد الله بن عبد الملك بن شهاب الزهري فقال له ألد الله على مال أعالج فأنشأ ابن شهاب يقول

تبسج خبايا الارض وادع ملكها * لعلك يوما أن تجاب فترزقا

ذلك في المراتب الأخرى
التي ذكرناها وأول
هذه المراتب من الافق
الانسانى المتصل بأفلاك
الافق الحيوانى مراتب
الناس الذين يسكنون في
أقصى المعورة من الشمال
والجنوب كما واخلالترك
من بلاد باجوج وما جوج
وأواخلالغ وأشباههم من
الام الى لاغز من القروء
الاجرتة بسيرة ثم تزايد
فيهم قوة التمييز والفهم
الى أن يصير والى وسط
الاقاليم فحدث فيهم الذكاء
وسرعة الفهم وأقول
للفضائل * والى هذا الموضع
ينتهى فعل الطبيعة التي
وكلها الله عز وجل
بالمحسوسات ثم يستعد
بهذا القول لاكتساب
الفضائل واقتنائها
بالارادة والسي والاجتهاد
الذى ذكرناه فيما تقدم
حتى يصل الى آخر أفعه فاذا
صار الى آخر أفعه اتصل
بأول أفق الملائكة وهذا
أعلى مراتب الانسان
وعندها تتأحد الموجودات
وتتصل وأولها آخرها *
وهو الذى يسمى دائرة
الوجود لان الدائرة هي
التي قيل في حدها انها خط
واحد يتدنى بالخير كما من
نقطه وينتهى اليها بعينها
ودائرة الوجود هي المتأحدة
التي جعلت الكثرة وحدة

فيؤتيك ما لا واسعا ذات مائة * اذا ما مياه الارض عارت تدفقا
وقد اختلف الناس في تفصيل الزرع والشجر بما ليس يتسع كتابنا هذا البسط القول فيه
غير أن من فضل الزرع فلقرب مدها ووفور جدها ومن فضل الشجر فلبثت أصله
ووالى ثمره * وأما الثاني من أساليبها وهو نتاج الحيوان فهو مادة أهل الفلوات وسكان
الخيام لانهم لما لم يستقر بهم دار ولم تضعهم أمصار انتقروا الى الاموال المنقلة معهم
وما لا يتقطع عاؤم بالظعن والرحلة فاقنوا الحيوان لانه يستقل في المنقلة بنفسه ويستغنى
عن العلوقة برعيه ثم هو مركوب ومحلوب فكان اقتناؤه على أهل الخيام أسير لنقله مؤنته
وتسهيل الكلفة به وكانت جدواه عليهم أكثر لوفور رسله واكتبات رسله الهام من الله
لنقله في تعديل المصالح فيهم وارشادا لعباده في قسم المنافع بينهم * وتدرى عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال خبر المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة ومعنى قوله صلى الله
عليه وسلم مهرة مأمورة أى كثيرة النسل ومنه تأول الحسن وقتادة قوله تعالى أمرنا
مترقبها أى كثرتا عندهم وأما السكة المأبورة فهي النخل المؤبر الجمل * وروى عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال فى الغنم سميتها معاش وصورها رياش * وروى عن أبى طيبان أنه
قال قال لى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما ملأ أبيا طيبان قال قلت عطائي ألفان قال اتخذ
من هذا الحرف والسائبات قبل أن تليك غلتم من قريش لا تعدلوا معكم ما لا والسائبات
النتاج * وحكى أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله انى اتخذت غنما
أنتى تسلمها ورسولها وانها لا تنهى فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم ما ألوانها قالت سود
فقال عفرى وهذا مثل قوله صلى الله عليه وسلم فى مناكح الأدميين اغربوا ولا تقنوا
* وأما الثالث من أساليبها وهي التجارة فهي فرع لما دق الزرع والنتاج فقدر روى عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال تسعة أعشار الرزق فى التجارة والحرف والباقي فى السائبات
وهي نوعان تغلب فى الحضر من غير نقلة ولا سفر وهذا ربح واخصار وقد رغب عنه
ذوو الاقتدار وذهب فيه ذوو الاخطار والثانى تغلب بالمال بالاسفار ونقله الى الامصار
فهذا أليق بأهل المروءة وأعم جدوى ومنفعة غير أنه أكثر خطرا وأعظم غررا * فقدر روى
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان المسافر وماله لملى تلف الاماوى الله تعالى على
خطر وفى التوراة بان آدم أحدث سفرا أحدث لك زقا * وأما الرابع من أساليبها
وهو الصناعة فقد يتعلق بجماضى من الاسباب الثلاثة وتنقسم أقساما ثلاثة صناعة فكر
وصناعة عمل وصناعة مشتركة بين فكر وعمل لان الناس آلات للصناعات وأشرفهم نفسا
متبهي لاشرفها جنسا كما أن أرذلهم نفسا متبهي لارذلها جنسا لان الطبع يبعث على ما لا يلائمه
ويدعو الى ما يجانبه * وحكى أن الاسكندر لما أراد الخروج الى أقصى الارض قال
لارسطا ليس اخرج معى قال قد نحل جسمى وضعفت عن الحركة فلا ترجعنى قال فما أصنع
فى عمالى خاصة قال أنظر الى من كان له عبيد فاحسن سياستهم فوله الخلود ومن كانت
له ضيعة فاحسن تدبيرها فوله الخراج فنبه باعتبار الطباع على ما أغناها عن كافة
التجربة وأشرف الصناعات صناعة الفكر وهي مدبرة وأرذلها صناعة العمل لان العمل

الربسة بمشيئة الله * وإذا
تسورت قدراً أو ما ناله
وفهمته اطلعت على الحالة
التي خلقت وندبت اليها
وعرفت الاقنى الذي يتصل
بافقل وتنقلب في مرتبة
بعد مرتبة وركوبك
طباقاً من طبق وحديث
لك الايمان الصحيح وشهدت
ما غاب عن غيرك من
الدهماء وبلغت ان تتدرج
الى العلوم الشريفة
المكونة التي مدوها
تعلم المنطق فانه الآلة في
تقويم الفهم والعقل
الفريرى * ثم الوصول
به الى معرفة الخلاق
وطباعتها ثم التعلق بها
والتوسع فيها والتوصل
منها الى العلوم الالهية
وحينئذ تستعد لقبول
مواهب الله عز وجل
وعطاياه فيأتيك القبض
الالهي فتسكن عن قلق
الطبيعة وحركاتها نحو
الشهوات الحيوانية وتلطف
المرتبة التي ترقبت فيها
أولاً فاولاً من مراتب
الموجودات * وعلمت ان
كل مرتبة منها محتاجة
الى ما قبلها في وجودها
وعلمت ان الانسان لا يتبره
كالماله الا بعد ان يحصل له
ما قبله * واذا صار انساناً
كاملاً وبلغ غايته أفقسه
أشرق نور الاقنى الاعلى
عليه وصار اماً حكماً تاماً

نتيجة الفكر وتديره فأما صناعة الفكر فقد تنقسم قسمين أحدهما ما وقف على التدبيرات
الصادرة عن نتائج الآراء الصحيحة كسياسة الناس وتدبير البلاد وقد أوردنا للسياسة
كتاباً بالخصافية من جعلها ماله من يحمل هذا الكتاب زيادة عليها والثاني ما أذنت الى
المعلومات الحادثة عن الافكار النظرية وقدمت في فضل العلم من كتابنا هذا باب
أغنى ما فيه عن زيادة قول فيه وأما صناعة العمل فقد تنقسم قسمين عمل صناعي وعمل
بيهي فالعمل الصناعي أعلاها رتبة لانه يحتاج الى معاطاة في تعلمه ومعاناة في تصوّره فصار
بهذه النسبة من المعلومات الفكرية والأخراغا هو صناعة كدوآله مهنة وهي الصناعة
التي تقتصر عليها النفوس الرذلة وتقف عليها الطبائع الخاسئة كما قال أكرم بن صيفي لكل
ساقطة لاقطة وكما قال المنطس

ولا يقيم على صنم يساميه * الا الاذلان غير الخني والودد
هذا على الخسف موطئ برمته * وزنا يشج فلا يرثي له أحد

وأما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل فقد تنقسم قسمين أحدهما أن تكون
صناعة الفكر أغلب والعمل تبعاً كالكتابة والثاني أن تكون صناعة العمل
أغلب والفكر تبعاً كالبناء وأعلامها رتبة ما كانت صناعة الفكر أغلب عليها والعمل
تبعاً فهذه أحوال الخلق التي ركبهم الله عز وجل عليها في اتياد موادهم ووكلمهم الى
نظرهم في طلب مكاسبهم وفرق بين مهمهم في التماسهم ليكون ذلك سبباً لفهمهم
فسيحان من تفرديننا بلطف حكمته وأظهر فطننا بعاظم قدرته * واذا قد وضع القول في
أسباب المواد وجهاً للكسب فليس بخلو حال الانسان فيها من ثلاثة أمور أحدها
أن يطلب منها قدر كفايته ويلتمس وفق حاجته من غير أن يتعدى الى زيادة عليها
أو يقتصر على نقصان منها فهذه أجدأ حول الطالين وأعدل مراتب المقتصدين
* وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال أوحى الله تعالى الى كنانة فدخل في
أذن وقرن في قلبي من أعطى فضل ماله فهو خير له ومن أمسك فهو شر له ولا يلزم الله
على كفاف * وروى جدي عن معاوية بن جندة قال قلت يا رسول الله ما تكفيني من الدنيا
قال ما يسد جوعتك ويستر عورتك فان كان ذلك فذلك وان كان حمار فبح خلك من خبز
أخر من مائة أو ثمن مسؤل عما فوق الأزار * وقد روى عن ابن عباس ومجاهد في قوله تعالى
ان جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً ان كل من ملك يتجاوز وجهه وخادمه فهو ملك * وروى
زيد بن أسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان له بيت وخادم فهو ملك وهو في
المعنى صحيح لانه بالزوجة والخادم مطاع في أمره وفي الدار ومحجوب الاعن أذنه وليس على
من طلب الكفاية ولم يجاوز رتبة الزيادة الا فحى الحلال منه واجمال الطلب فيه ومجانبة
الشبهة الممازجة * وقد روى نافع عن ابن عمر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشبهتا فذر ما بينك الى ما بينك فلن
تجد فقد شر كنهه * وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزهد فقال أما انه ليس
بأصناعة الحلال ولا تحريم الحلال ولكن أن تكون بما يبد الله أوفى منك بما في يديك وأن

فيكون حيثن واسطة بين
 الملا الاعلى والملا الاسفل
 وذلك بتصوره حال
 الموجودات كلها والحال
 التي ينتقل اليها من حال
 الانسة ومطالعة الآفاق
 التي ذكرناها وحيثن
 يفهم عن الله عز وجل
 قوله (فلا تعلم نفس
 ما أخفى لهم من قرة أعين)
 وتصور معنى قوله صلى
 الله عليه وسلم (هناك
 ملاعين رأت ولا أذن
 سمعت ولا خطر على قلب
 بشر) واذا بلغ بنا الكلام
 الى ذكر هذه المنزلة العلية
 الشريفة التي أهل
 الانسان لها ونسقنا أحواله
 التي تترقى فيها وأنه يكون
 أولا بالشوق الى المعارف
 والعلوم فينبغي أن نزيد
 في بيانها وشرحها فنقول

والشوق الى المعارف
 والعلوم

ان هذا الشوق رجا ساق
 الانسان على منحه قويم
 وقصد صحيح حتى ينتهي
 الى غاية كماله وهي سعادته
 التامة وقبلها يتفق ذلك
 وربما اعوج به عن
 السمت والسنن وذلك
 لاسباب كثيرة يطول
 ذكرها ولا حاجة بنا الى
 علمها الآن وأنت في تهذيب
 خلقت فكما أن الطبيعة
 المدبرة للأجسام ربما
 شوقت الى ما ليس بتام

يكون ثواب المصيبة أرحم عندك من بقائها * وحكى عبد الله بن المبارك قال كتب عمر بن
 عبد العزيز الى الجراح بن عبد الله الحكمي ان استظعت أن تدع عما أحسن الله لك ما يكون
 حائرا بينك وبين الحرام فافعل فإنه من استوعب الحلال تأقت نفسه الى الحرام وقد اختلف
 أهل التأويل في قوله تعالى فإنه لمعيشة ضنكا فقال عكرمة يعني كساحرا وما قال ابن
 عباس هو اتفاق من لا يؤمن بالخلف وقال يحيى بن معاذ الدرهم عقرب فإن أحسنت رقيبتها
 والأفلا تأخذها وقيل من قل توقيه كثرت مساويه * وقال بعض البلغاء خير الاموال
 ما أخذته من الحلال وصرفته في النوال وشر الاموال ما أخذته من الحرام وصرفته في الآثام
 وكان الاوزاعي الفقيه كثيرا ما يتأمل هذه الايات

المال ينقد حله وحرامه * يوما ويبقى بعد ذلك انامه
 ليس التقي يمتق لاهه * حتى يطيب شرابه وطعامه
 ويطيب ما يجني ويكسب أهله * ويطيب من لفظ الحديث كلامه
 نطق النبي لانه عن ربه * فعلى النبي صلاته وسلامه

وحكى عن ابن العمر الراسلي قال الناس ثلاثة أصناف أغنياء وفقراء وأوساط فالفقراء موقى
 الامن أغناهم الله بجز القناعة والاغنياء مكارى الامن عصمه الله تعالى بتوقع الغنى وكثر
 الخير مع أكثر الأوساط وأكثر الشر مع أكثر الفقراء والاغنياء لسخف الفقير وبطر الغنى
 والامر الثاني أن يقصر عن طلب كفايته ويزهد في التماس ماله وهذا التقصير قد يكون
 على ثلاثة أوجه فيكون تارة كسلا وتارة تولا وتارة زهدا وتقتعاه ان كان تقصيره لكسل
 فقد حرم زوره النشاط ومرح الاغتباط فلن يعلم أن يكون كالا قسما وضائعا شقيا * وقد
 روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كاد الحسد أن يغلب القدر وكاد الفقر أن يكون
 كفرا وقال بزرجمهر ان كان شي فوق الحياة فالهبة وان كان شي مثلها فالغنى وان كان شي
 فوق الموت فالمرض وان كان شي مثلها فالفقر * وقيل في منشو الحكم القبر خير من الفقر
 ووجد في نيل مصر مكتوب على حجر

عقب الصبر نجاح وغنى * ورداء الفقر من نسج الكسل

وقال بعض الشعراء

أعوذ بك اللهم من بطر الغنى * ومن نهكة البلوى ومن ذلة الفقر
 ومن أمل يعتد في كل شارق * يرجعني منه يحظ يد صفر
 اذ لم تدنسني الذنوب بعارها * فاستأبلى ما تشعث من أمرى

واذا كان تقصيره لتوكل فذلك عجز تذا أعزبه نفسه وترك حرم قد غيّر اسمه لان الله تعالى
 امرنا بالتوكل عند تقاطع الحيل والتسليم الى القضاء بعد الاعذار * وقد روى معمر عن
 أيوب عن أبي قلابه قال ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل قد كرفه فخير فقالوا
 يا رسول الله اخرج معنا حبا فاذا نزلنا نمل يزل يصلى حتى ترحل فاذا ارتحلنا لم يزل يذكرك الله
 عز وجل حتى نزل فقال صلى الله عليه وسلم فمن كان يكفيه علف فاقتنه وضعن طعامه قالوا
 كئنا يا رسول الله قال كلكم خير منه * وقال بعض الحكماء ليس من توكل المرء اضاعته

للجسم الطبيعي لعل تحدث به وآفات تطرأ عليه بمنزلة من يشتاق الى أكل الطين وما جرى مجراه مما لا يكمل طبيعة الجسد

للحزم ولا من الحزم اضعاء نصيبه من التوكل وان كان تقصيره لهد وتقع فيه حال من علم بحاسبة نفسه بتبعات الغنى والثروة وخاف عليهم باوائق الهوى والقدرة فأثر الفقر على الغنى وزجر النفس عن ركوب الهوى فقدر وى بالورداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من يوم طلعت فيه شمس الا وعلى جنبتيها ملكان : يدايان يسمعهما خلق الله كلهم الا الثقلين يا ايها الناس هلموا الى ربكم ان ما قل وكفى خير مما كثر وألهى * وروى زيد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جده رضى الله عنهم أجمعين أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انتظر الفرج من الله بالصبر عبادة ومن رضى من الله عز وجل بالقليل من الرزق رضى الله عز وجل منه بالقليل من العمل * وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال من نبل الفقر أنك لا تجد أحدا يعصى الله ليفتقر فأخذ محمود الوراق فقال

يا عائب الفقر ألا تدرج * عيب الغنى أكثر لو تعتبر
من شرف الفقر ومن فضله * على الغنى ان معص منك النظر
أنك تعصى لتتال الغنى * واست تعصى الله كي تفتقر

وقال ابن المقفع

دليلك أن الفقر خير من الغنى * وأن قليل المال خير من الثرى
لقاؤك مخلوقا عصي الله بالغنى * ولم تر مخلوقا عصي الله بالفقر

وهذه الحال انما نصح لمن نصحه نفسه فأطاعته وصديقها فأجابه حتى لا يقيدها وهان عنادها وعلت أن من لم يقنع بالقليل لم يقنع بالكثير كما كتب الحسن البصرى الى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنهم ما لا يخفى من استغنى بالله كفى ومن انقطع الى غيره تعنى ومن كان من قليل الدنيا لا يشبع لم يقنع منها كثرة ما يجمع فليلت منها بالكفاف وأزلم نفسك العفاف وأبالأ وجع الفضول فان حسابه يطول * وقال بعض الحكماء هيأت منك الغنى ان لم يقنع لها حوت فأما من أعرضت نفسه عن قبول نفسه وجمعت به عن قناعة زهد فليس الى اكرهاها سبيل ولا للعمل عليها وجه الا بالارياضة والمروءة وأن يستزله الى السير الذى لا تنفر منه فاذا استقرت عليه أنزلها الى ما هو أقل منه لتنتهى بالتدرج الى الغاية المطلوبة وتستقر بالارياضة والتبرين على الحال المحبوبة * وقد تقدم قول الحكماء ان المكروه يسهل بالتبرين فهذا حكم ما فى الامر الشانى من التقصير عن طلب الكفاية * وأما الامر الثالث فهو أن لا يقنع بالكفاية * ويطلب الزيادة والكثرة فقد يدعى الى ذلك أربعة أسباب أحدها منازعة الشهوات التى لا تتال الا بزيادة المال وكثرة المادة فاذا نازعته الشهوة طلب من المال ما يوصله وليس للشهوات حدمتهاته فيصير ذلك ذريعة الى أن ما يطلبه من الزيادة غير متناه ومن لم يتناه طلبه استدام كدومه فليف التذاه بنبيل شهواته بما يعانسه من استدامة كده واتقابه مع ما قدره من ذم الاقياد لمقابلة الشهوات والتعرض لاكتساب التبعات حتى يصير كالبيمة التى قد انصرف طلبها الى ما تدعو اليه شهواتها فلا تنزع عنه بسقل ولا تنكف عنه بقناعة * وقد روى عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من أراد الله به

ولا يشوقها نحو سعادتها بل يحركها الى الاشياء التى توقها وتقصر بها عن كمالها فيشذو يحتاج الى علاج نفسانى روحانى كما احتاج فى الحالة الاولى الى طب طبيعى جسمانى ولذلك تصكك كثير حاجات الناس الى المقومين والمتفيعين والى المؤمنين والمسدس فان وجود تلك الطبائع الفائقة التى تتساق بذاتها من غير توقف الى السعادة عسرة الوجود لا توجد الا فى الازمنة الطوال والمديد العسدة وهذا الادب الحق الذى يؤدى بنا الى غايتنا يجب أن نلحظ فيه المبدأ الذى يحرى مجرى الغاية حتى اذا لحظت الناية تدرج منها الى الامور الطبيعية على طريق التعليل ثم يتسدى من أسفل على طريق التركيب فيسلك فيها الى أن ينتهى الى الغاية التى لحظت أولا وهذا المعنى هو الذى أحوجنا فى مبدأ هذا الكتاب وفى فصول آخر منه أن نذكر أشياء عالية لا تليق بهذه الصناعة ليشوق اليها من يستحقها وليس يمكن الانسان أن يشاق الى ما لا يعرفه البتة فاذا لحظها من فيه قبول لها وعشاية بها عرفها بعض المعرفة فشقوها وسعى نحوها واحتمل التعب والنصب فيها ويثنى أن يعلم أن كل انسان معد نحو فضيلة خيرا

الامن انفسى له نفس صافية وطبيعة فائقة فينتهي الى غايات الامور والى غاية غاياتها اعني السعادة القصوى التي

لا سعادة بعدها

والواجب على الخلق

ولا اجل ذلك يجب على

مدبر المدن ان يتوفى كل

انسان نحو سعادته التي

تخصه ثم يقسم غنايته

بالناس ونظر لهم بقسمة

* أحدهما في تمسده

الناس وتقومهم بالعلوم

الفكرية * والآخر في

تسديدهم نحو الصناعات

والاعمال الحسية * واذا

سددهم نحو السعادة

الفكرية بدأ بهم من الغاية

الاخيرة على طريق

التحليل ووقف بهم عند

القوى التي ذكرناها

* واذا سددهم نحو

السعادة العملية بدأ بهم

من عند هذه القوى

وانتهى بهم الى تلك الغاية

ولما كان غرضنا في هذا

الكتاب السعادة الخلقية

وان تصدعنا الانفال

كهاجيلة كما رسمنا في

صدر الكتاب وعملناه

لهي الفلسفة خاصة

خبر حال بينهم بين شهوته وحال بينهم وبين قلبه واذا اراد به شرا وكاله الى نفسه * وقد قال الشاعر

وانك ان اعطيت بطنك همه * وفرجك نال منتهى الذم اجمعاً

والسبب الثاني أن يطلب الزادو يلتمس الكثرة ليصرفها في وجوه الخير ويتقرب بها في جهات البر ويصطحب بها المعروف ويغيب بها الملهوف فهذا أعذر وبالجملة أخرى

وأجدر اذا انصرفت عنه تبعات المطالب ونوق شبهات المكاسب وأحسن التقدير في حالتي فائدته وافادته على قدر الزمان وبقدر الامكان لان المال آلة للكارم وعون على

الدين ومثال للاخوان ومن فقد من أهل الدنيا قلت الرغبة فيه والرهبة منه ومن لم يكن منهم موضع رهبة ولا رغبة استأثروا به * وقدرى عبد الله بن بريدة عن أبيه قال قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم ان حساب أهل الدنيا هذا المال * وقال مجاهد الخيري

لقرآن كله المال وانه حب الخير لشديد يعني المال وأحييت حب الخير عن ذكر ربي يعني المال فكاتبوه من علمت فيهم خبرا يعني مالا وقال شعيب النبي عليه السلام اني أراكم

بخبير يعني المال وانما سمي الله تعالى المال خيرا اذا كان في الخير مصروفا لان ما أدى الى الخير فهو في نفسه وقد اختلف أهل التأويل في قوله تعالى ومنهم من يقول ربنا آتنا

في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وثقنا عذاب النار فقال السدي وعبد الرحمن بن زيد الحسنة في الدنيا وفي الآخرة الجنة وقال الحسن البصري وسفيان الثوري الحسنة في الدنيا العلم والعبادة وفي الآخرة الجنة وقال ابن عباس الدراهم والدنانير خواتم الله في الارض

لا تؤكل ولا تشرب حيث قصدت بها قصدت حاجتك * وقال قيس بن سعد اللهم ارزقني همدا ومجدا فانه لا جود الا بقفال ولا مجد الا بعمال * وقيل لا في الزناد لم يحب

الدراهم وهي تدبلك من الدنيا فقال هي وان أدتني منها فقد صاقتني عنها وقال بعض الحكماء من أصلم ماله فقد صان الاكرام من الدين والعرض * وقيل في منشور الحكم

من استغنى كرم على أهله ومر رجل من أرباب الاموال ببعض العلماء ففكر له وأكرمه فقيل له بعد ذلك كانت لك الى هذا حاجة قال لا ولكني رأيت ذا المال مهيبا وسأل رجل

مجد بن عمير بن عطار ودع عتاب بن ورقاء في عشر ديات فقال محمد بن علي دية وقال عتاب الباقي علي فقال محمد بن العون ليس ارى الجهد وقال الاخنف بن قيس

فلو كنت مثربا لم اكن كثير رجلة وكنت له باذلا

فان المروءة لا تستعطا * ع اذا لم يكن ماله افاضلا

وكان يقال الدراهم مراهم لانها تداءى كل جرح ويطيّب بها كل صلح * وقال ابن الحلال رزقت مالا ولم ترزق مروءة * وما المروءة الا كثرة المال

اذا أردت في العلية بقعدني * عما يتوه باسمي رقة الحال وقيل في منشور الحكم الفقر مخجلة والغنى مجذلة والبؤس مرذلة والسؤال مبذلة

وقال أوس بن حجر أقسم بدار الخبز مادام خرمها * وأخرى اذا حلت بان أتحولا

الارادية التي ذكرنا جعلها في المقالة الاولى * وارسطوطاليس اغما بدأ كتابه بهذا الموضوع وافتتحه بذكر الخير المطلق

ونضيف الى ذلك ما أخذناه
عن مفسري كتبه
المنقلبين لحكمته نحو
استطاعتنا والله الموفق
المؤيد فان الخير يسده
وهو حسنا ونعم الوكيل

المقالة الثالثة

في الخير والسعادة

نريد أن نجمعوا الله تعالى في
هذا المقالة بذكر الفرق
بين الخير والسعادة بعد
أن نذكر ألقاظ
أرسطوطاليس اقتداه
وتوفيقه فنقول * أن
الخير على ما حده
واستحسنه من آراء
المتقدمين هو المقصود
من الكل وهو الغاية
الآخيرة وقد يسمى الشيء
النافع في هذه الغاية خيرا
* فاما السعادة فهي الخير
بالإضافة الى صاحبها وهي
كمال له * فالسعادة اذا
خير ما وقد تكون سعادة
الإنسان غير سعادة
الفرس وسعادة كل شيء
في مقامه وكمال الذي
يخصه * فاما الخير الذي
يقصده الكل بالشوق
فهو طبيعة تقصده ولها
ذات وهو الخير العام
للناس من حيث هم ناس
فهم باجمعهم مشر كون
فيها * فاما السعادة فهي
خير ما لواحد واحد من
الناس فهي اذا بالإضافة
ليست لها ذات معينة
وهي تختلف بالإضافة الى قاصدها *

فاني وجدت الناس الأقلهم * خفاف عهد كثير من التنقلا
بنو أم ذى المال الكثير يرونه * وإن كان عبدا سيدا لا امر محفلا
وهم لقل المال أولاد عسلة * وإن كان محضاني العشرة محولا
وقال بشر الضرير

كفى خزا انى أروح وأغتنى * ومالى من مال أصون به عرضى
وأكثر ما اتى الصديق بمرحبا * وذلك لا يكفى الصديق ولا يرضى
وقال آخر

أجلك قوم حين صرت الى الغنى * وكل غنى فى العيون جليل
وليس الغنى الا غنى ذى الفسى * عيشة يقرى أو غداة يئيل
وقد اختلف الناس في تفضيل الغنى والفقير فاعترفناهم على أن ما أوج من الفقر مكره
وما أبطر من الغنى مذموم فذهب قوم الى تفضيل الغنى على الفقر لأن الغنى مقتدر
والفقير عاجز والقدرة أفضل من الجبر وهذا مذهب من غلب عليه حب النباهة وذهب
آخرون الى تفضيل الفقر على الغنى لأن الفقير تارك والغنى ملاس وترك الدنيا أفضل
من ملاسها وهذا مذهب من غلب عليه حب السلامة وذهب آخرون الى تفضيل
التوسط بين الأمرين بأن يخرج عن حد الفقر الى أدنى مراتب الغنى ليصل الى فضيلة
الأمرين ويسلم من منمة الحالين وهذا مذهب من يرى تفضيل الاعتدال وأن خيار
الأمر أوسطاها وقدمضى شواهد كل فريق في موضع بما أغنى عن إعادته * والسبب
الثالث أن يطلب الزيادة ويقتنى الأموال ليدخرها لولده ويخلفها لورثته مع شدة ضنه
على نفسه وكفه عن صرف ذلك في حقه اشفاقا عليهم من كدح الطلب وسوء المنقلب
وهذا شق يجمعها مأخوذ بوزرها قد استحق اللوم من وجوه لا تخفى على ذى لب منها
سوء ظنه بخالفته أنه لا يرزقهم الا من جهته وقد قيل قتل القنوط صاحبه وفي حسن الظن
بأنه راحة القلوب * وقال عبد الحميد كيف تبقى على حالتك والذهب في احوالك ومنها
الثقة ببقاء ذلك على ولده مع نوائب الزمان ومصائبه وقد قيل الدهر حسود لا يأتى على شيء
الا غيره * وقيل في منثور الحكم المال ملول * وقال بعض الحكماء الدنيا ان بقيت لك
لا تبقى لها ومنها ما حرم من منافع ماله وسلب من وفور ماله وقد قيل انما مالك اذا
لوارث أو للجائعة فلا تكن أشقى الثلاثة * وقال عبد الحميد اطرح كواذب أموالك
وكن وارث مالك ومنها ما لحقه من شقاء جمعه وناله من غناه كده حتى صار ساعيا محروما
وحاهدا مذموما وقد قيل رب مغبوط بمسرة هي دائره ومرحوم من سقم هو شقاءه
وقال الشاعر

ومن كلفته النفس فوق كفافها * فما ينقضى حتى الممات عناؤه

ومنها ما يؤخذ به من وزره وأثامه ويحاسب عليه من تبعاته وأجرامه * وقد حكى أن هشام
ابن عبد الملك لما نقل بكى ولده عليه فقال له جادلني هشام بالدنيا وجدتم عليه بالباء
وترك لكم ما كسب وتركتم عليه ما اكتسب ما أسوأ حال هشام ان لم يغفر الله له فأخذ هذا

المعنى محمود الوراق فقال

تمتع بما لك قبل الممات * والا فلامال أن أنت متنا
شقيت به ثم خلقتك * لغيرك بعدا وسحقا ومقتنا
فخادوا عليك بوزر البكاء * وجدت عليهم بما قد جعنا
وأرهنهم كل ما في يديك * وخلوك رهننا بما قد كسبنا

وروى أن العباس بن عبد المطلب جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ولني فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا عباس يا عمو النبي صلى الله عليه وسلم قليل يكفك خير من كثير يردبك يا عباس يا عمو النبي نفس تهيأ خيرا من إمارة لا تخصبها يا عباس يا عمو النبي صلى الله عليه وسلم إن الأمانة وأهلانها وأوسطها أمانة وآخرها خزي يوم القيامة فقال يا رسول الله أأمن عدل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تعدلون مع الأقارب * وقال رجل للحسن البصري رحمه الله إن أخاف الموت وأكرهه فقال أنك خلقت ما لك ولوقد مته لمرك الخوق به * وقيل في منثور الحكم كثر مال الميت تعزى ورثته عنه فأخذ هذا المعنى ابن الرومي فقال وزاد

أبقيت ما لك مبرانا لوارثه * فليت شعري ما أبقى لك المال
القوم بعلمك في حال تسرههم * فكيف بعدهم حالت بك الحال
ملوا البكاء في بيك من أحد * واستحكم القول في الميراث والقال
ألهتهم عنك دنبا أقبلت لهم * وأدبرت عنك الأيام أحوال

والسبب الرابع أن يجمع المال ويطلبه استعلا لاجعه وشغفا باحترامه فهذا أسوأ الناس حالا فيه وأشدهم حرالة قد توجهت إليه سائر الملامم حتى صار وبالاعليه ومذام وفي مثله قال الله وتعالى والذين يكتزون الذهب والنفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيسرههم بعذاب أليم فقال النبي صلى الله عليه وسلم تبأ للذهب تبأ للنفضة فشق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا أي مال نتخذ فقال عمر رضي الله عنه أنا أعلم لكم ذلك فقال يا رسول الله إن أصحابك قد شق عليهم فقالوا أي مال نتخذ فقال لسانا إذا كرا وقلبا إذا كرا وزوجه مؤمنة تعين أحدكم على دينه وروى شهر بن حوشب عن أبي أمامة قال مات رجل من أهل الصفة فوجد في مئزره دينار فقال النبي صلى الله عليه وسلم كية ثم مات آخر فوجد في مئزره دينار فقال النبي صلى الله عليه وسلم كيتان وانما ذلك فبهما وان كان قد مات على عهده من ترك أموالا جهنم أحوال الأضمة فلم يكن فيه ما كان في هذين لأنهما تظاهرا بالانقاعة واحتجنا ما ليس بهما إليه حاجة فصار ما احتجنا وزر اعلم بما وعقا بهما * وقد قال الشاعر

إذا كنت ذامال ولم تكن ذا ندى * فانت اذا والمقستر ون سواء
على أن في الأموال يوما تباعة * على أهلها والمقتر ون براء

وأندشت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه
إن الذي رزق اليسار لم يصب * حيدا ولا أحر الغير موقوف
والجد يدني كل شيء شاسع * والجحد يفتح كل باب مغلق

وكالاتهم غير قصد ولا روية ولا ارادة وتلك الاستعدادات هي الشوق أو ما يجري مجرى الشوق من الناطقين بالارادة فاما ما يتأق الحيوانات في ما كلها ومشاربها وراحاتها فينبغي أن يسمى بخنا أو اتفاقا ولا يؤهل لاسم السعادة كما يسمى في الانسان أيضا * وانما احسن الحمد الذي ذكرنا للخير المطلق لان العقل لا يطلق السمي والحركة لا إلى نهاية وهذا أول في العقل * ومثال ذلك ان الصناعات والحمم والتدابير الاختيارية كلها يقصدها خير ما واما يقصده خيرا فهو عبث والعقل يحظره وينع منه وبالواجب صار الخير المطلق هو المقصود اليه من كل الناس * ولكن بقي ان يعلم ما هو وما الغاية الأخيرة منه التي هي غاية النسيات التي ترتقي النسيات كلها إليها حتى تحلها غرضنا وتوجه اليه ولا تلتفت إلى غيره ولا تشتت أنكارنا في النسيات الكثيرة التي تؤدي اليه أما تأدية بمدة وأما تأدية قريبة ولا نقط أيضا فيما ليس بخير فظن خبر آثم نفسي أعجازنا في طلبه والتعب به وكلا سنيته عيشة الله وعونه هو أقسام الخير الخير على

اقتنائها شريفاً وهي الحكمة والعقل والممدوحة منها مثل الفضائل والأفعال الجيلة (الارادية التي هي بالقوة مثل التبرؤ والاستعداد لنيل الاشياء التي تقدمت * والنافعة هي جميع الاشياء التي تطلب لذاتها بسل ليتوصل بها الى الخيرات (وعلى جهة أخرى) الخيرات منها ما هي غايات ومنها ما ليست بغايات والغايات منها ما هي نامة ومنها ما هي غير نامة * فالتى هي نامة كالمساعدة وذلك اننا اذا وصلنا اليها لم نحتاج أن نزيد اليها بشئ آخر * والتي هي غير نامة فكالمساعدة واليسار من قبيل اننا اذا وصلنا اليها احتجنا ان نزيد من مقتني اشياء أخرى * وأما التي ليست بغاية البتة فكالمصالح والتعظيم والرأفة (وعلى جهة أخرى) الخيرات منها ما هو مؤثر لاجل ذاته ومنها ما هو مؤثر لاجل غيره ومنها ما هو مؤثر للاثنين جميعاً ومنها ما هو خارج عنهما (وعلى جهة أخرى) الخيرات منها ما هو خير على الإطلاق ومنها ما هو خير عند الضرورة والاتفاقات التي تتفق لبعض الناس وفي وقت دون وقت * وأيضاً منها ما هو خير لجميع الناس ومن جميع الوجوه

وأحق خلق الله بالمهم أمرؤ * ذوهمة عليا وعيش ضيق ومن الدليل على القضاء وكونه * بئس الليب وطيب عيش الاحق فاذا سمعت بان مجدودا حوى * عودا فارق في يديه خفق واذا سمعت بان مجدودا قى * ماء ليشربه خفف فصدف

اللب العقل تقول لبيب ذوب والجدي للغة الحظ وهو الخبت والجد أيضاً العظمة ومنه قوله تعالى وأنه تعالى جذربنا والجتمصدر جذ الشيء اذا قطع والجذب الكسر الانكماش في الامور رأى الاتحاد فيها وهو أيضاً الحق ضد الهزل وبالحاء اذا منع الرزق ومجدود ومجدود لا يقال فيها لال بما لم يسم فاعله واقفة من بلى بالجمع والاستكثار ومعنى بالامسالك والاذخار حتى انصرف عن رشده فعوى وانحرف عن سنن قصده فهو أن يستولى عليه حب المال وبعد الامل فيبعثه المال على الحرص في طلبه ويدعوه بعد الامل على الشبهة والحرص والسخ أصلاً لكل ذم وسبب لكل لؤم لان الشبهة تمنع من أداء الحقوق ويبعث على القطيعة والعقوى ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم شر ما أعطى العبد شخ هالغ وجن خالغ * وقال بعض الحكماء الغنى الخيل كالقوى الجبان وأما الحرص فيسلب فضائل النفس لاستيلائه عليها ويمنع من التوفر على العبادات لتشاغلها عنها ويبعث على التورط في الشهوات لقله تحرره منها وهذه الثلاث خصال من جامعات الازائل سالبات الفضائل مع أن الحرص لا يستزيد بحرصه زيادة على رزقه سوى اذلال نفسه واسقاط خالقه * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الحرص الجاهد والقنوع الزائد يستوفيان أكلهما غير منتهى منه شئ فعلا من التراف في النار * وقال بعض الحكماء الحرص مفسدة للدين والمروءة والله ما عرفت من وجهر رجل حرصاً فربأ أن فيه مصطنعا وقال آخر الحرص أسير مهانة لا تغلق أسره وقال بعض البلغاء المقادير الغالبة لا تتنازل بالمغالبة والارزاق المكتوبة لا تتنازل بالشدة والمطالبية فذل للقدار بنفسك واعلم بانك غير نائل بالحرص الاحفظ وقال بعض الادباء رب حظ أدركه غير طالبه ودرأ حره غير جالبه * وأشدنى بعض أهل الأدب لمجد بن حازم

يا أسير الطمع الكا * ذب في غل الهوان
أن عز اليأس خير * لك من ذل الاماني
سامح الدهر اذا عوز وخذ صفوا الزمان
اغما لعدم ذوالحر * ص وأثرى ذوالتواني

وليس للحرص غاية مقصودة يقف عندها ولا نهاية محدودة يقنع بها لانه اذا وصل بالحرص الى ما أمل أغراه ذلك بزيادة الحرص والامل وان لم يصل رأى اضاعة الغنى لؤما والصبر عليه خوما وصار بما سلف من رجائه أقوى رجاءه وأبسط املا * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يشيب ابن آدم ويبقى معه خصلتان الحرص والامل * وقيل للمسح عليه السلام ما بال المشايخ احرص على الدين من الشباب قال لانهم ذاقوا من طعم الدنيا ما لم يذقه الشباب ولو صدق الحرص نفسه واستنصح عقله لعلم أن من تمام السعادة وحسن التوفيق الرضا

بالقضاء والقناعة القسم * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أقصدوا في الطلب فان ما رزقتموه أشد طلبا لكم منكم وما حرمتموه فلن تنالوه ولو حرمتم * وروى ابن جرير على نبينا وعليه السلام ضبط على النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان الله تبارك وتعالى يقرأ عليك السلام ويقول للآقرباء بسم الله الرحمن الرحيم لا تمدن عينيك إلى ما متعناه من زواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى فاحسن النبي صلى الله عليه وسلم مناديا ينادي من لم يتأدب بآداب الله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حصرات * وقيل مكتوب في بعض الكتب ردتوا أبصاركم عليكم فان لكم فيها شغلا وقال مجاهد في تأويل قوله تعالى ولتحيته حياة طيبة قال بالقناعة وقال أكرم من صفي من باع الحرص بالقناعة ظفر بالقي والثروة * وقال بعض السلف قد يضيّب الجاهد الساعي ويفقر الوادع المهادي فاخذه الجعري فقال

لم ألق مقدورا على استحقاقه * في الخبط اما ناقصا أو زائدا

وتجبت للجهود بحرم ناصبا * كافا وللجدود بغير قاعدا

ما خطب من حرم الارادة قاعدا * خطب الذي حرم الارادة جاهدا

وقال بعض الحكماء ان من قنع كان غنيا وان كان مقترا ومن لم يقنع كان فقيرا وان كان مكثرا وقال بعض البلغاء اذا طلبت العز فاطلبه بالطاعة واذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة فمن أطاع الله عز وجل وعز نصره ومن لزم القناعة زال فقره * وقال بعض الادباء القناعة عز العسر والصدقة عز الميسر وقال بعض الادباء اني أرى من له قنوع * يدرك ما نال وتغنى والرزق يأتي بلا عناء * وربما فات من تغنى والقناعة قد تكون على ثلاثة أوجه فالوجه الاول أن يقنع بالبلغة من دنياه ويصرف نفسه عن التعرض لمساواه وهذا أعلى منازل القناعة * وقال الشاعر

اذ اشتئت أن تحيا غنيا فلا تكن * على حالة الارضيت بدونها

وقال مالك بن دينار أزهدها للناس من لا تتجاوز رغبة من الدنيا بلغته * وقال بعض الحكماء الرضا بالكفاف يؤدي إلى العفاف * وقال بعض الادباء يارب ضيق أفضل من سعة وعناء خير من دعة * وأنشدني بعض أهل الادب وذكر أنه لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه

أفادتنا القناعة أي عز * وأي غنى أعز من القناعة

فصبرها لم يسلك رأس مال * وصبر بعدها التقوى بضاعة

تصبر حين تغنى عن بخل * وتتم في الجنان بصبر ساحة

والوجه الثاني أن تنتهي به القناعة إلى الكفاية ويخفى الفضول والزياة وهذا أوسط حال المتقنع * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من عبد الا ينعو بين رزقه سبحانه فان قنع واقتصد ما رزقه وان هلك المحباب لم يزد في رزقه * وقال بعض الحكماء ما فوق الكفاف اسراف وقال بعض البلغاء من رضى بالمقدور قنع بالميسر وقال الجعري تطلب الاكثر في الدنيا وقد * تبلغ الحاجة منها بالآقل

وأنشدت لبراهيم بن المديبر

ما هو في الكمية ومنها ما هو
في الكيفية وفي سائر
المقولات كالقوى
والملاكات * ومنها
كالاحوال ومنها كالأفعال
ومنها كالتغيات ومنها
كالمواد * ومنها كالألات
ووجود الخيرات في
المقولات كلها يكون على
هذا المثال * أما في الجوهر
أعني ما ليس بعرض فالله
تبارك وتعالى هو الخير
الاول فان جميع الاشياء
تتحرك نحوه بالشوق اليه
ولان ما لا الخيرات
الالهية من القاء
والسرمدية والتمام منه *
وأما في التكمية فالعدد
المعتدل والمقدار المعتدل
وأما في الكيفية
فكالكالات وأما في الأضافة
فكالصدقات والرباسات
وأما في الاين والمستى
فكالسكان المعتدل
والزمان الانيق البع * وأما
في الموضوع فكالقعود
والاضطجاع والائتكال للموافق
* وأما في الملك فكالاموال
والمناقص * وأما في الانفعال
فكالسماع والطيب وسائر
المحسوسات المؤثرة وأما في
الفعل فككفا ذا الامر
ورواج الفعل (وعلى
جهة أخرى) الخيرات
منها مقولات ومنها
محسوسات

والسعادة

وأما السعادة فقد قلنا انها خير مما وهي تمام الخيرات وغاياتها والتمام هو الذي اذا بلغنا اليه لم نحتاج معه إلى شيء

سعادات اخرى وهي التي في البدن والتي خارج البدن (وارسطو طالس) يقول انه يصير على الانسان ان يفعل الاعمال القريفة بلامادة مثل اتساع اليد وكثرة الاصدقاؤه وجودة الخف * قال ولهذا ما احتاجت الحكمة الى صاعه الملك في اظهار شرفها * قال ولهذا قلنا ان كان شيء عطية من الله تعالى وهو هبة للناس فهو اسعادة لانها عطية منه عزاء همه وهو هبة في اشرف منازل الخيرات وفي اعلى مراتبها وهو خاصة بالانسان التام ولذلك لا يشارك فيها من ليس بتمام كالصبيان ومن يجري مجراهم * واما اقسام السعادة على ما ذهب هذا الحكم فهي خمسة اقسام احدها في صحة البدن ولطف الخواص ويكون ذلك من اعتدال المزاج اهني ان يكون جيد السمع والبصر والشم والذوق واللمس * والثاني في الثروة والاعوان واسبابهما حتى يتسع لان يفتح المال في موضعه ويعمل بمسائر الخيرات ويواسي منه اهل الخيرات خاصة والمستحقين عامة ويعمل به كل ما يزيد في فضائله ويستحق الثناء والمدح عليه والثالث ان تحسن احدوتك في الناس وينشر ذكره بين اهل الفضل فيكون معدودا بينهم ويكثرون وذلك

ان القناعة والعفاف * لا يغنيان عن الغنى

فاذا صبرت عن المني * فاشكر فقد نلت المني

والوجه الثالث ان تنتهي به القناعة الى الوقوف على ما شغ فلا يكره ما آناه وان كان كثيرا ولا يطلب ما تغتر وان كان يسيرا وهذا الحال اذ في منازل اهل القناعة لانها مشتركة بين رغبة ورهبة اما الرغبة فلا يكره الزيادة على الكفاية اذا سفعت واما الالهية فلا نه لا يطلب المتعذر عن نقصان المادة اذا تعذرت * وفي مثله قال ذوالنون رحمة الله عليه من كانت قناعتة مهيمنة طابت له كل مرة فو قد روى الحسن بن علي عن ابيه عن جده رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدين اذول فما كان منها لك انك على ضعفك وما كان منها عليك لم تدفعه بقوتك ومن انقطع رجاءه عما فات استراح بدنه ومن رضي بما رزقه الله تعالى قربت عينه وقال ابو حازم الاعمري وجدت شيئين شيا هو ان لا انجعله قبل امله ولو طلبته بقوة السموات والارض وشيا هو لغيري وذلك مما لم انله فيما مضى ولا ناله فيما بقي يمنع الذي لي من غيري كما يمنع الذي لغيري مني في اي هذين انسى عمري وأهلك نفسي * وقال ابو تمام الطائي

لا تأخذوني بالزمان وليس لي * تبعوا ولسن على الزمان كفيلا

من كان يري عزمه وهوومه * روض الاماني لم يزل مهزولا

لوجاد سلطان القنوع وحكمه * في الخلق ما كان الا قليل قليلا

الرزق لا تكمد عليه فانه * ياتي ولم تبعث اليه رسولا

وانشدني بعض اهل الادب لابن الرومي

جزي قلم القضاء بما يكون * فسيان التحرك والسكون

جنون منك ان تنسى لرزق * ويرزق في غشاوة الجنين

ونحن نسأل الله تعالى اكرم مسؤول وافضل مأمول ان يحسن البنا التوفيق فيما منح ويصرف عنا الرغبة فيما منع استكفا فالتبعات الثروة ومو بقات الشهوة * روى شريك ابن أبي غر عن أبي الجذع عن اعمامه وأجداده عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خير أمتي الذين لم يعطوا حتى يبطروا ولم يقرروا حتى يسألوا * وقال ابو تمام الطائي

عندي من الايام ما لو انه * انجني يشارب من قدما غضا

لا تظن ان الرزق بعد شماسه * قرومه شمسها اذا ما غضا

ما عؤض الصبر امر ولا اراي * ما فاته دون الذي قد عؤضا

باب ادب النفس وهو الخامس من الكتاب

اعلم ان النفس مجبولة على شيم مهيمنة وأخلاق مرسلة لا يستغنى محمودها عن التأديب ولا يكتفي بالمرض منها بل ان التهذيب لان محمودها أضدادا مقابلة يسعددها هي مطاع وشهوة غالبه فان أغفل تأديبها تفوق الى العقل أو توكل على ان تنهه الى الاحسن بالطبع أعذمه التفويض بترك المجتهد وأحقبه التوكل ندم المجتاهين فصار من الادب عاطلا وفي صورة الجهل داخل لان الادب مكتسب بالقربة أو مستحسن بالعادة ولكل قوم مواضع

والمدح عليه والثالث ان تحسن احدوتك في الناس وينشر ذكره بين اهل الفضل فيكون معدودا بينهم ويكثرون وذلك

إذا استتم كل ما روي فيه
وعزم عليه حتى يصير إلى
ما يأمله منه * والخامس
أن يكون جيد الرأي صحيح
الفكر سليم الاعتقادات
في دينه وغير دينه بريئاً
من الخطأ والأزل جسد
المشورة في الآراء * فن
احتجعت له هذه الأقسام
كلها فهو السعد الكامل
على مذهب هذا الرجل
الفاضل ومن حصل له
بعضها كان خطفه من
السعادة بحسب ذلك * وأما
الحكماء قبل هذا الرجل
مثل فيثاغورس وبقرات
وأفلاطون وأشابههم
فانهم أجمعوا على أن
الفضائل والسعادة كلها
في النفس وحدها * ولذلك
لما قسموا السعادة جعلوها
كلها في قوى النفس التي
ذكرناها في أول الكتاب
(وهي الحكمة والشجاعة
والعفة والعدل) * وأجمعوا
على أن هذه الفضائل
هي كافية في السعادة ولا
يحتاج معها إلى غيرها من
فضائل البدن ولا ما هو
خارج البدن فان الانسان
إذا حصل تلك الفضائل
لم تنقصه في سعادته أن
يكون سقيماً ناقص
الأعضاء مبتلى بجميع
أمراض البدن * اللهم
الآن يلحق النفس منها

ذلك لا ينال بتوقف العقل ولا بالانقياد للطبع حتى يكتب بالقهر به والمعاناة ويستفاد
بالدراسة والمطالعة يكون العقل عليه قيا وركن الطبع اليه مسلماً ولو كان العقل مغنياً عن
الادب لكان أنبياء الله تعالى عن أدبه مستغنيين ويعقوبهم مكتفين * وقد روي عن النبي صلى
الله عليه وسلم أنه قال بعثت لأتكم مكارم الاخلاق وقيل لعيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام
من أدبك قال ما أدبني أحد ولكني رأيت جهل الجاهل بآبنته * وقال علي بن أبي طالب
رضي الله عنه ان الله تعالى جعل مكارم الاخلاق ومحاسنها وصلابته وينسبك فحسب الرجل
أن يتصل من الله تعالى بخلق منها * وقال أزدشير بن بابك من فضيلة الادب أنه ممدوح
بكل لسان ومترين به في كل مكان * وابق ذكره على أيام الزمان * وقال مهيبودشبه
العالم الشريف العديم الادب بالبنان الخراب الذي كلما علا سمكه كان أشد لو حشسته
وبالنهر اليابس الذي كلما كان أعرض وأعجمي كان أشد لو عورته وبالارض الحيدة المعطلة
التي كلما طال خرابها ازداد انبساطها غير المنتفع به النفا فإوصار له وام مسكنها * وقال ابن المقفع
ما نحن إلى ما نتقوى به على حواسنا من المظلم والمشرّب بأحوج منا إلى الادب الذي هو
لنصاح عقولنا فان الحبة المدفونة في الثرى لا تقدر أن تطلع زهرتها ونضارتها إلا بالماء
الذي يعود إليها من مستودعها * وحكي الاصحى رحمه الله تعالى أن أعرابياً قال لابنه
يا بني الادب دعامة أمد الله بها الألباب * وحليق زين الله بها عواطل الاحساب فالعقل
لا يستغنى وإن صحت غير يرتفع عن الادب المخرج زهرته كالاستغنى الارض وإن عذبت
ترتبها عن الماء المخرج ثمرتها * وقال بعض الحكماء الادب صورة العقل فصور عقلك
كيف شئت وقال آخر العقل بلاء كالشجر العاقر ومع الادب كالشجر المثمر وقيل الادب
أحد المنصبين * وقال بعض البلغاء الفضل بالعقل والادب بالأصل والحسب لأن
من ساء أدبه ضاع نسبه ومن قل عقله ضل أصله * وقال بعض الابداء ذلك قلبك بالادب كما
تذكرنا في أول الكتاب (وهي الحكمة والشجاعة والحرص عليه حفاظاً برحمة الراغب ويضاف
صولته لأراهب وبؤمل نفعه لورجى عدائه * وقال بعض العلماء الادب وسيلة إلى
كل فضيلة وذريعة إلى كل شريعة * وقال بعض الفصحاء الادب يستردج النسيب * وقال
بعض الشعراء في

فما خلق الله مثل العقول * ولا اكتسب الناس مثل الادب
وما كرم المرء الا بالتقى * ولا حسب المرء الا بالنسب
وفي العلم زين لا هزل الجحا * وأفقتني الحلم طيش الغضب

وأنتد الاصمى رحمه الله

وان يلب العقل مولوداً فلست أرى * ذا العقل مستغنياً عن حادث الادب
اني رأيتهم كالماء مختلطاً * بالتراب تظهر منه زهرة العشب
وكل من أخطأه في مولده * غرزة العقل حاكى الهم في الحسب
والنأديب يلزم من وجهين أحدهما ما لازم الوالد اولده في صغره والثاني ما لازم الانسان في
نفسه عند نشوئه وكبره فاما التأديب اللازم للاب فهو أن يأخذ ولده بمبادئ الآداب ليأسس

مضرة في خاص أفعاله مثل فساد العقل ورداءة الذهن وما أشبههما وأما الغفر والجنول وسقوط الحال وصائر الاشياء الخارجة

بهاو ينشوعليا فيسهل عليه قبولها عند الكبر لاستئناسه بعبادها في الصغر لان نشو الصغير على الشيء يجعله مستطعنا به ومن أغفل في الصغر كان تأدبه في الكبر عسيرا * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما حل والدولة فحله أفضل من أدب حسن يفيد إياه أوجهل قبيح يكفه عنه ويمتنعه منه * وقال بعض الحكماء بادر وابتأديب الاطفال قبل تراكم الاشغال وتفرق البال * وقال بعض الشعراء

ان الغصون اذا قومتها اعتدلت * ولا يلين اذا قومته الخشب
قد ينقع الادب الاحداث في صغر * وليس ينقع عند الشبية الادب
وقال آخر *

ينشو الصغير على ما كان والده * ان الاصول عليها بنيت الشهر
وأما الادب اللازم للانسان عند نشوه وكبره فادب ان أدب هواة واصطلاح وأدب رياضية واصطلاح فأما أدب المراسعة والاصطلاح فيؤخذ تقليدا على ما استقر عليه اصطلاح العقلاء واتفق عليه استحسان الادباء وليس لاصطلاحهم على وضعه تعليل مستنبط ولا لا تفاههم على استحسانه دليل موجب كاصطلاحهم على مواضع الخطاب واتفاقهم على هيئات اللباس حتى ان الانسان الآن اذا انحاز زما اتفقوا عليه منها صار مجازبا للادب مستوجبا للذم لان فراق المألوف في العادة ومحاربة ما صار متفقا عليه بالمواضعة مفض الى استحقاق الذم العقل ما لم يكن لها الفتنه علة طاهرة ومعنى حادث وتذكار جائز في العقل ان يوضع ذلك على غير ما اتفقوا عليه فيرونه حسنا ورون ما سواه قبيحا فصار هذا امشراكا لما وجب بالعقل من حيث توجه الذم على تاركه ومخالفة ما له من حيث انه كان جائزا في العقل ان يوضع على خلافه وأما أدب بالرياضة والاستصلاح فهو ما كان محمولا على حال لا يجوز في العقل أن يكون بخلافها ولا أن تختلف العقلاء في صلاحها وسادها وما كان كذلك فتعليله بالعقل مستنبط ووضوح يحتمل الدليل من تبط والنفس على ما يأتي من ذلك شاهد لهمها الله تعالى ارشادها قال الله تعالى فآلهمها فورها وتقاها * قال ابن عباس رضي الله عنه بين لها ما تأت في الخير وتذر من الشر وسنذكر تعليل كل شيء في موضعه فانه أولى به وأحق فأول مقدمات أدب الرياضة والاستصلاح أن لا يسبق الى حسن الظن بنفسه فيخني عنه مذموم شبه ومساوى أخلاقه لان النفوس بالشهوات أمره وعن الرشد زاجرة * وقد قال الله تعالى ان النفس لامارة بالسوء وقال صلى الله عليه وسلم أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك ثم أهلك ثم عيالك ودعت أعرابية لرجل فقالت كبت الله كل عدو لنا لانفسك فأخذ بعض الشعراء فقال

قلبي الى ما ضرتني داع * يكثر أسقامي وأوجاعي
كيف احتراسي من عدوي اذا * كان عدوي بين أضلاعي

فاذا كانت النفس كذلك فحسن الظن بها ذريعة الى تحكيمها وتحكيمها داع الى سلطتها وفساد الاخلاق بها فاذا صرف حسن الظن عنها وتوسمها بما هي عليه من التسوف والمكر فاز بطاعتها وانحاز عن معصيتها * وقد قال عز بن الخطاب رضي الله عنه العاجز من

جزأ من الانسان ولم يحمله
آله كما شرعناه فيما تقدم
* فلذلك اضطررنا الى أن
يجعلوا السعادة التي في
النفس غير كاملة اذ لم
يقترن بها سعادة البدن
وما هو خارج البدن أيضا
أعني الاشياء التي تكون
بالفت والجد والمحققون
من الفلاسفة يحقرون
أمر الجفت وكل ما يكون
به ومعه ولا يؤهلون تلك
الاشياء لاسم السعادة لان
السعادة شيء ثابت غير
زائل ولا متغير وهي أشرف
الامور أكرمها وأرفعها
فلا يحفلون لا بحسن
الاشياء وهي الذي يتغير ولا
يثبت ولا يحصل بروية
ولا فكر ولا يتأني بسفل
وفضيلة فيها نصيبا ولهذا
النظر اختلف القدماء في
السعادة العظمى فظن
قوم انها لا تحصل للانسان
الا بعد مفارقة البدن
والطبيعات كلها وهؤلاء
هم القوم الذين حكينا عنهم
أن السعادة العظمى هي في
النفس وحدها وسماها
الانسان ذلك الجوهر وحده
دون البدن ولذلك حكموا
أنها ما دامت في البدن
ومتصلة بالطبيعة وكدرها
ونجاسات البدن وضروا ته
وحاجات الانسان به
وافتناراته الى الاشياء
الكثيرة فليست سعيدة
على الاطلاق * وأيضا المارواها لا تتكامل لوجود الاشياء العقلية لانها لا تستر عنها بظلمة الهيولى

عجز عن سياسة نفسه * وقد قال بعض الحكماء من ساس نفسه سادناه فاماسوء
الظن بها فقد اختلف الناس فيه فبهم من كرهه لما فيه من اتمام طاعتها وردعها عنها
فان النفس وان كان لها مكر ردى فلها نصع يهدى فلما كان حسن الظن بها يبعي عن
محاسنها ومن عي عن محاسن نفسه كان كمن عي عن مساوئها فلم ينصف عنها فيها ولم
يهدا اليها حسنا * وقد قال الجاحظ في كتاب البيان يجب أن يكون في التهمة لنفسه
معتدلا وفي حسن الظن بها مقتصدا فانه ان تجاوز مقدار الحق في التهمة ظلمها فاودعها
ذلة المظلومين وان تجاوزها الحق في مقدار حسن الظن اودعها ثناءون الأمنين ولكل
ذلك مقدار من الشغل ولكل شغل مقدار من الوهن ولكل وهن مقدار من الجهل
* وقال الاحنف بن قيس من ظلم نفسه كان لغيره أظلم ومن هدم دينه كان لنجده
أهدم وذهب قوم الى أن سوء الظن بها أبلغ في صلاحها وأوفر في اجتدادها لان للنفس
جورا لا ينقل الا بالسطح عليها وغر والالين كشف الالباتمة لها لانها محبوبة تجو راد لا
وتفرمكر فان لم يسي الظن بها غلب عليه جورها وقوة عليه غرورها فصار عيسورها
قائما وبالشبهة من أفعالها راضيا * وقد قالت الحكماء من رضى عن نفسه انحط
عليه الناس وقال كشاحم

لم أرى عن نفسي مخافة مضطها * ورضا الفتى عن نفسه اغضابها
ولو أننى عنها رضيت لقصرت * عما تريد بمثلها آدابها
وتنبئت أنارذاك فاكثرت * عذلى عليه فطال فيه عتابها
وقد استحسن قول أبي تمام الطائي

ويعى بالأحسان ظنا لا كن * هو يابسه وبشعره مفتون

نلم يروا اساءة ظنه بالأحسان ذما ولا استغلا له علموما بل رأوا ذلك أبلغ في الفضل وأبعث
على الازدياد فاذا عرف من نفسه ما تجن وتقصو منها ما تكن ولم يطاوعها فيما تحب اذا
كان غيا ولا صرف عنها ما تركه اذا كان رشدا فقد ملكها بدمان كان في ملكها وغلبها
بدمان كان في غلبها * وقد روى أبو حازم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم الشديد من غلب نفسه * وقال عون بن عبد الله اذا عصمتك نفسك فيما
كرهت فلا تطعها فيما أحببت ولا يقرنك ثناء من جهل أمرك * وقال بعض البلغاء من
قوى على نفسه تناهى في القوة ومن صبر عن شهوته بالغ في المروءة فحينئذ يأخذ نفسه عند
معرفة ما كنت وخبرة ما أجت بتقويم عوجها واصلاح فسادها * وقد روى عن
عائشة رضى الله عنها قالت يا رسول الله متى يعرف الإنسان ربه قال اذا عرف نفسه ثم يراى
منها ما صلح واستقام من زيف يحدث عن اغفال أو ميل يكون عن اهمال ليم له الصلاح
وتستديم له السعادة فان المغفل بعد المماناة ضائع والمهمل بعد المراجعة زائع وسند كر
من أحوال أدب الرابضة والاستصلاح فصولا تحتوى على ما يلزم مراعاته من الاخلاق
ويجب معاناته من الأدب وهي ستة فصول متفرعة

الفصل الاول في محاسبة الكبر والاعجاب لانهما يسلبان الفضائل ويكسبان

اجتاج أن يتعبد في الابانة عنها واطالة الكلام فيها وذلك أن الفقير يرى أن السعادة العظمى في التزود واليسار والمريض

على اختلافها والعاشق يرى أنها في الطفر بالمسوق والفاضل يرى أنها في الفاضلة المعروفة على المستحقين والفلسوف يرى أن هذه كلها إذا كانت مرتبة بحسب تقسيم العدل أعنى عند الحاجة وفي الوقت الذي يجب وكما يجب وعند من يجب فهي سعادات كلها وما كان منها رادئاً آخراً فذلك الشيء أحق باسم السعادة ولما كان كل واحد من هاتين الفرقتين نظرت نظراً واحداً وجب أن تقول في ذلك ما تراه صواباً وجاعلاً للرأيين فتقول (أرى المؤلف في السعادة) أن الإنسان ذو فضيلة روحانية يناسبها الأرواح الطيبة التي تسمى ملائكة وذو فضيلة جسمانية يناسبها الانعام لأنه مركب منها فهو ملائمة الجسماني الذي يناسبه الانعام مقيم في هذا العالم السفلي مدة قصيرة ليهره وينظمه ويرتبه حتى إذا نظرت هذه المرتبة على الكمال انتقل إلى العالم العلوي وأقام فيه دائماً مدافياً بحمة الملائكة والأرواح الطيبة وينبغي أن يفهم من قولنا

الذائل وليس لمن استولى عليه اصغاء لنصيح ولا قول لتأديب لأن الكبر يكون بالمرتلة والمحب يكون بالفضيلة فالتكبر يحل نفسه عن رتبة المتعلمين والمحب يستكثر فضله عن استزادة المتأدين فلذلك وجب تقديم القول فيهما بما يات ما يكسبه من ذم ويوجبانه من لوم فنقول أما الكبر فيكسب المقت ويهلي عن التألف ويوغر صدور الأخوان وحسبك بذلك سوء عن استقصاء ذمه * ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لعم العباس أنهلك عن الشرك بالله والكبر فإن الله يحب متجرب منها وقال ازديت من بآل الكبر الأفضل حتى لم يدر صاحبه أن يذهب به فصره إلى الكبر وما أشبهه ما قال الحق * وحكى أن مطرف بن عبد الله بن الأشجير نظر إلى المهلب بن أبي صفرة وعليه حلة يسهها وعشي الخيل فقال يا أبا عبد الله ما هذه المشية التي يعضها الله ورسوله فقال المهلب أما تعرفني فقال بل أعرفك أولئك نطفة مذرة وآخرك حيفة قدرة وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة فأخذ ابن عوف هذا الكلام فظلمه شعر اقل

تجبت من محب بصورته * وكان بالامس نطفة مذرة وفي غدي بعد حسن صورته * يصير في اللحد حيفة تذرة وهو على تبهه ونخوته * ما بين نوبه يحمل العذرة

وقد كان المهلب أفضل من أن يمدح نفسه بهذا الجواب الغير الصواب ولكنه نازلة من زلات الاسترسال وخطيئة من خطأ الادلال فأما الحق الصريح والجهل القبيح فهو ما حكي عن نافع بن جبير بن مطعم أنه جلس في حلقة العلماء بن عبد الرحمن الخرق وهو يقرئ الناس فلما فرغ قال أتدرون لم جلسنا اليكم قالوا اجلس لتسمع قال لا ولكني أردت أن أتواضع لله بالجلوس اليكم فهل رجي من هذا فضل أو يقع فيه عذل * وقد قال ابن المعتز لما عرف أهل النقص حالهم عند ذوى الكمال استعانوا بالكبر ليغظم صغيراً ويرفع حقيراً وليس بفاعل وأما الإعجاب فبني المحاسن ويظهر المساوي ويكسب المذام ويصلح الفضائل * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الإعجاب ليا كل الحسنات كجأت كل النار الحطب وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الإعجاب ضد الصواب وأفة الابواب وقال بزرجهر النعمية التي لا يحسد صاحبها عليها التواضع والبلاء الذي لا يرحم صاحبه منه الإعجاب * وقال بعض الحكماء عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله وليس إلى ما يكسبه الكبر من المقت حد ولا إلى ما ينتهي إليه الإعجاب من الجهل غاية حتى أنه ليغطي من المحاسن ما تنتشر ويسلب من الفضائل ما تشتهر وناهيك ببسطة تحيط كل حسنة وبمذمة تهدم كل فضيلة مع ما يثيره من حقد ويكسبه من حقد * حكى عمر بن حفص قال قبل المعراج كيف وجدت من ذلك بالعراف قال خير منزل لو كان الله بلغني قتل أربعة فقربت إليهم ما بهم * ولما ولى مقاتل بن سميع محسنان أماناً الناس فأعطاهم الأموال فلما عزل دخل مسجد البصرة فسط الناس له أردتهم فمضى عليها وقال لرجل عايشه مثل هذا فليجعل الماملون وعبد الله بن زياد بن طبيان النبي خوف أهل البصرة أمر خطيب خطبة أو خرفها فنادى الناس من أراض المسحداً كثر الله فينا

في الجسد ولا بالهالم السفلى المكان الاسفل في الجسد بل كل محسوس فهو أسفل وان كان محسوسا في المكان الأعلى . وكل معقول فهو أعلى وان كان معقولا في المكان الاسفل وينبغي ان يعلم انه يحتاج في صحة الارواح اطبيقا للمستغنية عن الابدان الى شي من السعادات البدنية التي ذكرناها سوى سعادة

١٢٩

النفس فقط اعني المعقولات الابدية التي هي الحكمة فقط فاذا ما دام الانسان انسانا فلا تليق له السعادة الا بتحصيل الحالين جميعا وليس يحصلان على التمام الا بالاشياء النافعة في الوصول الى الحكمة الابدية . فالسعيد اذا من الناس يكون في

احدى مرتين . إما مرتبة الاشياء الجسمانية متعلقا بأحوالها السفلى سعيدا بها وهو مع ذلك يطالع الامور الشريفة باحثا عنها مشتاقا لها متحركا نحوها مفتطبا لها . واما ان يكون في مرتبة الاشياء الروحية متعلقا بأحوالها العليا سعيدا بها وهو مع ذلك يطالع الامور الدينية معتبرا بها ناظرا في علامات القدرة الالهية ودلائل الحكمة البالغة مقتدبا بها ناظما لها مفضيا للبركات عليها باقفا لها نحو الافضل فالافضل بحسب قبولها وعلى نحو استطاعتها . وأي امرئ لم يحصل في احدي هاتين المرتبتين فهو في مرتبة

مثلا فقال لقد كافتم الله شهوا ومعبدن زرارة كان ذات يوم جالسا في طريق فمرت به امرأة فقالت له يا عبد الله كيف الطريق اي موضع كذا فقال يا هاته من لي يكون من عبيد الله أو شعثا اذ سدني أضل را حلتها فالتسها الناس فلم يجدوها فقال والله ان لم ير دالي را حتى لا صليت له صلاه أبدا فالتسها الناس فوجدوها فقال والله قد ردا الله را حلتك فحصل فقال ان عيني بين مصر فانظر لاي هؤلاء كيف أفضي بهم العجب الى حتى صار وابنه كالا في الاولين ومثلا في الآخرين ولتصور المحب المتكبر ما فطر عليه من جبلة . ويلي به من مهنة لخفض جناح نفسه واستبدل لبنا من عتوه وسكونا من نفوره * وقال الاحف ابن قيس عجمت لن جرى في مجرى البول مرتين كيفية كبر وقد وصف بعض الشعراء الانسان فقال

يا مظهر الكبر اعجابا بصورته * انظر خللك فان النتن تثرى
لوفكر الناس فيما في بطونهم * ما استشعرا الكبر شيان ولا شيب
هل في ابن آدم مثل لرأس مكرمة * وهو يخمس من الانذار مضروب
أنف يسيل وأذن ربحها سهل * واين مرفضة والتغرملعوب
يا ابن التراب وما كول التراب غدا * أقصر فانك ما كول ومشروب
وأحق من كان الكبر مجتبا ولا اعجاب ميانة من جل الدنيا قدره وعظم فيها خطر
لانه قد يستغل بعالي همته كل كثير ويستصغر معها كل كبر * وقال محمد بن علي
لا ينبغي للشريف أن يرى شيأ من الدنيا لنفسه خطيرا فيكون بها نالها * وقال ابن السماك
لعيسى بن موسى تواضع في شرك أشرف للثمن شرفك وكان قال اسمان متضادان
بمعنى واحد التواضع والشرف والكبر أسباب فن أقوى أسبابه علو اليد ونفوذا المرولة
مخالطة الاكفاء * وحكى أن قوما شوا خلف علي بن أبي طالب رضى الله عنه فقال
أبعدوا عني خفق نعالكم فانها مفسدة لتلوب نوكي الرجال ومشوا خلف ابن مسعود فقال
ارجعوا فانها زلة للتابع وفتنة للتبوع * وروى قيس بن حازم أن رجلا أتى به للنبي صلى
الله عليه وسلم فأصابته رعدة فقال له صلى الله عليه وسلم هون عليك يا غافا أنا ابن امرأة
كانت تأكل القديد وانما قال ذلك صلى الله عليه وسلم حسما للمواد الكبر وقطعا
لذرائع الاعجاب وكسر الاشهر النفس وتذليلا لسلطة الاستعلاء * ومثل ذلك
ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه نادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس
صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال يا أيها الناس لقد
رايتني أرى على حالاتي من بنى مخزوم فيقبضن لي القبض من التمر والبيب فاطل
اليوم وأي يوم فقال له عبد الرحمن بن عوف والله يا أمير المؤمنين ما زدت على أن أقصر

﴿ ١٧ - أدب الدنيا ﴾

الانعام بل هواضل . وانما صار اضل لان تلك غير معرضة لهذه الخيرات ولا أعطيت استطاعة تحرك بها نحو هذه المراتب العالية . وانما تحرك بقواها نحو كمالها الخاصة بها والانسان معرض لها مندوب اليها من ارجح العلة فيها وهو مع ذلك غير محصل لها ولا ساع نحوها . وهو مع ذلك مؤثر لندمها يستعمل قواه

الشرقية في الامور الدنيئة وتلك محصلة كمالها التي تخصها فاذا الانعام اذا منعت الخسرات الانسية حومت جوار الارواح الطيبة ودخل الجنة التي وعد المتقون فهي معذورة . والانسان غير معذور . مثل الاول مثل الاعمي اذا حار عن الطريق فتردى في بئر فهو ١٣٠

حتى يتردى في البئر فهو محقون ملوم . واذا قد بين ان السعد لا يحال في احدي المرتبتين اللتين ذكرناهما فقد بين ايضا ان احدهما ناقص مقصر عن الآخرين وان الانقص منهما ليس مخلو ولا يتعرق من الآلام والخسرات لأجل خدائع الطبيعة و الزخارف والغسبية التي تعرض فيها بلا بسه وتموتة عما يلاحظه وغنمه من الترقى فيها على ما ينبغي وتشغله بما يتعلق به من الامور الجسمانية فصاحب هذه المرتبة غير كامل على الإطلاق ولا سعيد تام . وان صاحب المرتبة الاخرى هو السعيد التام وهو الذي توفر حظ من الحكمة فهو مقسم برؤيته بين المالا الأعلى يستمد منهم لطائف الحكمة ويستتر بالنور الالهي ويستتر بدمن فضائله بحسب عنايته بها وقلة عوائقها . ولذلك يكون ابتداءها من الآلام والخسرات التي لا يخلو

بنفسه فقال عمر رضي الله عنه ويحك يا ابن عوف اني خلوت خديتي نفسي فقالت أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك فأردت أن أعرفها نفسها . ولا يحجاب أسباب فن أقوى أسبابه كثرة مدح المتقربين وأطراء المتعلقين الذين جعلوا التفائق عادة ومكسبا والمتلق خديعة وملعبا فاذا وجدوه مقبولا في العقول الضعيفة أغروا أربابها باعتقاد كذبهم وجعلوا ذلك سبيل الاستزاء بهم * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سمع رجلا يركب رجلا فقال له قطعت مطاهر لسمعها ما أفزع بعدها * وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه المدح زنج وقال ابن المقفع قابل المدح كإدح نفسه * وقال بعض الحكماء من رضى أن يدح بما ليس فيه فقد أمكن السخامة * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يا اباكم والتامح فانه الذبح ان كان أحدكم مادحا أخاه لمحال فليقل أحسب ولا أركى على الله أحدا * وقيل فيما أنزل الله عز وجل من الكتب السالفة عجبت لمن قيل فيه ان خير وليس فيه كيف يفزع وعجبت لمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب * وقال بعض الشعراء

يا جاهلا غره إفراط مادحه * لا يلبث جهل من أطراك عليك بك
أنتى وقال بلا علم أحاط به * وأنت أعلم بالمحصل من ربيك

وهذا أمر ينبغي للعالم أن يضبط نفسه عن أن يستفز هواه ويمعنه من تصديق المدح لها فان للنفس ميلا لحب الثناء وسعاج المدح * وقال الشاعر

يهوى الثناء مبرز ومقصر * حب الثناء طبيعة الانسان

فاذا ساع نفسه في مدح الصبوة وتابعها على هذه الشهوة تشاغل بها عن الفضائل المددحة ولها بها عن المحاسن المنوحة فصار الظاهر من مدحه كذبا والباطن من ذمه صدقا وعند تقابلها يكون الصدق أزم الامر من وهذه خديعة لا يرتضيها عاقل ولا يفخخ بها مهيمر ويعلم أن المتقرب بالمدح يسرف مع القبول ويكف مع الالباء فلا يلبه حسن الظن على تصديق مدح هو أعرف بحقيقته وليكن تهمة المادح أغلب عليه فقل مدح كان جميعه صدقا وقل ثناء كان كله حقا ولذلك كره أهل الفضل أن يلقوا ألسنتهم بالثناء والمدح تحصر زامن التجاوز فيه وترها عن التملق به * وقد روى مكحول قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسكروا عيابين ولا تسكنوا العائنين ولا تتمادحوا بين ولا تفتاوتين * وحكى الاصمعي أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان اذا مدح قال اللهم أنت أعلم بي من نفسي وأنا أعلم بنفسي منهم اللهم اجعلني خيرا مما يحسبون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون * وقال بعض الشعراء

إذا المرء لم بمدحه حسن فعاله * فادحه بهذي وإن كان مقصها

وربما آل حب المدح بصاحبه الى أن يصير مادح نفسه إمالته وهمه أن الناس قد غفلوا عن

صاحب المرتبة الاولى منها ويكون مسررا ألبا بانه معتبطا بحاله وبما يحصل له دائما من فض فضله فورا لأهل فليس يسر الابتك الاحوال ولا يغتبط الابتك المحاسن ولا يمش الا لاظهار تلك الحكمة بين أهلها ولا يراح الا لثنا سبه أو قاربه وأحب الاقتباس منه . وهذه المرتبة التي من وصل اليها فقد وصل الى آخر السعادات واقصاها

وهو الذي لا يبالى بفراق الأحباب من أهل الدنيا ولا يتعسر على ما يقوته من التمتع فيها . وهو الذي يرى جسمه وماله
وجميع خيرات الدنيا التي عددها في السعادات التي في يده والخارجة عنه كلها كالأعلى من رات يحتاج إليها
ليدنه الذي هو مربوط به لا يستطيع الانفصال عنه إلا عند ١٣١ مشقة خالقه وهو الذي يشتاق إلى محبة

أشكاله وملاقاة من

يناسبه من الأرواح

الطيفة والملائكة

المقربين وهو الذي لا يقبل

إلا ما أَرَادَ الله منه ولا

يختار إلا ما قرب إليه ولا

يخالفه إلى شيء من شهوراته

الردية ولا يتخذه عتداً مع

الطبيعة ولا يلتفت إلى شيء

يسوقه عن سعاده وهو

الذي لا يحزن على فقد

محبوب ولا يتعسر على

فوت مطلوب إلا أن هذه

المرتبة الأخيرة تتفاوت

تفاوتاً عظيماً أعني أن من

يصل إليها من الناس

يكون على طقات كثيرة

غير متقاربة . وهما أن

المرتبتين هما اللتان ساق

الحكمم الكلام إليهما

واختار المرتبة الأخيرة

منهما وذلك في كتابه

المسمى فضائل النفس

وانا أورد القاطن السقي

نقلت إلى العربية بعينها

قال

أول رتب الفضائل هي

أول رتب الفضائل تسمى

سعاده وهي أن يصرف

الإنسان ارادته ومحاولاته

إلى مصالحه في العالم

فضله وأخلاقه . وأما الخدع بهم بتدليس نفسه بالمدح والاطراء فيعتقدون أن قوله حق
منيع وصدق مستمع وإما التلذذ بسماع النناء وسرور نفسه بالمدح والاطراء كما يتغنى بنفسه
طرباً إذا لم يسمع صوتاً مطرباً ولا اغناء ممتعا ولا شيء ذلك كان فهو الجهل الصريح والنقص
الفضيخ . وقد قال بعض الشعراء

وما شرف أن يمدح المرء نفسه * ولكن أعماله ترفع

وما كل حين يصدق المرء ظنه * ولا كل أحماب التجارة يبرح

ولا كل من تزجوا فيلح حافظاً * ولا كل من ضم الوديعه يصلح

ويبقى العاقل أن يسترشد أخوان الصدق الذين هم أصفاء القلوب ومربوا المحاسن

والعيوب على ما ينهونه عليه من مساو به التي صرفه حسن الظن عنها فانهم أمكن نظراً

أو أسلم فكاراً ويجعلون ما ينهونه عليه من مساو به عوضاً عن تصديق المدح فيه . وقدرى

أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال المؤمن مرآة المؤمن إذا رأى فيسيه عيباً

أصلحه وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول رحم الله امرأ أهدى الناس مساوياً .

وقيل لبعض الحكماء أجب أن تهدي إليك عيوبك قال نعم من ناصح ومجاويز معنى هذا

القول ما روى عن عمر رضي الله عنه أنه قال لابن عباس رضي الله عنهما من ترى أن نؤليه

جسم فقال رجلاً صيحياً منك صيحياً قال تكون أنت ذلك الرجل قال لا نتفع في مع سوء

ظني بل وسوء ظنك بي . وقيل في منشور الحكم أن أظهر عيب نفسه فقدز كاهاناً إذا قطع

أسباب الكبر وحسم مواد الجب اعراضاً بالكبر تواضعاً بالجب وتودداً وذلك من

أو كذا أسباب الكرامة وأقوى مواد التمع وأبلغ شافع إلى القلوب يعطفها إلى المحبة ويثنيها

عن البعض . وقال بعض الحكماء من برئ من ثلاث نال ثلاثاً من برئ من السرف نال العز

ومن برئ من الجمل نال الشرف ومن برئ من الكبر نال الكرامة . وقال مصعب بن الزبير

التواضع مصائد الشرف وقيل في منشور الحكم من دام تواضعه كثر صدقه وقد تحدث

المنازل والولايات أقوم أخلاقاً مذمومة يظهرها سوء طبعهم ولا تحزن فضائل محمود

يبعث عليها زكاه شيمهم لأن لتقلب الأحوال سكرة تظهر من الأخلاق مكنونها ومن السرائر

تخزونها والاسماء إذا هجمت من غير تدريج وطرف من غير تأهب . وقد قال بعض الحكماء

في تقلب الأحوال تعرف جواهر الرجال وقال الفضل بن سهل من كانت ولايته دون قدره

تواضع لها . وقال بعض البلغاء الناس في الولاية رجالان رجل يحل العمل بنفسه وممونه

ورجل يحل بالعمل لنفسه ودناؤه فن جل عن عمله ازداد به تواضعاً وبشراً ومن جل عنه

عمله ازداد به تحيراً وتكبيراً

الفصل الثاني في حسن الخلق روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله تعالى

المحسوس والامور المحسوسة من امور النفس والبدن وما كان من الاحوال متصلاً بهما ومشاركاً لهما من الامور
النفسانية ويكون تصرفه في الاحوال المحسوسة تصرفاً لا يخرج به عن الاعتدال الملائم لأحواله الحسية وهذه حال قد
يتلبس فيها الإنسان بالأهواء والشهوات إلا أن ذلك بقدر معتدل غير مفرط وهو ما ينبغي أقرب منه إلى ما لا يسيغه وذلك

أنه يجزى أمره نحو صواب التدبير المتوسط في كل فضيلة ولا يخرج به عن تقدير الفكر وإن لابس الأمور المحسوسة وتصرف فيها . ثم الرتبة الثانية وهي التي يصرف الإنسان فيها رادته ومحاولاته إلى الأفضل من صلاح النفس والبدن من غير أن يتلبس مع ذلك ١٣٢ بشئ من الأهواء والشهوات ولا يكتر بشئ من النفقات

المحسوسة إلا بما تدعو إليه الضرورة . ثم تترادف رتبة الإنسان في هذا الضرب من الفضيلة . وذلك أن الأماكن والرتب في هذا الضرب من الفضائل كثيرة بعضها فوق بعض وسبب ذلك . أما أولاً باختلاف طبائع الناس وثانياً على حسب العادات وثالثاً بحسب منازلهم ومواقعهم من الفضل والعلم والمعرفة والفهم . ورابعاً بحسب همهم وخامساً بحسب شوقهم ومعاناتهم . ويقال أيضاً بحسب حدهم * ثم تكون النقلة في آخر هذه

المرتبة أعني هذا الصنف من الفضيلة إلى الفضيلة الالهية المحضة * وهي التي لا يكون فيها تشوق إلى آت ولا تعلق بالماضي ولا تشيع لحال ولا تطلع إلى ناء ولا ضيق بقرب ولا خوف ولا فرح من أمر ولا شغف بحال ولا طلب لحظ من حظوظ الانسانية ولا من الحظوظ النفسانية أيضاً ولا ما تدعو الضرورة اليه من حاجة البدن ولا القوى النفسانية * لكن يتصرف بتصرف الخير العتلي في أعلى رتب الفضائل وهو صرف الوقت إلى الأمور الالهية ومعاناهوا ومحاولاتها لا يطلب عوض أعني أن يكون تصرفه فيها ومعاناهه ومحاولته هلاًل نفس ذاتها فقط وهذه الرتبة أيضاً تترادف بالناس بحسب ألهمهم والشوق وفضل المعاناه والمجاهدة وقوة التحيرة ومحة الثقة وبحسب

أصفوا كدر أحياناً مختبر * وليس مستحسننا صفوا بلا كدر وأبس برهنا كدر الذي هو البدء وشراة الخلق فان ذلك ذم لا يستحسن وعيب لا يرضى وانما يزيد الكفر والانتقاص في موضع بلام فيه المساعدو يذم فيه الموافق فاذا كانت لمحسن الاخلاق حدود مقدرة ومواقع مستحقة فان تجاوزها الحد صارت ملحقاً وان عدل بها عن مواضعها صارت نفاً قالوا بل ذل والنفاق لؤم وليس لمن وسع به اذ مبرور ولا شمر شكور . وقدرى حكيم عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم شر الناس ذوا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه . وروى مكحول عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون وجهياً عند الله تعالى وقال سعيد بن عروة لأن يكون لى نصف وجه ونصف لسان على ما فهم ما من تيم المنظر ويجز الخبر أحب إلى من أن أكون ذوا وجهين وذالسانين ذاقولين مختلفين . وقال الشاعر

خل النفاق لاهله * وعليك فاتمسه الطريقا

وارغب ولكن يتصرف بتصرف الخير العتلي في أعلى رتب الفضائل وهو صرف الوقت إلى الأمور الالهية ومعاناهوا ومحاولاتها لا يطلب عوض أعني أن يكون تصرفه فيها ومعاناهه ومحاولته هلاًل نفس ذاتها فقط وهذه الرتبة أيضاً تترادف بالناس بحسب ألهمهم والشوق وفضل المعاناه والمجاهدة وقوة التحيرة ومحة الثقة وبحسب

منزلة من بلغ الى هذا المبلغ من الفضيلة في هذه الاحوال التي عندنا هالي أن يكون تشبهه بالعله الاولى واقتداؤها وابعاضها
 ﴿آخر مراتب الفضائل﴾ وآخر المراتب في الفضيلة أن تكون أفعال الانسان كلها أفعالا الهية
 وهذه الافعال هي خير محض والفعل اذا كان خيرا محضا فليس ١٣٣
 يفعله فاعله من أجل شيء آخر غير

الفعل نفسه وذلك ان الخير
 المحض هو غاية متوخاة
 لذاتها أي هو الامر المطلوب
 المقصود لذاته والامر
 الذي هو غاية في نهاية
 النقاسة ليس يكون من
 أجل شيء آخر * فافعل
 الانسان اذا صارت كلها
 الهية فهي كلها اغنائت صدر
 عن له وذاته الحقيقية
 التي هي عقله الالهى الذي
 هو ذاته بالحقيقة وتزل
 وتهدر وتغوت سائر دواعي
 طاعة البدني بسائر

عوارض النفس المبهمة
 وعوارض العقل المتولد
 عنهما وعن دواعي نفسه
 الحسية فلا يبق له حيث
 ارادة ولا همة خارجتان
 عن فعله من أجلهما يفعل
 ما يفعل لكنه يفعل
 ما يفعله بلا ارادة ولا همة
 في سوى الفعل اى لا يكون
 غرضه في فعله غير ذات
 الفعل وهذا هو سبيل
 العقل الالهى فهذه الحال
 هي آخر رتب الفضائل
 التي يتقبل فيها الانسان
 أفعال المبدأ الاول خالق
 الكل عز وجل اعني أن
 يكون فيما يفعله لا يطلب

به حظا ولا مجازاة ولا عوضا ولا زيادة لكن يكون فعله بعينه هو غرضه أى ليس يفعله من أجل شيء آخر سوى ذات الفعل
 * ومعنى ذاته هو أن لا يفعل ما يفعله من أجل شيء غير فعله نفسه وذاته نفسها هي الفعل الالهى نفسه وهكذا يفعل
 البارى تعالى لذاته لا من أجل شيء آخر خارج عنه * وذلك ان فعل الانسان في هذه الحال يكون كالقائنا خيرا محضا

وارغب بنفسك أن ترى * الاعدوا أو صديقا
 وقال ابراهيم بن محمد

وكم من صديق وده بلسانه * خون يظهر القيب لا يستد
 تصاحكني عجب اذا ما اغتبه * ويصدقني منه اذا غبت أسهم
 كذلك والوجهين يرضيك شاهدا * وفي غيبه ان غاب صاب وعلم

وربما تغر حسن الخلق والوطاء الى اثرا سة والبذاء لأسباب عارضة وأمر طرارة تجعل
 الان خشونة والوطاء غلظة والطلاقة عيبا فمن أسباب ذلك الولاية التي تحدث في
 الاخلاء تغيرا وعلى الخلفاء تنكرا اما من اثم طبع . واما من ضيق صدر . وقيل من
 ناه في ولايته ذل في عزله وقيل ذل العزل بضل من تبه الولاية . ومنها العزل فقد
 يسوء به الخلق ويضيق به الصدر اما الشدة أشف أو قلة صدر . حكى جيد الطويل أن
 عمار بن ياسر عزل عن ولاية فاشتد ذلك عليه وقال اني وجدت حلوله الرضا مرة الفطام .
 ومنها الغنى فقد تنغير به أخلاق اللئيم بطرا وتسوء طرائقه أشرا وقيل من نال
 استطال وأشد الرأى

غضبان يعلم أن المال ساق له * ما لم يسسقه له دين ولا خلق
 فمن يكن عن كرام الناس بسأئى * فأكرم الناس من كانت له ورق
 وقال بعض الشعراء

فان تكن الدنيا أنالتكثرة * فأصعبت ذايسر وقد كنت ذا عسر
 لقد كشف الآثام منك خلافتا * من الآثام كانت تحت ثوب من الفقر

وحسب ما أفسده الغنى كذلك يصلحه الفقر وكتب قتبية بن مسلم الى الحجاج أن أهل الشام
 قد اتواؤه فكتب اليه أن اقطع عنهم الارزاق ففعل فساعت حالهم فاجتمعوا اليه فقالوا
 أفلنا فكتب الي الحجاج فيهم فكتب اليه ان كنت أنت منهم رشدا فأجر عليهم ما كنت
 تجرى واعلم أن الفقر جند الله الاكبر يدل به كل جبار عنيد يتكبر وقد روى عن النبي
 صلى الله عليه وسلم أنه قال لو لا أن الله تعالى أنزل ابن آدم بثلاث ما طأ طأ رأسه شيء الفسق
 والمرض والموت . ومنها الفقر فقد يتغير به الخلق اما أنفسه من ذل الاستكاة أو أسفعا على
 فانت الغنى ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم كاد الفقر أن يكون كفرا وكاد لفسدان
 يغلب القدر . وقال أبو تمام الطائي

وأعجب حال ابن آدم خلقه * يضل اذا فكرت في كنهه الفكر
 ففرح بشئ القليل بقائه * ويجزع مما صار وهو له ذخر

وربما تسلى من هذه الحالة بالاماني وان قل صدقها فتدقيل فلما تصدق الامنية ولكن قد

وحكمة محضه فيدأ بالفعل لنفس اظهار الفعل فقط لا لغايه اخرى يتوخاها بالفعل وهكذا فعل الله عز وجل الخاص به ليس هو على القصد الاول من أجل شئ خارج عن ذاته أعني ليس ذلك من أجل سياسة الاشياء التي نحن بعضها لانه لو كان كذلك لكانت أفعاله ١٣٤ حيثما غما كانت وتكون وتمت بمشارفة الامور التي من

خارج ولتدبيرها وتدبير
أحوالها واهتمامها بها
وعلى هذا تكون الاشياء
التي من خارج أسبابا وعللا
لا فاعلا وهذا اشيع قبيح
تعالى الله عنه علوا كبيرا
لكن عنايته عز وجل
بالاشياء التي من خارج
وفعله الذي يدبرها به
ويرفدها انما هو على القصد
الثاني وليس بفعل ما يفعله
من أجل الاشياء أنفسها
لكن من أجل ذاته أيضا
وذلك لاجل ان ذاته تفضل
لذا تأمل من أجل الفضل
عليه ولا من أجل شئ آخر
وهكذا سبيل الانسان اذا
بلغ الى الغاية القصوى في
الامكان من الاقتداء
بالباري عز وجل تكون
أفعاله التي يفعلها على
القصد الاول من أجل
ذاته نفسها التي هي العقل
الالهي ومن أجل الفعل
نفسه وان فعل فعلا يرفد
بغيره وينقصه به فليس
فعله ذلك على القصد الاول
من أجل ذلك الغير ولكن
يفعل بذلك الغير ما يفعله
به بقصد ثان وفعله ذلك

يقتاض بها سلوة من هم أو مسرة بجرء . وقد قال أبو الغنايمه
حرك مناك اذا اغتمه * ت فانهن مراوح
وقال آخر
اذا تخيفت الليل مقتنطاً * ان المني رأس أموال المفاليس
ومنها الهموم التي تذهل القلب وتشغل القلب فلا تتبع الاحتمال ولا تقوى على صبر وقد قيل
الهم كالسم . وقال بعض الادباء الحزن كالداء الحزن في فؤاد المحزون . وقال بعض
الشعراء
همومك بالعيش مقرونة * فمات قطع العيش الابهيم
اذا تم امر هذا نقصه * ترقب زوال اذا قيل تم
اذا كنت في نعمة فارعها * فان المعاصي تزيل النعم
وحام عليها بشكر الاله * فان الاله سريع النقم
حلاوة دنياك مسمومة * فماتك الشهدا لا بسهم
فكم تدرى في مهلة * فليعلم الناس حتى فهم
ومنها الامراض التي يتغير بها الطبع كما يتغير بها الجسم فلا تتبع الاخلاق على اعتدال ولا
يقدر معها على احتمال . وقد قال المتنبي
آله العيش صحة وشباب * فاذا وليا عن المسرور
واذا الشيخ قال أف فامسل حياة وانما الفضع ملا
واذا لم تجد من الناس كفوا * ذات خدر ارا دت الموت بعلا
أبدات تسترد ما تهب الدن * يا فيا ليت جودها كان بخلا
ومنها علو السن وحدوث الهرم لتأثيره في آله الجسد كذلك يكون تأثيره في اخلاق النفس
فكما ينضعف الجسد عن احتمال ما كان يطيعه من أثقال فكذلك ينضعف النفس عن أثقال
ما كانت تصبر عليه من مخافة الوفاق ومضيق الشقاق وكذلك ما ضاهاه . وقال منصور
النري ما كنت أوفى شبابي كنه عزته * حتى مضى فاذا الدنيا له تبع
أصبحت لم تطهي شكل الشبَاب ولم * تتهي لغضبه فالعذر لا يقع
ما كان أقصر أيام الشبَاب وما * أبقي حلاوة كراه التي تدع
ما واجه الشيب من عين وان رمقت * الالهان بسوء عنه ومهر تدع
قد كنت تقضي على قوت الشبَاب أمي * لو لا بعز يك أن الصبر منقطع
فهذه سبعة أسباب أحدثت سوء خلق كان عاما وهما سبب خاص يحدث سوء خلق خاص
وهو الغضب الذي تنفر منه النفس فتحدث نفورا عن المبعوض فيؤثر الى سوء خلق يخصه

من أجل ذاته بالقصد الاول ومن أجل الفعل نفسه أي لنفس التفصيله
وانفس اخير لان فعله ذلك تفصيله وخير ففعله لنفس الفعل لاجل احتلات متفرقة ولان دفع مضرة ولا لتباهي وطلب الرأسة
ومحبسة الصكرامة فهذا هو غرض الفلسفة ومنتهاى العبادة * الان الانسان لا يصل الى هذه الحال حتى تغنى

ارادته كلها التي بحسب الامور الخارجة متوقفي العوارض النفسانية وتقوم خواطره التي تكون عن العوارض ويثقل
شوارها وهمة الهمة واعماله على من ذلك اذا سفسا من الامر الطبيعي البتة ونفي منه نفي كاملا ثم حينئذ على معرفة الهمة
وشوقها ليا يوقن بالامور الالهية بما يتقرر في نفسه وفي ذاته التي هي (١٣٥) العقل كما تقررت فيه القضايا الاول

التي تسمى العلوم الاوائل

الان تصور العقل ورويته

في هذا الحال بالامور

الالهية وتقتضها يكون

عيني اشرف والظاف واظهر

واشهدا نكشافه وبساتا

من القضايا الاول التي

تسمى العلوم الاوائل

العقلية فهذه الفاظ هذا

الحكمكم قد نقلت انقلا

(وهي نقل أبي عثمان

للمشقي * وهذا الرجل

فصيح بالفتن جميعا اعنى

اليونانية والعربية مر مني

النقل عند جميع من طالع

هاتين الفتن وهو مع ذلك

شديد الحمري لا يراد

الافاظ اليونانية ومعانيها

من الفاظ العرب ومعانيها

لا تختلف في لفظ ولا معنى

* ومن رجع الى هذا

الكتاب اعنى المسمى

بفضائل النفس فراهذه

الافاظ كانت قلتها وليست

تحصل هذه المراتب التي

يترق فيها صاحب السعادة

التامة الا بعد ان يعلم اجزاء

الحكمة كلها علما صحيحا

ويستوفى اول اولها كما

رتبناها في كتابنا المسمى

بترتيب السعادات * ومن

دون غيره فاذا كان سوء الخلق حادثا بسبب كان زواله مقرونا بزوال ذلك السبب ثم بالصدق
والفصل الثالث في الحياء كما علم ان الخير والشر معان كمنه تعرف بسمات دالة كما قالت
العرب في امثالها تخبر عن مجهول مرآته . وكما قال عمر بن سلم الشاعر
لا تسأل المرء عن خلأته * في وجهه شاهدا من الخير

فسمه اخبر الدعة والحياء وسمة الشرا الفحة والبذاء وكفى بالحياء خيرا ان يكون على الخير
دليلا وكفى بالفحة والبذاء شرا ان يكونا الى الشر سملا . وقد روى حسان بن عطية عن ابي
امامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحياء والي شعبتان من الايمان والبذاء والبيان
شعبتان من النفاق وبشبه ان يكون الي في معنى الصمت والبيان في معنى التشايق كما جاء
في الحديث الآخر ان بعضكم الي الثرائرون المتفهمون المتشدقون . وروى ابو سلمة عن ابي
هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الحياء من الايمان والايان في الجنة
والبذاء من الجفاء والجفاء في النار . وقال بعض الحكماء من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس
عيبه . وقال بعض اللغاة حياء الوجه يحيا به كما ان حياء الفرس يحياه * وقال بعض اللغاة
العلماء بالحياء كيف لا تسفي من كثرة ما لا تسفي وتبقى من طول ما لا تبقى . وقال بعض
الشعراء وهو صالح بن عبد القدوس

اذا قل ماء الوجه قل حياؤه * ولا خير في وجه اذا قل ماؤه
حياؤه فاحفظه عليك وانما * يدل على فعل الكريم حياؤه

وليس لمن سلب الحياء صا دع فبح ولا زاجر عن محظور فهو يقدم على ما يشاء ويأتى ما يهوى
وبذلك جاء الخبر روى شعبة عن منصور بن ربي عن ابي منصور والبدري قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى بان آدم اذا لم تسخ فاصنع
ما شئت وانس هذا القول اغراء بفعل الحاضى عند قوله الحياء كما توهمه بعض من جهل
معاني الكلام ومواضع الخطاب وفي مثل هذا الخبر قول الشاعر

اذا لم تحش عاقبة اليك * ولم تسخ فاصنع ما تشاء

فلا والله ما في العيش خير * ولا الدنيا اذا ذهب الحياء

يعيش المرء ما استحي بخير * ويبقى العود ما بقى الحياء

واختلف أهل العلم في معنى هذا الخبر فقال ابو بكر بن محمد الشاشي في اصول الفقه معنى
هذا الحديث ان من لم يسحي دعاه ترك الحياء الى ان يعمل ما يشاء لا بدعه عنه رادع فليسفي
المرء فان الحياء بدعه وسعت من يحكى عن ابي بكر الرازي من اصحاب ابي حنيفة ان المعنى
فيه اذا عرفت عليك افعالك التي هممت بفعلها فلم تسحي منها لحسنها وجمالها فاصنع
ما شئت منها فجعل الحياء حكما على افعاله وكلا القولين حسن والا اول اشبه لان الكلام
خرج من النبي صلى الله عليه وسلم مخرج المخرج المخرج لكن قد جاء الحديث بما

ظن من الناس انه يصل اليها بغير تلك الطريقة وعلى غير ذلك المنهج فقد ظن باطلا وبعد عن الحق بعدا كثيرا * وليتذكر
في هذا الموضوع الخطأ العظيم الذي وقع فيه قوم ظنوا انهم يدركون الفضيلة بتعطيل القوة العاملة واحمالها وترك النظر
الخاص بالعقل واكتفاءهم باعمال ليست مدنية ولا بحسب ما يقسطه التمييز والعقل * وقد ساء قوم العاملة والناجبة *

ولذلك رتبنا هذا الكتاب عقب ذلك الكتاب ليحفظ منهما السعادة الاخيرة المطلوبة بالحكمة بالغلو وتذب لها النفس وتنبت لقبولها غسلًا وتنقية من الامور الطبيعية وشهوات الابدان * ولذلك سميتها ايضا بكتاب طهارة الاعراق (وقد قال ارسطو طاليس في كتابه المسمى (الاخلاق) ان هذا الكتاب لا ينتفع به الاحداث كثيرا منفعته ولا من

(١٣٦)

هوى طبيعة الاحداث * قال ولست اعني بالحدث ههنا حدث السن لان الزمان لا تأثير له في هذا المعنى * وانما اعني السيرة التي يقصدها اهل الشهوات والذات الحسية * * * * * واما انا فاقول اني ما ذكرت هذه المراتبة الاخيرة من السعادة طمعا في وصول الاحداث اليها بل ليرعى سمعهم فقط ولعلم ان ههنا مرتبة حكمية لا يصل اليها الا اهلها الاعلون مرتبة * فلهتمس كل من نظرفي هذا الكتاب المرتبة الاولى منها بالاخلاق التي وصفتها فان وفق بعد ذلك واعانه الشوق الشديد والحرص التام وسائر ما ذكرناه ووصفناه عن الحكميم فليترق في درجة الحكمة وليستعاضد فيها بجهد فان الله عز وجل يعينه ويوفقه * فاذا بلغ الانسان الى غاية هذه السعادة ثم فارق جسمه الكثيف دنياه الدنيئة وتجرد بنفسه اللطيفة التي عني بتطهيرها وغسلها من الاناس الطبيعية لاخرها العلية فقد

بضاهي القول الثاني وهو قوله صلى الله عليه وسلم ما احببت أن سمعته اذنك فانه وما كرهت أن سمعته اذنك فاجتنبه ويجوز ان يحمل هذا الحديث على المعنى الصريح فيه ويكون التأويل الاول في الحديث المتقدم أصح اذ ليس يلزم أن تكون احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها متفقة المعاني بل اختلاف معانيها أدخل في الحكمة وأبلغ في الفصاحة اذ لم يضاد بعضها بعضا واعلم أن الحياة في الانسان قد يكون من ثلاثة أوجه أحدها حياة مؤمن بالله تعالى والثاني حياة مؤمن بالناس والثالث حياة مؤمن من نفسه فاما حياته من الله تعالى فيكون بمثابة الاله وأوامره والكف عن زواجره * وروى ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال استحيوا من الله عز وجل حق الحياء فليل يا رسول الله فكيف استحي من الله عز وجل حق الحياء قال من حفظ الرأس وما حوى والبطن وما عوى وترك زينة الحياة الدنيا وذكر الموت والى * * * * * فتمد استحي من الله عز وجل حق الحياء وهذا الحديث من أبلغ الوصايا * وقال أبو الحسن الماوردي مصنف الكتاب رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ذات ليلة فقلت يا رسول الله أوصني فقال استحي من الله عز وجل حق الحياء ثم قال تغير الناس قلت وكيف ذلك يا رسول الله قال كنت أنظر الى الصبي فأرى من وجهه البشر والحياء رأنا أنظر اليه اليوم فلا أرى ذلك في وجهه ثم تكلم بعد ذلك بوصايا وعظايات تصورها وأذهلتني السرور وعن حفظها ووددت أني لو حفظتها لم يبدأ بشي صلى الله عليه وسلم قل الوصية بالحياء من الله عز وجل وجعل ما سلمه الصبي من البشر والحياء سببا لتغير الناس وخص الصبي لان ما أتبه بالطمع من غير تكلف فصلى الله وسلم على من هدى أمته وتابع أذارها وقطع أعذارها وأوصل ناديتها وحفظ تهذيبها وجعل لكل عصر حظا من زواجره ونصييها من أوامره أعاسا الله على قبولها والعمل وعلى استدامتها بالتوفيق * وقد روى أن علقمة بن علاثة قال يا رسول الله عطني فقال النبي صلى الله عليه وسلم استحي من الله تعالى استحياءك من ذوى الهيمة من قومك وهذا الحياء يكون من قوة الدين وحمية الدين ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم فله الحياء كفر يعني من الله لما فيه من مخالفة أوامره * وقال صلى الله عليه وسلم الحياء نظام الايمان فاذا انحل نظام الشيء تبدد ما فيه وتفرق وأما حياته من الناس فيكون بكف الاذى وترك المجاهرة بالقبیح * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من اتقى الله اتقى الناس * وروى أن حذيفة بن اليمان أتى الجمعة فوجد الناس قد انصرفوا فتمسك الطريق عن الناس وقال لا تخرف من لا يستحي من الناس * وقال بشار بن برد ولقد أصرف القود عن الشيء * * * * * حياء وحجبه في السواد أمسك النفس بالعنف وأمسى * ذا كرا في غدا حديث الاعادي

فاز وأعد ذاته للقيام خلفه عز وجل اعدادا روحانيا يس فيه نزاع الى تلك القوى التي كانت تعوقه وهذا عن سعاده ولا تشوق اليها لانه قد تطهر منها ونزعه عنها ولم يبق فيه ارادة لها ولا حوص عليها وقد استخلصها للقارب العالمين ولقبول كراماته وفيض نوره الذي كان غير مستعد له ولا فيه قبول من عطائه وبأتيه حيثما الذي وعده المتقون والابرار

كأحسن الأسماء إليه مراراً في قوله عز وجل (فلاتعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) وفي قول النبي صلى الله عليه وسلم
(ننالك ما لأعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) (الرتبة الأولى من السعادة الآخرة) *
وأذقنا أحرها تين المنزلتين من السعادة القصوى فقد تين (١٣٧) سائنا كافيان أحدا هبنا بالإضافة

الينا أولى والأخرى ثانية
ومن المحال أن نسلنا إلى
الثانية من غير أن نمر
بالأولى * فقد وجب أن
نعود إلى ما بدأناه من
ذكر الرتبة الأولى من
السعادة الآخرة ونستوفي

وهذا النوع من الحياة تدرك من كمال المروءة وحب الثناء * ولذلك قال صلى الله عليه
وسلم * من أنقى جلباب الحياة فلا غيبة له * يعني وأنه أعلم لقلة مشيئته وظهور شهوته
* وروى الحسن عن أبي هريرة قال قال صلى الله عليه وسلم إن مروءة رجل جل عشاء ومذخله
ونخرجه ومجلسه وإلفه وحليسه * وقال بعض الشعراء

ورب نبهة محال ينبي * وبين ركوبها إلا الحياء
إذا رزق الفتى وجهاً وقاحاً * تقلب في الأمور كما يشاء
وقال آخر

أذا لم تقص عراً ولم تخش خالفاً * وتسبح مخلوقاً فما شئت فاصنع
وأما حياؤه من نفسه فيكون بالعبقة وصيانة الخلوأ * وقال بعض الحكماء ولكن استحياءك
من نفسك أكثر من استحيائك من غيرك * وقال بعض الأدباء من عمل في السر عدا يستحي
منه في العلانية فليس لنفسه عنده قدر * ودعا قوم رجلاً كان يألف عشرين فلم يجهم وقال
إنني دخلت البارحة في الأربعين وأنا أستحي من سني * وقال بعض الشعراء
فسرى وأعلاني ونلت خلقتي * وظلمة لي مثل ضوءها ري
وهذا النوع من الحياء قد يكون من قبحته النفس وحسن السيرة فتحي كسل حياء
الإنسان من وجوهه الثلاثة فتدك في أسباب الخير وانتفت عنه أسباب الشر ومار
بالفضل مشهوراً وبالجميل مذكوراً * وقال بعض الشعراء

وإن لي شدة في عن الجهل والحنأ * وعن شدة في القربى خلأق أربع
حياة وأساس سلام وتقوى وطاعة * لربي ومثلي من يضر وينفع
وإن أخل بأحد وجوه الحياء لحق من النقص باخلاله بقدر ما كان لطيفه من الفضل
بكاله * وقد قال الرازي يقال إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يتمثل بهذا الشعر
وحاجة دون أخرى قد صنعت لها * جعلتها التي أخفت عنوانا
إنني كافي أرى من لحياءه * ولأمانة وسط القوم عريانا

والفصل الرابع في الحلم والغضب * روى محمد بن حارث الهلالي أن جبريل نزل على النبي
صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد إن أتيك بأكرم الأخلاق في الدنيا والآخرة * خذ العفو وأمر
بالعرف وأعرض عن الجاهلين * وروى سفیان بن عيينة أن النبي صلى الله عليه وسلم
حين نزلت هذه الآية قال يا جبريل ما هذا قال لا أدري حتى أسألك العالم ثم دعا جبريل وقال
يا محمد إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك * وروى
هشام عن الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أبجزأ أحدكم أن يكون كأبي مضمض كان إذا
خرج من منزله قال اللهم إني تصدقت بمرض على عبداك * وروى عن النبي صلى الله

على طبيعة الربيع ولا يوم
واحد معتدل الهواء يشرب الربيع * فعلى طالب السعادة أن يطلب
السيرة اللذيذة عنده فيسبرها دائماً فان تلك السيرة هي واحدة ولذيذة في نفسها * فلذلك قلنا أنه ينبغي أن يتشوقها
دائماً ويثبت عليها أبداً * ولما كانت السيرة ثلاثة لأنها تنقسم بانقسام الغايات الثلاثة التي يقصدها الناس أعني سيرة

اللذة وسيرة الكرامة * وسيرة الحكمة وكانت سيرة الحكمة أشرفها وأتمها وكانت فضائل النفس كثيرة * وحب ان
يفضل الانسان بافضلها ويشرف باشرافها فسيرة الافاضل السعداء سيرة لذة بنفسها لان افعالهم ابدًا مختارة ومعدودة
وكل انسان يلتذ بها هو محبوب عنده (١٣٨) * يلتذ بعمل العادل أو يلتذ بحكمة الحكميم والأفعال الافاضلة

والغابات التي ينتهي اليها
بالفضائل الزينة محسوبة
فالسعادة اذن من كل شيء
(وارسطو طاليس) يقول
ان السعادة الالهية وان
كانت كما ذكرناها من
الشرف وسيرتها اذن
وأشرف من كل سيرة فانها
محتاجة الى السموات
الآخرى خارجة لان تظهر
بها والا كانت كامنة غير
ظاهرة * واذا كانت
كذلك كان صاحبها
كالفاضل النائم الذي
لا يظهر فعله وحيث
لا يكون بينه وبين غيره
فرق كما وصفنا حالها
فيما تقدم * فاطلع اذن
على حقيقة هذه السعادة
المتكمن من اظهار فعله
بها والذي يلتذ بها هو
الذي يسر سرور حقيقيا
غير موهوم ولا مخرف
بالباطل * وهو الذي
يخرج من حد المحبة الى
المشوق والهيمن وحيث
يأنف ان يصير سلطانه
العالي يحب سلطان بطنه
وفرجه فلا يتخمد بأشرف جزء
فيه أخس خفيه * وأعني
بالسرور المزخرف

عليه وسلم أنه قال * ان الله يحب الخليم الخلي ويغض الفاحش البذي وقال عليه الصلاة
والسلام من حلم ساد ومن تفهم ازداد * وقال بعض الادباء من غرس شجرة الحلم اجتني
ثمرة السلم * وقال بعض البلغاء ما ذب عن الاعراض كالصفع والاعراض * وقال بعض
الشعراء احبهم كرام الاخلاق جهدي * وأكره ان أعيب وأن أعابا
وأصغح عن سباب الناس حلا * وشرا الناس من هوى السبابا
ومن هاب الرجال تهبوه * ومن حقرا الرجال قلن بهما
فالحلم من أشرف الاخلاق وأحقها لذوى الالباب لما فيه من سلامة العرض وراحة الجسد
واجتلاب المجد * وتقال على بن أبي طالب كرم الله وجهه أول عوض الخليم عن حلم
أن الناس أنصروه وحذا الحلم ضبط النفس عن هيجان الغضب وهذا يكون عن حلم
وسبب أسباب الحلم الباعثة على ضبط النفس عشرة أحدها الرحمة اليه بال * وذلك من خبير
بوافق رقة * وقد قيل في مثو الحكم من أوكد الحلم رحمة الجهال وقال أبو الدرداء
رضي الله عنه لرجل أحمه كلاما هذا لا تفرق في سبنا ودع للصالح موضعنا فانا لنكافئ من
عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله عز وجل فيه * وشتم رجل الشعبي فقال ان كنت
كأنت ففقر الله لي وان لم أكن كأنت ففقر الله لك * واغتاطت عائشة ترضي الله عنها على
خادم لها ثم رجعت الى نفسها فقالت لله در التقوى ما تركت لذي غيظ شفاء * وقسم معاوية
رضي الله عنه قطافا فاعطى شيخان من أهل دمشق قطيفة فلم تعجبه خلف أن يضرب بهارأس
معاوية فأناه فأخبره فقال له معاوية أوف بندرك وليرقى الشيخ بالشيخ * والثاني من أسبابه
القدرة على الانتصار وذلك من سعة الصدر وحسن التقية * وقد روى عن النبي صلى
الله عليه وسلم أنه قال اذا قدرت على عدوك فاحمل العفو شكر القدرة عليه * وقال بعض
الحكماء ليس من انكر معقوبه من لا يجد امتناعا من السطوة * وقال بعض البلغاء أحسن
المكارم عفو المقتدر وجود المقتدر * والثالث من أسبابه الترفع عن السباب وذلك من شرف
النفس وعلا الهمة كما قالت الحكماء شرف النفس أن تحمل المكاره كما تحمل المكارم
* وتقبل ان الله تعالى سمي يحيي عليه السلام سيدا للحلم وقد قال الشاعر
لا يبلغ المحمد اقواما وان كرموا * حتى يذلوا وان عزوا واتوا
ويشتموا فتري الألوان مسفرة * لا صفع ذل ولكن صفع أحلام
* والاربع من أسبابه الاستهانة بالمحس * وذلك عن ضرب من الكبر والاعجاب كما حكى عن
مصعب بن الزبير أنه لما ولي العراق جلس وما لهطاء الجند وأمر مئذنيه فنادى ابن عمرو
ابن حموز وهو الذي تمل أباه الزبير فقيل له أيها الاميرانه قد تباعد في الأرض فقال أو يظن

بالباطل اللذات التي تشركنا فيها الحيوانات التي ليست ساطقة فان
تلك اللذات حسية تنصرف وشكاوتها الخواص سرعا * فاذا مدت عليها صارت كرهية وجماعات مؤلمة وكان
للحس لذة عرضية على حدة فكذلك العقل لذة ذاتية على حدة لان لذة العقل لذة ذاتية ولذة الحس عرضية * فن لا يعرف

اللذة بالحقيقة كيف يلتذ بها ومن لا يعرف الرأسة الذاتية كيف يصير اليها فانا قد قدمنا وصفها وشوقنا اليها باعادة الكلام فيها مرارا وقتنا من لا يعرف الخير المطلق والفضيلة التامة ولا يعرف الحكمة العملية يعني ايثار الافضل والعمل به والاشتغال عليه لا ينشط له ولا يرتاح اليه * ومن كان كذلك فكيف يلتذ ويتعمع بما شرحتاه (١٣٩) ودللنا عليه * وقد كان للحكماء

المتقدمين مثل بضر لونه
ويكنونه في الهياكل وهي
مساجدهم ومصلاتهم *
وهو هذا الملك الموكل
بالدنيا يقول ان ههنا خيرا
وههنا شرا وههنا ما ليس
بخير ولا شر * فن عرف
هذه الثلاثة حتى معرفتها
تخلص مني ونحاسنا
ومن لم يعرفها فقلته شرقته
وذلك اني لا اقلته قتل ولا حيدا
ولكني اقلته اولاد اولاد في
زمان طويل فهذه المثل
(من نقر فيه وما تله عرف
منه جميع ما قد مناد كره
* وينبغي ان يعلم ان السعيد
الذي ذكرنا حاله مادام حيا
تحت هذا الفلك الدائر
بكواكبه ودرجاته
ومصالح سعوده وشحونه
يرد عليه من التكبكات
والنوائب وانواع المحن
والمصائب ما يرده على غيره
الا انه يذخر منها ولا يلحقه
ما يلحق غيره من المشقة
في احتمالها لانه غير
مستعد لسرعة الانفصال
منها باعادة الجمع والجزع
والاخران ولا قابل اثر الهوم
والاخران بالاحوال

الجاهل اني اقيده بأبي عبد الله فليظهر امتنا لياخذ عطاءه موفرا فعد الناس ذلك من
مستحسن الكبير ومثل ذلك قول بعض الزعماء في شعره

أو كلبا طن الذباب طرده * ان الذباب اذا غلى كرم
وأكثر رجل من سب الاحنف وهو لا يجيبه فقال والله ما منعه من جوابي الا هو اني عليه
* وفي مثله يقول الشاعر

فجي بلى لو لم تلصقني الذباب * حتمه مقادير ان ينالا
وأسمع رجل ابن هبيرة فاعرض عنه فقال له الرجل اياك أعني فقال له وعنتك أعرض * وفي
مثله يقول الشاعر

فاذهب فانت طليق عرضك انه * عرض عززت به وأنت ذليل

وقال عمرو بن علي

اذا نطق السفيف فلتاجبه * خفي من اجابته السكوت
سكت عن السفيف فقل اني * عيت عن الجواب وما عيت
* والخامس من أسبابه الاستعيا من جزاء الجواب وهذا يكون من صيانة النفس وكال
المروءة وقد قال بعض الحكماء احتمال السفيف خبير من التحلي بصورته والاغضاء عن
الجاهل خبير من مشاكلته * وقال بعض الادباء ما أحش حليم ولا أوحش كريم * وقال
لقيط بن زرارة

وقل لبني سعد فاني ومالك * ترقون مني ما استطعتم وأعتق
أغركم اني باحسن شيمة * بصبر واني بالفواحش أخرق
وان تلذذ فاحشيتي فقهرتني * هين ما شريأنت بالفحش أحرق

والسادس من أسبابه التفضل على السباب فهذا يكون من الكرم وحب التألف كما قيل
للاسكندر ان فلانا وفلانا يتقصانك ويتلذبانك فلو عاقبتهما فقال هما بعد العقوبة أعذرتني
بنقصي وتلبي فكان هذا تفضلا منه وتلانا وقد حكى عن الاحنف بن قيس أنه قال ما عاداتي
أحذق الا اخذت في امره باحدى ثلاث خصال ان كان أعلى مني عرفت له قدره وان كان
دوني رفعت قدرى عنه وان كان نظيري تفضلت عليه فأخذ المثليل فظمه شعر فقال

سألزم نفسي الصفع عن كل مذهب * وان كثرت منه الى الجراثيم
فما الناس الا واحد من ثلاثة * شريف ومشروف ومثل مقاوم
فاما الذي فوق فاعرف قدره * وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذي دوني فاحسب دائما * أصون به عرضي وان لام لاثم
وأما الذي مثلي فان زل أو هفا * تفضلت ان الفضل بالفخر حاكم

العارضة وان أصابه من هذه الآلام شئ فهو يتقدر على ضبط نفسه كيلا تنقله عن السعادة الى ضد ما هابل لا تفرج عنه
حد السعادة آتية * ولو اتى بيلاد أو بوب عليه السلام واضعا فاما ما تخرج من حد السعادة وذلك لما يجد في نفسه من المحافطة
على شروط الشجاعة والصبر على ما يجنب عنه المحاب خور الطباع فيكون سرورا ولا يذاته وبالاحاديث الجميلة التي تنشر

عنه ويرى ان القاتل الذي يلقى الشطارة والمصارع الذي يهوى الغلبة كل واحد منهما يصبر على شدة أثر عظيمة من تقطيع أعضاء نفسه وترك الشهوات التي يتمكن منها طلبا لما يحصل له من الغلبة وانتشار الصيت في نفسه أخرى وأولى منهما بالصبر اذا كان غرضه أشرف وصيته (١٤٠) في الفضلاء أبلغ وأشهر وأكرم ولأنه يسعد في نفسه يصير قدوة لغيره

* والسابع من أسبابه استئد كاف السباب وقطع السباب وهذا يكون من الحزم كما حكى أن رجلا قال لضارب الزعفران والله لو قلت واحدة لسمعت عشرة أقفال له ضرار والله لو قلت عشر لم تسمع واحدة * وحكى أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال لعاصم بن حمزة الزهري من أجق الناس قال من ظن أنه أعقل الناس قال صدقت فن أعقل الناس قال من لم يجاوز الصمت في عقوبة الجاهل وقال الشعبي ما أدركت أمي بارها ولكن لأسب أحدا فيسبها * وقال بعض الحكماء في اعراضك صون أعراضك * وقال بعض الشعراء وفي الحلم ردع للسفيه عن الأذى * وفي الخرق اغراء فلا تترك آخرقا فتندم اذا لاتفعنك فداممة * كما ندم المغبون لما تفرقا

وقال آخر

قل ما بدلت من زور ومن كذب * حلمي أصم وأذني غير صماء
* والثامن من أسبابه الخوف من العقوبة على الجواب وهذا يكون من ضعف النفس وربما أوجبه الرأي واقضاه الحزم * وقد قيل في منثور الحكم الخلم بحباب الآفات * وقال الشاعر ارفق اذا خفت من ذي هفوة خرقا * ليس الحليم كمن في أمره خرق
* والتاسع من أسبابه الرعاة ليدساقفة حرمة لازمة وهذا يكون من الوفاء وحسن العهد وقد قيل في منثور الحكم أكرم الشيم أرحاها للذم * وقال الشاعر ان الوفاء على الكريم فريضة * والوهم مقرون بذي الاخلاق وتري الكريم لمن يعاشر منصفنا * وتري الشيم مجانب الانصاف
* والعاشر من أسبابه المذكر وتوقع الفرص الخفية وهذا يكون من الدهاء وقد قيل في منثور الحكم * من ظهر غضبه قل كبد * وقال بعض الأدباء غضب الجاهل في قوله وغضب العاقل في فعله * وقال بعض الحكماء اذا سكنت عن الجاهل فقد أوسعت جوابا وأوجعته عقابا * وقال إياس بن قنذلة

تعاقب أيدينا ويحلم رأينا * ونستم بالافعال لا بالالتكلم

وقال بعض الشعراء

ولكف عن شتم الشيم تكرا * أضمره من شتمه حين يشتم

فهذه عشرة أسباب تدعو إلى الحلم وبعض الأسباب أفضل من بعض وليس اذا كان بعض أسبابه مفضو لا ما يقتضي أن تكون نتيجته من الحلم مذمومة وانما الأولى بالانسان أن يدعو للحلم أفضل أسبابه وان كان الحلم كله فضلا وان عرى عن أحدهذه الأسباب كان ذلا ولم يكن حلا لانا قد ذكرنا في حد الحلم انه ضبط النفس عن هيجان الغضب فاذا فقد الغضب لسمع ما يقضب كان ذلك من ذل النفس وقلة الحمية * وقد كانت الحكماء ثلاثة لا يعرفون

(وارسطوطاليس) يقول ان بعض الأشياء تعرض من سوء البخت بما يكون يسيرا سهل المحتمل فاذا عرض للانسان واحتمله لم يكن فيه دلالة على كبر نفسه وعظم همته ومن لم يكن سعيدا ولا سقيت له رئاسة بهذه الصناعة اشرفها من تهذيب الاخلاق فانه سيقفل انفعالا وقويا يعرض له عند حلول المصائب احدى الخاتمين * اما الاضطراب الفاحش والالام الشديده والمخروج به الى الحد الذي يرى له ويرحم * واما ان يتشبه بالسعداء ويسمع مواعظهم فيظهر الصبر والسكون الا انه جرح الباطن متألم الضمير وكان الاعضاء المفصوله اذا حركت الى اليمين تحركت الى الشمال كذلك تكون حركات نفوس الاشياء تحرك الى خلاف ما يحملونها عليه من الجبل اعني اذا تشبهوا بالاخوان وأهل العدالة كانت هذه حالهم
* رأى أرسطوطاليس في بقاء النفس

والا

وما يستدل به من كلام أرسطوطاليس على انه كان يقول ببقاء النفس والمعاد كلامه المتداول في كتاب الاخلاق وهو هذا قال قد حكمه نال السعادة شيء ثابت غير متغير وقد علمنا ان انسان قد تلحقه تغيرات كثيرة واتفاقات شتى فانه قد يكون لمن هو ارغد الناس عيشا ان يصاب بمصائب عظيمة كما مر في برنامج ومن يتفق له هذه المصائب

ومات عليها فليس يسميه أحد من الناس سعيدا وليس يفتي على هذا القياس أن يسمى إنسان من الناس سعيدا مادام حيا بل ينتظر به آخر عمره ثم يحكم عليه فالإنسان إذن انما يصير سعيدا اذا مات الا ان هذا قول في غاية الشناعة انا كنا نقول ان السعادة هي خير ما تم قال في هذا الموضوع أيضا موضع (١٤١) شل فإنه قد يظن بالميت ان يلحقه خير

وشر ان قد يلحقه حق الحى أيضا وهو لا يحصى به مثل الكرامة والهووان واستقامة أمر الاولاد وأولاد الاولاد ففي هذه الاشياء خير لانه قد يمكن فمن عاش عمره كله الى أن ساءت الشخوصه سعيدا وتوفي على هذا السبيل أن يلحقه مثل هذه التغيرات في أولاده حتى يكون بعضهم خيارا حسن السيرة وبعضهم بضد ذلك ومن الذين أنه قد يمكن ان يوجد بين الآباء والاولاد تباعد واختلاف بكل جهة * ولكن من المنكر أن يكون الميت يتغير غيره بصيرورة سعيدا ومرة أخرى شقيا ومن المنكر أن لا تكون أمور الاولاد متصلة بالوالدين في وقت من الأوقات ولكن ينبغي أن تعود الى ما كان الشك واقعا فيه * فهذا الشك الذي أورده ارسطو طالس على نفسه في هذا الموضوع هو شك من يعتقد ان للإنسان بعد موته أحوال او انه يتصل به لاحاطة من أمور اولاده وأولاد أولاده أحوال مختلفة بحسب أخلاق سير

الافى ثلاثة مواطن لا يعرف الجواد الا فى العسرة والشجاع الا فى الحرب والحليم الا فى الغضب * وقال الشاعر

ليست الاحلام فى حال الرضى * اغما الاحلام فى حال الغضب
وقال آخر

من يدعى الحلم أغضبه لئ يعرفه * لا يعرف الحلم الا ساعة الغضب
وأشد التبعة الحمدى بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم
ولا خير فى حلم اذ لم يكن له * بوادى تحمى صفوه أن يكدر
ولا خير فى جهل اذ لم يكن له * حليم اذا ما أورد الامر أصدرا

فلم يذكر صلى الله عليه وسلم قوله عليه ومن فقد الغضب فى الاشياء المغضبة حتى استوفى حاله تبيل الاغضب وبعد فقد عدم من فضائل النفس الشجاعة والاثقة والحمية والغيرة والدفاع والاختيار لئلا تار لها خصال مركبة من الغضب فاذا عدمها الانسان هان بها ولم يكن لبقاى فضائله فى النفوس موضع ولا زور فى رحله فى القلوب هو وقع * وقد قال المنصور اذا كان الحلم مفسده كان العفو مجزى * وقال بعض الحكماء الفقيه يسد من اللثيم بقدر اصلاحهم الكريم وقال عمر و بن العاص اكرموا سفاهكم فانهم يتوفكم العار والشار وقال مصعب بن الزبير ما قل سفاه قوم الا ذلوا وقال أبو تمام الطائي

والحرب تركب رأسها فى مشهد * عدل السقيه به بالقى حليم

وليس هذا القول أغراه بتحكم الغضب والانتقاد اليه عند حدوث ما بغضب فكسب بالانتقاد للغضب من الذائل أكثر مما يسلبه عدم الغضب من الفضائل ولكن اذا تار به الغضب عند هجوم ما بغضه كف سورة به تجزئه واطفا تار به بحمله ووك من استحقى المواجهة الى غيره ولم يعد مسيئا كافيا كالم يعد محسنا مجازا والى العرب تقول دخل بيتنا ما أخرج منه أى ان أخرج منه خير دخله خير وان أخرج منه شر دخله شر وأنشد بن دريد عن أبي حاتم

اذا أمن الجهال جهلك عمرة * فعرضك للجهال غشم من الغم
فقم عليه الحلم والجهل واللقه * بمنزلة بين الداوة والسلام
اذا أنت حازيت السفيه كاجرى * فانت سفيه مثله غير ذى حلم
ولا تفضن عرض السفيه وداره * بحلم فان أعباء عليك فبالصرم
فير جوك تارات ويخشاك تارة * ويأخذ فيما بين ذلك بالحزم
فان لم تجد بدا من الجهل فاستعن * عليه بجهل فذلك من العزم
وهذه من أحكم آيات وجدتها فى تدبير الحلم والغضب وهذا التدبير انما يستعمل فى الإيجاد الانسان بدما من مقارنته ولا سبيل الى طراحه وشاركته اما لخوف شره والزلزوم أمره فأما

الاولاد فكيف تقول ليت شعرى فى الانسان اذا مات سعيدا ثم يلحقه من شقى بعض أولاده أو سوء سيرة من يحيى من نسلها يكون ضد سيرة وهو حى فانه ان غير سعادته كان هذا شقيا وان لم يلحقه أيضا شى من ذلك كان أيضا شقيا * ثم ارسطو طالس يحل هذا الشك بأن يقول ما هذا معناه ان سيرة الانسان ينبغي ان تكون سيرة محمود لانه يختار فى كل

ما يعرض له أفضل الأعمال من الصبر مرة ومن اختيار الأفضل فالأفضل مرة * ومن التصرف في الأموال إذا اتسع فيها وحسن التجهيل إذا عدها ليكون سعيدا في جميع أحواله غير متقل عن السعادة بوجه من الوجوه * فالسعيد إذا ورد عليه نفس عظيم جعل سيرة أكثر (١٤٢) سعادة لأنه يدار به مدارا جليلا ويصبر على الشدائد صبرا حسنا * ومتى

لم يفعل ذلك كتر سعادته ونقصها وجلب له آخرا * وغماها متوقفة عن أفعال كثيرة * والجميل إذا ظهر من السعداء في هذه الأحوال والأفعال كان أشد اثرا * وحسنا وذلك إذا احتمل ما أكبر وعظم من المصائب احتمالا سهلا بعد أن لا يكون ذلك لعدم حسه ولا نقصان فهمه بالأمر بل لشهامته وكبر نفسه * قال إذا كانت الأفعال هي ملك السيرة كما قلنا فليس يكون أحد من السعداء شقيا لأنه ليس يفعل في وقت من الأوقات أفعالا مردولة فإذا كان هكذا فالسعيد أبدا يكون مغبوطا وإن حلت به المصائب التي حلت بغيره * ولا يكون أيضا شقيا ولا مريب * انتقل من ذلك لأنه ليس ينتقل عن السعادة بسهولة ولا تنتقل عنها الأوقات السبيرة بل لا تنتقل عنها الآفات العظيمة الكثيرة وليس يكون سعيدا إذا نالته هذه الأمور زمانا يسيرا بل إذا طفر بأمر جميل في زمان طويل * ثم قال بعد قليل وأما حال الإنسان بعد موته فالقول بان الآفات التي تعرض للأولاد الميت وأصدقائه عفت

باجعهم ليست تتعلق به أصلا مضادا لاعتقده جميع الناس * وإذا كانت الأمور العارضة طولا كثيرة متينة وكان بعضها يتعدى إلى الميت أكثر وبعضها أقل صارت قسمتها إياها إلى الأشياء الجزئية بلانهاية * وأما الأذليل قولنا كليا وعلى طريق

الرسم خَلِيقُ أَنْ نَكُنْفِي عَمَّا نَقُولُهُ فِيهَا وَهُوَ أَنَّهُ كَمَا أَنَّ الْآفَاتِ الَّتِي تُعْرَضُ لِحَيَاتِهِ بَعْضُهَا يَنْتَقِلُ عَلَيْهِ أَحْتِمَالُهُ وَيَتَلَمَّ فِي سِيرَتِهِ وَبَعْضُهَا يُخَفُّ عَلَيْهِ أَحْتِمَالُهُ كَذَلِكَ يَكُونُ حَالُهُ فِي مَا يُعْرَضُ لَوْلَا وَدَّهَ وَاصْدَقَاتُهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْعَوَارِضِ الَّتِي تُعْرَضُ لِلْأَحْيَاءِ مُخَالَفٌ لِمَا يُعْرَضُ لَهُمْ إِذَا مَا تَوَأَّمُوا أَكْثَرَ مِنْ مُخَالَفَةٍ (١٤٣) كُلِّ مَا يُصْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ وَيُشَبَّهُ أَنْ

كَانَ تَصَلُّ الْبِهِمْ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ شَيْءٌ خَيْرًا كَانَ أَوْ شَرًّا أَنْ يَكُونَ سَيِّئًا نَزَرًا عَقْدَارًا مَا لَا يَحْتَمِلُ غَيْرُ السَّعِيدِ سَعِيدًا وَلَا يَنْتَرِغُ السَّعَادَةُ مِنَ السَّعَادَةِ هَذَا حُلُّ أَرْسُوطَا لَيْسَ لِلشُّكِّ الَّذِي أَوْرَدَهُ

﴿لَذَّةُ السَّعَادَةِ﴾

وَلَمَّا قُلْنَا أَنَّ السَّعَادَةَ أَلَذَّ

الْأَشْيَاءِ وَأَفْضَلُهَا وَأَجْوَدُهَا وَأَوْفَىهَا وَجِبَ أَنْ يَسْنِ وَجْهَ اللِّذَّةِ فِيهَا بِأَمْرٍ بَيِّنٍ كَمَا قُلْنَا فِي مَضَى أَنَّ اللِّذَّةَ تَنْقَسِمُ إِلَى تِسْعِينَ أَحَدَهَا لَذَّةُ التَّغَالِيَةِ وَالْأُخْرَى لَذَّةُ فَعْلِيَةِ أَيْ فَاعِلَةٍ «فَمَا اللِّذَّةُ الْإِنْفَاعِيَّةُ فَهِيَ شَبِيهَةٌ لِلذَّةِ الْإِنَائَةِ وَاللِّذَّةُ الْإِنْفَاعِيَّةُ تَشْبَهُ بِالذَّةِ الْكَوْرَةِ وَلِذَلِكَ صَارَتْ اللِّذَّةُ الْإِنْفَاعِيَّةُ هِيَ الَّتِي تَشَارِكُنَا فِيهَا الْحَيَوَانَاتُ الَّتِي لَيْسَتْ بِبَاطِلَةٍ وَذَلِكَ أَنَّهُمَا مُقَرَّنَةٌ بِالشَّهَوَاتِ وَحُبِّهِ الْإِنْتِقَامِ وَهِيَ انْفِعَالَاتُ النَّفْسَيْنِ الْبَهِيمَتَيْنِ * وَأَمَّا اللِّذَّةُ الْآخَرَى فَهِيَ الْفَاعِلَةُ وَهِيَ الَّتِي يَخْتَصُّ بِهَا الْحَيَوَانُ النَّاطِقُ وَلَا نَهَا غَيْرُهُ وَلِأَنَّهُ لَا مَنَفْعَةَ لَهَا وَلَا نَهَا

عَفْوَتْ عَنِّي فَعَمَّا عَمَّا لَذَّ كَرِهَ قُدْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى * وَرَوَى أَنَّ جَلَّاسَكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقِسْوَةَ فَقَالَ اطْلُعْ فِي الْقُبُورِ وَاعْتَبِرْ بِالتَّشْوِيرِ * وَكَانَ بَعْضُ مَمْلُوكِ الطَّوَاتِفِ إِذَا غَضِبَ الَّتِي عِنْدَهُ مَفَاتِيحُ تَرْبِ الْمَمْلُوكِ فَيَزُولُ غَضَبُهُ وَلِذَلِكَ قَالَ عَمْرُ بْنُ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ مِنْ أَكْثَرِ مَنْ ذَكَرَ الْمَوْتَ رَضِيَ مِنَ الدُّنْيَا بِالسَّيْرِ * وَمِنْهَا أَنْ يَنْتَقِلَ عَنْ الْحَالَةِ الَّتِي هُوَ فِيهَا إِلَى حَالَةٍ غَيْرِهَا فَيَزُولُ عَنْهُ الْغَضَبُ بِتَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ وَالتَّنَقُّلِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَكَانَ هَذَا مَذْهَبُ الْمَأْمُونِ إِذَا غَضِبَ أَوْ شَتَمَ * وَكَانَتْ الْقُرَيْشُ يَقُولُ إِذَا غَضِبَ الْقَائِمُ فَلَيْسَ وَإِذَا غَضِبَ الْخَائِسُ فَلَيْقَمَ * وَمِنْهَا أَنْ يَنْتَقِلَ مِنَ الْغَضَبِ إِلَى الْغَضَبِ مِنَ النَّدَمِ وَمِنْهُمُ الْإِنْتِقَامُ * وَكَتَبَ أَبُو زَيْدٍ إِلَى ابْنِهِ شَرِيهَ أَنْ كَلِمَتُكَ تَسْفِكُ دَمًا وَآخَرَى مِنْهَا تَحْقِنُ دَمًا وَإِنْ نَفَذْتَ أَمْرًا مَعَكُمْ كَلِمَةً فَاحْتَرَسْ فِي غَضَبِكَ مِنْ قَوْلِكَ أَنْ تَخْطِئَ وَمِنْ لَوْلَا أَنْ يَتَغَيَّرَ وَمِنْ جَسَدِكَ أَنْ يَخْطِئَ فَإِنَّ الْمَمْلُوكَ تَعَاقِبُ تَسَدُّرُهُ وَتَعْفُو حُلًّا * وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ الْغَضَبُ عَلَى مَنْ لَا تَعْلَقُ بِحُجْرٍ وَعَلَى مَنْ تَعْلَقُ لَوْثُ * وَقَالَ بَعْضُ الْأَدِبَاءِ بَالًا وَعِزًّا الْغَضَبُ فَاتَهَا تَفْضِي إِلَى ذُلِّ الْعِزِّ وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ وَإِذَا مَا اعْتَرَاكَ فِي الْغَضَبِ الْهَمُّ فَارْتَدِّدْ لِي الْأَعْدَارَ

«وَمِنْهَا أَنْ يَذْكُرَ ثَوَابَ الْعَفْوِ وَجَزَاءَ الصَّفِيحِ فَيَقْهَرُ نَفْسَهُ عَلَى الْغَضَبِ رَغْبَةً فِي الْجَزَاءِ وَالثَّوَابِ وَحُذْرًا مِنْ اسْتِحْقَاقِ الذَّمِّ وَالْعِقَابِ * رَوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ يَنَادِي مُتَادِيَوْمُ إِيْقَامَةٍ مِنْ لَحْمٍ أَعْرَجَ عَلَى اللَّهِ عِزُّوهُ لِيَقْلِمَ فَيَقُومُ الْعَافُونَ عَنِ النَّاسِ ثُمَّ تَلَا فَنِعْفَا وَصَلِّ فَأَجْرَهُ عَلَى اللَّهِ * وَقَالَ رَجَاءُ بْنُ حَبِيبٍ لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ حَرْوَانَ فِي أَسَارِي بْنِ الْأَشْعَثِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَاكَ مَا تَحِبُّ مِنَ الظُّفْرِ فَأَعْطَاكَ اللَّهُ مَا يَحِبُّ مِنَ الْعَفْوِ * وَقَدْ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ «الْخَيْرُ ثَلَاثُ خِصَالٍ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ مَنْ إِذَا رَضِيَ لَمْ يَدْخُلْهُ رِضَا فِي بَاطِلٍ وَإِذَا غَضِبَ لَمْ يَخْرِجْهُ غَضَبُهُ مِنْ حَقِّ وَإِذَا قَدَّرَ عَفَا * وَأَسْمَعَ رَجُلٌ عَمْرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ كَلَامًا فَقَالَ عَمْرُ أَدَّتْ أَنْ يَسْتَفِزِّي الشَّيْطَانُ لِعِزَّةِ السُّلْطَانِ فَانَالَ مِنْكَ الْيَوْمَ مَا سَنَاهُ مِنِّي غَدًا أَنْصَرِفْ رَجُلًا اللَّهُ * وَمِنْهَا أَنْ يَذْكُرَ انْعِطَافَ الْقُلُوبِ عَلَيْهِ وَمِيلَ النَّفْسِ إِلَيْهِ فَلَا يَرِي إِضَاعَةَ ذَلِكَ بِتَغْيِيرِ النَّاسِ عَنْهُ فَيَرْغَبُ فِي التَّأَلُّفِ وَجِيلِ الثَّنَاءِ * وَرَوَى ابْنُ أَبِي لَيْلَى عَنْ عَطِيَّةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا زِدَادُ أَحَدٍ يَغْفُو الْأَعْرَافَ أَغْفَرُوا بِعِزِّ كَرَامَةِ اللَّهِ * وَقَالَ بَعْضُ الْفُلَّاحِ لَيْسَ مِنْ عَادَةِ الْكِرَامِ سُرْعَةُ الْإِنْتِقَامِ وَالْأَمِنْ شَرُّ وَطِ الْكِرَامِ إِزَالَةُ النِّعَمِ * وَقَالَ الْمَأْمُونُ لِأَبِي رَاهِمٍ بْنِ الْمُهْدِيِّ إِذَا شَاوَرْتَ فِي أَمْرٍ كَلِّمْ أَشَارًا وَاعْلَمْ بِقَتْلِكَ الْإِنْفِ وَجِدْتَ قُدْرَكَ فَوْقَ نَبْلِكَ فَكِرْهْتَ الْقَتْلَ لِلْأَمْرِ حَرَمْتَكَ فَقَالَ بِأَمْرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ الْمَشِيرَ أَشَارَ بِمَا جَرَتْهُ الْعَادَةُ فِي السِّيَاسَةِ الْأَنْكُ الْأَيْتُ أَنْ تَطْلُبَ النَّصْرَ الْأَمِنْ حَيْثُ مَا عَوَدَتْهُ مِنَ الْعَفْوِ فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ فَلِكِ نَظِيرٍ وَأَنْ عَفَوْتَ فَلَا تَنْظِيرَ لَكَ وَأَنْشَأَ يَقُولُ الْبَرِّي مِنْكَ وَطَأَ الْعِزِّ عِنْدَكَ لِي * فِيمَا فَطَلْتُ فَلَمْ تَعْمَلْ وَلَمْ تَلَمْ

صَارَتْ لَذَّةُ نَامَةِ وَتِلْكَ نَاقِصَةٌ هُوَ هَذِهِ ذَاتِيَّةٌ وَتِلْكَ عَرَضِيَّةٌ * وَأَعْنِي بِالذَّاتِيَّةِ وَالْعَرَضِيَّةِ أَنَّ الذَّاتَ الْحَسَنَةَ الْمُقَرَّرَةَ بِالشَّهَوَاتِ تَزُولُ سَرِيحًا وَتَقْتَضِي وَشَيْكَابِلَ تَنْقَلِبُ لِذَاتِهَا فَتَصِيرُ غَيْرَ ذَاتِهَا بَلْ تَصِيرُ أَلَامًا كَثِيرَةً أَوْ مَكْرُوهَةً بِشَعَةِ مُسْتَبْجَعَةٍ وَهَذِهِ أَضْدَادُ اللِّذَّةِ وَمَقَابِلَاتُهَا * وَأَمَّا اللِّذَّةُ الذَّاتِيَّةُ فَهِيَ الَّتِي تَصِيرُ فِي وَقْتٍ آخِرٍ لَذَّةً وَلَا تَنْتَقِلُ عَنْ حَالِهَا بَلْ

هي ثابتة أبدا * وإذا كانت كذلك فقد صح حكمنا ووضع أن السعيد تكون لذته ذاتية لا عرضية وعقلية لا حسية وفعلية لا انفعالية وأولية لا بجمعية * ولذلك قالت الحكماء إن اللذة إذا كانت صحيحة ساقط البدن من النقص إلى التمام ومن السقم إلى الصحة * وكذلك تسوق النفس من (١٤٤) الجول إلى العلم ومن الرذيلة إلى الفضيلة * لأن ههنا

سرا ينبغي أن يقف عليه المتعلم * وهو أن مدله إلى اللذة الحسية عليل قوى جدا وشوقه إليها شوق مضجع ولا يزيد العادة في قوة الطبع الذي لنا كبير زيادة لفرط ما جبلنا عليه في البدن من القوة والشوق * ولذلك متى كانت هذه اللذة حسية قبيحة جدا ثم مال الطبع إليها بافراط وانفعل عنها بقوة استغرس الانسان فيها كل قبح وهون على نفسه منها كل صعب ولا يرى موضع الغلط ولا مكان القبح حتى تبصره الحكمة وأما اللذة العقلية الجميلة فأمرها بالصدق * وذلك أن الطبع يكرهها فان انصرف الانسان إليها بمعرفته وعينه احتاج فيها إلى صبر ورأفة حتى إذا انصرف فيها وتدرب لها انكشف له حسنها وأنها وصارت عنده مكان في الحسن * ومن هنا تبين أن الانسان في ابتداء تكوينه محتاج إلى سياسة الوالد ثم إلى الشريعة الالهية والدين التي حتى تهديه وتقومه إلى الحكم بالاعتقالات تدبير نفسه إلى آخر عمره وقد تبين مع ذلك تعلق السعادة بالوجد * وذلك لأننا قد بينا أن اللذة قاعلة ولذا فالفاعل أبدا تكون في الاعطاء ولذا المنفعلة أبدا تكون في الاخذ ولا تظهر لذة السعيد إلا بما رزقناه وأظهر حكمته ووضعها كفايته في مواضعها وكذلك البناء الخائن والصانع

وقام علمك في حاجت عندك * مقام شاهد عدل غير متهم لمن جحدك معروفا منتبه * في لبي اللؤم أخطى منتب بالكرم تعفو بعدل وتسطوان سطوت به * فلا عدمنالك من عاف ومنعقم

الفصل الخامس في الصدق والكذب قال الله تعالى وهو أصدق القائلين ثم تنهمل فجعل الله على الكاذبين وقال تعالى اغماضتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الحسن بن علي رضي الله عنهما * دع ما يريك إلى ما لا يريك * فان الكذب رية والصدق طمأنينة * وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال رحم الله امرأ أصح من لسانه وأقصر من عنانه وأزعم طريق الحق مقوله ولم يصدود الخطل مفعله * وروى صفوان بن سالم قال قيل للنبي صلى الله عليه وسلم أ يكون المؤمن جبانا قال نعم قيل أ يكون بخيلا قال نعم قيل أ يكون كذبا قال لا * وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ولا تلبسوا الحق بالباطل أي لا تخطوا الصدق بالكذب * وقيل في هذا والحكم الكذاب لص لان الصديق يصدق ما لك والكذاب يسرق عقلك * وقال بعض الحكماء الحرس خير من الكذب وصدق اللسان أول السعادة * وقال بعض البلغاء الصادق مصان جليل والكاذب مهان ذليل * وقال بعض الادباء لاسيف كالحق ولا عون كالصدق * وقال بعض الشعراء

وما شئ إذا فكرت فيه * بأذهب للرؤى والجمال

من الكذب الذي لا خفيه * وأبعد بالها من الرجال

والكذب جماع كل شر وأصل كل ذم لسوء عواقبه ونخب نتائجها لانه ينفع النجاسة والنجاسة تنفع البغضاء والبغضاء تؤول إلى العداوة وليس مع العداوة أمن ولا راحة * ولذلك قيل من قل صدق قل صدقه والصدق والكذب يدخلان الاخبار الماضية كما أن الوفاء والخلف يدخلان المواعيد المستقبلية فالصدق هو الاخبار عن الشيء على ما هو عليه والكذب هو الاخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه ولكل واحد منهما دواعي فدواعي الصدق لازمة ودواعي الكذب عارضة لان الصدق يدعو اليه عقل موجب وشرع مؤكد فالكذب يمنع منه العقل ويصد عنه الشرع ولذلك حاز أن تستفيض الاخبار الصادقة حتى تصير متواترة ولم يجز أن تستفيض الاخبار الكاذبة لان اتفاق الناس في الصدق والكذب اغما هو لاتفاق الدواعي فدواعي الصدق يجوز أن يتفق الجميع الكثر عليها حتى اذا تلاقوا خبروا أو أوعدها بنتي عن مثلهم الموطأ وقع في النفس صدقه لان الدواعي اليه نافعة واتفاق الناس في الدواعي النافعة ممكن ولا يجوز أن يتفق العدد الكثير الذي لا يمكن مواطاة مثلهم على نقل خبر يكون كذبا لان الدواعي اليه غير نافعة وربما كانت مضارة وليس

في تهديه وتقومه إلى الحكم بالاعتقالات تدبير نفسه إلى آخر عمره وقد تبين مع ذلك تعلق السعادة بالوجد * وذلك لأننا قد بينا أن اللذة قاعلة ولذا فالفاعل أبدا تكون في الاعطاء ولذا المنفعلة أبدا تكون في الاخذ ولا تظهر لذة السعيد إلا بما رزقناه وأظهر حكمته ووضعها كفايته في مواضعها وكذلك البناء الخائن والصانع

اللطيف والموسيقى في المحسن وبالجملة كل صانع حاذق فاضل في صناعته ينسر باظهار فضائله واذا عتبا بين اهلها
ومستحقها * وهذا هو معنى الجود الا ان الجود باعلى الاشياء واكرمها افضل واشرف من الجود بادونها واخسها وقد
عرض لهذا الجود مع شرفه وعلمه تنبه ضد ما عرض لذلك الجود (١٤٥) الا تخرج نزارته وقتله * وذلك ان

صاحب الاموال والمقتنات
الخارجة كلها تنقص
ماله بالانفاق وينظم بالبدل
وتبقى ذخائره واما صاحب
السعادة النامة فان امواله
لا تنقص بالانفاق بل تزيد
ولا تبقى ذخائره بالتبذير
بل تنمو * وتلك معرضة
للآفات الكثيرة من
الاعداء والمصوص وسائر
المسلطين وهذه معرضة
من كل آفة لاسبيل
للاشرار والاعداء اليها
بوجه ولا سبب فقد ظهرت
لذة السعد كيف تكون
ومن أين تنتدئ والى أين
تنتهي وكيف يكون
السور والحقيق والذلة
الذاتية وتبين اعضائها
أبدية وتامة والحمية وان
ضدها هو الشقاء لذاته
بالفقد وعلى العكس أعني
أن لذاته كلها عرضة ومنقطة
عن طبائعها الى أعدادها
حتى تصير مؤنة ومكررة
وانها غير الهية بل شيطانية
وغير ممدوحة بل هي
منمومة * وذلك بان
يتطرق في السعادة هل هي
ممدوحة فان أرسطو طالب

في جاري العادة أن يتفق الجمع الكثير على دواع غير نافعة ولذلك حاز اتفاق الناس على
الصدق لجواز اتفاق دواعيهم ولم يجز أن يتفقوا على الكذب لامتناع اتفاق دواعيهم واذا
كان للصدق والكذب دواع فلا بد من ذكر ما سمي به الخاط من دواعيها اما دواعي
الصدق فبها العقل لانه موجب لقيم الكذب لاسيما اذا لم يجلب نفعاً ولم يدفع ضرراً والعقل
يدعو الى فعل ما كان مستحسنًا وينتج من اتیان ما كان مستقبها وليس ما استحسن من
مبالغات الشعراء حتى صار كذباً صراحاً مستحسناً للكذب في العقل كالذي أنشدني
الأزدي لبعض الشعراء

توهمه فكري فأصبح خد * وفيه كان الوهم من فكرتي أثر
وصاحفه كفي فألم كنه * فن لمس كفي في أنامله عقر
ومر بقلبي خاطراً فخرته * ولم أر شيئاً قط يجرحه الفكر
وكقول العباس بن الأحنف وان كان دون هذه المبالغة

تقول وقد كتبت دقي خطي * اليها لم تحب الخبلا
فقلت لها تحب فصار خطي * مساعداً لكتابه فخبلا

لانه خرج مخبرج المبالغة في التشبيه والاقتدار على صنعة الشعر وان شواهد الحال فخرجه
عن تلبس الكذب وكذلك لما استحسن في الصنعة ولم يستقيج في العقل وان كان الكذب
مستقبها فيه ومنها الذين الوارد بانواع الصدق وحظر الكذب لان الشرع لا يجوز ان يرد
بارخاص ما يحظره العقل بل قد جاء الشرع زائداً على ما اقتضاه العقل من حظر الكذب لان
الشرع ويرد بحظر الكذب وان جرت نفعاً او دفع ضرراً والعقل انما يحظر ما لا يجلب نفعاً
ولا يدفع ضرراً ومنها المرواة فانها مائة من الكذب باعثة على الصدق لانهما قد تمنع من
فعل ما كان مستكرهاً فاولى من فعل ما كان مستقبها ومنها حب البناء والاشتهار
بالصدق حتى لا رد عليه قول ولا يلحقه بدم * وقد قال بعض البلغاء ليكن مرجعك الى
الحق ومنزعتك الى الصدق فالحق أقوى معين والصدق أفضل قرين * وقال
بعض الشعراء

عود لسانك قول الصدق تحفظه * ان اللسان لما عودت معتاد

موصكلاً بتقاضى ما سئلته * في الخبر والشرف انظر كيف تراد

واما دواعي الكذب فبها اجلاب النفع واستدفاع الضر فيرى أن الكذب أسلم واغنى
فيرخص لنفسه فيه اغتراراً بالخدع واستشغافاً بالطمع وربما كان الكذب أبعللًا يؤمل
وأقرب لما يخاف لان القبيح لا يكون حسناً والشر لا يصير خيراً وليس يجني من الشوك
العنب ولا من الكرم الحنظل * وقدر وي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال نحر والصدق

﴿ ١٩ - أدب الدنيا ﴾

يقول ان الاشياء التي هي في غاية الفضل لا يوجد لها مدح لانها افضل
وامدح واجل من أن تمدح قال وذلك لاننا قد نسب المنأهلين والمنأهلين من الناس الى السعادة وليس يوجد أحد من الناس
يمدح السعادة نفسها كما يمدح العدل * لكنه يجلبها ويكرمها الى أنها امرأ الى الاشياء التي هي افضل من المدح وهو الله

تعالى والى الخبر فان المدح هو الفضيلة والعمل بها * ثم انتهى كلامه هذا الى ان قال فانه تعالى اكرموا شرف من ان مدح
بل انما يجدهونه ونحن نتجده الله تعالى ونقدسه تعجيدا كثيرا واما السعادة فلانها امر الهى وانما تفعل الاشياء
كلها لاجلها ففى كذلك ايضا مجده (١٤٦) * فعلى هذا الامر ينبغي ان لا تمدح السعادة لانها

اجل من كل مدح بل
تجدها فى نفسها وقدح
الامور كلها بها وبقدح
قسطها منها

المقالة الرابعة

(ظهور الفضائل من ليس
بسعيد ولا فاضل)

قد قلنا فيما سلف ان
السعادة تظهر فى الافعال
من السادة والشجاعة
والعفة وسائر ما تحت هذه
الانواع التى احصيناها
وحدناها

وهذه الافعال قد تظهر
من ليس بسعيد ولا فاضل
ولذلك قد يعمل بعض
الناس على المدح وليس
بعادل ويعمل عمل
الشعبان وليس بهما
ويعمل على الاعفاء وليس
بعفيف * مثال ذلك ان
من ترك الشهوات من
المسكر والمشارب وسائر
الذلات التى ينهل فيها
غيره امالا انه ينظر منها
اكثر مما يحضره واما لانه
لا يعرفها ولم ياترها
كالاغراب الذين يعدون
عن البلاد والاعاق

الدوايد وقل الجبال واما لانه

وان رايت فيه الهلكة فان فيه النجاة وتجنبوا الكذب وان رايت ان فيه النجاة فان فيه الهلكة
وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لان يضغنى الصديق ولما يفعل احب الى من ان يرفعنى
الكذب ولما يفعل * وقال بعض الحكماء الصديق مغيبل وان خفته والكذب مرديك وان
أمنته * وقال الخياط الصديق والوفاء قوامان والصبر والخلم قوامان بهن غام كل دين وصلاح
كل دنيا واخذاهن سبب كل فرقة واصل كل فساد ومنها ان يؤثر ان يكون حديثه مستعذبا
وكلامه مستظرفا فلا يجد صدقا بعد ذل ولا حديثا يستظرف فيستحل الكذب الذى ليست
غرائبه معوزة ولا طرائفه معجزة وهذا النوع اسوأ حالا مما قبل لانه يصدر عن مهانة
النفس ودناءة الهمة * وقد قال الخياط لم يكذب أحد قط الا لصغر قدر نفسه عنده
* وقال ابن المقفع لانه لو ان الكذبة من الهزل فانها تسمع الى ابطال الحق ومنها ان
يقصد الكذب التشفي من عدوه فيسميه بقصاص يحترعها عليه ويصفه بقصاص ينسبها اليه
ويرى ان معرفة الكذب غم وان ارسالها فى العدو سهو وبم وهذا اسوأ حالا من النوعين
الاولين لانه قد جمع بين الكذب والمعر والشرا المضر ولذلك ورد الشرع برده شهادة العدو
على عدوه ومنها ان تكون دواعى الكذب قد ترادفت عليه حتى ألفها فصار الكذب له
عادة وتوفى نفسه اليه متفاداة حتى لو رام مجانبة الكذب عسر عليه لان العادة طبع ثان * وقد
قالت الحكماء من استحل رضاع الكذب عسر نظامه * وقيل فى منشور الحكم لا يلزم
الكذب شي الا غلب عليه * واعلم ان الكذاب قبل خبرته امارات دالة عليه فنها انك اذا
لقتته الحديث لقتته ولم يكن بين ما تقتنمون ما اوردته فرق عنده ومنها انك اذا شكتك
فيه تشكك حتى يكاد يرجع فيه ولو لا ما تخالجه الشك فيه ومنها انك اذا ردت عليه قوله
حصر واربتك ولم يكن عنده نصره المحتجين ولا برهان الصادقين ولذلك قال على بن ابي
طالب كرم الله وجهه الكذاب كالصراب ومنها ما يظهر عليه من ربة الكذاب بين وبين
عليه من ذلة المتوهم لان هذه امور لا يمكن الانسان دفعها عن نفسه لما فى الطبع من
آثارها * ولذلك قالت الحكماء اللسان اثم من اللسان * وقال بعض البلغاء الوجه مرأيا
ترك امرار البرايا * وقال بعض الشعراء

ترك أعينهم ما فى صدورهم * ان العيون يؤدى سرها للنظر

واذا اتسم بالكذب نسبت اليه شوار الكذب المجهولة واضيفت الى كاذبته زيادات
مفتعلة حتى يصير الكاذب مكذوبا عليه فيجمع بين معرفة الكذب منه ومضرة الكذب
عليه * وقد قال الشاعر

حسب الكذوب من البلية بعض ما يحكى عليه
فاذا سمعت بكذبة * من غيره نسبت اليه

ممتلئ مما يحسده ومحضره واما الجود شهرة وتقصان تركيه واما لانه استنعر خوفا من تناو لها ومكرها بلحقه بسببها
واما لانه ممنوع منها فان هؤلاء كلهم يعملون على الاعفاء وليسوا باعفاء على الحقيقة وانما يسمى عفيفا

على الحقيقة من وفي العفة حدها المذكور فيما تقدم واختارها لنفسها لا لغرض آخر غيرها وأثرها الانهاضية ثم تناول كل واحدة من شهوراته عقداً والحاجة ومن الوجه الذي ينبغي وفي الوقت الذي ينبغي وعلى الحال الذي ينبغي * وكذلك حال الذي يعمل أعمال الشجعان وليس بشجاع * وذلك أن من باشر الحروب وأقدم على ركوب

١٤٧

الأحوال لبعض ما وصل إليه المال أو لبعض الرغبات التي لا تحصى كثرة فإن مثل هذا يعمل عمل الشجعان ولكن بعمله بطبيعة الشريعة لا بطبيعة الفضيلة التي تدعى شجاعة * وكل من كان أكثر اقتداً ما صبر على الأحوال لهذه الأحوال يجب أن يكون أكثر شجاعة وأهلاً * وذلك أنه يخاطر بنفسه الشريفة ويصبر على المكاره العظيمة طمعاً في المال وما يصل إليه المال * وقد رأينا أهل الشقاوة يعملون عمل الأعفاء وعمل الشجعان وهم أبعد الناس عن كل فضيلة * وذلك أنهم يصبرون عن الشهوات كلها ويصبرون على عقوبات السلطان وضرب السياط وتقطيع الأعضاء والجراحات التي لا تؤمن منها ويبتغون فيها النسيء صبراً على الصلب وغسل العيون وقطع الأيدي والأرجل وضرب

ثم إنه إن تحرى الصديق اتهم وإن جانب الكذب كذب حتى لا يعتدله حديث يصدق ولا كذب مستنكر * وقد قال الشاعر
أذا عرف الكذاب بالكذب لم يكذب * يصدق في شيء وإن كان صادقاً
ومن آفة الكذاب نسيان كذبه * وتلقاه إذا حفظاً إذا كان صادقاً
وقد وردت السنة بأخبار الكذب في الحرب وأصلاح ذات البين على وجه التورية والتأويل دون التصريح به فإن السنة لا يجوز أن ترد بإباحة الكذب لما فيه من التنفير وأغماض على طريق التورية والتأويل كما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تطرف برداء وانفرد عن أصحابه فقال له رجل ممن أنت قال من ماء فوري عن الأخبار ينسبه بأمر يحتمل فظن السائل أنه عن القيلة المنسوبة إلى ذلك وأغماضاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه من الماء الذي يخلق منه الإنسان ما بلغ ما أحب من إخفاء نفسه وصدق في خبره وكذلك حكى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه كان سراً خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجم معه فلقاه العرب وهم يعرفون أبا بكر ولا يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون يا أبا بكر من هذا يقول هادي هدي السيل فيظنون أنه يعني هداية الطريق وهو أغماض يريد هداية السيل الخ فيصدق في قوله ويورى عن مراده * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن في المعاريض مندوحة عن الكذب * وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه إن في المعاريض ما يكفي أن ينعى الرجل عن الكذب * وقال بعض أهل التأويل في قوله تعالى لا تؤاخذني بما نسيت أنه لم ينس ولكن معاريض الكلام * وقال ابن سيرين الكلام أوسع من أن يصح فيه الكذب * وأعلم أن من الصديق ما يقوم مقام الكذب في القبح والمعرة ويزيد عليه في الأذى والمضرة وهي الغيبة والنميمة والسعاية * فاما الغيبة فإنها خيانة وهتك ستر محمد بن عبد الله تعالى ولا يغيب بعضكم بعضاً * أي أحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً يعني أنه كالأكل لحم ميتة لا تحل غيبته حياً * وروى أن أمة من أمراء بني هاشم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وجعلنا تغتابان الناس فأخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال صانعا أحل لهما وأفطرنا على ما حرم عليهما * وروى أسماء بنت زيد قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذنب عن لحم أخيه بظهر الغيب كان حقاً على الله عز وجل أن يحرم لحمه على النار * وقال عدي بن حاتم الغيبة رعي اللثام وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول للغيبة كما النساء * وقال رجل لابن سيرين رحمه الله أني اغتبتك فأجبتني في حل فقال ما أحب أن أحل لك ما حرم الله عليك * وقال ابن السكيت لا تغيب الناس على عيب بسوء غيبك * وقال الشاعر
لا تلتبس من مساوي الناس ما سترها * فيهلك الله سترها عن مساويها

التمثيل طلباً للاسم وذكر بين قوم في مثل حالهم من سوء الاختيار ونقصان الفضائل * وقد يعمل أيضاً عمل الشجعان من يخاف لأئمة عشيرته أو عقوبة سلطان أو خوف سقوط جاهه أو ما أشبه ذلك * وقد يعمل عمل الشجعان من اتفق له مراءا أكثره أن يغلب أقرانه فهو يقدم ثقة منه بالمادة الجارية وجهلاً بمواقع الانقابات * وقد يعمل عمل الشجعان

العشاق وذلك أنهم يركبون الأحوال في طلب المعشوق لم غيتهم في الفجور وألحصرهم على متعة العين منه لا لطلب الفضيلة ولا لاختيار الموت الجميل على الحياة الرديئة كما يفعل الشجاع بالحقيقة * وأما شجاعة الأسد والفيل وأشباههم ممن الحيوانات فانها تشبه الشجاعة ١٤٨ وليست بشجاعة حقيقية * وذلك أنها قد وثقت بقوتها وانها تفوق

غيرها فهي تقدم لا بطبيعتها الشجاعة بل لتمام القدرة وثقة النفس والقلب * وما كان منها سباعا فهو مع هذه الحال مزاج العلة في السلاح الذي حذمه وهو كصاحب السلاح منا اذا قدم على الاعزل * وليست هذه شجاعة مع عدم الاختيار الذي يستعمله الشجاع * وذلك ان الشجاع خوفه من الامر أشد من خوفه من الموت ولذلك يختار الموت الجميل على الحياة القبيحة * على أن نذرة الشجاع ليست تكون في مبادئ الأمور فان مبادئ الأمور تكون مؤذية له لكنها تكون في عواقب الأمور وتكون أيضا باقية مدة عمره وبعد عمره لاسيما اذا حامي عن دينه وعن اعتقاده الصالحة في وحدانية الله عز وجل والشرعية التي هي سياسة الله وسته المعادلة التي بها مصالح العباد في الدنيا والآخرة مثل هذا فكر في قصر مدة عمره وعلم انه

واذ كرم حاسن ما فهم اذا ذكروا * ولا تعب أحدا منهم بما فيك وربما عذرا المغتاب نفسه بأنه يقول حقا وعلن فسقا ويستشهد بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ثلاثة ليست غيبتهم بغيبة الامام الجائر وشارب الخمر والعلن بنفسه فيباعد من الصواب ويحاجب الادب لانه وان كان بالغيبة صادقا فقد هلك سسترا كان بصوته أولى وجاهر من أسر وأخفى وربما دعي المغتاب ذلك الى اظهار ما كان بسره والمجاهرة بما كان يضمره فلم يبد ذلك الا فسادا خلاقه من غير أن يكون فيه صلاح لغيره وقد قيل لا توشروا من الذي لا خفيه قال ما عثر في ولم يبقع غيري أو مضر غيري ولم يبقعني فلا علم فيه خيرا * وقيل في منثور الحكم لا تبذل العيوب ماستره علام العيوب * وقد روى العلامة ابن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة فقال هي أن تقول لأخيك ما فيه فان كنت صادقا فقد اغتبه وان كنت كاذبا فقد بهته وقال عبد الرحمن بن زيد في قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم انه استهزاء المسلم بمن أعلن بفسقه * ودخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم مستفتية فلما خرجت قالت عائشة رضي الله عنها يا رسول الله ما أقصر هاف قال مهلا يا لك والغيبة فقالت يا رسول الله عما قلت ما فيها قال أجل ولو لا ذلك لكان بهتنا * وسئل بعض الادباء عن صفة التلم فقال التلم اذا غاب عاب واذا حضرا غتاب فاما الخريف فحصول على الانتكار لأفعال هؤلاء ولا يكون الانتكار غيبة لانه في عن منكر وفرق بين انتكار المجاهر وغيبة الماسر * وأما التهمة فهي أن تجمع الى مذمة الغيبة رداءة وشرا وتضمن إلى مؤمها دناءة وغدر ثم تقول الى تقاطع المتواصلين وتباغض المتحابين * وروى شهر بن حوشب عن أسماء بنت زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا أخبركم بشراكم قالوا بلى يا رسول الله قال من شراركم المشاؤون بالنميمة المفسدون بين الاحبة الباغون العيوب * وروى محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ملعون ذوالوجهين ملعون ذواللسانين ملعون كل شغار ملعون كل قتات ملعون كل منان * الشغار المحرس بين الناس يلقي بينهم السداوة والقتات التهام وقيل التهام الذي يكون مع القوم يتحدثون فيهم حسد بينهم والقتات هو الذي يستمع عليهم وهم لا يعلمون فيهم حسد بينهم والمنان هو الذي يضحك الخيرو يمن به * وقيل في منثور الحكم التهمة سيف قاتل * وقال بعض الادباء لم يمش ماش شر من واش فاما السعاية فهي شر الثلاثة لانها تجمع الى مذمة الغيبة ولؤم التهمة التعرير بالنفوس والاموال والقدح في المنازل والأحوال * وروى ابن قتيبة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الجنة لا يدخلها ديوث ولا قلاع الديوث هو الذي يجمع بين الرجال والنساء سعى بذلك لانه يذب بينهم والتلاع هو الساعي الذي يقع في الناس عند الامراء سعى

لإحالة سيوت بعد أيام ثم كان بحال الجميل نباتا على الرأي الصحيح فهو لا يحالته بحاي بذلك عن دينه ويمنع العدو من استباحة حرمه والتقلب على مدينته و يأنف من الفرار ويعلم ان الجبان اذا اختار الفرار فاما يستبق شيأه ولا يحالته فان زائل وان نأخر أياما معدودة ثم هو في هذه الحياة اليسيرة محموت مكدر الحياة بالذل وضروب

الصغار وهذه حال الشجاع مع قوى نفسه أعنى عقاوم شهواته واستسلامه لذات الشهادة بعينها * ومن سمع كلام الأمام صلوات الله عليه الذي صدوره عن حقيقة الشجاعة أذ قال لا يصحبه أيها الناس إن لم تقتلوا وتموتوا والذي نفس ابن أبي طالب بيده لآل ضرب به السيف على الرأس أهون من ميتة على الفراش ١٤٩

لأن الإنسان ليس بمعدود فيها وإن كان يشبهها بالصورة * ذلك أنه ليس كل من يقدم على الأحوال فهو شجاع ولا كل من لا يخاف من الفضائح فهو شجاع * وذلك أن من لا يفرغ من ذهاب شرفه أو فضيحة حرمه أو عند حدوث الرجفات واللازل والصواعق أو الزمانة في الأمراض أو عدم الإخوان والأصدقاء أو عند اضطراب البحر وهول الأمواج والهواء الهائج فهو بان يوصف بالجبن مرة وبالقحة مرة أولى بان يوصف بالشجاعة * وكذلك من خاطر بنفسه في وقت الأمن والطمانينة بان يثيب من سطح عال أو يصعد من تقي صعبا أو يحمل نفسه على خوض ماء غزير وهو لا يحسن السباحة أو يساور جلاها تيجا أو زورا صعبا أو فرسالم برض من غير ضرورة تدعوه إلى ذلك بل مراة بالشجاعة وأظهر مرمة الشجمان

بذلك لأنه يأتي الرجل المتمكن عند الأمر فلا يزال يقع فيه حتى يقلعه * وقال بعض الحكماء الساعي بين منزلتين فيجبتين إما أن يكون صدوق فقد خان الأمانة وإما أن يكون كاذب يخالف المروءة * وقال بعض الحكماء الصدوق يزين كل أحد إلا السعاة فإن الساعي آدم وأثم ما يكون إذا صدق * وقال بعض البلغاء النخبة ذنابة والسعاة يرداءة وهما رأس الفسدر وأساس الشر فحبب سبلهما واجتنب أهلهما ووقع الفضل بن سهل على قصة ساع سعى إليه نحن نرى قبول السعاية شر أمها لأن السعاية دلالة والقبول إجازة فأتقوا الساعي فإنه إن كان في سعائه صادقا كان في صدقه أثمًا إذ لم يحفظ الحرمة ويسترد العودة * وقال الاسكندر لرجل سعى إليه برجل أتعجب أن تقبل منك ما تقول فيه على أن تقبل منه ما يقول فيك قال لا قال فكف عن الشر بكف عنك الشر وروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى على نبينا وعليه السلام إن في بلدك ساعيا ولست أخبرك وهو في أرضك فقال يا رب دلني عليه حتى أخرجه فقال يا موسى أكره النخبة وأثم

الفصل السادس في الحسد والمنافسة * أعلم أن الحسد خلق ذمير مع اضرامه بالبدن وفساده للدين حتى لقد أمر الله بالاستعانة من شره فقال تعالى ومن شر حاسد إذا حسد وناهيك بحال ذلك شرًا وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ذب اليكم داء الهم قبلكم البغضاء والحسد هي الخالقة حائلة الذين لاحا لقة الشعر والذي نفس محمد بيده لا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أنشركم بأمر إذا فعلتموه تحميمكم أنفسوا السلام يشكم فاحبر صلى الله عليه وسلم بحال الحسد وإن التحاب يقيه وأن السلام يبعث على التحاب فصار السلام إذا نافيًا للحسد وقد جاء كتاب الله تعالى بما وافق هذا القول وقال الله تعالى (ادفع بآتي هي احسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) قال مجاهد معناه ادفع بإسلام أساءة المسيء.

وقال الشاعر
قد نلبث الناس حينئذ ليس بينهم * وقد فزعهم التسليم واللاطف
وقال بعض السلف الحسد أول ذنب عصى الله به في السماء يعني حسد إبليس لأدم عليه السلام وأول ذنب عصى الله به في الأرض يعني حسد ابن آدم لأخيه حتى قتله * وقال بعض الحكماء من رضي ببغضاء الله تعالى لم يعطه أحد من قنح يعطاه لم يدخله حسد .
وقال بعض البلغاء الناس حاسد ومحسود ولكل نعمة حسود * وقال بعض الأدباء ما رأيت ظالمًا أشبه بمظلوم من المحسود نفس دائم وهم لازم وقلب هائم * فأخذ بعض الشعراء فقال
إن الحسود الظلوم في كرب * يخاله من براء مظلوما
ذات نفس دائم على نفس * يظهر منها ما كان مكتوما

فهو بان يسمى مظلومًا ما تلقا أولى منه بان يسمى شجاعا * وأما من خنق نفسه خوفًا من الفقر والذل أو أهلكها باسم وما أشبه من باب الضيم فهو بان يوصف بالجبن أولى منه بان يوصف بالشجاعة وذلك أن الأقدام وقع منه بطبيعة الجبن لا بطبيعة الشجاعة فإن الشجاع يصبر على ما يراد عليه من الشدة تدبيرًا جليلًا ويعمل أعمًا لا تلقى بتلك الحال كما شرهنا فيما تقدم

ولذلك يجب أن تعظم الشجاع وتنفسه وحقيق على السلطان خاصة والقيم بأمر الدين والملك أن يناس فيه ويحيل قدره ويعلي خطره وعززه عن سائر من يتشبه به ممن ذكرناه * فقد تبين من جميع ما قلناه أن الشجاع هو الذي يستبين بالشدة أئد في الأمور الجملية ويصبر ١٥٠ على الأمور الهائلة وتبسط بما يستعظمه عوام الناس حتى بالموت

ولم يكن من ذم الحسد إلا أنه خلق دني يتوجه نحو الألفاظ والكفاء والأقارب ويختص بالمخالط والمصاحب لكانت الزايفة عنه كراما والسلامة منه مغشاة فكيف وهو بالنفس مضطرب وعلى الهم مصرح رجا أفضى بصاحبه إلى التلف من غير نكاح في عدو ولا اضرام بحسود * وقد قال معاوية رضي الله عنه ليس في خصال الشر أعذل من الحسد يقتل الحاسد قبل أن يصل إلى المحسود * وقال بعض الحكماء يكفيلك من الحاسد أنه نعم في وقت سرورك * وقيل في منثور الحكم عقوبة الحاسد من نفسه * وقال الأصمعي قلت لأعرابي ما أطول عمرك قال تركت الحسد فبقيت * وقال رجل لشيخ القاضى انى لأحسدك على ما أرى من صبرك على التخلص ووقوفك على غامض الحكم فقال ما فعلك الله بذلك ولا ضربني * وقال عبد الله بن المعتز رحمه الله تعالى

أصبر على كيد الحسو * دفان صبرك قائله

فالتارنا كل بعضنا * ان لم نجدها تأكله

وحقيقة الحسد شدة الأذى على الخيرات تكون للناس الأفاضل وهو غير المنافسة وربما غلط قوم فظنوا أن المنافسة في الخير هي الحسد وليس الأمر على ما ظنوا لأن المنافسة طلب التشبه بالأفاضل من غير ادخال ضرر عليهم والحسد مصروف إلى الضرر لأن غاية ما أن يعدم الأفاضل فضلهم من غير أن يصير الفضل له فهذا الفرق بين المنافسة والحسد فالمنافسة إذا فضيلة لها داعية إلى اكتساب الفضائل والاقتداء بها خيار الأفاضل * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال المؤمن يغبط والمنافق يحسد وقال الشاعر

نافس على الخيرات أهل العلا * فاعنا الدنيا أحاديث

ككل امرئ في شأنه كادح * فوارث منهم وموروث

* واعلم ان دواعي الحسد ثلاثة أحدها بغض المحسود فبأى عليه بفضيلة تطهر أو منقبة تشكر فيشرب حسدا قد خامر بغضا وهذا النوع لا يكون عاما وإن كان أضره لأنه ليس يبغض كل الناس * والثاني أن يظهر من المحسود فضل يعجز عنه فيكره تقدمه فيه واختصاصه به فيبغض ذلك حسدا لولا لكف عنه وهذا أوسطها لأنه لا يحسد إلا كفاء من دنا وانما يختص بحسدهن علا وقبيل تزج بهذا النوع ضرب من المنافسة ولكنهما مع عجز فلذلك صارت حسدا * والثالث أن يكون في الحاسد شيء بالفضائل ويحل بالنعم وليس إليه فيمنع منها ولا يبيده فيدفع عنها لأنها ما هب قدمها الله من شاء فيصط على الله عز وجل في قضائه ويحسد على ما منح من عطائه وإن كانت نعم الله عز وجل عنده أكثر ومنعه عليه أظهر وهذا النوع من الحسد أعجم وأخبثها لأن ليس لصاحبها راحة ولا رضا فغاية ما أن اقترن بشر وقدره كان بوراواتنقا ما وإن صادف عجزا ومهانة كان كداسقاما * وقد قال عبد

لاختيار الأمر الأفضل ولا يحزن على ما لا أدرك فيه ولا يضطرب عندما يفدح من المصائب ويكون غضبه إذا غضب بمقدار ما يجب وعلى من يجب وفي الوقت الذي يجب وكذلك يكون انتقامه على هذه الشرائط فإن الحكماء قالوا ان من لا يتقبح يلحق قلبه ذبول فاذا انتقم عاد إلى حالته من النشاط وهذا الانتقام إذا كان بحسب الشجاعة كان مجودا وإذا لم يكن كذلك كان مذموما * فقد نقل البناء في الأخبار المأثورة عن أقدم على سلطان قوى ورام أن ينتقم منه فاهلك نفسه من غير أن يضرب سلطانه روايات كثيرة * وكذلك حال من أقدم على قرن قسوى أو خصم ألد لا يستطيع متاومته فإن الانتقام منه يعود بالأذى عليه وزيادة في الذل والعجز * فإذن ليست تتم شرائط الشجاعة والعفة إلا بالحكم الذي يستعمل كل شيء في موضعه الخاص به وبقدر أقطار العقل

الحمد

له فكل شجاع عفيف حكيم وكل حكيم شجاع عفيف وهذه الخصال

بعبينا تظهر في عمل على الأسخياء وليس بسخي * وذلك أن من بذل أمواله في شئ هو أنه طلب السمعة والباء أو تقر بالأسيلطان أولدفع مضرة عن نفسه وحرمة أو أولاده أو بذلها لمن لا يستحق من أهل الشر أو الملهين أو المساكين أو بؤذنها

لطمع في أكثر منها على سبيل التجارة والمراحمه فكل هؤلاء يعمل عمل الامغيا وليس بسعي * أما بعضهم فيبدل ماله بطبيعة الشرة وأما بعضهم فطبيعة الطرمدة والباء وبعضهم على طريق الأزديام من المال والرجح فيه وأما بعضهم فعلى سبيل التبذير وقلة المعرفة بقدر المال * وهذا ١٥١ أكثر ما يعرض للوارث ولن لا تعب

في اكتساب المال فلا يعرف صعوبة الامر فيه * وذلك ان المال صعب الاكتساب سهل الانفاق والتفرقة فتشبه الحكما بمن يرفع جلائقها الى القلة جبيل ثم يرسله فان الامر في تربيته واصعاده صعب ولكن ارساله من هناك امر سهل

والحاجة الى المال واكتسابه بالطرق الشريرة لعادلة

الحاجة الى المال ضرورية في العيش وهو نافع في اظهار الحكمة والفضيلة ومن اكتسبه من وجهه صعب عليه وذلك ان المكاسب الجميلة قليلة ووجوهها يسيرة عند الرجل العادل الحر وأما غير العادل الحر فليس يبالي كيف اكتسبه ومن أين وصل اليه ولاجل ذلك يوجد كثير من الارواح والفضلاء ناقصي الخظمة ويوجدون أيضا ذامين للخبث شاكين منه وأما أئندادهم فلاجل

الحميد المحسود من الهم كساق السم فان سرى همه زال عنه همه * واعلم ان محسب الفضل الانسان وظهور النعمة عليه يكون حسد الناس له فان أكثر فضله أكثر حساده وان قل قلوا لان ظهور الفضل يثير الحسد وحدث النعمة يضاعف الكمد ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم استعينوا على قضاء الحوائج بسيرتها فان كل ذي نعمة محسود * وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما كانت نعمة الله على أحد الا وجد لها حسدا فلو كان الرجل حل أقوم من القدرح لماعدم غامرا * وقد قال الشاعر

ان يحسدوني فاني غير لأتهم * قبل من الناس أهل الفضل قد حسدوا
فدام لي ولهم ما بي وما بهم * ومات أكثرنا غيظا بما يحسد
روعا كان الحسد منها على فضل المحسود ونقص المحسود * كما قال أبو تمام الطائي
واذا أراد الله شرف فضيلة * طويت أناح لها لسان حسود
لولا اشتغال النار فيما جاورت * ما كان يعرف طبيب عرف العود
لولا الخوف للعواقب لم يزل * للحاسد النعمي على المحسود

فاما ما يستعمله من كان غابا عليه الحسد وكان طبعه اليه ما تلا ليتقي عنه ويكفاه ويسلم من ضرره وعداوته فأمره به له حسم ان صادفها عزم فتبا اتباع الدين في اجتنابه والرجوع الى الله عز وجل في أدائه فيقهر نفسه على مذموم خلقها ويستلها عن لثيم طبعها وان كان نقل الطباع عسر لكن بالباطنة والتدرج يسهل منها ما استصعب ويحبب منها ما أتعب وان تقدم قول القائل من ربه خلقه كيف يخلق غير انه اذا عاقى تهذيب نفسه تظاهرت الخلق دون الخلق ثم بالمادة يصير كالخلق * قال أبو تمام الطائي
فلم أجد الاخلاق الا تتخلقا * ولم أجد الا فضائل الا تفضلا

ومنها العقل الذي يستقبح به من تتأخ الحسد ما لا يرضيه ويستنكف من هجته مساويه فيذل نفسه أنفة ويقهر حاجية فتدفع لرشدها وتجب الى صلاحها وهذا اغنا يصح لذى النفس الأبية والهمة العلمية وان كان ذواهمة يحل عن دناءة الحسد * وقد قال الشاعر
أبى له نفسان نفس زكية * ونفس اذا ما خافت الظلم تشمس
ومنها أن يستدفع ضرره ويتوقى أثره ويعلم أن مكانته في نفسه أبلغ ومن الحسد أبعد فيستعمل الخزم في دفع ما كده أو كده ليكون أطيب نفسا وأهنا عيشا * وقد قيل العجب لغفلة الحساد عن سلامة الاجساد * وقد قال الشاعر

بصير بعاقب الأمور كائنا * يرى بصواب الرأي ما هو واقع

ومنها ما يرى من نفور الناس عنه وبعدهم منه فتخافهم اما على نفسه من عداوة أو على عرضه من ملامة فيتألفهم بمعالجة نفسه ويأمرهم أن صلحوا أجدي نفعا وأخلص ودا

انهم يكتسبون المال من وجوه الخيانات ولا يبالون كيف وصل اليهم فانهم يوجدون أدا وافر من الخط منه واسعي التفقات شاكرين لجنونهم والعمامة يغيظونهم ويحسدونهم * إلا ان العاقل اذا رأى في نفسه وهو يرى من المذمات نفق العرض من السوءات لم يتدنس بالقبج من المكاسب ولم يتطرق اليه بخيانة ولا سرقة ولا

ظلم لمن هودونه أو مثله وتجنب فيه وجوه العار والقضائح كإقيادة والحداد وترويج السلع القبيحة على المولوك واستغلالهم عن أموالهم بالتدع والمكر ومساعدتهم على الفواحش وتحسين القضايع فيما وافق هواهم وما يجري مجرى ذلك من السعاية والنيمة ١٥٢ والغبية وضر وب الفساد التي يرتكبها طلاب المال من

* وقال ابن العميد رحمه الله تعالى

داوى جوى بجوى وليس يحازم * من يستكف النار بالحلفاء

وقال المؤمل بن أميل

لا تحسبوني غنيا عن مودتكم * اتى اليكم وان أنسرت مفقر

ومنها أن يساعدا القضاء ويستسلم للتقدور ولا يرى أن يغالب قضاء الله فيرجع مغلوبا ولا أن يعارضه في أمره فيردحجر ومما سئلوا بوقد قال أزدشير بن بابك اذالم يساعدا القضاء ساعدا * وقال محمود الوراق

تدرا الله سكان * حين يقضى وروده

قد مضى فيك علمه * وانتهى ما يريده

فأرد ما تكون ان * لم يكن ما تريده

فان أطغرت السعادة بأحد هذه الأسباب وهذه المراد إلى استعمال الصواب سلم من سقامه وخلص من غرامه واستبدل بالنقص فضلا واعتاض من الذم جدا ولن استنزل نفسه عن مذمة قصر فها عن لائمة هو أظهر خرما وأقوى عزما ممن كفته النفس جهادها وأعطته قيادها ولذلك قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه خياركم كل مفتن ثواب وان صدته الشهوة عن حرامه وأضلته الحرمان عن مقاصده فانقاد لطبع الشيم وغلب عليه الخلق الذم حتى ظهر حسده واشتد كده فقتل عازا بيع مدام * احدا من حشرات الحسد وسقام الحسد ثم لا يجد حسرة انتهاء ولا يؤمل لسقامه شفاء * وقال ابن المعتز الحسد اء الحسد والثانية اخضاع المنزل والخطاط المرتبة لاخراف الناس عنه ونفورهم منه * وقد قيل في منشور الحكم الحسد لا يسود * والثالثة تمتعت الناس له حتى لا يجد فيهم محبا وعداوتهم له حتى لا يرى فيهم ولما في قصير بالعداوة ما ثورا وبالمقت من جورا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم شر الناس من يبغض الناس ويبغضونه * والارابعة احتياط الله تعالى في معارضته واجتناب الاوزار في مخالفته اذ ليس يرى قضاء الله عدلا ولا نعيم من الناس أهلا * ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم الحسد يأكل الحسنات كائنا كل النار الحطب * وقال عبد الله بن المعتز الحسد مقتناظ على من لا ذنب له بخيل بما لا يملكه طالب المالا ليحده * واذا بلى الانسان عين هذه حاله من حساد النعم وأعداء الفضل واستعاض بالله من شره ونوق مضارع كيد وخر من غوائل حسده وأبعد عن ملاسته وادانته لعضل دائه واعواز دوائه * فقد قيل حاسدا النعمة لا يرضيه الا زوالها * وقال بعض الحكماء من ضر بطبعه فلا تناس بقره فان قلب الاعيان صعب المرام * وقال عبد الحميد أسد تقاربه خير من حوسد تراقبه وقال محمود الوراق

غير وجهه بضر وب الغائبات ووجوه الظلم بسر نفسه وبمناض من المال الراحة والمجدة فلا يسلوم الخت ولا يبعض الدول ولا يحسد أتحاب الاموال المكتسبة من غير وجوهها الجميلة * فهذه أحوال المكسبين للاموال ومنفقيها وكذلك حال من عمل عمل الدول وليس بمسدل وذلك انه اذا عدل في بعض الامور حرا آة ليصل به الى كرامة اموال أو غير ذلك من الشهوات أو لغرض آخر ما عدناه فيما تقدم فليس يسمى عادلا وانما يعمل عمل القدول للقرض الذي يقصده وينبغي ان ينسب فعله الى غرضه فانه بحسب هذا يفعل ذلك كما قلنا وشرحنا

العدل

فاما العدل بالحقيقة فهو الذي يعدل قواه وافعاله وأحواله كلها حتى لا يزيد بعضها على بعض ثم يروم ذلك فيما هو خارج عنه

من المعاملات والكرامات ويقصد في جميع ذلك فضيلة العدالة نفسها لا غرض آخر سواها وانما يتم لذلك اذا كانت له هيئة نفسانية أدبية تصدر عنها افعاله كلها بحسبها ولما كانت العدالة وسطا بين أطراف وهشة يقتدر بها على رد الزائد والنقص اليها صارت أتم الفضائل وأشبهها بالوحدة وأعني بذلك ان وزن

الوحدة هي التي لها الشرف الاعلى والرتبة القصوى * وكل كثرة لا يضبطها معنى بوحدها فلا تقوم لها ولا ثبات والزيادة والنقصان والكثرة والقلّة هي التي تفسد الاشياء اذ لم يكن بينها مناسبة تحفظ عليها الاعتدال بوجه ما فالاعتدال هو الذي يرد إليها ظل الوحدة ومعناها وهو الذي يلبسها شرف الوحدة ويزيل عنها ذليلة الكثرة والتفاوت والاضطراب الذي لا يجد ولا يضبط بالمساواة التي هي خلقية الوحدة في جميع الكثرات واشتقاق هذا الاسم بذلك على معناها وذلك ان العدل في الأجنال والاعتدال في الاتقال والعدالة في الأفعال مشتقة من معنى المساواة (١٥٣) والمساواة هي أشرف النسب

المذكورة في صناعة الارعاطية وهي وذلك لا تنقسم ولا يوجد لها أنواع وانما هي وحدة في معناها أو ظل للوحدة فاذا لم نجد المساواة التي هي المثل بالحقيقة في الكثرة عدلنا الى اسباب المذكورة التي تجعل اليها وتعود الى حقيقتها وذلك اننا حينئذ نضطر الى ان نقول نسبة هذا الى هذا كنسبة هذا

الى هذا ولذلك لا توجد النسبة الا بين اربعة أو ثلاثة بتكرار فيها الوسط فتصير ايضا اربعة والنسبة الاولى تسمى منفصلة والثانية تسمى متصلّة * ومثال الاولى اب ج د فنقول نسبة (ا) الى (ب) كنسبة (ج) الى (د) * ومثال الثانية ان نأخذ الباء مشتركة فنقول نسبة (ا) الى (ب) كنسبة (ب) الى (ج) وهذه النسبة توجد بين ثلاثة اشياء * وهي النسبة العددية والنسبة المساحية والنسبة

أعطيت كل الناس من نفس الرضا * الا الحسود فانه أعيان ما ان في ذنبا اليه علمته * الانتظار رغبة الرحمن وأبى في ارضيه الاناني * وذهب أموالى وقطع لساني وقدر وى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ثلاثة لا يسلم أحد منهم الطيرة وسوء الظن والحسد فاذا تطيرت فلا ترجع واذا ظننت فلا تتحقق واذا حسدت فلا تبخ * وأما آداب المواضعة والاصطلاح فضر بان أحدهما ما تكون المواضعة في فروعه والعقل موجب لاصوله والثاني ما تكون المواضعة في فروعه وأصوله وذلك متضخ في الفصول التي تذكرها اذا سبرت وهي ثمانية

الفصل الاول في الكلام والصمت * اعلم ان الكلام ترجان يعبر عن مستودعات الضمائر ويحجب مكنونات السرائر لا يمكن استرجاع واداره ولا يقدر على رد شواردهم على العاقل أن يحترز من زلله بالامساك عنه أو بالاقبال منه * روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال رحم الله من قال خيرا فغم أو سكت فسلم * وقال صلى الله عليه وسلم لمعاذ يا معاذ أنت سالم ما سكت فانا تكلمت فعليل أولك وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه اللسان معيار طاشه الجهل وأرجحه العقل * وقال بعض الحكماء الزم الصمت تعدد حكميا حاشا كنت أوعا * وقال بعض الادباء سعد من لسانه صموت وكلامه قوت وقال بعض العلماء من أعوذ ما يتكلم به العاقل أن لا يتكلم اللاحقة أو محجته ولا يفكر الا في عاقبته أو في آخرته وقال بعض البلغاء الزم الصمت فانه يكسبك صفوا محبة ويؤمنك سوءا مغبة ويلبسك ثوب الوفاق ويكفيك مؤنة الاعتذار * وقال بعض الفصحاء عقل سائلك الاغن حق توخه أو باطل تدحضه أو حكمة تنشرها أو نعمة تذكرها وقال الشاعر

رأيت العزفى أدب وعقل * وفي الجهل المذلة والخوان وما حسن الرجال لهم بحسن * اذالم يسعدا لحسن البيان كفى بالمسرعيان تراه * له وجه وليس له لسان

واعلم أن للكلام شروطا لا يسلم المتكلم من الزلل الا بها ولا يعزى من النقص الا بعد ان يستوفى وهي اربعة فالشرط الاول أن يكون الكلام لداع يدعو اليه اما في اجتلاب نفع أو دفع ضرر والشرط الثاني أن يأتي به في موضوعه يتوخى به اصابة فرصته والشرط الثالث

٢٠ - أدب الدنيا * التأليفه وجميع ذلك مبین مشروح في المختصر الذي علمنا في صناعة العدد * واما سائر النسب فارجو ان يكون ذلك عظمها الاوائل واسمحر جوابها العلوم الجمة الشريفة * ولما كانت نسبة المساواة عزيزة لانها نظيرة الوحدة عدلنا الى حفظ هذه النسب الاخرف الامور والكثرة التي تلابسها الانها عاقلة اليها وغير خاف جفتها فنقول * مواضع العدالة * ان العدالة موجودة في ثلاثة مواضع أحدها قيمة الاموال والكرامات والثاني قيمة المعاملات الارادية كالبيع والشراء والمواضات والثالث قيمة الاشياء التي وقع فيها ظلم وتعد * فاما العدالة في الامور التي تكون

في القسم الاول فتكون بالنسبة المنفصلة التي بين الاربعة اعني ان تكون نسبة الاول الى الثاني كنسبة الثالث الى الرابع مثال ذلك ان يقال نسبة هذا الانسان الى هذه الكرمة او الى هذا المال كنسبة كل من كان في مثل مرتبة الى مثل قسطه فاذا يجب ان يوفر عليه ويسلم وما في الامور التي تكون في القسم الثاني اعني المعاملات والمعاوضات فيكون بالنسبة المنفصلة ضرورة بالنسبة المتصلة اخرى مثاله ان تقول نسبة هذا البراز الى هذا الاسكاف كنسبة هذا الثوب الى هذا الخف ثم ليس يمنع من ان تقول ١٥٤ نسبة البراز الى الاسكاف كنسبة الاسكاف الى الثوب او تقول نسبة الثوب الى الخف كنسبة الخف الى

الكرسي ويتبين لك من هذين المثالين ان النسبة الاولى تكون بالعق فقط والنسبة الثانية تكون بالعرض والعق جميعا اعني ان الاولى تقع بين الكلين والخزيين وهو بالعق اشبه والثانية تقع بالعرض في الخزيين وقد تقع بين الكلين والخزيين ايضا واما العدالة التي تقع في المقام والامور الحقيقية فهي بالنسبة المساحية اشبه وذلك ان الانسان متى كان على نسبة من انسان آخر باطل هذه النسبة بحرف او ضرر يلحقه به فان العدالة توجب ان يلحق به ضرر مثله ليعود التناسب الى ما كان عليه فالعدل من شأنه ان يساوي بين الاشياء الغير المتساوية مثال ذلك ان الخط اذا قسم قسمين غير متساويين نقص من الزائد وزاد على

ان يقتصر منه على قدر حاجته والشرط الرابع ان يغير اللفظ الذي يتكلم به فهذه اربعة شروط متى اُخِل المتكلم بشرط منها فقد اُهن فضيلة باقيا وسند كرتل كل شرط منها بما ينبغي عن لزومه فاما الشرط الاول وهو الداعي الى الكلام فلان ما لداعي له هذيان وما لاسببه هجر ومن ساه نفسه في الكلام اذا عت ولم براع محمدا وعيه واصابة معانيه كان قوله ممدولا ورأيه ممدولا كالذي حكى ابن عائشة ان شابا كان يجالس الاحف ويطلب الصمت فاجب ذلك الاحف فخلت الحلقة يوما فقال له الاحف تكلم يا ابن أخي فقال يا عم لو ان رجلا سقط من شرف هذا المسجد هل كان يضره شيء فقال يا ابن أخي ليتنا تركناك مستورا ثم غفل الاحف بقول الاعور الشني وكائن ترى من صامت لك هجب * زيادة او نقصه في التكلم لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق الا صورة اللحم والدم وكالذي حكى عن أبي يوسف الفقيه ان رجلا كان يجلس اليه فيطلب الصمت فقال له أبو يوسف الاتسأل قال لي متى يفطر الصائم قال اذا غربت الشمس قال فان لم تغرب الى نصف الليل قال فتبسم أبو يوسف رحمه الله وتخلل بيبي الخطفي جذوبر عجب لا زراء العبي بنفسه * وصمت الذي قد كان بالقول اعلمنا وفي الصمت ستر للعبي وانما * صحفة لب المرأة أن يتكلمها وما اطرفك به عني اني كنت يوما في مجلس بالبصرة وانا مقبل على تدريس اصحابي اذ دخل علي رجل مسن قد ناهز الثمانين او جاوزها فقال لي قد صدت بك بسأله اخبرتك لما قلت اسأل عاقل الله فظنته يسأل عن حادث نزل به فقال اخبرني عن نعم اليس ونعم آدم ما هو فان هذين لعظم شأنهما لا يسئل عنهما الا علماء الدين فجبحت وحبج من في مجلسي من سؤاله وبدر اليه قوم منهم بالانكار والاستخفاف فكففتهم وقلت هذا لا يقيم مع ما ظهر من حاله الاجواب مثله فأقبلت عليه وقلت يا هذان الخمين يزعمون أن نجوم الناس لا تعرف الا بعرفه فما باليدهم فان ظفرت بن يعرف ذلك فاسأله في شئ قبل عني وقال جزاء الله خيرا ثم انصرف مسرورا فلما كان بعد أيام عاد وقال ما وجدت الى وقتي هذا من يعرف مولد هذين فانظر الى هؤلاء كيف ابانوا بالكلام عن جهلهم وأعر بواب السؤال عن نقصهم اذ لم يكن لهم داع اليه ولا روية فيما تكلموا به ولو صدر عن روية ودعا اليه داع

التاقص حتى يحصل له التساوي ويذهب عنه معنى القلة والكره ومعي الزيادة والنقصان لسلما وكذلك الخفة والثقل وجسم ما أشبه ذلك * ولكن ينبغي ان يكون عالما بطبيعة الوسط حتى يمكنه ان رد الطرفين اليه مثال ذلك الرج والخسران فانهما في باب المعاملات طرفان أحدهما زاد والآخر نقصان فاذا أخذ أقل مما يجب صار الى جانب النقصان وان أخذ أكثر مما يجب كان خارجا الى جانب الزيادة ولم الشرع في المعاملات والشرع يعفي التي تربى في كل واحد من هذه الاشياء في الوسط والاعتدال لان الناس هم مدينون بالطمع ولا يتم لهم عيش الا بالتعاون يجب

ان بعضهم يخدم بعضا وأخذ بعضهم من بعض و يعطى بعضهم بعضا فهم يطلبون المكافأة المناسبة فإذا أخذ الاسكان من الخراج وعطاه غيره فهي المأوضاء إذا كان الجلال متساوين ولكن ليس بمنع مانع ان يكون عمل الواحد خيرا من عمل الآخر فيكون الدينار هو المقوم والمسوى بينهما فالدينار هو عدل ومتوسط الانه سكت والاسنان الناطق هو الذي يستعمله ويقوم به جميع الامور التي تكون بالامارات حتى تجرى على استقامة ونظام ومناسبة بحسب عاقلته ولذلك يستعان بالحكم الذي هو عدل ناطق اذا لم يستقم الامر بين الخصمين ١٥٥ بالدينار الذي هو عدل ساكت

وأرسطوطاليس يقول ان الدينار ناموس عادل ومعنى الناموس في لغته السياسة والتدبير وما أشبه ذلك فهو يقول في كتابه المعروف بنقوما ما خدان الناموس الا كبره من عند الله تبارك وتعالى والحكا كمناموس نان من قبله والدينار ناموس ثالث فنماوس الله تعالى قدوة الناموس كلها يعني الشريعة والحكا كمناموس مقتبذة والدينار مقتبذة ثالثا وانما قامت الاشياء المختلفة بالاثمان المختلفة لتصح انشراكات والمعاملات وتبين وجه الاخذ والاعطاء فالدينار هو الذي يستوي بين المختلفات ويزيد في شيء وينقص في آخر حتى يحصل بينهما الاعتدال فتستوي المعاملة بين الفلاح والتجار مثلا وهذا هو العدل المدني وبالسبل المدني عمرت المدن وبالجور المدني

لسلواهم شينه و برثوا من عيه ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لسان العاقل من وراء قلبه فاذا اراد الكلام رجع الى قلبه فان كان له تكلم وان كان عليه أفسك وقلب الماهل من وراء لسانه يتكلم بكل ما عرض له * وقال عمر بن عبد العزيز من لم يعد كلامه من عمله كثرت خطاياه * وقال بعض الحكماء عقل المرء مخبوء تحت لسانه * وقال بعض البلغاء احبس لسانك قبل أن يطيل حبسك أو يتلف نفسك فلا تشي أو يبطول حبس من انسان يقصر عن الصواب ويسرع الى الجواب * وقال أبو تمام الطائي ونما كانت الحكماء قالت * لسان المرء من تبع الفؤاد وكان بعض الحكماء يحسم الرخصة في الكلام ويقول اذا حالست الجهال فانصت لهم واذا جالست العلماء فانصت لهم فان في انصائك للجهال في زيادة في العلم وفي انصائك للعلماء زيادة في العلم وأما الشرط الثاني فهو ان يأتي بالكلام في موضعه لان الكلام في غير محله لا يقع موقع الانتفاع به ولا ينفع من الكلام فقد تقدم القول بأنه هذيان وهجر فان قدم ما يقتضي التأخير كان محجة وخرفا وان أخر ما يقتضي التقديم كان توابيا وعجزا لان لكل مقام قولا وفي كل زمان عملا * وقد قال الشاعر

تضع الحديث على مواضعه * وكلامهما من بعد هاتر

وأما الشرط الثالث وهو ان يقتصر منه على قدر حاجته فان الكلام ان لم ينحصر بالحاجة ولم يقدر بالكفاية لم يكن له نفع ولا فائدة ومنه ما لم يكن من الكلام محصورا كان حصرا ان قصر وهذرا ان كثر * وروي أن اعرابا تكلم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وطول فقال النبي صلى الله عليه وسلم كمدون لسانك من محاب قال شفتاي وأسناني قال فان الله عز وجل بكراهة الاسبقاق في الكلام فنضر الله وجه امرئ أو جزفي كلامه فاقصر على حاجته وحكي أن بعض الحكماء رأى رجلا يكثر الكلام فيقول السكوت فقال ان الله تعالى انما خلق للآذانين ولسانا واحدا ليكون ما تسمع ضعف ما تتكلم به وقال بعض الحكماء من كثر كلامه كثر آثامه * وقال ابن مسعود انكروكم فضول المنطق وقال بعض البلغاء كلام المرء بيان فضله ورجاء عقله فاقصره على الجليل واقصر منه على القليل وبالأمم اسخط سلطانك ووحش اخوانك فن اسخط سلطانه تعرض للينه ومن أوحش اخوانه تبرأ من الحرية وقال بعض الشعراء

خربت المدن وليس يمنع مانع من ان يكون عمل يسير يساوي عملا كثيرا مثل ذلك ان المهندس ينظر نظرا قليلا ويعمل عملا يسيرا ويساوي نظره هذا عملا كثيرا من أقوام يكذبون بين يديه ويعلمون عمارته وكذلك صاحب الجحش يكون تدبيره ونظره يسيرا ولكنه يساوي أعمالا كثيرة مما يحارب بين يديه ويعمل الاعمال الثقيلة العظيمة بالخاطر سطر التساوي وهو عند أرسطوطاليس على ثلاث منازل * فالخائر الاعظم هو الذي لا يقبل الشريعة ولا يدخل تحتها والخائر الثاني هو الذي لا قبل قول الحاكم العادل في معاملاته وأموره كلها والخائر الثالث هو الذي لا يكتب ويقتصر الاموال فيعطى نفسه أكثر مما يجب لها وغیرها أقل مما يجب له * قال الفاضل بالشريعة يعمل بطبيعة المساواة فيكتسب الخير والعبادة من وجوب

العدالة لان الشريعة تأمر بالاشياء المحموده لانها من عند الله عز وجل فلان تأمر بالاجتهاد والابالاشياء التي تفعل السعادة وهي ايضا تنهى عن الرذائل الدينية وتأمُر بالشجاعة وحفظ الترتيب والنياب في مصاف الجهاد وتأمُر بالعفة وتنهى عن القسوق وعن الاقتراء والشتم والحجر والجله تأمر بجميع الفضائل وتنهى عن جميع الرذائل * فالعادل يستعمل العدالة في ذاته وفي شركائه المندمين * والجاهل يستعمل الجور في ذاته وفي اصدقائه ثم في جميع شركائه المندمين قال وليست العدالة جزأ من الفضيلة بل هي الفضيلة (١٥٦) كاهوا ولا الجور الذي هو ضدها جزأ من الرذيلة لكنه الرذيلة كلها فبعض أنواع

الجور ظاهر يفعل بالارادة مثل ما يكون في البيع والشراء والكفالات والقروض والعواري * وبعضها خفي يفعل ايضا بالارادة مثل السرقة والفجور والقيادة وخداع المالكين وشهادة الزور

وبعضها غشمي على سبيل التغلب مثل التعذيب بالدهق والتبديد والغلل * (الامام العادل) قال الامام العادل الحاكم بالسوية يبطال هذه الأنواع ويختلف صاحب الشريعة في حفظ المساواة فهو لا يعطي ذاته من الخبرات أكثر مما يعطي غيره * ولذلك قيل في الخبر أن اختلافه تطهر الانسان * قال فاما العامة فانها تؤهل لمرتبة الامامة التي هي الخلافة العامة بما ذكرناه * من كان شريفا في حسبه ونسبه وبعضهم يؤهل لذلك من كان كثير المال * وأما العقلاء فانهم يؤهلون لذلك

وزن الكلام اذا نطقت فاعلم * يبدى عيوب ذوى العيوب المنطق

والتخالف قدر الحاجة من الكلام حالتان تقصير يكون حصرا وتكثير يكون هذرا وكلامهما شين وشين الهذر أشنع وربما كان في الثالب أخوف قال النبي صلى الله عليه وسلم وهل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم الا حصائد الستم * وقال بعض الحكماء مقتل الرجل بين فكيه * وقال بعض البلاء الحصر خير من الهذر لان الحصر يضعف الجبهه والهذر يثقل المحجة * وقد قال الشاعر

رأيت اللسان على أهله * اذا ساسه الجهل ليثامغرا

وقال بعض الادباء (بارب السنة كالسيوف تقطع أعناق أصحابها وما ينقص من هيئات الرجال يزد في بيئاتها وألبها) * وقد ذهب بعضهم الى أن الكلام اذا كثر عن قدر الحاجة وزاد على حد الكفاية وكان صوابا لا يشوبه خطئ وسليما لا يتعسده زلل فهو البيان واسرار الحلال * وقال سليمان بن عبد الملك وقد ذم الكلام في مجلسه كلاً ان من تكلم فاحسن قدر على أن يسكت فاحسن وليس من سكت فاحسن قدر على أن يتكلم فحسن ووصف بعضهم الكاتب فقال الكاتب من اذا أخذ شبرا كفاه واذا وجد طومارا أملاه * وأنشد بعضهم في خطباء اباد

يرمون بالخطب الطوال ونارة * وحى الملاحظ خيفة الرقباء

وقال الهيثم بن صالح لابنه يابني اذا أقلت من الكلام أكثر من الصواب فقال يابني فان أنا أكثر وأكثرت يعني كلاما وصوابا فقال يابني ما رأيت موعوظا أحق بان يكون واعظا منك * وأنشدت لابي الفتح البستي

تكلم وسدما استطعت فاعلم * كلامك حى والسكوت جاد

فان لم تجد تولا سديدا تقوله * فسمت لك عن غير الاسد اسداد

وقيل لياس بن معاوية ما فيك عيب الا كثرة الكلام فقال أقسمت بمون صوابا أو خطا قالوا لابل صوابا قال فإني ازيد من الخبر خير * وقال أبو عثمان الجاحظ له كلام غامبه ولنشاط السامعين نهاية فواضع عن مقدار الاحتمال ودعالي الاستئصال والمال * لذلك النافض هو الجاهل وصدق أبو عثمان لان الاكثر منه وان كان صوابا يمل السامع ويكل الخاطر وهو صادر عن إعجاب به لولا قصر عنه ومن أعجب بكلامه استرسل فيه واسترسل في

من كان حكيماً فاعلم ان الحكمة والفضيلة هي التي تعطى اليها راسات والسيادات الحقيقية وهي التي رتبنا الثاني والاول في مرتبتهم وفضلتهما * أسباب المضرات * وأسباب المضرات كلها تنقسم الى أربعة أنواع * أحدها الشهوة والرذالة التابعة لها * والثاني الشرارة والجور التابعة لها * والثالث الخطأ ويتبعه الحزن والرابع الشقاء * أما الشهوة فانها تحبل الانسان على الاضرار بغيره الا أنه لا يكون مؤثرا له ولا ملذذ به * ولكنه يفعل له يصل به الى شهوته وربما كان قسما لما به كارهه الا ان قوة الشهوة تجعله على ارتكاب ما يرتكبه * وأما الشر يزفاه

يضعده الأضرار بغيره على سبيل الإنذاره والالتذاده * كن يسي إلى السلطان ويحمله على إزالة نعمة لا يصل إليه منها شيء * ولكن يلتذبه المكروه الذي يصل إلى غيره * وأما الخطأ فإن صاحبه لا يقصد الأضرار بغيره ولا يؤثر ولا يلتذبه بل يقصد فعلا ما فيعرض منه فعل آخر * وصاحب الفعل يحزن ويكتب لما اتفق إليه من الخطأ * وأما الشقاء فصاحبه لا يكون هذا مبدءا فله ولله فيه صنع بالقصد * بل وقعه فيسبب آخر من خارج * وذلك كن تصد به دأبه صد يقاله فتقتله * فهذا يسمى شقا وهو مرحوم معدور لا يجب عليه عتب (١٥٧) ولا عقوبة * وأما السكران

والغضبىان والفران اذا فعلوا فاعلا فاعلم انهم يستحقون العتب والتفويه لان مستدأ فاعلم منهم * وذلك ان السكران باختياره أزال عقله والغضبىان والفران اختارا الاقتصاد بهاتين القسوتين اذا حاجتا هما * ونعود إلى ما كنا فيه من ذكر العدل التفصيل

تقسيم العدالة

ان ارسطو طالس قسم العدالة إلى اقسام ثلاثة * أحدها ما يقوم به الناس لرب العالمين وهو أن يحري الإنسان فيما بينه وبين الخالق عز وجل على ما ينبغي وبحسب ما يجب عليه من حقه وبقدر طاقتة * وذلك أن العدل اذا كان هو اعطاه ما يجب من يجب كما يجب * فن الحال أن لا يكون الله تعالى الذي وهب لنا هذه الخيرات العظيمة واجب يفتني أن يقوم به الناس * والثاني

الكلام كثير الزل دائم العثار * وقال بعض الحكماء من أعجب بقوله أصيب بعقله وليس لكثرة الهذر رجاء يقابل خوفه ولا نفع يوازي ضرره لأنه يخاف من نفسه الزلل ومن سامعيه الملل وليس في مقابلة هذين من حاجة داعية ولا نفع مرحوم * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أفضلكم من المتفريق المكثار والمخ المهدار وسأل رجل حكيميا فقال متى أتكلم قال اذا اشتيت الصمت فقال متى أصمت قال اذا اشتيت الكلام * وقال جعفر بن يحيى اذا كان الالحياز كافيا كان الاكثار عيوانا كان الاكثار واجبا كان التقصير عجزا * وقيل في منثور الحكم اذا تم العقل نقص الكلام * وقال بعض الأدباء من أطال صمته احتجب من الهبة ما ينفعه ومن الوحشة ما لا يضره * وقال بعض البلغاء عسى تسلم منه خبر من منطوق تندم عليه فاقصرت من الكلام على ما يقيم حجتك ويبلغ حاجتك وإياك وقضوله فانه يزل القدم ويورث الندم * وقال بعض الفقهاء قم العاقل لمجسم اذاهم بالكلام أجم وقم الجاهل مطلق كما شاء أطلق * وقال بعض الشعراء

ان الكلام بعد القوم جلوة * حتى يلج بهى واكثر

وأما الشرط الرابع وهو اختيار اللفظ الذي يتكلم به فلا تلي اللسان عنوان الانسان يترجم عن مجهوله ويبرهن عن محسوله فيلزم أن يكون بتدبير ألفاظه حرا ومتوقفا لسانه مليا * روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعمري العباس يعني جالك قال وما جبال الرجل يا رسول الله قال لسانه * وقال خالدين صفوان ما للانسان لولا اللسان هل الاجمعة مهملة أو صودة ممشلة * وقال بعض الحكماء اللسان وزير الانسان * وقال بعض الأدباء كلام المرء دواء أدبه * وقال بعض البلغاء يستدل على عقل الرجل بقوله وعلى أصله بفسده * وقال بعض الشعراء

وان لسان المرء ما لم تكن له * حصاة على عوارته لدليل

وليس يصح اختيار الكلام إلا أن أخذ نفسه بالبلاغة وكلفها زوايا فصاحت حتى يصير متدبرا بها معتادا فلا يأتي بكلام مستكره اللفظ ولا مختل المعنى لأن البلاغة ليست على معان مفردة ولا لالفاظها غاية وإنما البلاغة أن تكون بالمعاني الصحيحة مستودعة في اللفاظ فصيحة فتكون فصاحة الالفاظ مع صحه المعاني هي البلاغة * وقد قيل اليوناني ما البلاغة قال اختيار الكلام وتصحج الاقسام * وقيل ذلك للرومي فقال حسن الاختصار عند البدية

ما يقوم به بعض الناس لبعض من أداء الحقوق وتعظيم الرؤساء وتأدية الامانات والنصفة في المعاملات * والثالث ما يقومون به من حقوق أسلافهم مثل أداء الديون عنهم وأتقاد وصاياهم وما أشبه ذلك فهد ما قاله ارسطو طالس * وأما تحقيق ما قاله ما يجب لله عز وجل وان كان ظاهرا * فاننا نقول فيه ما يليق بهذا الموضع * وهو أن العدالة لما كانت تظهر في الأخذ والاعطاء وفي الكرامة التي ذكرناها * وجب أن يكون لما يصل اليها من عطيات الخالق عز وجل ونفسه التي لا تحصى حتى يقابل عليه * وذلك أن من اعطى خيرا ما وان كان قليلا ثم لم يران يقابله بضرب من المساواة فهو جاحش

فكيف إذا أعطى بما كثيرا وأخذ أخذاً دائماً لم يعطى بمقابلته شيء البتة * ثم على قدر النعمة التي تصل إلى الإنسان يجب أن تكون أجهاده في المقابلة عليها * مثال ذلك أن الملك الفاضل إذا أمن السرب وبسط العدل وأوسع العمازة وحج الحريم وذبح عن الخوزة ومنع من النظام ووفر الناس على ما يختار ونهه من مصالحهم ومعايشهم * فقد أحسن إلى كل واحد من رعيته إحساناً يخصه في نفسه وإن كان قد عجزهم بالخير واستحق من كل واحد منهم أن يقابله بضرب من المقابلة متى قد عدته كان جائراً (١٥٨)

والغزارة يوم الاطالة * وقيل للهندي فقال معرفة الفصل من الوصل * وقيل للعرى فقال ما حسن الإيجاز وقل مجازة * وقيل للبدوي فقال ما دون السحر وفوق الشعر نفت الخردل ويخط الخندل * وقيل للحضري فقال ما كثر إيجازه وتناسبت صدره وأعجازه * وقال ابن المقفع البلاغة قلل الحصر والجرا على الشر * وسأل الحاج بن القرية عن الإيجاز قال أن تقول فلا تبغى وأن تصيب فلا تخطئ وقال الشاعر

خير الكلام قليل * على كثير دليل
والبي معنى قصير * يحويه لفظ طويل
وفي الكلام فضول * وفيه قال وقيل

وأما معاني المعاني فتكون من ثلاثة أوجه أحدها إيضاح تفسيرها حتى لا تكون مشكلة ولا عجيبة والثاني استيفاء تقسيمها حتى لا يدخل فيها ما ليس منها ولا يخرج عنها ما هو فيها والثالث صحة مقابلاتها والمقابلة تكون من وجهين أحدهما مقابلة المعنى بما وافقه وحققة هذه المقاربة لأن المعاني تصير متشابهة والثاني مقابلته بما يضاده وهو حقيقة المقابلة وليس للمقابلة إلا أحد هذين الوجهين الموافقة في الائتلاف والمضادة مع الاختلاف فإما فصاحة الالفاظ فتكون بثلاثة أوجه أحدها مجازية الغريب الوحي حتى لا يعجزه سمع ولا يفهمه طبع والثاني تنكيب اللفظ المستبدل والعدول عن الكلام المستبدل حتى لا يستعظمه خاصي ولا ينبوع فهم عامي كما قال الجاحظ في كتاب البيان أما أنا فإلمأ رقوماً أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب وذلك أنهم قد التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعراً وحسياً ولا ساقطاً عامياً والثالث أن يكون بين الالفاظ ومعانيها مناسبة ومطابقة أما المطابقة فهي أن تكون الالفاظ كالقوالب لمعانيها فلا تزيد عليها ولا تنقص عنها وقال بشر بن المعتز في وصيته في البلاغة إذا لم تجد اللفظة واقعة فوقها ولا صائرة إلى مستقرها ولا حالة في مركزها بل وجدت لها قلقة في مكانها فافره عن موضعها فلا تكرر لها على القراري غير موضعها فانك إن لم تعاط قريض الشعر الموزون ولم تكلف اختيار الكلام المنشور لم يسلك بترك ذلك أحد وإذا أنت تكلفتهما ولم تكن حاذقاً فيهما عابك من أنت أقل عيانه وأزراً عليك من أنت فوقه وأما المناسبة فهي أن يكون المعنى يليق ببعض الالفاظ أما العرف مستعمل أولاً اتفاق مستحسن حتى إذا ذكرت تلك المعاني بعد تلك الالفاظ كانت نافرة عنها

من رعيته أغما تكون
بانخلاص الدعاء ونشر
الحماس وجبيل الشكر
وبذل الطاعة وترك
الخالف في السر والعلانية
والحمية الصادقة والائتمام
بسيرته شحوا الاستطاعة
والافتدائه به في تدبير منزله
وأهله وولده وعشيرته
فإن نسبة الملك إلى مدنيته
ورعيته كنسبة صاحب
المنزل إلى منزله وأهله فمن
لم يقابل ذلك الاحسان
بهذه الطاعة والمحبة فقد
جاء وظلم وهذا الظلم
والجور إذا كان في مقابلة
النعم الكثيرة فهو أخش وأقبح
* وذلك أن الظلم وإن كان
في نفسه قبيحاً فإن مراتبه
كثيرة * لأن مقابلة كل
نعمتها تكون بحسب
منزلتها وموقعها ويقدر
فائدتها وعائدها وعلى
مقدار عسدها * فإن
كانت النعم كثيرة العدد
وعظيمة الوقوع فكيف

يكون حال من لا يلزم لها حق ولا يرى عليها مقابلة بطاعة ولا شكر ولا حمية صادقة ولا مسموعة
صالحه * فإذا كان هذا معروفاً غير منكور واجابراً مجحوداً فلو كنا ورؤسائنا * فبالحرى أن يكون للملك المولود
الذي يصل إلينا في كل طرفتين ضروب احسانه الفاضل على أحساننا ونفوسنا التي لا يقع عليها احصاء ولا عدد من
المقوق الواجب علينا القيام بها والنهوض بتأديتها أن نأخذ بحمل النعمة الأولى علينا بالوجود ثم نتابعها متواترة بعد ذلك
بالخلق الجسداني الذي أفنى فيه صاحب كتابي التفرغ ومنافع الأعضاء ألف ورقة ثم لم يبلغ بعضه أعليه كنه الامر * ثم أنا

فهمل ما وهب لنا من نفوسنا وماركب فيها من القوى والملاكات التي لا نهاية لها وما أمددها به من فيض العقل ونوره وبهائه وبركاته وما عرّضناه لذلك الأبدى والنجيم السرمدي (لا) لعمري ما يجهل هذه النعمة إلا الذم فاما الإنسان فعرف من ذلك ما يضطره اليه مشاهدة أحواله في جميع أوقاته واذا كان الخالق تعالى غنيا عن معبودتنا ومساعينا فنحن المحال والقيبح والجور الفاحش أن نلتزم له نحن حقا ولا نقابله على هذه الآلاء والنعيم بما يزيل عنا سمة الجور والخروج عن شرطية العبدان وما يجب على الإنسان لحالته * ان ارسطوطاليس لم ينص في هذا (١٥٩) الموضوع على القيادة التي يجب

ان نلتزمها فلما قلنا عذر وجل غيرانه قال ما معناه * وقد اختلف الناس فيما ينبغي ان يقوم به المخلوقون لحالهم فبعضهم رأى انه صلوات وصيام وخدمة هياكل ومصليات وقراين وبعضهم رأى ان يقتصر على الاثار بربوبيته والاعتراف باحسانه وتحميده بحسب استطاعته وبعضهم رأى ان يتقرب اليه بان يحسن الى نفسه بتزكيتها وحسن سياستها والاحسان الى المستحقين من أهل نفعه بالمواساة ثم بالحكمة * والموعظة وبعضهم رأى اللهي بالفكر في الالهيات والنصرف نحو المحاولات التي ينزل بها الانسان من معرفته عز وجل حتى تتكامل معرفته به وبحقيقته وحدايته ونصرف الوكيد اليه وبعضهم رأى ان الواجب الرب جل ذكره على الناس ليس سبيله واحدا ولا هويته بعينه نلتزمه الجميع التزاما واحدا وعلى مثال واحد

وان كانت انصح وأوضح لاعتياد ما سواها * وقال بعض البلغاء لا يكون البليغ بليغا حتى يكون معنى كلامه أسبق الى فهمك من لفظه الى سمعك واما معاطاة الاعراب وتجنب اللحن فانها هومن صفات الصواب والبلغة أعلى منه رتبة وأشرف منزلة وليس لمن لحن في كلامه مدخل في الادباء فضلا عن أن يكون في عداد البلغاء واعلم أن لكلام آدابان أغفلها المتكلم أذهب رونق كلامه وطمس بهجة بيانه ولى الناس عن محاسن فضله بما سوى أدبه فعدوا عن مناقبه بذكر مثالبه فمن آذابه أن لا يتجاوز في مدح ولا يسرف في ذم وان كانت الزمامة عن الذم كرها والتجاوز في المدح همة فاصدر عن مهانة والسرف في الذم انتقام يصدر عن شروكا وهما شين وان سلم من الكذب * بروى انه لما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فندم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن الاثم عن قيس بن عاصم فندحه فقال قيس والله يا رسول الله لقد علم أني خير مما وصف ولكن حسدني فذمه عمر ووقال والله يا رسول الله لقد صدقت في الاولى وما كذبت في الاخرى لاني رضيت في الاولى فقلت أحسن ما علمت وسخطت في الاخرى فقلت أقبح ما علمت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من البيان لعمى راعى أن اسلامه من الكذب في المدح والذم متعذرة لاسيما اذا مدح تقر ما ذم فحققا * وحكى عن الاحنف بن قيس انه قال سهرت ليلي أفكر في كلمة أَرْضِي بها سلطانى ولا أسخط بها ربي فاصبر حدها * وقال عبد الله بن مسعود ان الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج ومعه دينه قليل وكيف ذلك قال يرضيه بما يسخط الله عز وجل وسمع ابن الرومي رجلا يصفر رجلا ويألفه في مدحه فأشأ يقول

اذما ما وصف امرأ لأمرئ * فلا تغفل في وصفه واقصد

فانك ان تغفل تغفل الطغو * ن فيه الى الامد لا بعد

فصائل من حيث عظمتها * لفضل المتعب على المشهد

ومن آذابه أن لا تبتهل والغيرة والرهبة على الاسترسال في وعدا وعيد بهز عنهما ولا يقدر على الوفاءهما فان من أطلق بهما لسانه وأرسل فيه ما عناته ولم يستقل من القول ما يستقله من العمل صار وعده نكشا وععيده عجزا * وحكى أن سليمان بن داود عليه السلام مر بعصفورين ورجول عصفورة فقال لاصحابه هل تدرون ما يقول لحاقوا بالآياتي الله قال انه يخطب النفس ويقول لها زوجيني نفسك أسكنك أي غرف دمشق شئت وقال سليمان

لكنه يختلف بحسب اختلاف طبقات الناس وراتهم من العلم فهذا ما قاله ارسطوطاليس بالفاظه المنقولة الى العربية وأما الحديث من الفلاسفة فانهم قالوا ان عبادة الله عز وجل على ثلاثة أنواع * أحدها فيما يجب له على الابدان كالصلاة والصيام والسعي الى المواقف الشريفة لمناجاة الله عز وجل * والثاني فيما يجب له على النفوس كالاعتقادات الصحيحة وكالعمل بتوحيد الله عز اسمه وما يستحقه من الذناء والتجديد والتفكير فيما ضاع على العالم من وجوده وحكمته ثم الاتساع في هذا المارقي والثالث فيما يجب له عند مشاركات الناس في المدن وهي في المعاملات والمزايدات والمناكح وفي تأدية الامانات مع فصيلة البعض للبعض بضر وبالمعاونات وعند جهاد الاعداء والذب عن الحرم وعماية المحبوبة

قالوا هذه هي العبادات وهي الطرق المؤدية إلى الله عز وجل * وهذه الأنواع وإن كانت معدودة ومحصورة فإنها منقسمة إلى أنواع كثيرة وأقسام غير محصاة ولا لأنسان مقامات ومنازل عند الله عز وجل فالمقام الأول بالوقن وهو رتبة الحكماء وأجله العلماء والمقام الثاني مقام المحسنين وهو رتبة الذين يعملون بما يطوبون وهو ما ذكرنا في كتابنا هذا من الفضائل والعمل بها * والمقام الثالث مقام الأبرار وهو رتبة المصلحين وهو لا يهمل خلفاء الله بالحقيقة في إصلاح العباد والملاذ * والمقام الرابع مقام الفاترين وهو رتبة ١٦٠ المخلصين في المحبة واليها تنتهي رتبة الاتحاد وليس بعدها منزلة ولا مقام

لمخلوق ويسعد الانسان بهذه المنازل اذا حصلت له أربع خلال ولها الحرص والنشاط والثاني العلوم الحقيقية والمعارف البقية والثالث الحياء من الجهل ونقصان القرحة الذين يجدنان بالأهمال والرابع لزوم هذه الفضائل والترقي فيها دائما بحسب الاستطاعة فهذه أسباب الاتصال

أسباب الانقطاع عن الله * وأما أسباب الانقطاعات عن الله عز وجل والمساقط وهي التي تعرف بالعائن فأولها السقوط الذي يستحق به الاعراض ويتبعه الاستهانة والثاني السقوط الذي يستحق به الحجاب ويتبعه الاستغفاف والثالث السقوط الذي يستحق به الطرد ويتبعه المقت * والرابع السقوط الذي نستحق به الخساة ويتبعه البغض والنجاسة في العبد

كذب العصفور فان عرف دمشق منبها لمخضورا لا يقدر أن يسكنها هناك ولكن كل خاطب كاذب ومن آدابه أن قال قولا لحققة بفعله وإذا تكلم بكلام صدقه بهمله فان ارسال القول اختبار والعمل به اضطرار ولأن يفعل ما لم يقل أجل من أن يقول ما لم يفعل * وقال بعض الحكماء أحسن الكلام ما لا يحتاج فيه إلى الكلام أي يكفي بالفعل من القول * وقال محمود الوراق

القول ما صدقه الفعل * والفعل ما وكده العقل

لا يثبت القول اذا لم يكن * يقفه من تحته الاصل

ومن آدابه أن يرعى مخارج كلامه بحسب مقاصده وأغراضه فان كان ترغيبا قره باللين واللفظ وإن كان ترهيبا خطه بالخشونة والعنف فان لبس اللفظ في الترهيب وخشونة في الترغيب خروج عن موضعهما وتطيل للمقصود بهما فيصير الكلام لغوا والغرض المقصود لهما * وقد قال أبو الاسود الدؤلي لاتبه يابني ان كنت في قوم فلا تتكلم بكلام من هو فوقك فيمقتوك ولا بكلام من هو دونك فيزدروك * ومن آدابه أن لا يرفع بكلامه صوتا مستكبرا ولا يترفع له انزعاجا مستعجنا وليسكف عن حركة تكون طيشا وعن حركة تكون عيانا فان نقص الطيش أكثر من فضل البلاغة * وقد حكى أن الحجاج قال لا عرابي أخطب أنا قال نعم لا لأنك تكثر الد وتشير باليد وتقول أما بعد * ومن آدابه أن يتجافى هجر القول ومستقبح الكلام وليعدل إلى الكناية عما يستقبح من ربحه ويستحسن فصحه ليلغ الغرض ولسانه نزه وأدبه مصون * وقد قال محمد بن علي في قوله تعالى وإذا همزوا بالقوم وما كرا ما قال كانوا اذا ذكروا الفروج كنوا عنها وكما أنه يصون لسانه عن ذلك فهكذا يصون عنه سمعه فلا تسمع خفي ولا تصفي إلى خفي فان سماع الفحش داع إلى اظهاره وذريعة إلى انكاره واذا وجد عن الفحش معرضا كف قائله وكان اعراضه أحذر النكيرين كما أن سماعه أحد الباعثين وأنشدني أبو الحسن بن الحارث الهاشمي

تحرمن الطرق أوساطها * وعبد عن الموضع المشبهة

وسمعت من عن قبح الكلام * كصون اللسان عن النطق به

فانك عند استماع القبيح * شريك لقائله فانتبسه

اذا حصل على أربع خلال * أولها الكسل والبطالة ويتبعهما اضياع الزمان وفناء العمر بغير فائدة انسانية ومما والثاني الغباوة والجهل المتولدان عن ترك النظر ورعاية النفس بالعالم التي أحصيناها في كتاب مرآت السعادات والثالث الوقاحة التي يتبعها أهمال النفس اذا تتبع الشهوات وترك زمامها الر كواب الخطايا والسيئات * والرابع الانهمالك الذي يحدث من الاستمرار في القباح وترك الانابة وهذه الأنواع الاربعة مسماة في الشريعة بآربعة أسماء فالأول هو الزين * والثاني هو الرين * والثالث هو الفشاوة والرابع هو الجثم ولكل واحد من هذه الشقاوات علاج خاص

سند كره عند مد اواة أسقام النفس حتى تعود الى المحبة باذن الله عز وجل * وهذا الاشياء التي عددناها الآن لا خلاف بين الحكماء فيها وبين اصحاب الشرائع وانما تختلف بالعبارات والاشارات اليها بحسب اللغات * واغلاقون بقول ان العدة اذا حصلت للانسان اشرف بها كل واحد واحد من اجزاء النفس وذلك لحصول فضايلها اجمع فيها حينئذ تنهض النفس فتؤدي فعلها الخاص بها على افضل ما يكون وهو غاية قرب الانسان السعيد من الاله تقديس اسمه قال والعدة لا توسط ليس على جهة التوسط الذي في الفضائل التي تقدم ذكرها لكن لانها في الوسط ١٦١ والجور في الطرفين وانما صار الجور

في الطرفين لانه زيادة ونقصان وذلك ان من شأن الجور طلب الزيادة والنقصان معاً الى زيادة فمن النافع على الاطلاق واما النقصان فمن الضار فذلك يكون الجور مستعملاً للزيادة والنقصان

اما لنفسه فيستعمل الزيادة في النافع واما للغيره فيستعمل النقصان منه واما في الضار فياخذ الضد وعلى العكس وذلك انه اما لنفسه فيستعمل النقصان منه واما للغيره فيستعمل الزيادة والفضائل التي قلنا انها اوساط بين الرذائل وهي غايات ونهايات * وذلك ان الوسط ههنا نهاية لها من كل جهة فهو في غاية البعد منها ولذلك متى بعد عن الوسط زيادة بعد قرب من رذيله كما قلنا فيما تقدم فقد تبين من جميع ما قد منا ان الفضائل كلها اعتدالات وان العدة الاسم تشملها

وما يجري مجرى خش القول وهو عرفه وجوب اجتنابه ولزوم تنكبه ما كان شنيع البديهة مستنكر الظاهر وان كان عقب التأمل سليماً وبعد الكشف والروية مستقيماً كالذي رواه الازدي عن الصولي لبعض المتكلمين من الشعراء

انتى شيخ كبير * كافر بالله سيري

أنت ربي والهي * رازق الطفل الصغير

يريد بقوله كافر أى لا يس لان الكفر النغطية ولذلك سمي الكافر بالله كافراً لانه قد غطي نعمة الله بعبادته وقوله بالله سيري يقسم عليها أن تسير وقوله أنت ربي يعني ربي ولذلك من التربية والهي رازق الطفل الصغير كما انه رازق الولد الكبير فانظر الى هذا التكلف الشنيع والتمتع الشيع ما اعتاض من حيث البديهة اذا سلم بعد الفكر والروية الاثوما ان احسن فيه الظن او ذم ان يتو في فيه الارتباب وقلما يكون ذلك الا من خليع بطراو مراتب اشرفاً ما الحديث المروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا تصلوا على النبي فخرج من هذا النوع من التلبس وفي تأويله وجهان أحدهما انه أراد النهي عن الصلاة في المكان المرتفع المحلودب مأخوذة من النبوة والثاني انه أراد الطريق ومنه سمي رسل الله أنبياء لانهم الطرق اليه وانما زال عنه التلبس اذ قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم وان كان من قول غيره تلبساً شنيعاً لان موضوع خطابه وشواهد احواله يصرفان كلامه عن القوز والامتناع في أمر أو نهى الى ما يجوز ان يرد به شرع وينهى عنه نبي وليس يمتنع ذلك في غيره ولذلك افرق وجوده منه ومن غيره ومن آدابه ان يحتجب أمثال انعام الغوغاء ويخصص بأمثال العلماء الادباء فان لكل صنف من الناس أمثالا تشاكلهم فلا تحسلا ساقط الامتلا ساقط وتشبيهها مستقيماً واللسة اط أمثال فتم اغتيالهم للشيئ المزيب كما قال الصنوبري

اذا ما كنت ذابول صحيح * الا فاضرب به وجه الطبيب

ولذلك علمت ان احدهما ان الامثال من هواجس الهمم وخطرات النفوس وليكن لدى الهمة الساقطة الامثل من ذلول وتشبيه معلول والثانية ان الامثال مستخرجة من احوال المتخيلين بها فحسب ما هم عليه تكون أمثالهم فلها تين الملتين وقع الفرق بين أمثال الخاصة وأمثال العامة وربما ألف المخصص مثلاً عامياً أو تشبيهاً كيكال كثره ما يطرق

٢١ - أدب الدنيا * وبمعها كلها وان الشر يعقنا كانت تقدر الافعال الارادية التي تقع بالروية والوضع الالهي صار المتسل بها في معاملاته عدلاً والمخالف لها حائراً فلها قلنا ان العدة التي لم يتسل بها الشريرة لا اننا قد قلنا مع ذلك انها هيته نفسانية تصدر عنها هذه الفضيلة * فتصور هذه الهيئة النفسانية فانك ستري رؤية واضحة ان صاحبها يتقاد ولا يحاله للشر بعة طوعاً ولا يضاده بانوع من انواع التضاد * وذلك انه اذا حافظ على المناسبات التي ذكرناها لانها مساواة وأثرها بعيدا جالة الى أى فيها على سبيل الاختيار لها والارغبة فيها وجب عليه موافقة الشريرة وترك مخالفتها وأقل

ما تكون المساواة بين اثنين ولكنها تكون في معاملة عشرين كة بينهما وهو الشيء الثالث وربما كانا شيئين كما قلنا فتصير
 المناسبات كما بينا بين أربعة أشياء * وينبغي أن يعلم أن هذه الهيئة النفسانية هي غير الفعل وغير المعرفة وغير القوة * أما الفعل
 فلا نقدرنا أنه قد يقع على غير هيئة نفسانية * لكن يعمل أعمال العدالة وليس يعادل ولكن يعمل أعمال الشجاعة وليس
 بهجاء * وأما القوة والمعرفة فلا نكل واحدة منهما هي بعينها للضدين معاً فإن العلم بالضدين واحد وكذلك القوة على
 الضدين قوة واحدة * وأما الهيئة القابلة ١٦٢ لاحدا الضدين فهي غير الهيئة القابلة للضد الآخر * ومثال ذلك

سمعه من مخالطة الأراذل يسترسل في ضربه مثلاً فيصبر به مثلاً كالذي حكى عن الأصمعي
 أن الرشيد سأله يوماً عن أنساب بعض العرب فقال على الخبر سقطت بأمر المؤمنين
 فقال له الفضل بن الربيع أسقط الله جنسك! فأخطب أمير المؤمنين بمثل هذا الخطاب
 فكان الفضل بن الربيع مع قلة علمه أعلم بما يستعمل من الكلام في محاوراة الخلفاء من
 الأصمعي الذي هو واحد عصره وقرير دهره والأمثال من الكلام موقوع في الاسماع
 وتأثير في القلوب لا يكاد الكلام المرسل يبلغ مبلغها ولا يؤثر تأثيرها لأن المعاني بها لا تـ
 والشواهد بها واضحة والنفوس بها وافية والقلوب بها وافية والعقول لها موافقة
 فلذلك ضرب الله الأمثال في كتابه العزيز وجعله من دلائل رسله وأوضح بها الحق على
 خلقه لانه في العقول معقولة وفي القلوب مقبولة ولها أربعة شروط أحدها صحة التشبيه
 والثاني أن يكون العلم بها سابقاً والكل عليها موافقاً والثالث أن يسرع وصولها للفهم
 ويعجل تصورها في الوهم من غير ارتباك في استقراجها ولا كد في استنباطها والرابع
 أن تناسب حال السامع لتكون تبلغ تأثيراً وأحسن موقعا فإذا اجتمعت في الأمثال
 المضروبة هذه الشروط الأربعة كانت شربة الكلام وحلا للمعاني وتدبر الالافام
الفصل الثاني في الصبر والجزع * أعلم أن من حسن التوفيق وأمارات السعادة الصبر
 على الملمات والرفق عند التوازل وبه نزل الكتاب وجاءت السنة قال الله تعالى يا أيها
 الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون يعني اصبروا على
 ما افترض الله عليكم واهربوا وابتعدوا عما يوجبكم تأويلان أحدهما على الجهاد والثاني
 على انتظار الصلوات * وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أدلكم على
 ما يحيط الله به الخطايا ويرفع به الدرجات قالوا بلى يا رسول الله قال أساغ الوضوء عند المكاره
 وكثرة الخطا إلى المسجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط فذلكم الرباط
 بنأ كيد الصبر فيما أمر به ونهى إليه وجعله من عزائم التقوى فيما اقترضه وحث عليه
 * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الصبر سر من الكروب وعون على الخطوب
 * وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الصبر مطية لا تكبو والقناعة سيف لا ينو * وقال
 عبد الحميد لم أسمع أحجيب من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لو أن الصبر والشكر بغيران
 ما باليت أيم ماركب وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فضل العدة الصبر على الشدة

هيئة الشجاعة فانه غير
 هيئة الجن وكذلك هيئة
 العفة غير هيئة الشرة
 وهيئة العدالة غير هيئة
 الجور * ثم إن العدالة
 والصبرية يستتركان في
 باب المعاملات والاختد
 والأعطاء الآن العدالة
 تقع في اكتساب المال
 على الشروط التي قدمنا
 القول فيها والخبرية تقع في
 انفاق المال على الشروط
 التي ذكرناها أيضاً ومن
 شأن من يكتسب أن يأخذ
 فهو بالمفعل أشبه ومن
 شأن المتفق أن يعطي فهو
 بالفاعل أشبه فلذلك العلة
 تكون محبة الناس للصبر
 أشد من محبتهم للعدل إلا
 أن نظام العالم بسبب العدالة
 أكثر منه بالخبرية وخاصة
 الفضيلة التي في فعل الخير
 لا في ترك الشر وخاصة محبة
 الناس ومجدهم في بذل
 للمعروف لا في جمع المال
 فلنصبر لا بكرم المال ولا
 يجمعه لأنه بل يصرفه
 في وجوه التي يكتسب

بها المحبات والمجاهد ومن خاصة الخير أن لا يكون كثير المال لانه منفاق
 ولا يكون أيضاً فقيراً لانه كسوب من حيث ينبغي وهو غير متكامل عن الكسب لانه لا يملك المال يصل إلى فضيلة الخير به
 ولذلك لا يضيع المال ولا يستعمل فيه التبدل ولا يشع أيضاً فلا يستعمل التقدير فكل خير عادل وليس كل عادل خيرا
 * مسألة ثالثة أولى * وفي هذا الموضع مسألة ثالثة عن نسيه سأل عنها الحكماء أنفسهم وأجابوا عنها بأجواب مقنعة وعكس
 أن يجاب فيها بأجواب أخرى أشد إقناعاً ويجب أن نذكر الجميع وهو أن لشأنك أن يشك فيقول إذا كانت العدالة فعلاً اختيارياً

وقال

بمعاطاة العادل وبقصده تحصيل الفضيلة لنفسه والمحمد من الناس فيجب أن يكون الخوف فعلا اختياريا بتعاطاه الجائر
وبقصده تحصيل الزيلة لنفسه ومذمة الناس * ومن التمعن الشنيع أن يظن بالإنسان العاقل أنه بقصد الأضرار بنفسه
بعد الروية وعلى سبيل الاختيار ثم أجابوا عن ذلك وحلوا هذا الشك بأن قالوا أن من ارتكب فعلا يؤديه إلى ضرر أو عذاب فإنه
يكون ظاهرا لنفسه وضارا لها من حيث يقدر أنه يفعلها وذلك لسوء اختياره وترك مشاورة العقل فيه * مثال ذلك الخاسر
فإنه ربما جنى على نفسه لاعى سبيل إثارة الأضرار به بل لأنه يظن ١٦٣ أنه يتفهم في العاجل بالخلاص

من الأذى الذي يلحقه من
الحسد * هذا جواب القوم
* وأما الجواب الآخر فهو
أن الإنسان لما كان
ذاقوى كثيرة يسمى
بمجموعها انسانا واحدا
لم ينكر أن تصدر عنه أفعال
مختلفة بحسب تلك القوى
وأما المنكر أن يكون
الشيء الواحد البسيط
ذو القوة الواحدة تقع منه
بتلك القوة أفعال مختلفة
لا بحسب الآلات المختلفة
ولا بتعدد لقابلات منه بل
بتلك القوة الواحدة فقط
فهذا لعمرى منكر شنيع
ولكن الإنسان قد تبين
من حاله أنه قوى كثيرة
فيعمل بكل قوة فملا محالها
للعسل بالآخرى أعني
أن صاحب الغضب إذا
استشاط مختارا أفعالا
مخالفة لأفعاله إذا كان
ساكنا وديعا وكذلك
صاحب الشهوة الهاجئة
وصاحب الشهوة الطروب
فإن من شأن هؤلاء أن

وقال بعض البلغاء من خير خلاص للصبر على اختلاف * وقيل في منشور الحكم من أحب
البقاء فليعد للصائب قلبا صبرا * وقال بعض الحكماء بالصبر على مواقع الكره وتدرج
الخطوط * وقال بعض الشعراء وهو عبيد بن الأبرص

صبر النفس عند كل ألم * إن في الصبر حيلة المحتال

لا تصنيق في الأمور فقد تكشف غماؤها بغير احتيال

ربما تجزع النفوس من الأمر له فرجة تحل العقال

وقال ابن المقفع في كتاب البتمة الصبر صبر أن تالأم أصبأ جساما والكرام أصبأ نفوسا
وليس الصبر المدح صاحبه أن يكون الرجل قوى الجسد على الكد والعمل لأن هذين
صفات الجبر ولكن أن يكون للنفس غلو بالأوامر متحملا ولجأه عند الحفاظ من تطا
واعلم أن الصبر على ستة أقسام وهو في كل قسم منها محمود فأول أقسامه وأولها الصبر على
امتنال ما أمر الله تعالى به والانتها عما نهى الله عنه لأن به تخلص الطاعة وما يصح الدين
وتؤدى الفروض ويستحق الثواب كما قال في محكم الكتاب إنما وفى الصابر وإن أجزهم بغير
حساب ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم الصبر من الإيمان بمنزلة إل إلى من الجسد وليس
لن قل صبره على طاعة حظه من بر ولا نصيب من صلاح ومن لم ير لنفسه صبرا يكسبها ثوابا
ويدفع عنها عقابا كان من سوء الاختيار بعيدا من إل شاد حقيقة الصبر لا الصبر وقال الحسن
البصري رحمه الله تعالى ما من يطلب من الدنيا ما لا يلحقه أثر جوار أن تلحق من الآخرة
ما لا تطلبه وقال أبو العتاهية رحمه الله تعالى

أراك أمرا ترجو من الله عفو * وأنت على ما لا يحب مقسم

تدل على التقوى وأنت مقصر * فإمن بدأوى الناس وهو مقسم

وهذا النوع من الصبر إنما يكون لفرط الخزع وشدة الخوف فإن من خاف الله عز وجل صبر
على طاعته ومن جزع من عقابه وقف عند أوامره والقسم الثاني للصبر على ما تقتضيه
أوقاته من رزية قد أجهد الحزن عليها أو حادثة قد أكلها هم بها فإن الصبر عليها يعقبه
إل أحسنها ويكسبه المثوبة فإنها صبر طاعة أو الاحتمل مما لا زما وصبر كارهها إنما * وروى
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله تعالى من لم يرض بقضائى ويصبر على بلائى
فليختر ربنا سواى * وقال علي بن أبى طالب كرم الله وجهه للاشعث بن قيس أنما إن صبرت

دستخذموا العقل الشريفة في تلك الأحوال ولا تستشبر منه ولذلك تجد العاقل إذا تغيرت أحواله تلك فصار من الغضب
إلى الرضا ومن السكر إلى الأفاقة تجعب من نفسه وقال ليت شعرى كيف اخترت تلك الأفعال البتحة وبلحة الندم
وأما ذلك لأن القوة التى تمج به تدعوه إلى ارتكاب فعل ينظنه في تلك الحال صالحا له جملة لتم له حركة القوة الهاجئة
به فإذا كن عنها وراجع عقله رأى قبح ذلك الفعل وفساده وقوى الإنسان التى تدعوه إلى ضرب الشهوات ومحبته
الكرامات كثيرة جدا فهو بحسب قواه الكثيرة تكون أفعاله كثيرة فإذا تعود الإنسان أن يصبر سيرة

فاضلة ولم يقدم على شيء من أفعاله إلا بعد مطالعة العقل الصريح وعدم إعادة الشرعة القوقعة كانت أفعاله كلها منتظمة غير مختلفة ولا خارجة عن سنن العدل أعني المساواة التي قدمنا القول فيها * ولهذا السبب قلنا أن السعيد هو من اتفق له في صباه أن يأنس بالسرعة ويستسلم لها ويتودد جميع ما أمر به حتى إذا بلغ المبلغ الذي يحكم به أن يعرف الأسباب والعقل طالع الحكمة فوجد ما وافق ما تقدمت عادته به فاستحكم رأيه وقويت بصيرته ونفذت عزيمته * مسألة عويصة ثالثة * وههنا مسألة ١٦٤ عويصة أشد من الأولى وهو أن التفضل شيء عجوجدا

جرى عليك القلم وأنت ماحور وان جزعت جرى عليك القلم وأنت مأزور * وقد ذكر ذلك أبو تمام في شعره فقال

وقال على في التعازي لاشعث * وخاف عليه بعض تلك المأثم
أنصبر للبلوى عزاه وخشية * فتوجراً وتسلوا سلوا بها ثم
وقال شبيب بن شبة للهدى إن أحق ما نصبر عليه ما لم تجد إلى دفعه سبيلاً وأنشد
ولئن تصبنا مصيبة فاصبر لها * عظم مصيبة مبتلى لا يصبر
وقال آخر

تصبرت مغلوباً واتى لموجع * كما صبر الظمان في البلد القفر
وليس اصطباري عنك صبرا استطاعة * وإيكنه صبراً من الصبر
والقسم الثالث الصبر على ما فات إدراكه من رغبة مرغوة وأعوذ نسله من مسرة مأهولة
فإن الصبر عنها تعقب السلم منها والأسف بعد اليأس خرق * وروى عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه قال من أعطى فشكر ومنع نصبر وظلم فغفر وظلم فاستغفر فأولئك لهم الأمن
وهم مهتدون * وقال بعض الحكماء اجعل ما طلبته من الدنيا فلم تنله مثل ما لا يخطر ببالك
فلم تقله وقال بعض الشعراء

إذا هلك القضاء عليك أمراً * فليس يحله غير القضاء

فالك والمقام يدارذل * ودار الغر واسعة القضاء

وقال بعض الحكماء إن كنت تجزع على ما فات من يدك فاجزع على ما لا يصل اليك فاخذه
بعض الشعراء فقال

لا تطل الحزن على فائت * فقلما يجدي عليك الحزن

سبب الحزن على فائت * ومضمر حزن لما لم يكن

والقسم الرابع الصبر فيما يخشى حدوثه من رغبة تخافها أو يحذر حلوله من نكبة يخشاها
فلا يتجمل هم ما لم يأت فإن أكثر الحموم كاذبة وإن الأغلب من الخوف مدفوع * وقد روى
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال بالصبر يتوقع الفرج ومن يدمن فرج باب يلج * وقال
الحسن البصري رحمه الله لا تحملن على يوم لم يردك غداً فحسب كل يوم همه * وأنشد
الجاحظ لحارث بن زيد

فليس يقع تحت العدالة
لأن العدالة كما ذكرنا
مساواة والتفضل زيادة
وقد حكمنا أن العدالة
تجمع الفضائل كلها ولا
منع عليها بل يجب أن
تكون الزيادة عليها
مذمومة كما أن النقصان
عنها مذموم ليكون شرف
الوسط الذي تقدم وصفه
في سائر الأخلاق حاصل
للعادلة فالجواب عما أن
التفضل احتياط يقع من
صاحبه في العدالة لأمن
به وقوع النقص في شيء
من شرائطها وليس الوسط
في كلا الطرفين من
الأخلاق على شريطة
واحدة وذلك أن الزيادة
في باب السخاء إذا لم يخرج
إلى باب التبذير أحسن
من النقصان فيه وأشبهه
بالحفاظة على شرائطه فتصبر
كالاحتياط فيه والاحتياط
بالخزم فيه * وأما العفة
فإن النقصان من الوسط
فيها أحسن من الزيادة
عليه وأشبهه بالحفاظة على

إذا

شرائطه وأبلغ في الاحتياط عليه وأخذ الخزم فيه ومع ذلك فليس نستعمل
التفضل الأحسن تستعمل العدالة * وأعني بذلك أن من أعطى ما له من لا يستحق شيئاً منه وترك مواساة من يستحقه
لا يسمى متفضلاً بل مضطراً * وإنما يكون متفضلاً إذا أعطى من يستحق كل ما يستحق ثم زاده تفضلاً وهذه الزيادة ليست
من الزيادة التي ذكرناها في باب السخاء لأن تلك الزيادة ذهبت إلى الطرف الذي يسمى تبذيراً وهو مذموم ويعرف ذلك
من حده وهو بذل ما لا ينبغي كما لا ينبغي في الوقت الذي لا ينبغي * فإذا التفضل غير خارج عن شرط العدالة بل هو احتياط

فيها ولذلك قيل ان المتفضل أشرف من العادل * فقد بان أن التفضل ليس غير العدالة بل هو العدم المأمع الاحتياطية
وكانت العلة لا يخرجها عن معناها لان هذه الهيئة النفسانية ليست غير تلك الهيئة بل هي * فاما الأطراف التي هي رذائل
أعني الزيادة والنقصان التي سبق القول فيها فهي كلها هيأت من مضمومة غير الهيأت المجودة * وحدود هذه الاشياء هي
التي تحصل للمعانيها ومشاركة بعضها البعض ومباينة بعضها البعض * وأيضا فان الشرعة تأمر بالعدل الأمر الكلي
وليست تحيط الى الجزئيات وأعني بذلك ان العدالة التي هي المساواة ١٦٥ تكون مرة في باب الحكومة

اذا لم أسمى وهو ذاء فأضنه * ولست بمضمنيه وأنت تعادله
ولا تنزلن أمر الشديدة بأمرئ * اذا هم أمر أعوقته عواذله
وقل للفرادان تجسد بلثروة * من الروع فافرح أكثر لهم باطله

والقسم الخامس الصبر فيما يتوقعه من رغبة يرجوها وينتظر من نعمة يأملها فانه ان أدته
التوقع لها وأذهله التطلع اليها انسدت عليه سبل المطالب واستقره تسويل المطامع فكان
أبعد لرجائه وأعظم لبلائه واذا كان مع الرغبة وقورا وعند الطلب صبوراً انجلت عنه
عماية الدهش وانجابت عنه حيرة الوله فأبصر رشده وعرف قصده وفدروى عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال الصبر ضياء يعني والله أعلم أنه يكشف ظلم الحيرة ويوضح
حقائق الامور وقال أكرم بن صبيح من صبر نظفر وقال ابن المقفع كان مكتوبا في قصر
ازدشير الصبر مفتاح الدرك وقال بعض الحكماء بحسن التأني تسهل المطالب وقال بعض
البلغاء من صبرنا الى ومن شكر حصن النعي وقال محمد بن بشر

ان الامور اذا سدت مطالبها * فالصبر يفتق منها كل ما ارتجى
لا تأسن وان طالبت مطلوبة * اذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذى الصبر أن يحظى بمحاجته * ومدمن القرع لا ابواب أن يلجا

والقسم السادس الصبر على ما نزل من مكره أو حل من أمر مخوف فبالصبر في هذا
تتفتح وجوه الآراء وتستدفع مكائد الأعداء فان من قل صبره عزب رايه واشتد جزعه
فصار صرع همومه وفربسة غموه وقد قال الله تعالى واصبر على ما أصابك ان ذلك من
عزم الامور وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان
استطعت أن تعمل لله بالرضا في اليقين فافعل وان لم تستطع فاصبر فان في الصبر على ما تكره
خيرا كثيرا * واعلم ان النصر مع الصبر والفرج مع الكرب والسرور مع العسر وقال علي بن
أبي طالب رضي الله عنه الصبر مستأصل الخدنان والخزع من أعوان الزمان وقال بعض
الحكماء بمفتاح عزية الصبر تعالج معالقي الامور وقال بعض البلغاء عند انسداد الفرج
تبدموطاع الفسرج وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن سليمان بن داود عليه السلام
لما استعصى شياطينه في البناء شكوا ذلك الى ايليس لعنه الله فقال أستمم تذهبون فرغا
وترجعون مشايغل قالوا بلى قال ففي ذلك راحة فبلغ ذلك سليمان على نبينا وعليه السلام

في باب الكيف وفي سائر
المقولات وبيان ذلك ان
نسبة الماء الى الهواء مثلا
ليست تكون بالكمية
بل بالكيفية ولو كانت
بالكمية لوجب أن يكونا
متساويين في المساحة ولو
كانا كذلك لتقابلوا وأحال
أحدهما الآخر الى ذاته
وكذلك النار والهواء ولو
أحالت هذه العناصر
بعضها بعضا لغيى العالم
في أقرب مدة * ولكن
الباري تقدس اسمه عدل
بين هذه بالقوة فتفاوت
فليس بغلب أحد الآخر
بالكمية وإنما يحيل الجزء
منها الجزء في الأطراف
أعني حيث تلتقي نهاياتها
وأما كليتها فلا تغلب على
كليتها لان قواها متساوية
متعادلة على غاية التسوية
والتعادل * وبهذا النوع
من العدل قبل بالعدل
قامت السموات والأرض
واورج أحدهما على
الآخر بزيادة يسير قوة

الشرعة تأمر بالعدالة لاهو
لا حال الزائد الناقص وقوى عليه فبطل العالم فسبحان القائم بالقسط لاله الا هو
ولما كانت الشرعة تأمر بالعدالة الكاهية تأمر بالتفضل الكلي بل نذبت اليه نذبا يستعمل في الجزئيات التي لا يمكن
أن تميز عليها لانها بلا نهاية وخزمت القول في العدالة الكلية لانها محصورة يمكن أن تميز عليها * وقد تبين أيضا بما قدّمنا
أن التفضل انما يكون في العدالة التي تخص الانسان في نفسه * أعني تسوية المعاملات وأولاها بينه وبين غيره الاستظفار فيه
والاحتياط عليه بما يكون تفضلا ولو كان حاكما بين قوم ولا نصيب له في تلك الحكومة ليجزله التفضل ولم يسهه الا العدل

الحض والتسوية الصحيحة بلا زيادة ولا نقصان وتبين أيضاً أن الهمة التي تصدر عنها الأفعال العادية متى نسبت إلى صاحبها سميت فضيلة وإذا نسبت إلى من يعامل بها سميت عدالة وإذا اعتبرت بذاتها سميت ملكة نفسانية * فاستعمال المرء العاقل العدل على نفسه أول ما يلزمه وجب عليه * وقد ذكرنا فيما تقدم كيف يفعل ذلك وينبغي كيف يفعل قواه الكثيرة إذا حاجب بعضها وأثرنا إلى أحسن هذه القوى الكثيرة وأن بعضها يكون بالشهوات المختلفة وبعضها بطلب الكرامات الكثيرة وانها إذا تقالبت وتهايجت ١٦٦ حدث في الإنسان اضطراباً أنواع الشر وجذبه كل واحدة

منها إلى ما يوافقها وهكذا سبيل كل من كذب من كثرة إذا لم يكن لخارئيس واحد يتقدمها ويوحدها * وأرسطو طالب ليس يشبه من كان كذلك * فينقطع من جهات كثيرة فينقطع بينها وينشق بحسب تلك الجهات وقواها * وليس ينظم هذه الكثرة التي زكبت الإنسان منها إلا الرئيس الواحد الموهوب له من الفطرة * أعنى العقل الذي به تتميز من الباطن وهو خليفة الله عز وجل عنده فان هذه القوى كلها إذا ساسها العقل انتظمت وزال عنها سوء النظام الذي يحدث من الكثرة وجب ما ذكرنا من إصلاح الأخلاق مبنى عليه * فإذا تم للإنسان ذلك أعنى أن يعدل على نفسه وأحرز هذه الفضيلة فقد زمه أن يعدل على أصدقائه وأهله وعشيرته ثم يستعمل في الأبعاد وسائر الحيوان

فشلهم ذاهبين وراجعين فشكوا ذلك إلى إبليس لعنه الله فقال أستم تسير بحون بالليل قالوا بلى قال ففي هذا راحة لكم نصف دهركم فبلغ ذلك سليمان عليه السلام فشغلهم بالليل والنهار فشكوا ذلك إلى إبليس لعنه الله فقال الآن جاءكم الفرج فما لبث أن أصيب سليمان عليه السلام ميتة على عصاه فإذا كان هذا في نبي من أنبياء الله يعمل بأمره ويتق على حده فكيف عاجب به الأقدار من أبعادها وتوساها القضاء من حوادث فائزته هل تكون مع التناهي المنقرضة * وعند بلوغ الغاية الأمخسرة * وأنشد بعض الأدباء لعثمان بن عفان رضي الله عنه

خليقي لا والله ما من ملمة * تدوم على حي وإن هي جلت
فان نزلت يوماً فلا تخضعن لها * ولا تكثرا لشكوى إذا النعل زلت
فكم من كرم قد بلى سوائب * فصارها حتى مضت واضمحلت
وكم غمرة حاجت بأمواج غمرة * تلقيتها بالصبر حتى تجلت
وكانت على الأيام نفسى عزيزة * فلما رأيت صبري على الذل ذلت
فقلت لها ما نفس موفى كرمه * فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

ولتسهيل المصائب وتخفيف الشدائد أسباب إذا قارنت خماً وصادفت عزماً ما هنا وقعها وقل تأثيرها وضررها فنها أشعار النفس بما تعلم من نزول الفناء وتقضى المسار وأن لها أجلاً منصرمة ومدداً منقضية إذ ليس للدنيا حال تدوم وللخالق فيها بقاء * وروى ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما مثلي ومثل الدنيا إلا كمثل راكب مال إلى نخل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها * وسئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن الدنيا فقال تغر وتغر وتغر * وسأل بعض خلفاء بني العباس جلسا له عن الدنيا فقال إذا أقيمت أدبرت وقال عمرو بن عبيد الدنيا أمداً لا آخره * وقال أنوشروان إن أحببت أن لا نغم فلا تفتن ما به تتم * فأخذ بعض الشعراء فقال

ألم تر أن الدهر من سوء فعله * يكدر ما أعطى ويسلب ما أمدى
فن سره أن لا يرى ما يسوءه * فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقدا
وأنشد بعض الحكماء

لحكيمنا بقرط خير قضية * ووصية تنفي المومم الركد

«وإذا قدم ذلك ونظر ظهراً حسباً فقد ظهر بظهوره أن «وإذا قد صرح ذلك ونظر ظهراً حسباً فقد ظهر بظهوره أن شر الناس من جاز على نفسه ثم على أصدقائه وعشيرته ثم على كافة الناس والحيوان لأن العلم بأحد الضدين هو العلم بالضد الآخر «خفف الناس العادل وشرهم الجائر كما تبين ذلك وقد ادعى قوم أن نظام أمم الموجودات كلها وصلاح أخوالها معلق بالحمية وقالوا أن الإنسان إنما اضطر إلى اقتناء هذه الفضيلة أعنى الهيئة التي تصدر عنها العدالة عند تعامله بالمعاملات لما فاته شرف المحبة «ولو كان التعامل أوجباً لتناصفوا ولم يقع بينهم خلاف * وذلك أن الضد يبقى بحسب صدقه ويريد ما يريد

قال

لنفسه ولا تهم الثقة والتعاقد والتوازر إلا بين المحابين * وإذا تعاضدوا وجمعتهم المحبة وصلوا إلى جميع المحبوبات ولم تنعذر عليهم المطالب وان كانت صعبة شديدة * وحينئذ ينشؤون الآراء الصائبة وتتعاون العقول على استخراج الغوامض من التدابير القوية ويتقنون على نيل الخيرات كلها بالتعاقد * وهؤلاء القوم انما نظروا إلى فضيلة التآحد التي تحصل بين الكثرة ولعمري انها أشرف غايات أهل المدينة * وذلك انهم اذا تحابوا توصلوا وأراد كل واحد منهم لصاحبه مثل ما يريده لنفسه فتصير القوى الكثيرة واحدة ولم ينعذر على أحد منهم رأى صحيح ١٦٧

قال الهموم تكون من طبع الورى * في لبث ما في طبعه أن ينقدا
فاذا اقتنبت من الزاجحة قابلا * للكفر فأنكسرت فلانك مكيدا
وأنشد في بعض أهل العلم لسعيد بن مسلم

أنا الدنيا هبات * وعوار مستردة

شدة بعد رخاء * ورخاء بعد شدة

ولما قيل بزجرهم وجد في جيب قيصرة قعة فيها مكتوب اذ لم يكن جد فقم الكدوان لم يكن

للمردوام فقم السرور واذ لم يرد الله دوام ملك فقم الحيلة * وقال ابن الرومي

رأيت حيا فأسرع رها بموته * ومعتبر رها كذلک بالسقم

اذا طاب لي عيش تنقض طبعه * بصدق يقيني أن سيذهب كالخلم

ومن كان في عيش راعي زواله * فذلک في بؤس وان كان في نعم

ومنها أن يتصور راحلها الشئ اندوا فكشف الهموم وأنها تنقدر بأوقات لا تنصرم قبلها ولا

تستديم بعدها فلا تقصر بجزع ولا تطول بصبر وأن كل يوم يمر بها يذهب منها يشطر ويأخذ

منها ينصب حتى تفجى وهو عنها غافل * وحكى أن الرشيد حبس رجلا ثم سأل عنه بعد زمان

فقال للموكل به قل له كل يوم يمضي من نعمه يمضي من بؤس مثله والامر قريب والحكم لله

تعالى فأخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال

لو أن ما تنموفيه بدوم لكم * ظننت ما أنافيه دائما أبدا

لكنني عالم آفي وأنكم * سنسجد لخلاف الحالين غدا

وأنشد لبعض الشعراء

عواقب مكره الامور خیار * وأيام ضر لا تدوم قصار

وليس يبق في بؤسها ونعيمها * اذا كر ليل ثم كرنهار

وأنشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين حضرته الوفاة

ألم تر أن ربك ليس يقصی * أباده الحديثة والقدیة

تسل عن الهموم فليس شئ * يقوم ولا همومك بالمقیمه

لعل الله ينظر بعد هذا * السيل في نظرة منه رحيمه

ومنها أن يعلم أن فيما وقى من الزايا وقى من الحوادث ما هو أعظم من رزقه وأشد من

في جميع ما يحولونه مثل
من يريد تحريك ثقل عظيم
بنفسه فلا يطيق ذلك *
فان استعان بقوة غيره حركه

ومدبر المدينة انما يقصد

بجميع تدابيرها أيقاع

المودات بين أهلها وإذا

تم له هذا خاصة فقد تمت له

جميع الخيرات التي تنعذر

عليه وحده وعلى أفراد

أهل مدينته وخيئذ

يغلب أقرانه ويعمر بلدانه

وتعش هو ورعيته مغبوطين

ولكن هذا التآحد المطلوب

بهذه المحبة المرغوب فيها

لا يتم إلا بالأراء الصحيحة

التي يربى الاتفاق من

العقول السليمة عليها

والاعتقادات القسوية

التي لا تحصل إلا بالذات

التي يقصدها وجه الله

عز وجل وأصناف

المحبات كثيرة وان كانت

ترتقى كلها إلى وجه واحد

وسمى قول فيها بعبوة

الله فيما تلوا هذه المقالة

إن شاء الله

﴿ المقالة الخامسة ﴾ (التعاون والاتحاد) قد سبق القول في حاجة بعض الناس إلى بعض وتبين أن كل واحد منهم يجد

تمامه عند صاحبه وأن الضرورة داعية إلى استعانة بعضهم ببعض لأن الناس مطبوعون على التقصارات ومضطرون

إلى تماماتها ولا سبيل لأفرادهم والواحد فالواحد منهم إلى تحصيل تمامه بنفسه كإشراحنا فيما مضى فالحاجة صادقة

والضرورة داعية إلى حال تجمع وتواف بين أشتات الأشخاص ليصير وبالأتفاق والاتسلاف كالشخص الواحد الذي

تجمع أعضاؤه كلها على الفعل الواحد النافع له ﴿ المحبة ﴾ وللمحبة أنواع وأساب تكون بعدد أنواعها فأحد

أنواعها ما يتعقد سر يعا وينحل سر يعا * والثاني ما يتعقد سر يعا وينحل بطيئا * والثالث ما يتعقد بطيئا وينحل سر يعا
والرابع ما يتعقد بطيئا وينحل بطيئا * وانما انقسمت الى هذه الأنواع فقط لأن مقاصد الناس في مطالعهم وسيرهم ثلاثة
ويتركب بينهما رابع وهي اللذة والخير والمنافع والمتر كمنها * وإذا كانت هذه غايات الناس في مقاصدهم فلا محالة أنها
أسباب المحبة من عاون عليها وصار سببا للوصول إليها فقد أفلح * فاما المحبة التي يكون سببها اللذة فهي التي تتعقد سر يعا وينحل
سر يعا * وذلك لأن اللذة سر نعة ١٦٨ التغير كما شرعنا أمرها فيما تقدم وأما المحبة التي سببها الخير فهي التي

تتعقد سر يعا وينحل بطيئا
وأما المحبة التي سببها المنافع
فهي التي تتعقد بطيئا
وتحل سر يعا * وأما التي
تركب من هذه إذا كان
فيها الخير فانها تحل بطيئا
وتتعقد بطيئا * وهذه
الحصاة كلها تحدث بين
الناس خاصة لأنها تكون
بارادة وروية وتكون
فيها محازاة ومكافاة * فأما
التي تكون بين الحيوانات
عبر الناطقة فالأخرى بها
أن تسمى الفسا وتقع بين
الاشكال منها خاصة * وأما
التي لا نفوس لها من
الاجهار وأمثالها فليس
يوجد فيها إلا الميل الطبيعي
إلى مراكزها التي تخصها
وقد يوجد أيضا بينهما منافرة
ومشاكاة بحسب أمر حقتها
الحادثة فيها من عناصرها
الأولى وهذه الأمور حجة
كثيرة وإذا وقع منها شيء
يتناسب نسبة تأليفه أو
عديدة مساحية حدثت
بينها ضرب من المشاكاة

حادثة ليعلم أنه ممنوح بحسن الدفاع ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى في أثناء
كل محنة منحة وقيل للشعبي في نائبه كيف أصبحت قال بين نعمتين خير منشور وشر مستور
وقال بعض الشعراء
لا تذكره المكره عند حلوله * إن العواقب لم تزل متباينة
كم نعمة لا تستقل بشكرها * لله في طي المكره كأمته
ومنها أن يتأذى بذي الغي ويتسلى بأولي العبر ويعلم أنهم الأكثر عددا والأسرعون
مددا فيستجدين سلوة الأسى وحسن العزا ما يخفف شجوهه ويقل هلهه * وقال عمر بن
الخطاب رضي الله عنه ألقوا بذي الغي تسع قلوبكم * وعلى مثل ذلك كانت مرأى
الشعراء قال البصري
فلا يحب للأسدان ظفرت بها * كلاب الأعداء من فسيح وأعجمي
خربة وحشى سقت حمزة الردي * وموت علي من حسام بن لمجم
وقال أبو نواس
المراء بين مصائب لا تنقضي * حتى يوارى جسمه في رمسه
فوقل بلقي الردي في أحله * ومجمل يلقي الردي في نفسه
ومنها أن يعلم أن النعم زائرة وأن المحالة زائلة وأن السرور بما إذا قبلت مشوب بالخذل من
فراقها إذا أدبرت وأنها لا تفرح باقيا لها فرحا حتى تقب بفرافقتها رجا فعلى قدر السرور
يكون الخزن * وقد قيل في منشور الحكم المروى به هو المحزون عليه وقيل من بلغ غاية ما يجب
فليتوقع غاية ما يكره * وقال بعض الحكماء من علم أن كل نائبية إلى انقضاء حسن عزاءه
عند نزول البلاء * وقيل للحسن البصري رحمه الله كيف ترى الدنيا قال شغلني توقع بلائها عن
الفرح برحلتها فأخذ أبو العتاهية فقال
تزيد الأيام أن أقبلت * شدة خوف لتصاريفها
كانها في حال أسعافها * تسمعه وقعة تخوفها
ومنها أن يعلم أن سروره مقرون بمساء غيره وكذلك خزنه مقرون بسرور غيره إذا كانت الدنيا
تنقل من صاحب إلى صاحب وتصل صاحب بفرق صاحب فتكون سرورا لمن وصلته
وخزا لمن فارقتة وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ما قرعت عصا على عصا إلا فرح لها قوم

وإذا كان أصداء هذه النسب حدثت بينهما منافرة وتحدث لها أشياء تسمى
خواص وهي أفعال بدنية وهي التي تسمى أسرار الطبايع ولا سيما في النسب التأليفية فانها أشرف النسب بعد نسبة المساواة
ولها أصداء أعنى هذه النسب * وهي مبنية مشروحة في صناعة الارتعاطي في ثم في صناعة التأليف * وأما الأخرى التي
بحسب هذه النسب فهي خفية غنا وعسرة المرام وقد ادعى قوم الوصول إليها وليست تكون هذه الأفعال والخواص التي
تحدث بين الأخرى من النسب المذكورة موجودة في العناصر أنفسها والكلام فيها خارج عن غرضنا وانما ذكرناها هنا

لأنها تشبه المشاكلا والمناقرات التي بين الحيوان في الظاهر والنسبة التي تحدث بين الناس بالارادة وهي التي نتكلم فيها ويقع فيها مكافاة ومحازاة * الصداقة نوع من المحبة لأنها أخص منها وهي المودة بينهما وليس يمكن أن تقع بين جماعة كثيرين كما تقع المحبة وأما العشق فهو افراط في المحبة هو أخص من المودة وذلك أنه لا يمكن أن يقع الا بين اثنين فقط ولا يقع في المنافع ولا في المركب من النافع وغيره وإنما يقع لمحبة الله بافراط ومحبة الخير بافراط وأحدهما مذموم والآخر محمود فالصداقة بين الاحداث ومن كان في مثل طباعهم وإنما تحدث لأجل (١٦٩) اللذة فهم يتصادقون سريعا

وينقطعون سرعا وربما اتفق ذلك بينهم في الزمان القليل مرارا كثيرة وربما بقيت بقدرتهم ببقاء اللذة ومعاودتها حال بعد حال فإذا انقطعت هذه الثقة بمعاودتها انقطعت الصداقة بالوقت وفي الحال والصداقة من المشايخ ومن كان في مثل طباعهم انما تحدث لمكان المنفعة فمهم يتصادقون بسببها فإذا كانت المنافع مشتركة بينهم وهي في الأكثر طويلة المدة كانت الصداقة

باتمة فحين تنقطع علاقة المنفعة بينهم وينقطع رجاؤهم من المنفعة المشتركة تنقطع مودتهم والصداقة بين الاخيار تكون لأجل الخير وسببها هو الخير ولما كان الخير شيئا غير متغير الذات صارت مودات أفعالها باقية غير متغيرة وأيضا لما كان الإنسان مركبا من طبائع متضادة صار ميل كل واحد منها يخالف ميل الآخر فالذلة التي توافق احداهما تخالف لذة الاخرى التي تضادها فلا

ورخن آخرون وقال البخري

مضى أرت الدنيا بناه خامل * فلا ترتقب الاخول نبيه

وقال المتنبى

بذا قصت الايام ما بين أهلها * مصائب قوم عند قوم فوائد

وأشدد بعض أهل الادب

ألا تغا الدنيا غصارة أيكه * اذا اخضر منها جانب جف جانب

فلا تفرح منها لشيئ تفيد * سيذهب يوما مثل ما أنت ذاهب

وما هذه الايام الا فجائع * وما العيش والذات الامصائب

ومنها أن تعلم أن طوارق الانسان من دلائل فضله ومخنه من شواهد نبله وذلك لأحدى

علتين إما لأن الكمال معوز والنقص لازم فإذا أوترا الفضل عليه صار النقص فيما سواه وقد

قبل من زاده في عقله نقص من رزقه * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما انتقصت

جرحه من انسان الا كانت ذكاه في عقله * وقال أبو العتاهية

ما جاوز المرء من أطرافه طرفا * الا تحوته النقصان من طرف

وأشدد في بعض أهل الادب لابرار من هلال الكاتب

اذا جهت بين امرأين صناعة * فأحب أن تدرى الذي هو أحنق

فلا تنفق منه ما غير ما جرت * به لهما الارزاق حين تفرق

فحيث يكون النقص فالرزق واسع * وحيث يكون الفضل فالرزق ضيق

وأما لذا الفضل محسود وبالأذى مقصود فلا يسلم في بره من معادوا اشتط مناو

قال الصنوبري

محن الفتى يحزن عن فضل الفتى * كالنار تحترق بفضل العنبر

وقلما تكون محنة فاضل الامن جهة تاقص وبلوى عالم الاعلى يدجاهل وذلك لاستحكام

العداوة بينهم بالمباينة وحدوث الانتقام لأجل التقدم * وقد قال الشاعر

فلا غرأ أن غنى علم مجاهل * فن ذنب التين تنكشف الشمس

ومنها ما يعتاضه من الارتياض بنوائب عصره ويستفيد من الحنكة بيلاده فله فصب

عوده ويستقيم عوده ويكمل بادى شدته ورجاه ويتعظ بما لى عقوه وبلاه * حتى عن

(٢٢ - أدب الدنيا) تخلص له لذة غير مشوبة بأذى ولما كان فيه أيضا جوهر آخر بسيط الهى غير محافظ لشيئ

من الطبائع الاخرى صارت له لذة غير مشابة لشيئ من تلك الذات وذلك أنها بسيطة أيضا والمحبة التي سببها هذه اللذة هي

التي تفرط حتى تصير عشقا فاما خالصها مشابة بالوله وهي المحبة الالهية الموصوفة التي يدعيها بعض المتألهين وهي التي يقول

فيها ارسطوطاليس حكايته عن ابرقليس ان الاشياء المختلفة لا تتشاكل ولا يكون منها تأليف جيد وأما الاستيلاء للمتشاكله

وهي التي يسر بعضها لبعض ويشاق بعضها لشيئ بعض فأقول عنها ان الجواهر البسيطة اذا تشاكلت واشتاق بعضها الى

بعض تألفت واذنا لت صارت شيئا واحدا لاغرية بينها اذ الغربة انما تحدث من جهة الهوى واما الاشياء ذوات الهوى وهي الاجرام فانها وان اشتاق بنوع من الشوق الى التألف فانها لا تقدر ولا يمكن ذلك فيها وذلك انها تلتقي بها باثما وسطوحها دون ذواتها وهذالالتقاء سريع الانفصال اذ كان للتألف فيه عجزا واما تألفا حاد بها واستطاعتها اعني ملاقاته سطوحها فاذا الجوهر الالهي الذي في الانسان اذا صفا من كدورته التي حصلت فيه من ملابسة الطبيعة ولم تجذبه انواع الشهوات واصناف محبات الكرامات (١٧٠) اشتاق الى شيهو رأى عين عقله اخيرا الاول المحض الذي لا تشوبه مادة

فامر ع اليه وحيث قد يقضى نور ذلك الخبر الاول عليه فيلذنه لذته لاتشبهها لذته ويصير الى معنى الاتحاد الذي وصفناه استعمال الطبيعة البدنية أم لم يستعملها الا انه بعد مفارقتها الطبيعة بالكلية أحق بهذه المرتبة العالوية لانه ليس تصفو الصفاء التامة الا بعد مفارقتها الحسية الدنيوية ومن فضائل هذه المحبة الالهية انها لا تقبل نقصان ولا تنقح فيها السعاية ولا تعرض عليها الملك ولا تكون الابن الاخير فقط واما المحبات التي تكون بسبب المنفعة والمادة فقد تكون بين الاشرار وبين الاخيار والاشرار لانها تنقضي وتحل مع تقضى المنافع والذائد لانها عرضية وكثيرا ما تحدث بالاجتماعات في المواضع الغريبة الا انها تزول بزوال المواضع كالسقية وما جرى مجراها * والسبب في هذه المحبة

ثعلب قال دخلت على عبيد الله بن سليمان بن وهب وعليه خلع الرضا بعد التكبلة لما مثلت بين يديه قال يا ابا العباس اسمع ما أقول

نوائب الدهر ادبتني * وانما يوعظ الاديب قد ذقت حلوا وذقت مررا * كذلك عيش الفتي ضروب لم يحض برؤس ولا نعيم * الاولى فيهما نصيب كذلك من صاحب اللاتي * تغذوه من درها الخلطوب

فقلت لمن هذه الابيات قال لي ومنها أن يختبر أمور زمانه ويتنبه على صلاح شأنه فلا يغتر برضاء ولا يطعم في استواء ولا يؤمل أن تبقى الدنيا على حاله أو يتخلف من تغلب واستحالة فان من عرف الدنيا وخبر أحوالها هان عليه نبهوها ونعيمها وأنشيد بعض الادباء اني رأيت عواقب الدنيا * فتركت ما أهوى لما أخشى ففكرت في الدنيا وعالمها * فاذا جيعت أمورها تنفني وبلوت أكثر أهلها فاذا * كل امرئ في شأنه يسرى أسنى منازلها وأزفها * في العز أقربها من المهوى تصفومساو بها محاسنها * لا فرق بين النبي والبشرى ولقد مرهت على القبور فدا * ميزت بين العبد والمولى أمراك تدري كم رأيت من الاحياء ثم رأيتهم موتى

فاذا ظفر المصاب بأحد هذه الاسباب تحققت عنه أحزانه وتسهلت عليه أشجانه فصار وشيك السلوة قليل الجزع حسن العزاء وقال بعض الحكماء من حاذل لم يلع ومن راقب لم يجزع ومن كان متوقعا لم يكن متوجعا وقال بعض الشعراء ما يكون الامر سهلا كله * انما الدنيا سرور وخزون هون الامر تعش في راحة * قلما هونت الاسميون تطلب الراحة في دار العنا * ضل من يطلب شيئا لا يكون فان أغفل نفسه عن دواعي السلوة ومنعهما من أسباب الصبر تضاعف عليه من شدة الاسى وهم الجزع ما لا يطبق عليه صبرا ولا يجد عنه سلوا وقال ابن الرومي ان البلاء ينطق غير مضاعف * فاذا تضاعف صار غير مطاق

الانس وذلك لان الانسان آس بالطبع وليس يوحش ولا نفور ومنه اشق اسم الانسان في اللغة العربية وقد تبين ذلك في صناعة الخو وليس كما قال الشاعر * سميت انسانا لانه ناس * فان هذا الشاعر ظن ان الانسان مشتق من النسيان وهو غلط منه * وينبغي ان يعلم ان هذا الانس الطبيعي في الانسان هو الذي يقبني ان يفرص عليه ونكتسبه مع أبناء جنسنا حتى لا يفوتنا جهننا واستطاعتنا فانه مبدأ المحبات كلها الشريعة تصعد الى انس والمحبة * وانما وضع للناس بالشريعة بما عاده لجليلة اتخاذ الدعوات والاجتماع في المآدب ليحصل لهم

فاذا

هذا الانس والشرية اغما أوجبت على الناس ان يجتمعوا في مساجدهم كل يوم خمس مرات وفضلت صلاة الجماعة على صلاة الآحاد ليحصل لهم هذا الانس الطبيعي الذي هو فيهم بالقوة حتى يخرج الى الفعل ثم يتأكلوا الاعتقادات الصحيحة التي فيهم معهم وهذا الاجتماع في كل يوم ليس يتعدى على أهل كل محلة وسكة * والدليل على ان غرض صاحب الشريعة ما ذكرناه أنه أوجب على أهل المدينة بأسرها ان يجتمعوا في كل أسبوع يوما بعينه في مسجد يسعهم الجميع أيضا شمل أهل المحال والسكك في كل أسبوع كما اجتمع شمل أهل الدور والمنازل ١٧١ في كل يوم * ثم أوجب أيضا ان

يجتمع أهل المدينة مع أهل القرى والرياسات في كل سنة مرتين في مصلى بارز من مصجرين ليسعهم المكان ويتجدد الانس بين قافهم وتبطلهم المحبة الناطقة لهم * ثم أوجب بعد ذلك ان يجتمعوا في العمر كل مرة واحدة في الموضع المقدس بكة ولم يعين من العمر وقت مخصوص لينسح لهم الزمان وليجتمع أهل المدن المتباعدة كما اجتمع أهل المدينة الواحدة ويصبرها لهم في الانس والمحبة وشعول الخبير والسعادة كحال المجتمعين في كل سنة وفي كل أسبوع وفي كل يوم فيجتمعوا بذلك الى الانس الطبيعي وإلى الخيرات المشتركة ويتجدد بينهم محبة الشريعة ولا يكبروا الله على ما هادهم ويتعطلوا بالدين القويم

فإذا ساعد خرمه بالاسباب الباعثة عليه وأمدده له بالذرائع الداعية اليه فقلسي في حقه وأعان على تلفه فمن أسباب ذلك تذكرة المصائب حتى لا يتناسا وتصوره حتى لا يعزب عنه ولا يجحد من التذكار سلوة ولا يختلط مع التصورات غريبة وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا تستغفر زاد الموع بالتذكرة وقال الشاعر

* ولا يبعث الاخران مثل التذكرة *

ومنها الاسف وشدة الحسرة فلا يرى من مصابه خلفا ولا يحفل بقوده بدلا فيزداد بالاسف ولهوا بالحسرة هلهلا ولذلك قال الله تعالى لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم وقال بعض الشعراء

إذا بليت فنتق بالله وارضى به * ان الذي يكشف البلى هو الله
إذا قضى الله فاستسلم لقدرته * ما لمرئ حيلة فيما قضى الله
اليأس يقطع أحيانا بصاحبه * لا تيأس من فان الصانع الله
ومنها كثرة الشكوى وبث الجزع فقد قيل في قوله تعالى فاصبر صبرا جميلا انه الصبر الذي لا شكوى فيه ولا بث روى أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فاصبر من بث وحكى كعب الاحبار انه مكتوب في التوراة من أصابته مصيبة فشكى الى الناس فانما يشكوره وحكى ان اعرابية دخلت من البادية فسمعت صراخا في دار فقالت ما هذا فقيل لها مات لهم انسان فقالت ما أراهم الامن ربهم يستغيثون وبقضائه يترمون وعن ثوابه يرغبون * وقد قيل في منثور الحكم من ضاق قلبه اتسع لسانه وأشد بعض أهل العلم لا تكثر الشكوى الى الصديق * وارجع الى انما اتى لا المخلوق

* لا يخرج القريب بالقرين *

* وقال بعض الشعراء *

لا تكثر دهرك ما محنت به * ان الغنى هو همة الجسم
هيك الخليفة كنت متفتحا * بغضارة الدنيا مع السقم
ومنها اليأس من خير مصابه ودرك طلابه فيقرن بحزن الحادثة فنوط اليأس فلا يبقى معه صبر ولا يتسع لها صدر وقد قيل المصيبة الصبر أعظم المصيبين * وقال ابن الرومي اصبري أيها النفس * فان الصبر أسمى

القيم الذي ألهمهم على تقوى الله وطاعته الخليفة يحرس الدين * والقائم يحفظ هذه السنة وغيرهما من وظائف الشرع حتى لا تزول عن أوضاعها أو الامام وصناعتها هي صناعة الملك * والاوائل لا يسمون بالملك الا من خرس الدين وقام يحفظ مراتبه وأوامره وزواجه * وأما من اعرض عن ذلك فيسمونه متغلبا ولا يؤهلونه لاسم الملك وذلك ان الدين هو وضع الهي يسوق الناس باختيارهم الى السعادة القصوى * والملك هو حارس هذا الوضع الالهي حافظ على الناس ما أخذوا به * وقد قال حكيم الفرس وملوكهم ازدهشيران الدين والملك اخوان

توأمان لا يتم أحدهما إلا بالآخر * فالذين أسس الملك حارس * وكل مال الأسس له فهدوم * وكل مال الحارس له فضائع
ولذلك حكمت على الحارس الذي نصب للدين أن يتعظ في موضعه ويحكم صناعته ولا يباشر أمره بالهوى سوا ولا
يشغل بلذة مخمصة ولا يطلب الكرامة والغلبة إلا من وجهها * فانه متى أغفل شيئا من حدوده دخل عليه من
هناك الخلل والوهن * وحيث تبدل أوضاع الدين ومجد الناس رخصة في شهواتهم وبكثرت من يساعدهم على ذلك
فتقلب هيئة السعادة الى ضدها ١٧٢ ويحدث بينهم الاختلاف والتباغض فاداهم

ربما خاب رجاء * وأنى مالدس يرجى

وأشدنى بعض أهل العلم

أتحسب ان البؤس للبرءاء * ولودام شئ عذبه الناس في الهب

لقد عرفت لك الحادثات بيؤسها * وقد أدبت ان كان ينفعك الأدب

ولو طلب الانسان من صرف دهره * دوام الذي يحشى لأعياء ما طلب

ومنها أن يعزى بملاحظة من حيطت سلامته وحسنت نعمته حتى التحف بالامن والدعة

واسمته بالثروة والسعة ويرى انه قد خص من بينهم بالرزق بعد أن كان مساويا وأفرد

بالحادثة بعد أن كان مكافيا فلا يستطيع صبرا على بلوى ولا يلزم شكر على نعي ولو قابل

بهذه النظرة ملاحظة من شاركه في الرزق وسواها في الحادثة لتكافأ الأمان فهان

عليه الصبر وحان منه الفرج * وأشدت لامرأة من العرب

أيها الانسان صبرا * ان بعد العسر يسرا

كم رأيت اليوم حرا * لم يكن بالأمس حرا

ملك الصبر فأخفى * مالكا خيرا وشرا

اشرب الصبر وان كا * ن من الصبر أمرا

وأشدت لبعض أهل الأدب

براع الفتى للقطب تبد وصدوره * فيأسى وفي عقبه تأق سروره

ألم تر أن الليل لما تراكمتم * دجاء بدا وجه الصباح ونوره

فلا تعجب ان اليأس ان كنت عالما * لبيما فان الدهر شتى أموره

واعلم انه قل من صبر على حادثة وتعامل في نكبة الا كان انكشافها وشيكا وكان الفرج

منه قريبا أخبرني بعض أهل الأدب أن أبا أيوب الكاتب حبس في السجن خمس عشرة

سنة حتى ضاقت حيلته وقتل صبره فكذب الى بعض اخوانه يشكوه طول حبسه فرد عليه

جواب رفته بهذا

صبرا أبا أيوب صبر مبرح * فاذا عجزت عن الخطوب فن لها

ان الذي عقد الذي انقعدت له * عقد المكاره فيك علك حلها

صبرا فان الصبر يعقب راحة * ولعلها أن تجلس ولعلها

ذلك الى الشنات

والفرقة وبطل الغرض

الشريف وانتقص

النظام الذي طلبه

صاحب الشرع بالافاض

الالهية فاحتج حينئذ

الى تحديد الامر

واستثنى التدبير

وطلب الامام الحق

والملك العدل * ونعود

الى ذكر أجناس

الحيات وأسبابها فنقول

أجناس الحيات

وأسبابها

ان هذه الاسباب كلها

ما خلا الحية الالهية اذا

كانت مشتركة بين

الحياتين وكانت واحدة

بعضها جازق الششين ان

يعتقد اعماءا وتخيلا

معا وجاز ايضا أن

يبقى أحدهما ويحل

الآخر * مثال ذلك

ان اللذان المشتركة

بين الرجل والمرأة

هي سبب للحمة بينهما

فقد يجوز أن تجمع

الحيات لان السبب واحد وهي اللذة * وقد يجوز

أن تنقطع احداهما وتبقى الأخرى وذلك ان اللذة تتغير ولا تكاد تثبت كما تقدم وضعها * فقد يجوز أن يتغير سبب

احدى المحبتين وبثت الآخر * وأيضاً فان بين الرجل وبين زوجته خيرات مشتركة ومناافع مختلفة وهما

يتعاونان عليها اعني الخيرات الخارجة عنها وهي الاسباب التي تهر بها المنازل * فالمرأة تنتظر من زوجها تلك

الخيرات لانه هو الذي يكتبها ويحضرها * وأما الرجل فانه ينتظر من زوجته ضبط تلك الخيرات لانها هي التي تحفظها

فاجابه

وتدبرها الشمر ولا تضييع فتى قصر أحدهما اختلفت المحبة وحديث الشكايات ولا تزال كذلك الى أن تنقطع
أوتسقى مع الشكايات والملازمة * وكذلك حال المنفعة المشتركة بين الناس إذا كانت واحدة بعينها * وأما
المحبات المختلفة التي أسبابها مختلفة فهي أولى بسرعة التحلل * ومثال ذلك أن تكون محبة أحد التحابين لأجل
المنفعة ومحبة الآخر لأجل اللذة كما يمرض ذلك العاشقين على أن أحدهما مغنى والآخر مستمع فإن المغنى منهما
يحب المستمع لأجل المنفعة والمستمع منهما يحب المغنى اللذة (١٧٣) * وكما يعرض أيضا بين

فأجابه أبو أيوب يقول

صبرتنى ووعظتنى وأنا لها * وستجلى بل لا أقول لعلها
ويحلها من كان صاحب عقدها * كرمابه إذا كان عملا حلها
فلم يلبث بعد ذلك فى السجن إلا أياما حتى أطلق مكرا * وأنشد ابن دريد عن أبي حاتم
إذا اشتجلت على اليأس القلوب * وضاق لمابه الصدر الرحيب
وأوطنت المكاداة واطمأنت * وأرست فى مكاتب الخطوب
ولم تزلنا لكشاف الضر وجها * ولا غنى بحيلته الأريب
أناك على قنوط منك غوث * يمن به اللطيف المستحيب
وكل الحادثات إذا تاهت * فوصول بها الفرج القريب

الفصل الثالث فى المشورة * اعلم أن من الحزم لكل ذى لب أن لا يبرم أمرا ولا يعصى عزا
الأمشورة ذى الرأى الناصح ومطالع ذى العقل الراسخ فإن الله تعالى أمر بالمشورة نبيه صلى
الله عليه وسلم مع ما تكفل به من إرشاده ووعده من تأييده فقال تعالى وشاورهم فى الأمر
قال قتادة أمره بمشاورتهم تألفهم وتطبيبا لأنفسهم * وقال الضحاك أمره بمشاورتهم لما علم
فيهم من الفضل وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى أمره بمشاورتهم ليستن به المملون
ويتبعه فيها المؤمنون وإن كان عن مشورتهم غياور وى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
قال المشورة حصن من الندامة وأمان من الملامة * وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه نعم
الموازية للمشاورة فبش الاستعداد الاستعداد وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه الزجال
ثلاثة رجل ترد عليه الأمور فيسدد بها برأيه ورجل يشاور فيما أشكل عليه وينزل
حيث يأمره أهل الرأى ورجل حارث بأمره لا ياتمر شدا ولا يطيع مرشدا وقال عمر بن
عبد العزيز إن المشورة والمناظرة بابا رجة ومفتاح حركة لا يضل معها رأى ولا يفقد
معها خرم وقال سيف بن ذى رزن من أعجب برأيه لم يشاور ومن استبد برأيه كان من
الصواب بعيدا * وقال عبد الحميد المشاوري رأيه ناظر من ورائه وقيل فى منشور الحكم
المشاورة راحة لك وتعبد على غيرك * وقال بعض الحكماء الاستشارة عين الهداية وقد
خاطر من استفتى برأيه وقال بعض الأدباء ما خاب من استخار ولاندم من استشار وقال
بعض البلغاء من حق العاقل أن يضيف إلى رأيه آراء العقلاء ويجمع إلى عقله عقول

العاشق والمعشوق
الذين أحدهما يلتذ
بالنظر والآخر ينتظر
المنفعة وهذا الصنف من
المحبة يعرض فيه أبدا
التشكى والنظم * وذلك
أن طالب اللذة يتعجل
مطلوبه وطالب المنفعة
يتأنى عنه ولا يكاد يستبدل
الأمر بينهما * لذلك ترى
العاشق يشكو معشوقه
وينظم منه وهو بالحقيقة
ظالم ينبغى أن يشتكى لانه
يتعجل لذته بالنظر ولا يرى
المكافأة بما يستغنى
صاحبه والمحبة للزامة
كثيرة الأنواع الآن الأصل
فيها ما ذكر * ويوشك
أن تكون المحبة بين
الرئيس والمسرووس
والغنى والفقر ترضى لها
الملازمة والتوبيخ لأجل
اختلاف الأسباب ولأن
كل واحد ينتظر من
المكافأة عند الآخر ما لا
يجده عنده فيقع فساد

فى النيات بينهما ثم استطاعهم ملازمات * وزيل ذلك طلب العدالة ورضا كل واحد بما يستحقه من الآخر وبذل كل
واحد لآخر العدل المبسوط بينهما * والمال يملك خاصة لا يرضيهم من مواليمه إلا زيادة الكثرة فى الاستحقاق
وكذلك الموالى يستبطن العبيد الخدمة والشفقة والنصيحة وفى جميع ذلك يقع اللوم وفساد الضمير * فهذه
المحبة الوالمة لا يكاد تخلو الإنسان منها إلا على شريطة العدل وطلب الوسط من الاستحقاق والرضا به وهو صعب * والمحبة
الأخيار * وأما محبة الأخيار بعضهم بعضا فاتها تكون لا للندة خارجة ولا لمنفعة بل للناسبة الجوهرية بينهما وهي قصد الخير

والتماس الفضيلة فإذا أحب أحدكم الآخر هذه المناسبة لم تكن بينهم مخالفة ولا منازعة ونصغ بعضهم بعضا وتلاقوا بالعدل والتساوى في إرادة الخير وهذا التساوى في النصيحة وإرادة الخير هو الذي يوجد أكثرهم * ولذا أحد الصديق بأنه آخرهوأنت إلا أنه غيرك بالشخص ولهذا صار عز زوال وجوده ولم يوثق بصداقة الأحداث والعوام ومن ليس بحكيم لأن هؤلاء يحبون ويصادقون لأجل اللذة والمنفعة ولا يعرفون الخير بالحقيقة وأغراضهم غير صحيحة * وأما السلاطين فأنهم يظهر من الصداقة على أنهم متفضلون (١٧٤) ومحسنون إلى من يصادقهم فلا يدخلون تحت الحد الذي ذكرناه وفي صداقتهم

زيادة وتقصان والمساواة عزيزة الوجود عندهم وكذلك محبة الوالد للوالد والولد للوالد فان أنواع هذه المحبة مختلفة وأسبابها أيضا مختلفة كقولنا الآن محبة الوالد للولد والولد للوالد وأن كان بينهما اختلاف ما من وجه فأن بينهما اتفاقا ذاتيا وأعني بالذاتي ههنا أن الوالد يرى في ولده أنه هو هو وأنه نسخ صورته التي تخصه من الانسانية في شخص ولده نسخا طبيعيا ونقل ذاته إلى ذاته نقلًا حقيقيا وحق له أن يرى ذلك لأن التدبير الإلهي بالنسبة الطبيعية التي هي سياسته عز وجل هو الذي عاون الإنسان على إنشاء الولد وجعله السبب الثاني في إيجاده ونقل صورته الانسانية إليه ولذلك يحب الوالد لولده جميع ما يحبه لنفسه ويسعى في تأديبه وتكميله بكل ما فاته في نفسه طول عمره

الحكماء فالرأى الفرد بمائل والعقل الفرد بمائل وقال بشار بن برد

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن * برأى نصيح أو نصيحة حازم

ولا تفعل الشورى عليك غصاصة * فان الخوف قوة للقوام

فإذا عز على المشاورة أرتاد لها من أهلها من قد استكمل فيه خمس خصال أحدها عقل كامل مع تجربه سالفة فان بكثرة التجارب تصح الروية * وقد روى أبو أوزاع عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتقدموا وقال عبد الله بن الحسن لاسمه محمد أحذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحا كما تحذر عداوة العاقل إذا كان عدوا فانه يوشك أن يورطك بعشورته فيسبى إليك مكر العاقل وتوريط الجاهل وقيل لرجل من عبس ما أكثر صوابكم قال نحن ألف رجل وفينا حازم ونحن نطيعه فكأننا ألف حازم وكان يقال أياك ومشورة رجلين شاب مجرب بنفسه قليل التجارب في غيره أو كبير قد أخذ الدرهم من عقله كما أخذ من جسمه * وقيل في منثور الحكم كل شيء يحتاج إلى العقل والعقل يحتاج إلى التجارب ولذلك قيل الأناصم تمتلئ للشعن الاستئثار الكامنة * وقال بعض الحكماء التجارب ليس لها غاية والعاقل منها في زيادة * وقال بعض الحكماء من استعان بذوى العقول فازيدك المأمول * وقال أبو الأسود الدؤلي وما كل ذي لب يؤتيك نصحه * ولا كل مؤت نصحه بليب

ولكن إذا ما استجمع عند صاحب * غفقى له من طاعة بنصيب

والخصلة الثانية أن يكون ذا دين وتقي فان ذلك عماد كل صالح وباب كل نجاح ومن غلب عليه الدين فهو مأمون السيرة موفق العزيمة * روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أراد أمرًا فاشاور فيه امرأ مسلما وفقه الله لا رشد أموره * والخصلة الثالثة أن يكون ناصحا ودودا فان النصح والمودة يصدقان الفكرة وبعضها الرأي * وقد قال بعض الحكماء لا تشاور إلا الحازم غير الحسود والليب غير الحقود وإياك ومشورة النساء فان رأين إلى الأفن وعزمهن إلى الوهن * وقال بعض الأدباء مشورة المشفق الحازم طفر ومشورة غير الحازم خطر * وقال بعض الشعراء أصف ضميرا لمن تعاشره * وأسكن إلى ناصح تشاوره وأرض من المسرة في موته * بما يؤدى إليك ظاهره

* ولا يشق عليه أن يقال له ولدك أفضل منك لانه يرى أنه هو هو * وكان

الإنسان إذا تزايد في نفسه حالًا فلا ترقى في الفضيلة درجة فدرجة لا يشق عليه أن يقال له أنت الآن أفضل مما كنت بل يسره ذلك كذلك تكون حاله إذا قيل له في ولده مثل ذلك * ثم تفضل أيضا محبة الوالد على محبة الولد بانه الفاعل له وبانه يعرف من ذاك أول تكوينه ويستبشر به وهو جنين ثم تزداد محبته له مع التربيته والنشأ وتربا كدسر ورهونه وتأمله له * ويحدث له اليقين بانه باق به صورته وأن فتي بحسبه مادة وهذه المعاني الجلية عند أهل العلم تنزاع للعوام كأنها من

وراستر * وأما محبة الولد للوالد فانها تنقص عن هذه الرتبة بان الولد مفعول وبانه لا يعرف ذاته ولا فاعل ذاته الا بعد زمان طويل وبعد ان يستثبت آياه حسا وينتفع به دهر اثم يعقل بعد ذلك امره بالصحة وعلى مقدار عقله واستبصاره في الامور يكون تعظيمه للوالديه ومحبة لهما وهذه العلة وصي اتم عز وجل الولد بالولد والولد بالوص والولد بالولد * وأما محبة الاخوة بعضهم بعضا فلان سبب تكوّنهم وتشوهم واحد بعينه * ونسبة الملك الى رعيته * ويجب ان تكون نسبة الملك الى رعيته نسبة ابيه ونسبة رعيته اليه نسبة بنوية ونسبة الرعية ١٧٥ بعضهم الى بعض نسبة

أخوية حتى تكون السياسات محفوظة على شرائطها الصحيحة * وذلك أن مراعاة الملك لرعيته هي مراعاة الاب لا الولد * ومعاملته اياهم تلك المعاملة * وقد كنا نقرأنا الخ ذلك وسنريده بياناً اذا مرنا الى ذكر سياسة الملك في موضع آخر * وعنايته برعيته يجب أن تكون مثل عناية الاب بالولاد شفقة وتحننا وتطفلا خلافة لصاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم بل لمشرع الشريعة تعالى ذكره في الرأفة والرحمة وطلب المصالح لهم ودفع المكاره عنهم وحفظ النظام فيهم وبالجملة في كل ما يجب الخير ويمنع الشر * فانه عند ذلك تحبه رعيته محبة الاولاد لا بالشفقة وتحدث بينهما تلك النسبة وانما تختلف هذه المعاني بالتفاضل الذي يكون

من يكشف الناس لا يجداً حدا * تنصع منهم له سريره
أوشك أن لا بدوم وصل أخ * في كل زلته تنافسه
والخصلة الرابعة أن يكون تسليم الفكر من هم طاع وعمل شاغل فان من عارضت فكره شوائب الحموم لا يسلم له رأى ولا يستقيم له خاطر * وقد قيل في منثور الحكم كل شيء يحتاج الى العقل والعقل يحتاج الى الخراب وكان كسرى اذا دهمه امر بعث الى امرأته فاستشارهم فان قصر وافى الرأى ضرب قهارمته وقال ابطأتم بأرزاقيهم فأخطوا في آرائهم * وقال صالح بن عبد القدوس
ولامشبر كذى نصع ومقدرة * في مشكل الامر فاختر ذلك مستحسنا
والخصلة الخامسة أن لا يكون له في الامر المستشار غرض يتابعه ولا هو ييساعده فان الاغراض جاذبة والهوى صاذا والرأى اذا عارضه الهوى وجاذبته الاغراض فسد * وقد قال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب
وقد يحكم الأيام من كان جاهلاً * ويردى الهوى ذا الرأى وهو لبيب
ويحمد في الامر الفتى وهو مخبط * ويعذل في الاحسان وهو مصيب
فاذا استكملت هذه الخصال الخمس في رجل كان أهلاً للشورى ومعلماً للرأى فلا تعدل عن استشارته اعتماداً على ما تتوهمه من فضل رأيه وثقة بما تستشيره من محروبوئيك فان رأى غير ذى الحاجة أسلم وهو من الصواب أقرب بلصوص الفكر وخلو الخاطر مع عدم الهوى وارتفاع الشهوة * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد الى الناس وما استغنى مستبد برأيه وما هلك أحد عن مشورة فاذا أراد الله بعبده هلكة كان أول ما يهلكه رأيه * وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برأيه * وقال لقمان الحكيم لابنه شاور من جرب الامور فانه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغلاء وأنت تأخذه بجحانا * وقال بعض الحكماء نصف رأيت مع أخيت فتشاوره ليكمل لك الرأى * وقال بعض الادباء من استغنى برأيه ضل ومن اكتفى بعقله زل * وقال بعض البلغاء الخطأ مع الاسترشاد أحمى من الصواب مع الاستبداد * وقال الشاعر
خلى ليس الرأى في صدر واحد * أشبه راعى بالذئب تريان

بعظم المنافع * فيجب أن يكرم الاب كرامة ابيه * ويكرم السلطان كرامة سلطانية * ويكرم الناس بعضهم بعضا كرامة أخوية * ولكل مرتبة من هذه استئصال خاص بها واستحقاق واجب لها * فاذا لم يحفظ بالعدل زاد ونقص وعرض لها الفساد وانقلبت السياسات وانكسرت الامور فغير عرض لياسة الملك أن تنتقل الى رياسة التغلب وتبطل ذلك ان تنتقل محبة الرعية الى الغضب ولا تعرض لياسات من دونه مثل ذلك * فتصير محبة الاخيار الى تباعد عن الشرار وتعود الافة تغاروا والنواد نفاقاً ويطلب كل واحد لنفسه ما يظنه خيراً له وان أضرب بغيره وبطل العبد اوقات

والخير المشترك بين الناس ويؤل الامر الى الهرج الذي هو ضد النظام الذي رتبته الله لخلقهم وورثته بالشرعية واوجب
بالحكمة البالغة **الحجة التي لاتطرا عليها الآفات** وأما الحجة التي لاتشوبها الانفعالات ولا تطرأ عليها الآفات
وهي محبة العبد لخالقه عز وجل فانها انما تخلص للعالم الباني وحده خاصة ولا سبيل لغيره اليها الا بالدعوى الكاذبة وكيف
يحدا الانسان السبيل الى محبة من لا يعرفه ولا يعرف ضرب انعامه الادارة عليه ووجوده احسانه المتصلة به في بدنه ونفسه اللهم
الا ان يتصور في نفسه صفوا وظنه ١٧٦ الخالق عز وجل فحبوه ويعبدوه فان أكثر الناس كما قال تعالى (وما

يؤمن أكثرهم بالله الا وهم
مشركون) ولهم رى ان
العامة تدعى المعرفة والمحبة
وهم يتصورون شخصا
وشحا فتكون عبادتهم
له دون الله وهذا هو
الضلال العبد ومدعو
هذه المحبة كثيرون جدا
والحقون منهم قليلون
جدا بل هم أقل من
القليل وهذه المحبة
لا محالة تتصل بها الطاعة
والتعظيم ويتلوها ويقرب
منها محبة الوالدين
واكرامهما وطاعتها
وليس يرتقى الى مرتبتها
شي من المحبات الاخرى
محبة الحكماء عند تلامذتهم
فانها متوسط بين المحبة
الاولى والمحبة الثانية وذلك
ان المحبة الاولى لا يبلغها
شي من المحبات كما ان
أسبابها لا يبلغها شي من
الاسباب والنعم التي تأتي
من قبلها لا يشبهها شي من
النعم وأما المحبة الثانية
فهي تتلوها لان سببها هو

ولا ينبغي أن يتصور في نفسه أنه ان شاور في أمره ظهر للناس ضعف رأيه وفساد رويته حتى
أفترق الى رأى غيره فان هذه معاذير النوكى وليس يراد الى أى لبساها به واغاييراد لا لتتفاد
بشبعته والتحرز من الخطأ عند الله وكيف يصكون عاراما الى صواب وصدعن
خطأ * وقدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اقحوا عقولكم بالذاكرة واستعينوا
على أموركم بالمشاورة وقال بعض الحكماء من كمال عقلك استظهارك على عقلك * وقال
بعض البلغاء اذا أشكلت عليك الأمور وتغير لك الجمهور فارجع الى رأى العقلاء وانزع
الى استشارة العلماء ولا تأنف من الاسترشاد ولا تستنكف من الاستمدا فلان تسأل وتسلم
خير لك من أن تستبد وتسد وتبني أن تكفر من استشارة ذوى الالباب لاسمى في الامر
الخليل فليضل عن الجماعه رأى أو يذهب عنهم صواب لارسال الخواطر الثاقبة واجالة
الافكار الصادقة فلا يرب عنها يمكن ولا يخفى عليها حائر * وقد قيل في منشور الحكم من
أكثر المشورة لم يعدم عند الصواب مادحا وعند الخطأ عاذرا وان كان الخطأ من الجماعة
بعيدا فاذا استشار الجماعة فقد اختلف أهل الرأى في اجتماعهم عليه وانفراد كل واحد
منهم به فذهب الفرس أن الاولى اجتماعهم على الارتياح واجالة الفكر ليزد كركل واحد
منهم ما قد حظه ظاهره وانتهى فكره حتى اذا كان فيه قدح عورض أو توجه عليه رد وقض
كالمجمل الذي تكون فيه المناظرة وتقع فيه المنازعة والمناجزة فانه لا يبق فيه مع اجتماع
القرايع عليه ظل الاظهر ولا زال الابان وذهب غيرهم من أصناف الامم أن الاولى
استسرا كل واحد بالمشورة ليحيل كل واحد منهم فكره في الرأى طمعا في الخطوة
بالصواب فان القرايع اذا انفردت استكدها الفكر واستقرغها الاجتهاد واذا اجتمعت
قوضت وكان الاول من بدائنها متبوعا ولكل واحد من المذهبين وجه ووجه الثاني أظهر
والذى أراه في الاولى غير هذين المذهبين على الاطلاق ولكن ينظر في الشورى فان كانت
في حال واحدة هل هي صواب أم خطأ كان اجتماعهم عليها أولى لان ما تردد بين أمرين
فالمراد منه الاعتراض على فسادها وظهور الحق في صلاحه وهذا مع الاجتماع ابلغ وعند
المناظرة أو وضع وان كانت الشورى في خطب قد استهم صوابه واستفهم جوابه من أمور
خافية أو حوال غامضة لم يحصرها عدد ولم يجمعها تقسيم ولا عرف لها جواب يكشف عن
خطئه وصوابه فالاولى في مثله انفراد كل واحد بفكره وخلوه بمخاطره ليعتد في الجواب

الثاني في وجودنا الحسى أعنى ابداننا وتكون نيتنا وأما محبة الحكماء فهي
أشرف وأكرم من محبة الوالدين لاجل أن تربيتهم هي نفوسنا وهم الاسباب في وجودنا الحقيقي وبهم وصولنا الى السعادة
النامة التي نلناها الافاء الأبدى والنعم السرمدى في جوار رب العالمين فخصب فضل انعامهم علينا بقدر فضل النفوس
على الابدان تجب حقوقهم وتزعم طاعتهم ومحببتهم وليس يبلغ أحد جزاء ولا مكافأة الاولى ولا ما يستأهلها الثاني أعنى الوالدين
وان هو اجتهاد بالغ ولا يؤدى حقوقهما ألبوان خدم باقصى طاقته :

وفاية وسعه * واما محبة طالب الحكمة للحكيم والتلذذ الصالح للمعلم الخبير فانها من جنس المحبة الاولى وفي طريقها وذلك لاجل الخبر العظيم الذي يشرف عليه ويصل اليه والرجاء الكريم الذي لا يتحقق الا بعنايته وولايته الا بطلعه وتولاه والد روحاني ورب بشري واحسانه احسان المهي ذلك انه يهرسه بالفضيلة الناعمة ويغذوه بالحكمة البالغة ويسوقه الى الحياة الابدية والنعم السرمدي واذا كان هو السبب في كل وجودنا العقلي وهو المرئي لنفوسنا الراحنة فحبس بفضل النفس على البدن يجب أن يفضل المنعم بهذا على التمتع بذلك وبقدر فضلها على البدن تكون فضل التمتع على التربة به حقيقة أن يجب التلذذ بمعلم الحكمة متحفا الصفة شبيهة بالمحبة الاولى ولذلك قلنا ان هذه المحبة من جنس تلك المحبة الاولى والطاعة له من جنس تلك الطاعة وكذلك تعظيمه له واجلاله اياه ثم لما كان سبب هاتين النعمتين ومعرضهما وسائقنا اليهما والى جميع النعم هو السبب الاول الذي هو سبب الخيرات كلها قربتنا او بعدت عنا عرفناها او لم نعرفها وجب أن تكون محبتها في أعلى مراتب المحبات وكذلك طاعتنا له وتمجيدنا اياه (١٧٧) ويجب على من بلغ هذه المنزلة من الاخلاق أن يعرف مراتب المحبات

ثم يقع التكشف عنه أخطأ هو أم صواب فيكون الاجتهاد في الجواب منفردا والكشف عن الصواب مجتعا لان الانفراد في الاجتهاد اصعب والاجتماع على المناظرة ابلغ فهكذا هذا وينبغي أن سلم أهل الشورى من حسد أو تنافس فينعمهم من تسليم الصواب لصاحبه ثم يعرض المستشير ذلك على نفسه مع مشاركتهم في الارياء والاجتهاد فاذا انصفح أو قبل جميعهم كشف عن أصولها وأسبابها ويبحث عن نتائجها وعواقبها حتى لا يكون في الامر مقلدا ولا في الرأي مفوضا فانه يستفيد بذلك مع اريائنا صعبا الاجتهاد ثلاث خصال احدها من معرفة عقله وصحة رايته والثانية معرفة عقل صاحبه وصواب رايه والثالثة وضوح ما استبحرهم من الرأى وافتتاح ما أغلق من الصواب فاذا تقرر له الرأى أمضاه فلم يؤاخذهم بعواقب الاكداء فيه فانما على الناصح الاجتهاد وليس عليه ضمان النصح لاسيما والمقادير غالبية ومتى عرف منه تعقب المشرك وكل الى رايه وأسلم الى نفسه فصار فردا لا يعان برأى ولا بعد عشورة وقد قالت الفرس في حكمها اضعف الحيلة خبير من أقوى الشدة وأقل التأني خبير من أكثر الجحالة والدولة رسول القضاء والميرم وإذا استبد الملك برأيه عميت عليه المرشد واذا ظفر برأى من حامل لرايه للرأى أهلا ولا للشورى مستوجبا اغتمه عفو فان الرأى كالضالة تؤخذ أين وجدت ولا يهون لمهاته صاحبه فيطرح فان الدرة لا يسهها مهاته غائصها والضالة لا تترك لذلة واحد ها وليس براد الرأى لمكان المشير به فيرأى قدره وانما يراد لا تتفاد المستشير وأنشد أبو العيناء عن الاممعي النصح أرخص ما باع الرجال فلا * تردد على ناصح نصحها ولا تسلم

(٢٣ - أدب الدنيا) والخطا والمعاشر من توفية حقوقهم واعطائهم ما هو خاص بهم ومن غش المحبة والصداقة كان أموا حلا ممن غش الدرهم والدينار فان الحكيم ذكر ان المحبة المغشوشة تحل مريعا وتفسد وشيكا كما أن الدرهم والدينار اذا كانا مغشوشين فسد اسر مريعا وهذا واجب في جميع أنواع المحبات ولذلك يتعاطى العاقل أبدا عطا واحدا ويلزم منها واحد في ارادة الخير وبفعل جميع ما يفعله من أجل ذاته ويرى حيرة عند غيره كما يراه عند نفسه وأما صدقه فقد قلنا انه هو هو الا انه غير بالتحصن اما سائر محاطيه ومغارفه فانه يسلط بهم مسلطاً أو صدقائه كأنه محتدف أن يطلع بهم وفيهم منازل الصداقة بالحقيقة وان كان لا يمكن ذلك في جميعهم فهذه سيرة الخبير في نفسه وفي رؤسائه وأهله وعشيرته وأصدقائه وسلطانة في الشرير وأما الشرير برأيه يهرب من هذه السيرة ويغتر منها لراة الهيشة التي حصلت له ومحبة البطالة والتكاسل عن معرفة الخير والتميز بينه وبين الشريرين ما هو مقلدون عنده خبرا وليس بخير ومن كان على هذه الحالة من الشرور داء الهيشة كانت أفعاله كلها رديثة ومن كانت ذاته رديثة هرب من ذاته لاجل ان الرداء مهرب منها واضطر الى

صحة قوم يناسونه لفتى عمر معهم ويشغل بهم عن ذاته وما يحده فيها من الاضطراب والقلق ذلك ان هؤلاء الاشرا اذا خلوا بانفسهم تذكروا أفعالهم الرديئة وهاجت بهم القوى المتضادة التي تدعوهم الى ارتكاب الشرور المتضادة فيألمون من ذواتهم وتشاغب نفوسهم ككل الشغب وتجلبهم القوى التي فيهم وهي التي لم ير وضوها بالادب الحقيقي الى جهات مختلفة من الذات الرديئة وطلب النكرامات التي لا يستحقونها والشهوات الرديئة التي تهلكهم سر يعاذا جذبهم هذه القوى الى جهات مختلفة احدثت فهم الاما كثيرة لانه لا يمكن أن يفرح ويحزن معا ولا يرضى ويسخط في حال واحدة ولا يستطيع أن يؤلف بين الاضداد حتى تجتمع له فهو من شغائه يهرب من ذاته لانه رديئة فاسدة متألمة كثيرة الشغب عليه ويلتمس لعشرته ويخالفه من هو مثله أو أسوأ حاله لئلا يفتقد راحته وسكونه لانه لاجل المشكلة ثم يعود بعد قليل وبالأعلى وزيادة في خياله وفساده فيألم به ويهرب منه فليس له محب ولا ذاته ولا له نصيح ولا نفسه وليس يحصل الا على الندامة ولا يرجع الى الشقوة (١٧٨) الخير الفاضل * وأما الرجل الخير الفاضل فان سيرته جيدة محبوبه فهو

يحب ذاته وأفعاله ويسر بنفسه ويسر به أيضا غيره ويختار كل انسان هو اصلته ومصادقته فهو صديق نفسه والناس اصدقاؤه وليس بضاده الا الشرير فقط ويعرض لمن هذه سيرته أن يحسن الى غيره بقصد وبغير قصد وذلك أن أفعاله لذية محبوبة والذنب المحبوب مختار فبكثر المقبلون عليه وأنحفون به والآخذون عنه هذه هو الاحسان الثاني الذي يبقى ولا ينقطع ويتزايد على الايام ولا ينقص وأما الاحسان العريض الذي ليس بمطلق ولا هو سره لصاحبه فانه

ان النصائح لا تخفى منها جها * على الرجال ذوى الالباب والفهم ثم لوجه لمن تقر له رأى أن يبنى في امضائه فان الزمان غادر والفرص منتهية والثقة تجز وقيل الملك زال عنه ملكه ما الذي سلبك ملكك قال تأخري عمل اليوم لقد * وقال الشاعر اذا كنت ذارأى فكن ذاعزيمة * ولاتك بالترداد للرأى مفسدا فاني رأيت الى نيف العزم هينة * وانفاذ ذى الى أى العزيمة أرسدا ويتبين لمن أنزل مقولة المستشار وأحل محل النصائح المواد حتى صار مأمول النجح مرحبوا الصواب أن يؤدى حق هذه النعمة باخلاص السرية وبكافي على الاستسلام ببذل النصيح فقدر روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان من حق المسلم على المسلم اذا استنصحه أن ينصحه وير بما أبطره المشاورة فاجب برأيه فاحذره في المشاورة فليس للعجب رأى صحيح ولا روية سليمة ر بما شخ في رأى لعداوة أو حسد فدى أو مكر فاحذرا العدو ولا تثق بحسود ولا عذر لمن استشاره عدو أو صديق أن يكتم رأيا أو يقداس ترشد ولا أن يخون وقد أثبت * روى محمد بن المنكدر عن عائشة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال المستشار والمستشار مؤتمن * وقال سليمان بن ريد وأجب أخاك اذا استشارك ناهجا * وعلى أخيك نصيحة لا تردد ولا ينبغي أن يشير قبل أن يستشار الا فيما مس ولا أن يتبرع بالرأى الا فيما لم فانه لا ينفل من أن يكون رأيا متما أو مطر حافى أى هذين كان وصحة وانما يكون الرأى مقبولا اذا كان عن رغبة وطلب أو كان لباعث وسبب * روى أبو بلال الجعلى عن حذيفة بن اليمان

ينقطع ويحقق فيه اللوم والمجبة التي تعرض منه تلحق بالمجبات اللوامة ولذلك يوصى صاحبه بتريته فيقال له تربية الصنع أصعب من ابتدائها والمجبة التي تحدث بين المحسن والمحسن اليه يكون فيها زيادة ونقصان أعنى أن محبة المحسن للمحسن اليه أشد من محبة المحسن اليه للمحسن واستدل ارسطوطاليس على ذلك بان المقرض وصانع المعروف يتم كل واحد منهما عن أقرضه واصطنع المعروف عنده وبتعا هداها وما فحسان سلامتهما أما المقرض فربما أحب سلامة المقرض لكان الاخذ لا لكان المجبة أعنى أنه يدعو له بالسلامة والبقاء وسبوغ النعمة ليسل الى حقه وأما المقرض فليس يعنى كبر عناية بالمقرض ولا يدعو له بهذه الدعوات وأما مصطنع المعروف فانه بالحق الواجب يود الذى اصطنع اليه معروفه وان لم ينتظر منه منفعة ذلك ان كل صانع فعل جيد محمود يجب مصنوعه فاذا كان مصنوعه مستقما جيدا وجب أن تكون محبوبا في الغاية فبذلك أن محبة المحسن أشد من محبة المحسن اليه وأما المحسن اليه فشهوة للإحسان أشد وأز بمن شهوة المحسن وأيضا فان المجبة المكتسبة بالا احسان المرباة على طول

الزمان تجري مجرى القنيات التي تتعب بتحصليها فان ما يكتسب منها على سبيل الثمن والنصب تكون المحبة له أشد والضم به أكثر ومن وصل الى المال بغير تعب لم يكثر ثوبه ولم يشجع عليه وبذلك في غير موضعه كما يفعل الوراث ومن يجري مجراهم وأما من وصل اليه بتعب وسافر في طلبه وشق يجمعه فانه لا محالة يكون شديد الضم به والمحبة له ولهذا الغلة ضار الآم أكثر بحسبة للولد من الأب ويعرض لهما من الخنن والولة أضعاف ما يعرض للآب وهذا النوع من المحبة يحب الشاعر شعره ويحب به أكثر من أعجاب غيره وكل فاعل فعل يتعب به فهو يحب فعله وأيضا فان المتفعل لا يتعب كتعب الفاعل والآخذ متفعل والمعطي فاعل فمن هذه الوجوه يتبين أن مصطنع المعروف يحب من أحسن اليه حيا شديدا ومن الناس من يصطنع المعروف لأجل الخير نفسه ومنهم من يصطنعه لأجل الذكر الجميل ومنهم من يصطنعه رياء فقط ومن الذين أعلاه من تهم من صنعه لذاته أعني لذات الخير وصاحب هذه الرتبة لا يعرف الذكر الجميل والثناء الباقي ومحبة من لم يصطنع المعروف عنده وان لم يقصد ذلك الفعل (١٧٩) ولا بالنية ولما حكمنا فيما تقدم

حكما مقبولا لا يردده أحد
وهو أن كل انسان يحب
نفسه وكانت هذه المحبة
للمحالة تنقسم بالاقسام
الثلاثة التي ذكرناها
أعني اللذة والمنافع والخير
وجب من ذلك أن لا يوجد
من لا يميز بين هذه الاقسام
حتى يعرف الأفضل
فالأفضل منها فلا يدري
كيف يحسن الى نفسه التي
هي محبوبته فيقع في
ضروب من الخطأ لجهله
بالخير الحقيقي ولذلك صار
بعض الناس يختار لنفسه
سريرة اللذة وبعضهم سريرة
الكرامات والمنافع لانهم
لا يعرفون ما هو أفضل

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال قال لقمان لابنه يا بني اذا استشهدت فاشهد واذا
استعنت فاعن واذا استشرت فلا تجمل حتى تنظر * وقال يهيس الكلابة
من الناس من ان يستسرك ففتحه * له الراى يستغشك ما لا تبايه
فلا تمنن الراى من ليس أهله * فلا أنت محمود ولا الراى نافعه
الفصل الرابع في كتمان السر * اعلم أن كتمان الاسرار من أقوى أسباب النجاح
وأدوم لاحوال الصلاح * روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال استعينوا على
الحجرات بالكتمان فان كل ذى نعمة محسود * وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه
سرك أسيرك فان تكلمت به ضرت أسره * وقال بعض الحكماء لابنه يا بني كن جوادا
بالمال في موضع الحق ضيفا بالاسرار عن جميع الخلق فان أحمدا جودا لمرء الاتفاق في
وجه البر والبخل بمكثوم السر * وقال بعض الأدباء من كتم سره كان اختيارا اليه ومن
أشبهه كان اختيارا عليه * وقال بعض البلغاء ما أسرك ما كتمت سرك * وقال
بعض الفصحاء ما لم تنفيه الاضالع فهو مكشوف ضائع * وقال بعض الشعراء وهو
أنس بن أسيد

ولا تنفس سرك الا ليلك * فان لكل نصيح نصيحا
فاني رأيت وشاة الرجا * لا لاثير كون أدعاهم
وكم من اظهاسر اراق دم صاحبه ومنع من نيل مطالبه ولو كتمه كان من سطوته آمنا
وفي عواقبه سائلا وانجاح خواتمه راجيا * وقال أنوشروان من حصن سره فله

منها وأما من عرف سريرة الخير وعلو مرتبته فهو لا محالة يختار لنفسه أفضل السروا كرم الخبرات فلا تؤثر لذات البهيمية
والالذات الخارجة عن نفسه فانها عرضية كلها ومستحيلة وه فحالة لكنه يختار لها أتم الخبرات وأعلاها وأعظمها وهو الخير
الذي لها بالذات أعني الذي ليس بخارج عنها وهو الذي يقب الى جزئه الألهي ومن سار بهذه السيرة واختارها لنفسه فقد
أحسن النباه وأزله في الشرف الاعلى وأهلها لقبول الفضل الألهي واللذة الحقيقية التي لا تفارقه أبدا واذا كان بهذه الحال
فهو لا محالة يفعل سائر الخبرات الاخرى يتبع غيره بذل الاموال والسماحة بجميع ما ينشأ الناس عليه وبخس أصدقائه
من ذلك بكل ما يصيق عنه ذرع أصحاب السيرة الباقية فيصير معظما عند كل واحد ولا سيما عند صدقه وقد ينسأ فيما تقدم
ان الانسان مدني بالطبع وشرحنا معنى المدني فاذا بالواجب يكون تمام سعادته الانسانية عند أصدقائه ومن كان تمامه
عند غيره ففي الحال أن يصل مع الوحدة والتفرد الى سعادته التامة * فالاصدقاء * فالسعيد اذا من اكتسب
الاصدقاء واجتهد في بذل الخيرات لهم

ليكتسبهم ما لا يقدر ان يكتسبه لذاته فيلتزمهم أيام حياته ولتلتون أضيائه وقشر حنا حال هذه اللذة وانها باقية الهبة غير منحلة ولا متغيرة فهو لا في حيلة الناس قتلون جيداً وأما أصحاب اللذات الهيمية والنافع فيها فكثرون جداً وقد يكتفي من هؤلاء القليل كالاباز رقي الطعام وكان الخ خاصة وأما الصديق الاول الذي ذكرنا وصفه فلا يمكن أن يكون كثير العزلة ولا نه محبوب باقراط وافرط المحبة لا يصح ولا يمت الا واحد وأما حسن العشرة وكرم اللقاء والسبي لكل أحد بسيرة الصديق الحقيقي فبدول لاجل طلب الفضيلة ولا نأخذ قلنا فيما تقدم ان الرجل الخير الفاضل يسلك في عشرة معارفه مسلك الصديق وان لم يتم الصداقة الحقيقية فيهم وارسطوطا ليس يقول (ان الانسان يحتاج الى الصديق عند حسن الحال وعند سوء الحال فعند سوء الحال يحتاج الى معونة الاصدقاء وعند حسن الحال يحتاج الى المؤانسة والى من يحسن اليه) ولعمري ان الملك العظيم يحتاج الى من يصطنعه ويضع احسانه عنده كان الفقير من الناس يحتاج الى صديق يصطنعه ويضع عنده المعروف (١٨٠) قال (ومن أجل فضيلة الصداقة يشارك الناس بعضهم بعضاً ويتعارفون

عشرة جميلة ويجمعون في الرياضات والصيد والدمعوات) وأما سقراطيس فانه قال هذه الالفاظ (اني لا أكثر التعجب من يعلم اولاده اخبار الملوك ووقائع بعضهم بعض وذكرك الحسروب والضغائن ومن انتقم أو وثب على صاحبه ولا يحظر ساطعاً امر المودة واحاديث الالفة وما يخص من الخيرات العامة لجميع الناس بالحبسة والانس وانه لا يستطيع احدهم الناس أن يعيش بغير المودة وان مالت اليه الدنيا بجميع رغائبها فان ظن أحد أن امر المودة صغير

بخصيصه خصلتان الظفر بحاجة والسلامة من السطوات واظهار الرجل سر غيره أقيع من اظهار سر نفسه لانه يبيوه باحدى وصمتين الخيانة ان كان مؤثماً والنعمة ان كان مستودعاً فأما الضرر فربما استويا فيه أوتغاضوا وكلاهما مذموم وهو فيها ملوم وفي الاسترسال ببدء السر دلائل على ثلاثة أحوال مذمومة احدها ضيق الصدر وقلة الصبر حتى انه لم يتسع لسر ولم يقدر على صبر وقال الشاعر
اذا المرء أفضى سره بلسانه * ولا م عليه غيره فهو أحق
اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه * فصدر الذي يستودع السر أضيق
والثانية العقلية عن تحذر العقلاء والسهو عن نقطة الاذكياء وقد قال بعض الحكماء ان فرد بسرك ولا تودعه حازماً فيزل ولا جاهلاً فيخون والثالثة ما ارتكبه من الغرر واستعمله من الخطر وقد قال بعض الحكماء سرُّك من دمك فاذا تكلمت به فقد أرتقه واعلم ان من الاسرار ما لا يستغنى فيه عن معاملة صديق مساهم واستشارة ناصح سالم فلخير الماقل لسره أمانة ان لا يجد الى كتمه سبيلاً ويخفى اختياره من يأتمنه عليه ويستودعه اياه فليس كل من كان على الاموال أمانة كان على الاسرار مؤثماً والعفة عن الاموال أيسر من العفة عن اذاعة الاسرار لان الانسان قد يذيع سر نفسه بمبادرة لسانه وسقط كلامه ويشع البسر من ماله حفظاً للموضائه ولا يرى ما أضعاف من سره كبيراً في جنب ما حفظه من سريته ماله مع عظم الضرر الداخل عليه فمن أجل ذلك كان أمانة الاسرار أشد تعذراً وأقل وجوداً من أمانة الاموال وكان حفظ المال أيسر من كتم الاسرار لان أحوال

الاموال

فالصغير من ظن ذلك وان قدر انه موجود وبسر الخطب يدرك بالهو ينأى ما أصعبه وما أعسر وجوده صداقة يوثق بها عند البلوى ثم قال (لكني أعتقد وأقول ان قدر المودة وخطرها عشتى أعظم من جميع ذهب كنوز فارون ومن ذخائر الملوك ومن جميع ما يتنافس فيه أهل الارض من الجواهر وما تحو به الذهب واليا وحر اوما يعلون فيه من سائر الامتعة والاثاث ولا يعدل جميع ذلك ما اخترت لنفسى من فضيلة المودة وذلك ان جميع ما أحصيته لا يتبع صاحبه اذا حلت به لوعة مصيبة في صدقه ووافهم من الصديق ههنا انه آخر هو أنت سواء كان أخاً من نسب أو غيراً أو ولداً أو والداً أو لا يقوم له جميع ما في الارض مقام صديق يثق به في مهم يساعده عليه سعادة عاجلة أو آجلة تتم له فطوى لمن أوتي هذه النعمة العظيمة وهو خلو من السلطان وأعظم طوبى لمن أوتيته في سلطان ذلك ان من باشر أمور الرعية وأراد أن يعرف أحوالهم وينظر في أمورهم حتى النظر لن يكفه أذنان ولا عينان ولا قلب واحد فان يرعد اخواناً ذوي نفق وجدهم عيوناً واذناؤا قلوباً كانوا باجهم اله فقر يت عليه أطرافه واطلع من أدنى أمره

على أقصاه و رأى الغائب بصورة الشاهد فأنى توجده هذه الفضيلة الأغند الصديق وكيف تطمع فيها عند غير الرقيق
 الشفيق * كيف يختار الصديق * واذا قدر فنا هذه النعمة الجلية الخطيرة فيجب علينا أن ننظر كيف نقتنيها ومن
 أين نطلبها واذا حصلت لنا كيف نحفظها الثلاث يصيبنا فيها ما أصاب آل جل الذي ضرب به المثل حين طلب شاه سميعة
 فوجدها وارمة فاعتز بها وطن الورد سمنافا خذ الشاعر فقال
 ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم لاسيما وقد علمنا ان الانسان من بين الحيوان يتصنع حتى يظهر للناس منه ما لا حقيقة
 له فيبدل ماله وهو يحل ليقال هو جواد وبقدم بعض المواطن على بعض الخواف ليقال هو شجاع واما سائر الحيوان
 فان أخلاقها ظاهرة للناس من أول الامر لا يتصنع فيها وكذلك يكون حال من لا يعرف الحشائش والنبات فانها تنبت في
 عينه حتى يمتنازل منها شأ وهو يظنه حلوا فاذا اطعمه وجده مرورا بباطنه غدا فيكون مما في بطنه لنا أن نخذر ركوب
 الخطر في تحصيل هذه النعمة الجلية حتى لا نفع في مودة المؤمنين الخداعين (١٨١) الذين يتصورون لنا بصورة

الفضلاء الاخيار فاذا
 حصلوا في شياكم
 افترسوا كما تفرس السباع
 أكتبها * والطرق الى
 السلام من هذا الخطر
 بحسب ما أخذناه عن
 سقراطيس اذا أردنا أن
 نستفيد صديقا أن نسأل
 عنه كيف كان في صباه
 مع والديه ومع اخوته
 وعشيرته فان كان صالحا
 معهم فارج الصلاح منه
 والا فابعد منه وياك وياه
 قال (ثم اعرف بعد ذلك
 سيرته مع أصدقائه قبل
 فأضفها الى سيرته مع اخوته
 وآبائه) ثم تتبع أمره في
 شكر من يجب عليه شكره

الاموال المنيعة وأمر ازال اسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ويشيعها كلام سابق وقال
 عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه القلوب أو عية الاسرار والشفاء أفعالها واللسن
 مفاتيحها فليحفظ كل امرئ مفتاحه ومن صفات أمين السر أن يكون ذاعقل صاد
 ودين حليز ولا تصح مبدول ودمه فور وكتوم بالطلع فان هذه الامور تمنع من الاذاعة
 وتوجب حفظ الامانة فن كلف فيه فهو عتقا مغرب وقيل في منشور الحكم قلوب
 العقلاء حصون الاسرار وليحذر صاحب السر أن يودع سره من يتطلع اليه ويؤثر
 الوقوف عليه فان طالب الوديعه خائن وقيل في منشور الحكم لا تنكح خاطب سر
 وقال صالح بن عبد القدوس

لا تزع سرا الى طالبه * منك فاطالب للسر مذيع

وليحذر كثرة المستودعين لسره فان كثرتهم سبب الاذاعة وطريق الى الاشاعة لامرئ
 أحدهما أن اجتماع هذه الشروط في العدد الكثير معوز ولا بد اذا كثروا من أن يكون
 فهم من أحل يبعثها والثاني أن كل واحد منهم يحسب لئلا يفي الاذاعة عن نفسه وحالة
 ذلك على غيره فلا يضاف اليه ذنب ولا توجه عليه عتب وقد قال بعض الحكماء كلما
 كثرت خزان الاسرار ازدادت ضياعا وقال بعض الشعراء

وسرك ما كان عند امرئ * وسر الثلاثة غير الخفي

وقال آخر

فلا تنطق بسر كل سر * اذا ما جاز الاثنين فاش

أو كفره النعمة ولست أعني بالشكر المكافاة التي ربما عجز عنها بالفعل ولكن ربما عطلت منه في الشكر فلا يكفي بما
 يستطيع وبما يقدر عليه ويتغنم الجليل الذي يسدى اليه وراه حقه أو ينكاسل عن شكره باللسان وليس أحد يتدنر
 عليه نشر النعمة التي تتولا والثناء على صاحبها والاعتداله بها وليس شئ أشد احتياجا للنعم من الكفر وحسبك ما أعده
 الله لكافر نعمة من النعم مع تعالاه عن الاستضرار بالكفر * ولا شئ أجلب للنعمة ولا أشد تشبها لها من الشكر وحسبك
 ما وعد الله الشاكرين مع استغنائهم عن الشكر فتعرف هذا الخلق من تربوا خاتمة واحذر أن تبلى بالكفر النعم ولا تكن
 بالمتحرف لأفادى الاخوان واحسان السلطان * ثم انظر الى سبله الى الاحات وتباطئه عن الحركة التي فيها أدنى نصب فان
 هذا خلق رديء ويتبعه المسيل الى اللذات فيكون سببا للتقاعد عما يجب عليه من الحقوق ثم انظر نظرا شافيا في محبته
 للذهب والفضة واستانهته بجمعهما وحرصه عليهما فان كثيرا من المتعاشرين يتظاهرون بالمحبة ويتهادون ويتناصرون
 فاذا وقعت بينهم معاملتي هذين الجهرين من بعضهم على بعض هز بالكلاب وخروجوا الى ضرب العداوة ثم انظر في

محبة للرئاسة والتفرط فان من أحب الغلبة والترويس وان تفرط لا ينصفك في المودة ولا يرضى منك بمن لا يعطيك ويحمله الخلاء والتمتع على الاستماتة باصدقائه وطلب الترفع عليهم ولا تتم مع ذلك المودة ولا تحفظ ولا بد من ان تقو ول الحال بينهم الى الصداوة والاجتاد والاضغان الكثيرة ثم انظر هل هو ممن يستترى بالغناء والمجون وضرب اللهو واللعب وسماع المجون والمضاحيل فان كان كذلك فاشغله عن مساعدات اخوانه ومواساتهم وما أشدهر به عن مكافأة باحسان واحتمال النصب ودخول تحت جيل فان وجدته يرتأمن هذه الخلال فاحتفظ عليه ولترغب فيه ولتكف بواحد ان وجد فان السكال عز يزوايضافا من كثرت اصدقاؤه لم يف بمحقوقهم واضطر الى الاغضاء عن بعض ما يجب عليه والتقصير في بعضه وور بما تراءدت عليه أحوال متضادة اعني ان تدعوه مساعدة صديق الى ان يسر بسرره ومساعدة آخر ان يغم بغمه وأن يسعي بسعي واحد ويقعد بقعد آخر مع أحوال تشبه هذه كثيرة مختلفة ولا ينبغي ان يحملك ما حضرتك عليه (١٨٢) من طلب الفضائل من تصادفه على تتبع صفات عيوبه فتصير بذلك الى ان لا يسلم

لك احد فتبقى خلوا من ثم لو سلم من اذا عهت لم يسلم من ادلاهم واستطاع التهم فان لم تفر بسر من فرط الادلال والصديق بل يجب ان تغض وكثرة الاستطالة ما ان لم يحجزه عنه عقل ولم يكفه عنه فضل كان أشد من ذل الرق عن المعاييب السيرة التي لا يسلم من مثلها البشر وتظهر ما تجده في نفسك من عيب فتحتل مثله من غيرك واحذر عداوة من صادقه أو خالته أو خالطته بمخالطة الصديق واسمع قول الشاعر عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثر من العصاب فان الداء أكثر ما تراه * يكون من الطعام أو الشراب

لو قدرت على نسيان ما اشتملت * من الصلوع على الاسرار والنهر
لكنك أول من ينسى سريره * اذ كنت من شرها يوما على خطر
وحكى أن عبد الله بن طاهر تذاكر الناس في مجلسه حفظ السر فقال انه
ومستودعي سرا فتمت سره * فأودعته من مستقر الخشي قبرا
ولكنني أخفيته عنى كائني * من الدهر يوما ما أحطت به خيرا
وما السر في قلبي كيت بحفرة * لاني أرى المدفون ينتظر النشرا

الفصل الخامس في المزاح والضحك اعلم أن المزاح اذا حقن الحقوق ومخرجا الى القطيعة والعقوق بضم المازح ويؤذى المازح فوصمة المازح أن يذهب عنه الهيبة والبهاء ويجري عليه القنوط والسفهاء وأما ذية المازح فلانه معقوق بقول

آداب الصداقة

لذلك يجب عليك متى حصل لك صديق ان

تكثر من امانته وتبالي في تفقده ولا تستعين باليسير من حقه عند ملهم بعرض له أوجاد يحدث به فأما في أوقات الرخاء فينبغي ان تلقاه بالوجه الطلق والخلق الرحب وان تظهر له في عينك وحركاتك وفي هشا شئت وارتيادك عند مشاهدته اياك ما يزداد به في كل يوم وكل حال ثقة بعودتك وسكونك بالسلو ويرى السرور في جميع أعضائك التي يظهر السرور فيها اذا قبلك فان التحنى الشديد عند طلعة الصديق لا ينبغي سرور والسكول بالشكل أمر غير مشكل ثم ينبغي ان تفعل مثل ذلك بمن تعلم أنه يؤثره ويحببه من صديق أو ولد أو تابع أو عاشية وتنبى عليهم من غير اسراف يخرج بك الى الملقى الذي يعتقل عليه ويظهر له منك تكلف فيه واغاييم لك ذلك اذا خبت الصديق في كل ما تنبى به عليه والزم هذه الطر يقضى لا يقع منك ان فيها بوجهم الوجه وفي حال من الاحوال فان ذلك يجب

الحكمة الخاصة ونكسها الثقة التامة ويهدئك بحمة القرباء ومن لا معرفة لك به * وكان الحمام اذا ألف سوتنا وآنس
لجاسنا واطاف بها يحجب لنا أشكاله وأمثاله فكذلك حال الانسان اذا عرفنا واختلط بنا اختلاط الراغب فينا الانسان بنا
* بل يزيد على الحيوان الغير الناطق بحسن الوصف وجيل الثناء ونشر المحاسن * وأعلم ان مشاركة الصديق في السراء
اذا كنت فيها وان كانت واجبة عليك حتى لا تستأثرها ولا تختص بشئ منها فان مشاركتك في الضراء واجب وموقعها
عنده أعظم * وانظر عند ذلك ان اصابته نكبة أو لحقته مصيبة أو عثر به الدهر كيف تكون موااسا لك له نفسك ومالك
وكيف يظهر له تفقدك ومراعاتك * ولا تنتظر ان به أن يسألك تصريحا أو تترضا بل اطلع على قلبه واسبق الى ما في
نفسه وشاركه في مفضل ما لحقه ليخفف عنه * وان بلغت مرتبة من السلطان والنفى فأغس اخوانك فيها من غير امتنان
ولا تناول * وان رأيت من بعضهم بواعثك أو نقصا ناتما عهده فداخله بأدعة مداخله واختلط به واجتذبه اليك
* فانك ان أنفقت من ذلك أو تداخلت شئ من الكبر والصلف عليهم انتقص (183) حبل المودة وانكنت قوته

* ومع ذلك فليست تأمن
أن يزولوا عنك فستحس
منهم وتضطر الى قطعهم
حتى لا تنظر اليهم * ثم
حافظ على هذه الشروط
بالدائمة عليها تبقى المودة
على حال واحدة * وليس
هذا الشرط خاصا بالمودة
بل هو مطرد في كل ما
يصلك أعني أن هر كل بك
وملبوسك ومترك متى لم
تراعها مراعاة متصلة
فسدت وانتقضت * فاذا
كانت صورة حائطك
وسطوحك كذلك ومتى
غفلت أو تواتيت لم تأمن
تقوضه وتهدمه فكيف
ترى أن تحضون من ترجوه

كربه وفعل بمض ان أمسك عنه أحزن قلبه وان قابل عليه جانب أدبه خفق على
العاقل أن يتقيه ويتره نفسه عن وصية مساويه وقدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
قال المزاج استدراج من الشيطان واختداع من الهوى * وقال عمر بن عبد العزيز
اتقوا المزاج فانه حقة تورث ضغينة * وقال بعض الحكماء اغما المزاج سباب الأنا صاحبه
يصلك وقيل اغما ساسي المزاج حاله يزعج عن الحق * وقال ابراهيم الحنفي المزاج من سخط
أو بطر * وتيل في منثور الحكم المزاج يأكل الهيبة كئانا كل النار الخطب * وقال بعض
الحكماء من كثر مرضا حاله زالت هيئته ومن كثر خلافه طابت عينه * وقال بعض البلغاء من
قل عقله كثر هزله وذ كر خالدين صفوان المزاج فقال يصلك أحدكم صاحبه باسم من الجنادل
وينشق أحرق من الخردل ويضرغ عليه أحرق من المرجل ثم يقول اغما كنت أما زحك وقال
بعض الحكماء خير المزاج لا ينال وشرة لا يقال فنظمه السابوري في قصيدته الجامعة
للأدب فقال وزاد

شر مزاج المرء لا يقال * وخيره باصباح لا ينال
وقد يقال كثرة للزاح * من القى تدعو الى التلاحي
ان المزاج بدو حلاوه * لكما آخره عداوه
يحتسب منه ال جل الشريف * ويجتري بسخفه السخيف
وقال أبو نواس

خبل جنيتك رام * وأمض عنه سلام

من ترجوه لكل خير وتنتظر مشاركتك في السراء والضراء ومع ذلك فان ضرتك يختص بك بمغفلة واحدة * وأما صدقك
فوجه الضرر التي تدخل عليك بمغفلة وانتفاض مودته كثيرة عظيمة ذلك * أنه ينقلب عداوا وتقول منافعه مضارا
فلا تأمن غوائله وعدوانه مع عدمك الى غائب والمنافع به وينقطع رجاءك فيما لا تجد له خلفا ولا تستفيد عنه عوضا ولا يسد
مسده شئ * واذا راعيت شرطه وحافظت عليها بالدائمة أمنت جميع ذلك * ثم احذر المرء معه خاصة وان كان واجبا
أن تحذره مع كل أحد فان ممرارة الصديق يتقلب المودة من أصلها لانها سبب الاختلاف والاختلاف سبب التباين الذي هو
هر بناه منك ضده وقبحا أثره واختبرنا عليه الالف التي طلبناها وأثينا عليها وقتنا ان الله عز وجل دعانا الى الشريعة
القبوكة * واني لا عرف من يؤثر المرء بزعيم أنه قد خسر خاطره ويشهد ذهنه ويشركه فهو يتعمد في المحافل التي تجمع
رؤساء أهل النخلة ومتعاطي العلوم ممرارة صديقه ويخرج في كلامه معه الى الفاظ الجهال من العامة وسقاطهم ليزيد
خجل صديقه وليظهر انقطاع وتبلجه * وليس يفعل ذلك عند خلوة به وهذا كره له وانما يفعله حين يظن به أنه أدق نظرا

أو احضر حجة وأغزر علياً واحداً قريحة * فما كنت أشبهها إلا بالهال البقي وجبارة أصحاب الاموال والمشبهين بهم من أهل البدع * فان هؤلاء يستحقون بعضهم بعضاً ولا يزال يصغر بصاحبه وزبري على مروءته ويتقلب عوبه ويتبع عثراته ويسأل كل واحد فيما يقدر عليه من اعادة صاحبه حتى يؤديهم الخال الى العداوة التامة التي يكون معها السعاية وازالة النعم ونحو ذلك الى سفل الدم وأنواع الشرور * فكيف يثبت مع المراءجة ويرجي به الفته ثم احذر في صدقتك ان كنت متحققاً بعلم أو متحلياً بأدب أن تبخل عليه بذلك الفن أو يرى فيك انك تحب الاستبداد ودونه والاستئثار عليه فان أهل العلم لا يرى بعضهم في بعض مراء أهل الدنيا بينهم * ذلك ان متاع الدنيا قليل فاذا تراحم عليه قوم لم بعضهم حال بعض ونقص حظ كل واحد من حظ الآخر * وأما العلم فانه بالصد وليس أحد ينقص منه ما يأخذه غيره بل يزكو على النفقة ويرومع الصدقة ويزيد على الانفاق وكثرة الخرج فاذا بخل صاحب علم بعلمه فاذا ذلك لآحوال فيه كلها فبحجة وهي انه اما ان يكون قليل البضاعة منه فهو يخاف (١٨٤) أن يبقى ما عنده أو يرد عليه ما لا يعرفه فيزول تشرقه عند الجهال * واما

أن يكون مكسباً فهو يخشى أن يضيق مكسبه به وينقص خطه منه * واما أن يكون حسوداً والحسود بعيده من كل فضيلة لا يوده أحد * واني لا عرف من لا يرضى بان تبخل بعلم نفسه حتى يبخل بعلم غيره ويكثر عيبه ومخطئه على من لا يقدر غيره من السلامة المستحقين لفائدة العلم * وكثيراً ما يتوصل الى أخذ الكتب من أصحابها ثم منعهم منها * وهذا خلق لا تبق مع مودة بل يجب الى صاحبه عداوات لا يحسبها ويقطع الطماع اصدقائه من صداقته * ثم

متبداء الصمت خير * للثمن داء الكلام
انما السبيل لمن أجسم فاه بالجسام
ربما استفتح بالمز * ح مغاليتي الجمام
والمنايا آكلات * شاربات للانام

واعلم انه قلبا يعرى من المزاح من كان سهلاً فالعقل يتوخي عزاجه احدى حالتين لاثالث لهما احدهما اناس المصاحبين والتودد الى الخاطين وهذا يكون بما أنس من جيل القول ويسطم من مستحسن الفعل وقد قال سعيد بن العاص لانه اقتصد في مزاحك فان الافراط فيه يذهب البهاء ويحري عليك السفهاء وان التقصير فيه يفض عنك المؤانسين ويوحش منك المصاحبين والحالة الثانية أن يفتي بالمزاح ما طرأ عليه من سأم وأحدث به من هم فقد قيل لا بد للصدور ان يفتق * وأنشدت لابي الفتح البستي

أفد طبعك المكثود بالجذراحة * يحجم وعظه بشئ من المزح
ولكن اذا أعطيت المزح فليكن * بمقدار ما يعطى الطعام من الملح

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم عزم على هذا الوجه وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال اني لا مزح ولا أقول الأحقا في مزاحه صلى الله عليه وسلم ما روى ان عجزوا من الانصار أنه فقالت يا رسول الله ادع لي بالمغفرة فقال أما علمت أن الجنة لا يدخلها الجاهل فصرخت فتدسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أما قرأت قول الله عز وجل انا أنشأناهم انشاء فجعلناهم ابكاراً عرا بالآراء وأنته أخرى في حاجة لزوجه فقال لها ومن زوجك فقالت

أحذر أن تنسب بأمهاتك ومن يخلو بك من اتباعك وتحمل أخدامهم على ذكرك شي في نفسه * ولا ترخص في عيب شيء يتصل به فضلاً عن عيبه ولا تطعم من أحقر ذلك من أولي انسابك والمتصلين بك لاجناً ولا هزلاً وكيف تحتمل ذلك فيه وأنت عينه وقلبه وخليفته على الناس كلهم بل أنت هو فانه ان يلقه شيء بما حذرته منه لم يشك أن ذلك كان عن رأيك وهوائك فيقلب عدواً وينفر عنه نفور الرصد * فان عرفت منه أنت عيباً فوافقه عليه موافقة لطيفة ليس فيها غلظة * فان الطبيب الرقيق ربما يلج بالدواء اللطيف ما يبلغه غيره بالشق والقطع والكي بل ربما توصل بالتدواء الى الشفاء واكتفى به عن الجراحة بالدواء * ولست أحب أن تغضي عما تعرف في صدقتك وأن تترك موافقته عليه بهذا الضرب من الموافقة * فان ذلك خيانة منك ومسامحة فيما يودع رده عليه وليس من حق الصديق أن يعرف ويسذل بعيوب الاضداد حتى يعصوه ويثبوه * ثم احذر التهمة وسماها * وذلك أن الأمر ان يدخلون بين الأخبار في صورة النصيحة فيوهونهم النصيحة ويثقلون

اليهم في عرض الاحاديث اللذيذة اخبار اصدقاتهم محرقة بموهبة حتى اذا انحاسر واعلمهم بالحدث المختلق بصريحون لهم بما يفسد موداتهم ويشوه وجوه اصدقاتهم الى أن بغض بعضهم بعضا * وللقدماء في هذا المعنى كتب مؤلف مخزون فيهم من النعمة وبشبهون صورة النعام بمن يحل بأطافيره أصول البنين القوي حتى يؤثر فيها ثم لا يزال يزدوج حتى يدخل فيها المول فيقلعه من أصله * ويضربون له الامثال الكثيرة المشبهة بحدث الثور ومع الاسد في كتاب كاليه ودعنه * ونحن نكتفي بهذا القدر من الائمة لئلا نخرج عن رسم كتابنا وعما بيننا عليه مذهبا من الاجاز في الشرح * ولست أترك مع الاجاز والاختصار تعظيم هذا الباب وتكرره علينا لتعلم أن القدماء اغنا القوافيه الكتب وضربوا له الامثال وأكثر وافية من الوصايا وما وراءه من النفع العظيم عند السامعين من الاخيار ولما خافوه من الضرر والكثير على من يستهين به من الاغمار * ولعلم المثل المضروب في السباع القوية اذا دخل عليها الثعلب الر واغ على ضعفه اهلكها ودمرها * وفي الملوك الحصفاء يدخل بينهم أهل النعمة في صورة الناصحين حتى

المالعين في نصيحته
المتجدين في تثبيت ملكهم
الى أن تقضوا عليهم
ويصرفوا به عيونهم عنهم
ويصبروا من محبتهم
وأثارتهم على آباتهم
وأولادهم الى أن لا يعلوا
عيونهم منهم والى ان
يطشوا بهم قتلًا وتعذبا
وهم غير مذبذبين ولا
محترمين ولا مستحقين
الا الكرامة والاحسان
فاذابلغ بهم من الانساد
والاضرار ما يفسده من
هؤلاء فبالاخرى ان
يلغوه منا اذ لم يجدوه
في اصدقاتنا الذين
اخترناهم على الانام
وادخراهم للشدائد

فلان فقال لها الذي في عينه بياض فقالت لا فقال لي فانصرفت بحلي وزوجها وجعلت
تأمل عينيه فقال لها ما شئت فقلت أخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن في عيني
بياض فقال أما ترى بياض عيني أكثر من سوادها * وأتى رجل على بن أبي طالب رضى
الله عنه فقال اني احتلت على أمي فقال أقيموه في الشمس واضربوا ظله بالحدوس مثل الشهي
عن أكل لحم الشيطان فقال نحن نرمض منه بالكفاف وقيل له ما اسم امرأتك فليس لعنه
الله فقال ذلك نكاح ما شهدناه وقال رجل لفلان بك تعلم مني قال بطعاني فقال له أحسن
قليلا قال فاصوم الاثنين والجميس * وحكى عن أبي صالح بن حسان وكان محدثا أنه قال يوما
لأصحابه أفضه الناس وضاح اليمن في قوله

اذا قلت هاتي نوليني تسبرمت * وقالت معاذ الله من فعل ما حرم
فما نولت حتى تضربت عندها * وأبأ تهما رخص الله في القسم

فاما الخروج الى حد الخلاعة فهجنة ومذمة كالذي حكى عن أبي معاوية الضرير وكان
محدثا أنه خرج يوما الى أصحابه وهو يقول

واذا المعدة جاشت * فارمها بالجنين
بثلاث من نبيذ * ليس بالحلوا الرقيق

أما ترى كيف طرق بخلاعة التهمة على نفسه بهذا المزح فيما العله يرى منه وبعد عنه وقد
كان أبوهريرة رضى الله عنه مسترسلا في راحه * روى ابن قتيبة في المعارف أن من وان ربحا
كان يستخلفه على المدينة فيركب حمارا قد شد عليه بردعة فيسير فيلقى الرجل فيقول الطريق

(٢٤ - أدب الدنيا) وأحللناهم محل أو أرحناوزدناهم تفضلا وكراما * ويتبين لك من جميع ما قدمناه ان
الصدقة وأصناف المحبات التي تتم بها سعادة الانسان من حيث هو مدني بالطبع انما اختلفت ودخل فيها ضرب
الفساد وزال عنها معنى التآحد وعرض لها الانتشار حتى احتجنا الى حفظها والتعب الكثير بنظامها من أجل النقص
الكثيرة التي فينا واجتينا الى انماها مع الحوادث التي تعرض لئلا من الكون والفساد * فان الفضائل الخلقية انما
وضعت لاجل المعاملات والمعارشات التي لا يتم الوجود الانساني الا بها * ذلك ان العدل انما احتجج اليه بتصحيح
المعاملات ولينزول به معنى الجوار الذي هو رذيلة عند المتعالمين * وانما وضعت العفة فضيلة لاجل اللذات الرديئة التي
تحي الخيانات العظيمة على النفس والبدن * وكذلك الشجاعة وضعت فضيلة من أجل الامور الهائلة التي يجب أن
يقدم الانسان عليها في بعض الاوقات ولا يهرب منها وعلى هذا جميع الاخلاق المرضية التي وصفناها وحرصنا على
اقتنائها وايضا فان جميع هذه الفضائل تحتاج الى اسباب خارجة من الاموال واكتسابها من وجوهها يمكنه ان يفعل بها

فعل الاحرار والاعادى محتاج الى مثل ذلك ليجازى من عاشره بمجمل وكافى من عامله باحسان وجميعه بالاقوم بالايمان والانفس وما هو خارج عنها على حسب تقسيتها السعادات فيما مضى * وكلما كانت الحاجات كثيرة احتيج الى المواد الخارجية عنها كثر فلهذه حاله السعادات الانسانية التي لا تتم لنا الا بالافعال البدنية والاحوال المدنية وبالاغوان الصالحين والاصدقاء المحضين وهي كآزما كثيرة والتعب بها عظيم ومن قصر فيها قصرت به السعادة الخاصة به * ولذلك صار الكسل ومحبة الراحة من اعظم الرذائل لانهم لا يحولان بين المروءين جميع الخيرات والفضائل * ويسلخان الانسان من الانسانية * ولذلك نعمنا المتوسمين بالزهد اذا تفردوا عن الناس وسكنوا الجبال والمغارات واختاروا التوحش الذي هو ضد التمدن لانهم يتسلخون عن جميع الفضائل الخلقية التي عدناها كلها * وكيف يعف ونعدل ونسوخو ويشجع من فارق الناس وتفرغ عنهم وعدم الفضائل الخلقية * وهل هو الا بمنزلة الجاد والميت * وأما محبة الحكمة والانصراف الى التصور العقلي واستعمال الآراء ١٨٦

قد جاء الامير ورعاً في الصبيان وهم يلعبون لعبة الاعراب فلا يشعرون حتى يلقي نفسه بينهم ويضرب برجله فيفرع الصبيان فينفرون وهذا خروج عن القدر المستسمح به وبوشل أن يكون لهذا الفعل منه تأويل سائق وقد كان صهيب بن سنان من احاقفال له النبي صلى الله عليه وسلم أنا كل غراب لك رمد فقال يا رسول الله انما مضغ على الناحية الاخرى وانما استجاز صهيب أن يعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمرح في جوابه لان استخياره صلى الله عليه وسلم قد كان يتضمن المزح فاجابه عن استخياره بما يوافق مساعده لغرضه وتقر به من قلبه والافليس لاحداً يجعل جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم من حالان المزح هزل ومن جعل جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم المين عن الله عز وجل أحكامه المؤدى الى خلقه أو امره هزل ومن حافظ بعضى الله ورسوله وصهيب كان أطوع لله سبحانه وتعالى من أن يكون بهذه المنزلة فقد قال صلى الله عليه وسلم أنا سابق العرب وصهيب سابق الروم وسلمان سابق الفرس وبلال سابق الحبش ومن متحسّن المزح ومستمع الدعاة ما حكي الزبير ابن بكار عن الكندي أن القشيري وقف على شيخ من الاعراب فقال يا اعرابي ممن أنت فقال من عقيل قال من أى عقيل قال من بنى خفاجة فقال القشيري (رأيت شيخاً من بنى خفاجة) فقال الاعرابي ما شأنه قال (له اذاجن الظلام حاجة) فقال الاعرابي ما هي قال (كحاجة الديك الى الدجاجة) فاستعبر الاعرابي ضاحكاً وقال قال لك الله ما أعرفك بسرأثر القوم فانظر كيف بلغ بهذا المزح غيائته ولسانه نزه وعرضه مصون وهذا غاية ما يتسامح به الفضلاء من الخلعة وان كان مستكره الفحوى والغرامة من مثله أولى وليحذر أن يسترسل

الآفات التي تعرض للحيات الاخرى الخلقية وضروب الفساد * ولذلك قلنا انها لا تنقل النعمة ولا نوعاً من أنواع الشرور لانها الخسر المحض وسببها الخير الاول الذي لا تشوبه مادة ولا تلحقه الشرور التي في المادة * ومادام الانسان يستعمل الاخلاق والفضائل الانسانية فانها تعوقه عن هذا الخير الاول وهذه السعادة الالهية ولكن ليس يتم له الا بتلك ومن أشل تلك الفضائل بنفسه ثم اشغل عنها الفضيلة الالهية فقد اشغل بذاته حقاً ونجماً محاديات الطبيعة

والآلهة ومن محاديات النفس وقواها وصار مع الارواح الطيبة واختلط باللائكة المقربين فاذا انتقل من وجوده الاول الى وجوده الثاني حصل في النعم الابدية والسرور السرمدي هو رأى ارسطوطاليس في السعادة التامة وقد أطلق ارسطوطاليس جميع هذه الألفاظ وقال ان السعادة التامة الخالصة هي التي تعز وجل ثم لللائكة والملائكة * ثم قال ولا ينبغي أن يضاف الى الملائكة تلك الفضائل التي عدناها في سعادة الانسان فانهم لا ياملون ولا يكون عندنا حلمهم ودية فيحتاج الى ردّها ولا لاحتهم من فحارة فيحتاج الى العدالة ولا يفرغ عن شيء فيحتاج الى النجدة ولا له نفقات فيحتاج الى الذهب والفضة ولا له شهوات فيحتاج الى ضبط النفس والى فضيلة العفة ولا هو مرصوب من الاستقصاءات الاربعة التي تحصل في أزدادها فيحتاج الى الغذاء * فاذا هؤلاء الامرار المظهرين من بين خلق الله عز وجل غير محتاجين الى الفضائل الانسانية والله تعالى وتقدس وخيل أعلى من ملائكته فيجب ان نزهة عن جميع ما ذكرناه من فضائل الانسان وانما ذكره بالغرض البسيط الذي يشبهه ونسب اليه الامور

العقلية التي تليق به * فالحق الواجب الذي لا مزية فيه لا يحبه الا السعيد الخبير من الناس الذي يعرف السعادة والخير بالحقيقة فلذلك يتقرب اليهم ما جهده وطلب مرضاته بقدر طاقته وبقدر ما يستطاعه * ومن أحب الله تعالى هذه المحبة وتقرب اليه هذا التقرب وأطاعه هذه الطاعة أحبه الله وقربه وأرضاه واستحق خلته التي أطلقتها الشريعة على بعض البشر حيث قيل إبراهيم خليل الله * وأما أرسطو طاليس فإنه أطلق بعد ذلك بالعلم شيئا غير مطلق في لغتنا * وذلك أنه قال (من أحب الله وتعاهده كما تعاهد الاصدقاء بعضهم بعضاً أحسن اليه) ولذلك يظن بالحكيم الذات الجمية وضروب الفرح الغريبة يرى من تحقق بالحكمة أنها ملذذة غاية الالتذاذ فلا يلتفت الى غيرها ولا يعرج على سواها * وإذا كان الامر على ما وصفناه فالحكيم السعيد التام الحكمة هو الله تعالى فليس يحبه الا السعيد الحكيم بالحقيقة لان الشبيه انما يسر بشبيهه فقط * ولذلك صارت هذه السعادة أرفع وأعلى من تلك السعادة التي ذكرناها وهي غير منسوبة الى الانسان لانها مهذبة من الحياة الطبيعية مبرأة ١٨٧ من القوى النفسانية مهيأة

لجميعها غاية المباشرة وانما هي موهبة الهية يهبها الباري جل عظمته لمن اصطفاه من عباده ثم التمسها منه وسعى لها سعيها ورغب فيها وزمها مدة حياته واحتمل المشقة والتعب فان من لم يصبر على ادامة التعب اشتاق اللعب

والراحة البدنية ليست من أسباب السعادة * ذلك ان اللعب يشبه الراحة والراحة ليست من تمام السعادة ولا من أسبابها وانما يعمل الى الراحة البدنية من كان طبعه في الشكل يهيى

في جملة عذوبته فيحصل له طريقا الى اعلان المساوي وهو مجدوب بفتح له في التنسي مرضا وهو محقق * وقد قال بعض الحكماء اذا ما زحمت عذوك ظهرت له عيوبك وأما الفيلسوف فان اعتياده شاغل عن النظر في الامور المهمة مذهب عن الفكر في النوائب الملهة وليس لمن أكثر منه همة ولا وقار ولا لين وصم به خطر ولا مقدار * روى أبو ادريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياك وكثرة الفحل فانه يمت القلب ويذهب بنور الوجه * وروى عن ابن عباس في قوله تعالى ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ان الصغيرة الفحل وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه من كثرت فحكه قلت هيته * وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه اذا فحل العالم فحكه يجمع من العلم حجة وقيل في منشور الحكم فحكه المؤمن غفلة من قلبه والقول في الفحل كقول في المزاح أن تحبافا الانسان نقر عنه وأوحش منه وان ألفه كانت حاله ما وصفنا فليكن بدل الفحل عند الاناس تبسما * وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه التسمع دعابة وهذا أبلغ في الاناس من الفحل الذي هو قد يكون استهزاء وتعبا وليس ينكر منه المرة النادرة لطرائ استغفل النفس عن دفعه هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أملك الخلق لنفسه قد تبسم حتى بدت نواجذه وانما كان ذلك منه صلى الله عليه وسلم على الوجه الذي ذكرناه

الفصل السادس في الطيرة والقال * اعلم أنه ليس شيء أضرب بالرائي ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطيرة ومن ظن أن خوار بقرة أو نسيب غراب يرد قضاء أو يدفع مقدور أو فقد

التجار كالعبد والصبيان والمهائم فليس ينسب الحيوان غير الناطق ولا الصبيان والعبيد الى السعادة ولا من كان متأسبا لهم * وأما العاقل الفاضل فانه بطامهته أعلى المراتب * وأرسطو طاليس يقول (لا ينبغي أن تكون هم الانسان انسية وان كان انسانا ولا يرضى بهم الحيوان الميت وان كان هو بضاميتا بل يقصد بجمع قواه ان يحيا حياة الهية * فان الانسان وان كان صغيرا الجثة فهو عظيم بالحكمة شريف بالعقل والعقل يفوق جميع الخلائق لانه الجوهر الرئيس المستولى على هذا الكل بأمر مبدعه تعالى عنه) * وقد قلنا فيما تقدم ان الانسان ما دام في هذا العالم فهو محتاج الى حسن الحال الخارجية عنه ولكن ينبغي ان ينصرف الى طلب ذلك بقوته كلها ولا يطالب الاستكثار منه فقد يصل الى الفضيلة من ليس بكثير المال ولا ظاهر اليسار فان الفقير من المال والاملاك قد يفعل الافعال الكريمة * ولذلك قالت الحكماء ان السعداء هم رزقا القصد من الخيرات الخارجية عنهم وفعلوا الافعال التي تقتضيها الفضيلة وان كانت فيهم قليلة * هذا كلام الحكيم في هذه المرتبة التي وعدناك الكلام فيها وهو يقول بعد ذلك ليس في

معرفة الفضائل كفاية بل الكفاية في العمل بها * ومن الناس من يضاعف الى الفضائل ويتقاضي الموعظة ويرغب في الخبرات وهو لا يقللون وهم الذين يمتنعون من جميع الرذائل والشروء * وذلك القدر من الجيدة والطبع الجيد الفائق * ومنهم من يتقاضي الخبرات حتى يمتنع من الرذائل والشروء وبالوعيد والفرع والانتذارات من العذاب فهرب من المحيم والمأوئ وما أعدها من الآلام * ولذلك حكماؤنا ان بعض الناس آخيار بالطبع وبعضهم آخيار بالشرع وبالعلم * فالشرعية تجري لها ولا تجري الماء للانسان الذي به يسبغ غصته * ومن لا يتقاضيها فهو كالشرق بالماء * فلا يشرب الماء ولا يجده يسبغ غصته وهو الهالك الذي لا حيلة فيه ولا طمع في اصلاحه وورثه * ولهذا العلة قلنا * ان من كان بالطبع خيرا فاضلا فلا لحمة الله اياه وليس امره اليان ولا نحن كناسيه بل الله عز وجل * ومثل هذا هو الذي يقول فيه ارسطو طالتس ان عناية الله به اكبر * فيحصل مما قدمناه ان اصناف السعداء من الناس اربعة وهم موجودون بالتصقح والحس وذلك لاننا نجد من الناس من هو خير فاضل من مبداء تكونه (١٨٨) ترى فيه النجاة طفلا وتقر في الفلاحه تاشابان يكون حيا

كريم العظيم يؤثر بحالسة الاخيار ومؤانسة لفضلاء وينتفع من اصدقاءهم وليس يكون كذلك الا بعناية تلحقه من اول مولده كما قلناه * ونجد ايضا من لا يكون بهذه الصفة من مبداء تكونه بل يكون كسائر الصبيان الا انه يسمى ويجهل ويطلب الحق اذا رأى اختلاف الناس فيه ولا يزال كذلك حتى يبلغ مرتبة الحكماء اعني ان يصير علمه صحيحا وعمله صوابا * وليس يبلغ هذه الدرجة الا بالتفلسف واطراح العصبية وسائر

جهل وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر فالعدوى ما ينقله الناس من تعدى العلل والامراض فاخبر أنها لا تعدى فقبل بارسل الله ان ترى النقطة من الجرب في مشفر البعر فتتعدى الى جميعه فقال صلى الله عليه وسلم فما اعدى الاول وأما الهامة فهو ما كانت العرب في الجاهلية تعتقده من ان القاتل اذا طلع دمه فلم يدرك بئاره صاحته ماتت في القبر اسقوى * قال الزرقاني بن بدر يعنينا يا عمر وان لا تدع شتي ومنقصتي * اضر بلن حتى تقول الهامة اسقوى وقال ابراهيم بن هزمة وكيف وقد صار واعظا ما أقبرا * يصبح صداها بالعشي وهامها تفانوا ولم يبقوا وكل قبيلة * سرع الى ورد النساء كرامها وأما الصفر فهو كالحية يكون في الجوف يصيب الماشية والناس وهو اعدى عندهم من الجرب وفيه يقول الشاعر لا يمسك الساق من أين ولا تعب * ولا يعرض على شرسوفه الصفر وروى ابو هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا طنم فلا تحقروا واذا حسدتم فلا تبغوا واذا تطيرتم فامضوا وعلى الله فتوكلوا * وقال الشاعر طيرة الناس لا ترد قضاء * فاعذر الدهر لا تشبه بلوم أي يوم يخصه بسعد * والمنايا ينزل في كل يوم ليس يوم الاوفيه سعد * ونحوس تجرى لقرم وتوم

وما حذر نامته * ونجد ايضا من يوجد هذه السيرة اخذ على الاكراه * اما بالتأديب الشرعي واما بالتعليم الحكمي * ومعلوم ان المطلوب هو القسم الثاني اذا كانت الاقسام الباقية هي من خارج ولا يمكن ان تطلب اعني ان من يتفق له في اصل مولده السعادة ومن يكره عليها ليس من اقسام الطالب المجتهد وتبين ايضا مقام الطالب المجتهد ومزله من السعادة التامة الحقيقية وأنه وحده من بين سائر الطبقات هو السعيد الكامل المقرب الى الله عز وجل المحيا لمطالع المستحق خلته ومحبه * كما تقدم وصفه * المقالة السادسة * (دواء النفوس) نبتدى بعون الله ونوفيقه وتأيد في هذه المقالة بذكر شفاء الامراض التي تلحق نفس الانسان وعلاجها وذكر الاسباب والعلل التي تولدها وتحدث منها فان خذاق الاطباء لا يقدمون على علاج مرض جسماني الا بعد ان يعرفوه ويعرفوا السبب والعلل فيه ثم يرومون بمقابلته باضدادهم من العلاجات ويستدرون من الحمية والادوية اللطيفة الى ان ينتهوا في بعضها الى استعمال الاعذية بالكره والادوية البشعة وفي بعضها الى القطع بالحديد والكي بالنار * ولما كانت النفس قوة الهية

وقد

غير جسمانية وكانت مع ذلك مستعملة لمزاج خاص ومروطة به بإطاطيبيها إليها يفارق أحدهما صاحبه الابعثشة
الحاقيق عز وجل وجب أن نعلم أن أحدهما متعلق بصاحبه متغير بتغيره فيصح بحجته وعرضه ونحو ذلك
مشاهدة وعيانا بما يظهر لنا من أفعالها وذلك أنا كما ترى المريض من جهة بدنه لا سيما أن كان سبب مرضه أحد الجزئين
الشرعيين أعنى الدماغ والقلب يتغير عقله وعرض حتى ينكسر ذهنه وفكره وتغيره وسائر قوى نفسه الشريفة ويحس هو
من نفسه بذلك كذلك أيضا نرى المريض من جهة نفسه ما بال غضب وما بال حزن وما بال عشق وما بال شهوات الها نتيجة به
تتغير صورة بدنه حتى يضطرب ويرتعدو ويصفرو ويحمرو ويهزل ويسمن ويلتصق ضروب لتغير المشاهدة بالحس فيجب
لذلك أن نتفقد مبدأ الأمراض إذا كان من نفوسنا فإن كان مبدؤها من ذاتها كالغكر في الأشياء الرديئة وأحواله الرأى فيها
وكاستشعار الخوف والخوف من الأمور العارضة والمترتبة والشهوات الها نتيجة قصدنا علاجها بما يخصها وإن كان مبدؤها
من المزاج ومن الخواص كالخور الذي مبدؤها ضعف حرارة القلب مع (١٨٩) الكسل والرافية وكالعشق الذي

مبدؤها النظر مع الفراغ
والبطالة قصدنا أيضا
علاجها بما يخص هذه
وأيضا لما كان طب
الابدان ينقسم بالقسمتين
الأولى إلى قسمين أحدهما
حفظ بحيث إذا كانت
حاضرة والآخر ردها إليها
إذا كانت غائبة وجب أن
نقسم طب النفوس هذه
القسمتين بما فيها إذا
كانت غائبة ونقسم في
حفظ بحيث إذا كانت
حاضرة فنقول إذا كانت
خيرة فاضلة نحب تسلي
الفضائل ونحرم على
اصابتها ونشتاق إلى العلوم
الحقيقية والمعارف
الصحيحة فيجب على صاحبها

وقد كانت الفرس أكثر الناس طيرة وكانت العرب إذا أرادت سفرا نفرت أول طائر تلقاه
فإن طار عنة سارت وتمت وإذا طار سره رجعت وتشاءت فنهي النبي صلى الله عليه وسلم
عن ذلك وقال أفرو والطير على وكناها * وحكى عكرمة قال كنا جلوسا عند ابن عباس
رضي الله عنهم ما طائر يصيح فقال رجل من القوم خير فقال ابن عباس لا خير ولا شر *
وقال لبيد

لهمك ما تدرى الضروب بالخصى * ولا زحرات الطير ما الله صانع
واعلم أنه قلما يخلو من الطيرة أحد لاسيما من عارضته المقادير في إرادته وصدده القضاء عن
طلبته فهو يرجو والياس عليه أغلب ويأمل والخوف إليه أقرب فإذا عاقه القضاء وخانه
الرجاء جعل الطيرة عذريته وغفل عن قضاء الله عز وجل ومشيتته فإذا تطير أجمع عن
الالتزام ويش من الظفر وطن أن القياس فيه مطرد وأن العبرة فيه مستمرة ثم بصير ذلك له
عادة فلا ينجح له شيء ولا يتم له قصد فاما من ساعدته المقادير ووافقه القضاء فهو قليل الطيرة
لا تدامه ثقة بآثاره وتعو بالعل سعادته فلا يصده خوف ولا يكفه حزن ولا يؤب الأظفرا
ولا يعود الامنحجان ان الغم بالاقدام والخشية مع الاحجام فصارت الطيرة من سمات الاديان
واطراحها من أمارات الاقبال فينبغي لمن مني بها وبلى أن يصرف عن نفسه وسواها من التوكل
ودواعي الخشية وذرائع الحرمان ولا يجعل للشيطان سلطانا في نقض عزائمه ومعارضة خلقه
ويعلم أن قضاء الله تعالى عليه غالب وأن رزقه له طالب الآن الحركة سبب فلا يشبه عنها
ما لا يضرب مخلوقا ولا يدفع مقدورا وليض في عزائمه واثقا بالله تعالى أن أعطى وراضيا به أن

أن يعاشر من يجانسه ويطلب من يشاكله ولا يأنس بغيرهم ولا يحالس سواهم * ويحذر كل الحذر من معاشره أهل الشر
والمجون والمجاهرين بالصايات اللذات القبيحة وركوب القواحش المتفخرين بها المتهكمين فيها ولا يصني إلى أخبارهم مستطيا
ولا يروى أشعارهم مستحسننا ولا يحضر مجالسهم متهيجا وذلك أن حضور رجل من مجالسهم ومماخ خبر واحد من
أخبارهم يعلق من وضره ويحميه بنفسه ما لا يغسل عنها إلا بالزمان الطويل والعلاج الصعب وربما كان سببا لفساد
الفاضل المخلك وغواية العالم السبب حتى يصير فتنة لهما فضلا عن الحدث الناشئ المسترشد والعلة في ذلك أن محبة
اللذات الدنية والراحات الجسمانية طبيعة للإنسان لاجل النقائص التي فيه فحق بالجلبية الأولى والظفرة السابقة إليها
غلب إليها ونحصر عليها واغنازم أنفسنا عنها بزام العقل حتى نقف عندها بريم لنا ونقتصر على المقدار الضروري منها
* وانما استنبت في أول هذا الكلام وشرطت بمعاشر ط لآن معاشره لا صدقاء الذين ذكرت أحوالهم في المقالة المتقدمة
وحكمت بتعام السعادة معهم ولهم لاتم الألبان واسموا المداخلية * اللذة التي تطيقها الشريعة ولا ينف ذلك من المزاج

المستعذب والاحادث المستطابة والفكاهة المحبوبة واصابة الذناتى تطبيقها الشريرة وتقدرها العقل حتى لا يتجاوزها الى الاسراف فيها ولا يقصر عنها تهاونها بذلك ان الخرج الى أحد الطرفين ان كان الى جانب الزيادة سمي مجونا وفسقا وخلاعة وما أشبههما من أسماء الذم وان كان الى جانب النقصان سمي فدامة وعجوسا وشكاسة وما أشبههما من أسماء الذم أيضا والمتوسط بينهما هو الطريق الذى يوصف بالمشاشة والطلاقة وحسن العشرة يعرض من الصعوبة فى وجود هذا المتوسط ما يعرض فى سائر الفضائل الخلقية وما يؤخذ منه من يحفظ صحة نفسه ان يلزم وظيفة من الجزء النظرى والعمل لا يسوغ له الاخلال بها البتة لتجربى النفس مجرى الى باضة التى تازم فى حفظ صحة البدن وأطباء النفوس أشد تعظيما لها فى حفظ صحة النفس وذلك أن النفس متى تعطلت من النظر وعلمت الفكر والقوص على المعاني تملدت وتبلت وانقطعت عنها مادة كل خير واذألفت الكسل وتبرمت بالروية واختارت العطية قرب هلاكلها لان فى عطيتها هذه انسلاخا من صورتها الخاصة بها ورجوعها الى ١٩٠ رتبة البهائم وهذا هو الانسكاس فى الخلق نعوذ بالله منه واذ

تعود الحادث الناشئ من صدائكم به الارتياض بالأمور الفكرية ولازم التعالم الاربعه ألف الضيق واحتمل ثقل الروية والنظر وانس بالحق ونباطعه عن الباطل وسعته عن الكذب فاذا بلغ أشده وانتقل الى مطالعة الحكمة استمر طبعه فيها وتشرب ما يستودع منها ولا يرد عليه امر غريب ولا يحتاج الى تكبر تعب فى فهم غوامضها واستخراج دقائقها فيصل الى سعادتها التى ذكرناها سرى بها وان كان حافظ هذه الصفة قد توحى فى العلم وبرج فلا يحمله الجحى بما عنده على ترك

منه فقد روى أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فى الانسان ثلاثة الطيرة والظن والحسد فخرجه من الظن ان لا يرجع ومخرجه من الحسد ان لا يبغي وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال كفارة الطيرة التوكل على الله تعالى وقيل فى منثور الحكم الخيرة فى ترك الطيرة وليل ان عارضه فى الطيرة ريب وأخا صره فيها وهم ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من تغير قليل اللهم لا يأتى بالخيرات الا أنت ولا يدفع السيئات الا أنت ولا حول ولا قوة الا بالله وقد روى أن رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اتأخذنا دارا فكره فيها عدنا وكثرت فيها أموالنا ثم تحولنا عنها الى أخرى فقلت فيها أموالنا وقلت فيها عدنا فقال النبي صلى الله عليه وسلم ذروها فمى ذميمة وليس هذا القول منه صلى الله عليه وسلم على وجه الطيرة ولكن على طريق التبرك بما فارق وترك ما استوحش منه الى ما أنس به وأما القال ففيه تقوية للعزم وباعث على الجدة ومعوذة على الظرف فقد روى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزواته وحروبه وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع كلمة فاجبته فقال أخذنا فالك من فيك فينبى لمن تغال أن يتأول القال بأحسن تأويلاته ولا يجعل لسوء الظن على نفسه سبيلا فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ان البلاء موكل بالمتنطق روى أن يوسف عليه السلام شكالى الله تعالى طول الحبس فأوحى الله تعالى اليه يا يوسف أنت حبست نفسك حيث قلت رب السجن أحب الى ولو تلت العافية أحب الى لتوفيت وحكى أن المؤمن بن أمييل الشاعر لما قال يوم الحرة

الأزدياد فان العلم لانها به وفوق كل ذى علم علم ولا يتكاسل عن معاودة ما علمه والدرس له فان الشف النسيان آفة العلم وليند كقول الحسن البصري رحمة الله عليه (اقنعوا هذه النفوس فانها طامعة وحادثوها فانها شريرة الدور) واعلم ان هذه الكلمات مع قلته حروفها كثيرة المعاني وهى مع ذلك فصيحة واستوفت شروط البلاغة وليلم أيضا حافظ هذه الصفة على نفسه انه انما يحفظ عليها انها شربة حلية موهبة لها وكونها عظيمة مدخرة فيها ولا ينس فآخرة مفرغة عنها وان من كانت هذه المواهب الحلية موجودة له فى ذاته لا يحتاج الى تعظمها من خارج ولا الى بدل الاموال فيها لتفسيره ولا تكلف العناية والمؤن الثقيل فى تحصيلها ثم أعرض عنها وأهمل أمرها حتى انساع عنها وعزى منها الموم فى فعله مغبون فى رايه غير رشيد ولا موفق لاسيما وهو يرى طالبى النعم الخارجة كيف يتجشمون الاسفار البعيدة والخطرة ويقطعون السبل المخوفة والوعرة يتعرضون لضروب المكاره وأنواع التلف من السباع العادية وطبقات الاشرار الباغية وهم يخشون فى أكثر الاحوال مع مقاساة هذه الاحوال ورجوعهم الى المفرطة والخسرات المعطية التى

تقطع أنفاسهم وتفصل أعضائهم فإن ظفر وإنشئ من مطالبهم كان لا محالة أثلا عن قرب أو معر ضا للزوال وغير مطبوع في بقاءه لأنه من خارج وما كان خارجا عننا فهو غير مجتمع عما ينظره من الحوادث التي لا تخص كثرة وصاحبه مع هذه الحال شديد الوجدان والاشفاق متعب الجسم والنفس يحفظ ما لا يجد إلى حفظه سبيلا والحذر على ما لا يغني فيه الحذر قليلا وإن كان طالب هذه الأشياء الخارجة أسطنانا وصاحب سلطان تصانعت عليه هذه المكارة واضعافا كثيرة بقدر ما يلاسه وبحسب ما يقاسمه من الأعداء والحساد على البعد ومن القرب وبكثرة ما يحتاج إليه من المؤن في استصلاح من يليه ويلى من يليه من مداراة من يواليه وبعاده وهو في كل ذلك ملوم مستبداً ومعتب مستقمر ويستزده جميع أهله والمتصلين به ولا سبيل له إلى إرضاء واحد منهم فضلاً عن جميعهم ولا يزال يلفه عن أخص الناس به من أولاده وحمه ومن يجري مجراهم من حاشته وخوله ما علوه غيظاً وحقاؤه غير آمن على نفسه من جهتهم مع الحساد الذي بينهم من مكاتبه الأعداء إياهم وموآطئه الحسادهم وكلما ازداد من

زادوه في شغل القلب وحبوا إليه من المكارة ما لم يكن عنده فهو غنى عن الناس وهو أشدهم فقرا ومحمود وهو أكثرهم حسدا وكيف لا يكون فقيرا ووحيد الفقير هو كثرة الحاجة فأكثر الناس حاجة أشدهم فقرا كما أن أغنى الناس أقلهم حاجة ولذلك حكمنا حكما صادقا بأن الله تعالى أغنى الأغنياء لأنه لا حاجة له إلى شيء من الأشياء

﴿الملوك﴾

وقد حكمنا أيضا أن الملوك منا هم أشد الناس فقرا لكثرة حاجتهم إلى

شف المؤمل يوم الحرة النظر * ليت المؤمل لم يخلق له بصير عي فأناء آت في منامه فقال له هذا ما طلبت وحكى أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوم في المصنف فخرج له قوله تعالى واستغفروا خاب كل جبار عنيذ فخرق المصنف وأنشأ يقول
أقود كل جبار عنيذ * فها أنا ذاك جبار عنيذ
إذا ما جئت ربك يوم حشر * فقل يا رب مرفق الوليد
فلم يلبث إلا أياما حتى قتل شرقته وصب رأسه على قصره ثم على سور بلده فنعوذ بالله من البغي ومصارعه والشيطان وكأده وهو حسينا وعليه نوكلنا
﴿الفصل السابع في المروءة﴾ اعلم أن من شواهد الفضل ودلائل الكرم المروءة التي هي حلية النفوس وزيّناتهم فالمروءة مراعاة الأحوال التي تكون على أفضلها حتى لا تظهر منها قبيح عن قصد ولا يتوجه إليها ذم باستحقاق * روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من عامل الناس فلم يظلمهم وحدهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو بمن كملت مروءته وظهرت عدلته ووجبت أخوته وقال بعض البلغاء من شرائط المروءة أن يتعفف عن الحرام ويتصفف عن الآثام وينصف في الحكم ويكف عن الظلم ولا يطمع فيما لا يستحق ولا يستطيل على من لا يستحق ولا يعين قويا على ضعيف ولا يؤثر دينا على شريف ولا يسرم بغيره الوزر والآثم ولا يفعل ما يقع الذكر والاسم وسئل بعض الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة فقال العقل يأمر بالانفع والمروءة تأمر بالاجل ولن تجد

الأشياء ولقد صدق أبو بكر الصديق في خطبته حيث قال (أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك) ثم وصفهم فقال ابن الملك إذا ملأ زهد الله فيما في يده ورغب فيما في يده غيره وانتقصه شطر أجله وأشرب بقية الاشفاق فهو يحسد على القتل ويتسخط بالكثير ويسأم الرخاؤون انقطع عنه الذلة لا يستعمل الغيرة ولا يسكن إلى الثقة فهو كالدرهم الغش والسراب الخادع جدا فظاهره خير من الباطن فإذا وجبت نفسه ونضب عمره ونحى ظلمه حاسه فأشد حسابه وأقل عفو له لأن الملوك هم المرحومون) فهذه صفة الملك إذا تمكن من ملكه لا يتأخر منه شيئا ولقد سمعت أعظم من شاهدت من الملوك يستعيد هذا الكلام ثم يستعجلوا ففته ما في قلبه وصدقه عن حاله وصورته ولعل من يرى ظاهر الملوك من الاسرة والفرش والزينة والآثام ويشاهد هم في مواكبهم محفوفين بمشودين بين أيديهم الجنائب والمراكب والعبيد والخدم والحجاب والخشم يروعه ذلك فيظن أنهم مسرورون بما يراهم له لا الذي خلقهم وكفانا شغلهم أنهم في هذه الأحوال ذاهلون عما يراهم العبيد لهم مشغولون بالأفكار التي تغتورهم ويعتبر بهم فيما قلنا من

ضرورا تهتم وقد جربنا ذلك في السير مما ملكتنا على الكثير مما وصفناه ولعل بعض من يصل الى الملك أو السلطان
 فيلتذق المداومة بسيرة جدا فقد أرا متبكم منه وتفتتح عينه فيه لكنه بعد ذلك بصير جميع ما ملكه كالشيء الطبيعي له
 لا يلتذبه ولا يفكر فيه ويمد عينه الى ما لا يملكه فلم يملك الذي يباحذ فيه ما لم يكن دينا أخرى وأزوت عهته الى البقاء الأبدى
 والملك الحقيقي حتى يتبرج بجميع ما وصل اليه وبلغته قدرته ذلك ان حفظ الدنيا يصعب جدا لما في طبيعتها من الاخلال
 والتلاشي ولما يضطر الملك اليه من الامور التي وصفناها والاموال الجمة المصروفة الى الجنود المر تبطين والخدم
 المتسربين والذخائر والصكوك المصدرة للاثبات والحوادث التي لا يؤمن طرقها فهاهنا حال طلاب النعم الخارجية
 عنا وأما تلك النعم التي هي في ذواتنا فانها موجودة عندنا وفيها وهي غير مفارقة لنا لانها موهبة الخالق جل وعلا
 وقد أمرنا باستثمارها والستر في ما اذا قبلنا أمره أثمرت لنا نعمة بعد نعم ورفقتنا راحة بعد راحة حتى تؤدينا الى
 النعم الأبدية التي وصفناها فيما (١٩٢) تقدم وهو الملك الحقيقي الذي لا يزول والنعمة الأبدية

الصافية التي لا تحول فن
 أخسر صفقة وأظهر
 سقطة ممن أصاع جواهر
 نفيسة باقية عنده
 وموجودة له وطلب
 اعراضا خبيسة فانية
 ليست عنده ولا موجودة
 له فان اتفق أن يحمدها لم
 تنق له ولم تترك عليه
 وذلك انها تنقل عنه أو
 ينقل عنها الامالة

النعامة

لذلك قال الحكميم لمن
 رزق الكفاية ووجد
 القصد من السعادة
 الخارجة أن لا يستغل
 بفضول العيش فانها
 بلا نهاية ومن طلبها
 أوقعته في مهالك لانها تلهي

الاخلاق على ما وصفنا من حدا المروءة منطبعة ولا عن المراعاة مستغنية وانما المراعاة هي
 المروءة لاما انطبعت عليه من فضائل الاخلاق لان غرور الهوى ونزع الشهوة بصرفان
 النفس أن تترك الافضل من خلاقتها والاجل من طرائقها وان سلمت منها بعيدا تسلم
 الامن استكمل شرف الاخلاق طبعها واستغنى عن تهذيبها تكلفا وطبعها وقال الشاعر
 من لك بالمحض وليس محض * يحب بعض ويطلب بعض
 ثم لو استكمل الفضل طبعها في المعوز أن يكون مستكملا لكان في المستحسن من عادات
 دهره والموضوع من اصطلاح عصره من حقوق المروءة وشروطها ما لا يتوصل اليه الا
 بالمعانة ولا يوقف عليه الا بالتفقد والمراعاة فثبت أن مراعاة النفس على افضل احوالها هي
 المروءة واذا كانت كذلك فليس بمقاديرها مع ثقل كلفها الامن تسهلت عليها المشاق ورغبة في
 الحمد وهانت عليه الملائخ من الذم ولذلك قيل سيد القوم أشقاهم وقال أبو تمام الطائي
 والحمد لله لا يرى مشواره * يحينه الامن نقيع الخنظل
 غل الحامله ويحسبه الذي * لم يره عاقبه خفيف المحمل

وقل لخط المتنبى ذلك في قوله

ولا المشقة ساد الناس كلهم * الجود يقرر والاقدام قتال

وله أيضا

واذا كانت النفوس كبارا * تعبت في مرادها الاجسام
 والداعي الى استسهال ذلك شيان أحدهما علو الهمة والثاني شرف النفس أما علو الهمة

فانه

وقد علمناك فيما تقدم ما الكفاية وما القصد وان الغرض الصحيح بينهما هو مداواة الآلام والتحرر من الوقوع
 فيها لا التمتع وطلب اللذة وان من عاجل الجوع والعطش اللذين هما مضان مؤلمان حادان لا ينبغي له أن يقصد
 لذته البدنية بل يحتمل سبلت الذل لانه فان من طلب بالعلاج اللذة لا الصحة لم يحصل له الصحة ولم تنق له اللذة
 وأمن لم يرزق الكفاية وأحتاج الى السعي والاضطراب في تحصيلها فيجب ان لا يتجاوز القصد وقد
 حاجته منها الى ما يضطر منه الى السعي الحثيث والحرص الشديد والتعرض لقبائح المكاسب أو ضرر
 المهالك والمعاطب بل يحمل في طلبها اجمال العارف بحساسيتها وانه يضطر اليها لنقصانه فطلب منها كسائر
 الحسوانات في ضرورتها فان العاقل اذا تنصع أحوا لها وجد معها ما يأكل البيت ومنها ما يأكل الروث
 وما في الحش وهي مسرورة بما تجده من أوقاتها قربة العيون بها وليست تحس من نفوسها تقروا ولا تنصرف

نفوسها عنها كما تنصرف نفوس الحيوانات المضادة لها بل انما تنصرف من أقوات تلك الاخر التي تضادها في النطفة * مثال ذلك الجمل والخنثى اذا قست الى التحل فان تلك تهرب من الرايح الطيبة والاذوات النطيفة وهذا يظهرها ويسر بها * فاذن نسبة كل حيوان الى قوة الخاص به ككل مقتنع بما يحفظ بقاءه وحياته فهو طالب للمسرور به * فينبغي أن ننظر الى اقواتنا بهذه العين وننظر الى منزلة الحش الذي يضطر الى ملاسته لاخراج ما كنا نحصر على الوصول اليه فلا سعد هاهنا هذا الاخر لانهم ماضرون وان لا نفحن نلا بسهما لاجل الضرورة ولا تشغل عقلنا باختيارهما والتمتع بهما وافتاء أعمارنا في التائق لهما والتوصل اليهما ولا نتكاسل أبصاعن اعداد ضرورتنا تمامهما * وانما يفضل أحدهما على الآخر ويتحسن السعي في طلب الدخول ولا يستحسن السعي في طلب الخرج لان الاول منهما هو غذاء موافق لانا يخلف علينا ما نحلل من أبداننا ولا نستقدره كذلك لا نتمكن من ان نضعه مكان ما يتقص منه وينوب عنه * وأما الثاني منهما فهو عسارة ذلك الغذاء وما نفعه الطبيعة وأخذت حاجتها منه ١٩٣ أعني الذي أحالته دما ما فيا وفرقة في العروق على الاعضاء

واطرحت التفل الذي لا حاجة بها اليه وهو في غاية الخالفة والبعد من أمر جنتنا فحقن نستوحش منه ونهفر عنه لاجل الضدية والخالفة الا اننا مضطرون الى ابراجه وتحتيته ونفضه عنا بالآلات الموهوبة المستعملة في ذلك ليعرغ مكانه ما يأتي بعده ويحري مجراه وينبغي لحافظ الصحة على نفسه أن لا يحرك قوته الشهوانية وقوته الغضبية بتدكرا ما أصاب منهما موجد الذلة بل يتركهما حتى يتحركا بانفسهما وذلك ان الانسان ربما تذكر لذاته من

فلانه باعث على التقدم وداع الى التخصيص انفع من خول الضعة واستنكار المهانة النقص ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله يحب معالي الامور وشرافها ويكره دنياها وسفاسفها * وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لا تصفرن همكم فاني لم أر أفعدا من المكرمات من صغارهم * وقال بعض الحكماء الهمة راية الجند * وقال بعض البلغاء علواهم بذرائعهم * وقال بعض العلماء اذا طلب رجلان أمر اظفر به أعظمهم مروءة * وقال بعض الادباء من ترك التماس المعالي بسوء الحال لم يزل جسيما * وأما شرف النفس فان به يكون قبول التأديب واستقرار التقويم والتهذيب لان النفس ربما جحت عن الافضل وهي به عارفة ونفرت عن التأديب وهي له مستحسنة لانها عليه غير مطبوعة وله غير ملائمة فتصير منه أنف وزند والملائم أثر وقيل ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه واذا شرفت النفس كانت لا اذاب طالبة وفي الفضائل رغبة فاذا ما زجها صادف طبعها ملائمتها فني واستقر فاما من متى بعلا الهمة وسلب شرف النفس فقد صار عرضة لمر أعوزته آله وأفسدت به جهاته فصار كضرب روم تعلم الكتابة وما يؤخر من يريد الخطبة فلا يزيد الاجتهاد الا عجزا والطلب الاعوزا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ما هلك امرؤ عرف قدره * وقيل لبعض الحكماء من أسوأ الناس حاله من بعدت همته واتسعت امنيته وقصرت آله وقلت مقدرته * وقال افنون التغلي

ولا خير فيما يكذب المرء نفسه * وتقول له لشيء باليت ذالبا لعمرك ما يدرى امرؤ كيف يتقى * اذا هو لم يجعل له الله واقيا

(٢٥ - أدب الدنيا)

اصابة الشهوات وطبيها وحراب كرامته من السلطان وغيرها فاشتاقت اليها واذا اشتاق اليها تحرك نحوها فقد جعلها عرضة فيضطر الى استعمال الروبة واستخدام النفس الناطقة فيها لتدبر له الوصول اليها وهذه صورة من تأثيرها عادية ويخرج سباعا ضارية ثم يلتمس معالجتها والخلص منها * وليس يختار العاقل لنفسه هذه الحال بل هي من أفعال المجانين الذين لا يميزون بين الخير والشر ولا بين الصواب والخطأ * ولذلك يجب أن لا يتدكرا أعمال هاتين القوتين لئلا يشتاق اليهما ويتحرك نحوهما بل يتركهما فانهما سيثوران لا تنفسهما ويهجان عند حاجتهما ويلتسان ما يحتاج البدن اليه ويتخذان من باعث الطبيعة ما يغنيان عن بعثهما بالفكر والروبة والتميز فيكون حينئذ فكره وتغييره في اراحة عليهما وتقديرهما لطلقة لهما في الامرا الضرورية الواجب لابلاننا لحافظ لصلتهما * وهذا هو امضاء مشيئة الله تعالى وانما سياسة لانه تعالى وانما وهب هاتين القوتين لئلا نستغنى عنهما عند حاجتنا اليهما لا لخدمتهما وتبعدهما فكل من استعمل النفس الناطقة في خدمة عبدها فقد نجحوا زامر الله وتعدى حدوده وعكس

سياسته وتقديره * وذلك ان خالفنا عز وجل رتبنا هذه القوى بتدبيره وتقديره ولا عدل * أشرف وأفضل من ترتيبه وتقديره
 وكل من خالفه وعدل عنه فهو أعظم جوارح على ذاته وأكبر ظالم لنفسه * حافظ الصحة على نفسه * ينبغي لحافظ الصحة على
 نفسه أن يلبط نظره في كل ما يعمل ويدبر ويستعمل فيه آلات بدنه ونفسه ثلاثا يجري فيها على عادة تقدمت له مخالفة لما
 يوجب تمييزه ورويته فأكثر ما يعرض للإنسان من بدو أفعال مخالفة لما قدم فيه عزيمته وعقد عليه ربه في عرض له مثل
 هذا فيجب عليه أن يضع لنفسه عقوبات يقابل بها أمثال هذه الذنوب فإذا أنكر من نفسه مبادرة إلى طعام ضار وترك حبة
 قد كان استشعرها أو تناولها كونه غمرا فاقه أو حلوا كذلك لعاقب نفسه بصوم لا يقطار فيه الأعلى اللطيف مما يقدر عليه
 وأقله وإن أمكنه اللطيف فليطو ويزين في الحمية من غير حاجة إليه أو يمكن في توبخه لنفسه أن يقول لها إنك تصدت تناول النافع
 فتناول الضار وهذا فعل من لأقل له ولعل كثير من البهائم أحسن حالا منك لأنه ليس فيها ما تفصل لذته لها ثم تناول
 ما يؤهلها فاستسكى الآن العقوبة * ١٩٤ وإن أنكر من نفسه مبادرة إلى غضب في غير موضعها وأعلى من لا يستحقه

أوزيادة على ما يجب منه
 فليقابل ذلك بالتمريض
 لنفسه يعرفه بالبداء ثم
 ليحتملها وليتذلل لمن يعرفه
 بالخرصة بمن كان لا
 يتواضع له قبل ذلك أو
 ليفرض على نفسه مالا
 يخرجه صدقة ويجعل
 ذلك نذرا عليه لا يخل به
 * وإن أنكر من نفسه كسلا
 وتوانيا في مصلحة له
 فليعاقب نفسه بسبي فيه
 مشقة أو صلاة فيها طول
 أو بعض الأعمال الصالحة
 التي فيها كد وتعب وبالجملة
 فليرس على نفسه رسوما
 تصير عليها فرائض وحدودا
 لا يخل بها ولا يترخص فيها
 إذا أنكر من نفسه مخالفة

وقال بعض الحكماء تحببوا التي فانها تذهب بهجة ما خولتم وتستصعبون بها نعمة الله عليكم
 وقيل في منشور الحكم المني من بضائع النوك فان صادف بهيمته حظا ناله به أملا كان فيما ناله
 كالمغصب وفيما وصل اليه كالمقلب اذ ليس في الخطوط تقدير لحق ولا تمييز لحقيق وانما
 هي كالسحاب الذي عسل عن منابت الاشجار الى معائن البحار وينزل حيث صادف من
 خبيث وطيب فان صادف أرضا طيبة تقع وان صادف أرضا خبيثة ضر كذلك الخط ان
 صادف تقسا شريفة تقع وكان نعمة عامته وان صادف نفسا دنسة ضر وكان نقمة طامه * وحكي
 أن موسى بن عمران عليه السلام دعا على قوم بالعباد فاوحى اليه قد ملكت أسفلها على
 أعلاها فقال يارب كنت أحب لهم عذابا عاجلا فاوحى الله تعالى اليه وليس هذا كل
 العذاب العاجل الاليم فامأشرف النفس اذا تجرد عن علو الهمة فان الفضل به عاطل
 والتقدير به خامل وهو كالقوة في الجلد الكسل والحيات القسل تضعيف قوته بكسله وحلده
 بفشله * وقد قيل في منشور الحكم من دام كسله خاب أمه * وقال بعض الحكماء نكح الجحز
 التواني فخرج منها الندامة ونكح الشؤم الكسل فخرج منها الحرمان * وقال بعض
 الشعراء
 اذا أنت لم تعرف لنفسك حقها * هو انماها كانت على الناس أهونا
 فتفسد اكرهها وان ضاق مسكن * علمك لها طالع لنفسك مسكنا
 واناك والسكنى بمنزل ذلة * يصد مسيئا فيهم كان محسنا
 وشرف النفس مع صغرها الهمة أولى من علو الهمة مع دناءة النفس لان من علت همتهم مع

لعمقها وتحاول المرسومه * ولعذر في جميع
 أوقاته ملايسة رذيلة أو مساعده رقيق عليها أو مخالفة صواب ولا يستحقن شيئا يأتيه من صفات السيئات ولا يظن
 رخصة فيها فان ذلك يدعو الى أعظم مهناء ومن تعود في أول نشوه وجدان شابه ضبط النفس عن شهواتها عند ثورة
 غضبه وحفظ لسانه واحتمال أقرانه خف عليه ما يثقل على غيرهم لم يتأدب بهذه الآداب * وبیان ذلك اننا نجد العبيد
 وأشباههم اذا بلوا على سوء يسقون عليهم ويسبون أعراضهم ان عليهم الخطب فيما يسعون حتى لا يؤثر فيهم وزجا
 تضاحكوا عند سماع مكره شديد كغير متكلف يعملون عند ذلك أعمالهم ودعين طلقين غير قلقين وقد كانوا قبل
 ذلك شرسين غضوبين غير محتلمين ولا ممسكين عن الاجابة والانتقام بالكلام وطلب التشنج بالخصام * وهذه سبلنا اذا
 ألفنا الفضائل وتجنبنا الرذائل وأمسينا عن مقابلة السفهاء ومخاراتهم والانتقام منهم * ويجب على حافظ الصحة على نفسه
 أن يتشبه بالملوك الموصوفين بالخرم ظاههم يستعدون للاعلاء بالعدة والعطاء التحصن قبل هجوم العدو وهم في مهلة من

دناءة

زمانهم وفي اتساع من تنظرهم ولو أغفلوا ذلك إلى أن تحل بهم المكارة وتطرقهم الشدة ائذ لا ذلهم الأمر عن الحسنة وعن الرأي السديد * فعلى هذا الأصل يجب أن تنبئ أمورنا في الاستعداد لاعدائنا من الشره والغضب وسائر ما يزيلنا عن أغراضنا من الفضائل بأن نتعود الصبر على ما يجب الصبر عليه والحلم عن نبتى أن يحلم عنه ونضبط النفس عن الشهوات الرديئة ولا ننظر دفع هذه الرذائل وقت هيجانها فإن الأمر عند ذلك صعب جدا ولعله غير ممكن البتة معرفة المرء عيوب نفسه * ويجب على حافظ الصحة على نفسه أن يطلب عيوب نفسه باستقصاء شديد ولا يقنع بما قاله جالينوس في ذلك فإنه ذكر في كتابه المعروف بتعرف المرء عيوب نفسه * أنه لما كان كل إنسان يحب نفسه خفيت عليه معائبه ولم يرها وإن كانت ظاهرة * وأشار في كتابه هذا بأن يختار من يحب إن نرا من العيوب صديقا كاملا فاضلا فيضبره بعد طول المؤانسة أنه انما يعرف صدق مودته إذا صدقه عن عيوبه حتى يحبها ويأخذ عهده على ذلك ولا يرضى منه إذا قال له لا أعرف لك عيبا بل يشكر عليه ولعله أنه قد اتهمه بالخيانة ١٩٥ ويعاود مسئلته والاحتاج عليه

* فإذا لم يخبره بشئ من عيوبه زاد في الغيب الصريح والاحتاج قليلا فإذا أخبره ببعض ما عثر عليه منه فلا يظهر له في وجهه أو كلامه منكرة ولا انقباضا بل يسقطه وجهه و يظهر السرور بما أنوجه اليه ومنه عليه ويشكره على الأمان وفي أوقات المؤانسة ليتطرق له إلى اهدائه اليه ثم يعالج ذلك العيب بما يزيل أثره ويححو ظله ليعلم ذلك المهدي اليأس عيبا لنا من وراء نفسك وفي طريق علاج مرضك فلا يتقص عن معاودة ذلك ونصحتك

دناءة نفسه كان متعبا إلى طلب ما لا يستحقه ومتخطيا إلى التماس ما لا يستوجبه ومن شرفت نفسه مع صغر همته فهو تارك لما يستحق ومقصر عما يجب له وفضل ما بين الأمرين ظاهر وإن كان لكل واحد منهما من الذم نصيب * وقد قيل لبعض الحكماء أصعب شئ على الإنسان قال أن يعرف نفسه ويكنم الأسرار فإذا اجتمع الأمران واقترب بشرف النفس علو الهمة كان الفضل مما طاهر أو الأدب مما وافر ومشاق الجدبين مما سهلة وشروط المروءة بينهما متينة * وقد قال الحضيض بن المنذر الرقاشي إن المروءة ليس يدرها مرء * وزت المكارم عن أب فاضاعها أمرته نفس بالدناءة والحناء * ونهت عن سبيل العلا فاطاعها فإذا أصاب من المكارم خلة * يئسى الكريهها المكارم بأعها وأعلم أن حقوق المروءة أكثر من أن تحصى وأخفى من أن تظهر لأن منهما ما يقوم في الوهم حسا ومنهما ما يقتضيه شاهد الحال حلسا ومنهما ما يظهر بالفعل ويخفى بالتعاقل فلذلك أعوز استيفاء شروطها الاجلايتها للفاضل عليها بيقظته ونستدل العاقل عليها بفطرتها وإن كان جميع ما تضمنه كتابنا هذا من حقوق المروءة وشروطها وانما ذكر في هذا الفصل الأشهر من قواعد أو أصولها والأظهر من شروطها وحقوقها محصورا في تقسيم جامع وهو ينقسم قسمين أحدهما شروط المروءة في نفسه والثاني شروطها في غيره فأما شروطها في نفسه بعد التزامها بأوجب الشرع من أحكامه فيكون بسلاته أمور وهي العفة والزهادة والصيانة فأما العفة فتعني أحدهما العفة عن المحارم والثاني

وهذا الذي أشار به جالينوس معوز غير موجود ولا مطموع فيه ولعل العدو في هذا الموضوع أن يقع من الصديق فإن العدو لا يجتسمنا في أظهر عيوبنا بل يتجاوز ما يعرف منا إلى القرض والكذب فيباغت قلبه على كثير من عيوبنا من جهتها بل تجاوز إلى ذلك إن تهم نفوسنا على بس فيها * ولجالينوس أيضا مقالة يقول فيها أن خيار الناس ينتفعون بأعدائهم * وهذا صحيح لا يخالفه فيه أحد وذلك لما ذكرناه * فأما ما اختاره أبو يوسف بن إسحاق الكندي في ذلك فهو ما حاكمه بالقاطعة وهو هذا قال (ينبغي لطالب الفضيلة لنفسه أن يفحص صور جميع معارفه من الناس مرآة له ترى به صور كل واحد منهم عندما تعرض له الآلام الشهوات التي تهمر السيئات حتى لا يغيب عنه شئ من السيئات التي له * وذلك أنه يكون متفقد السيئات التي رأى سيئة ناديه من أحد من نفسه عليها كأنه هو فطها أو كثر عيبه على نفسه من أجلها أو يعرض عليها كل يوم وليست جميع أفعالها حتى لا يشغف عن شئ منها فإنه قبيح بنا أن نتخذ في حفظ ما نقصناه من الحجارة الدنيئة ولا مردا لها مدامة الفريية منا التي لا يتقصنا عدمها البتة في كل يوم ولا نحفظ ما ينفع من

ذواتنا التي بتوفيرها بقاؤنا وبقتضائها فناؤها فاذا وقفنا على سبيل من أفعالنا اشتد عدلنا لانفسنا عليها ثم لنقيم عليها حدا
نفرسه ولا نضعه فاذا تصفحنا أفعال غيرنا وجدنا فيها سبباً عاتياً ايضا نفوسنا عليها فان نفوسنا تر تدع حيث نضع
المساوي ونألف الحسنات وتكون المساوي أبدأ بنا لئلا ننساها ولا يأتينا عليها زمان طويل فيعني ذكرها * ولذلك ينبغي
أن نعمل في الحسنات لنفرغ اليها ولا يفوتنا منها شيء * قال وينبغي أن لا نتقطع بان نصبر أشيا بالدفاتر والكتب التي تفيد
غيرها معا في الحكمة وهي عادمة اقتنائها أو كما لم ينشعذ ولا يقطع بل نكون كالشمس التي تقيد القمر كلما أشرقت عليه
انارة من ذاتها فتفعل له تمام ما حتى يكون له شبهها وان تصرع نورها * فهكذا ينبغي أن يكون حالنا اذا أردنا غيرنا الفضائل
وهذا الذي ذكره الكندي في ذلك أبلغ مما قاله من تقدمه (المقالة السابعة) (رد الصحة على النفس)
رد الصحة على النفس اذ لم تكن حاضرة وهو القول في علاج أمراضها ونبتدئ بمعونة الله تعالى بذكر أجناس هذه
الامراض الغالبة ثم عداواة الأعظم ١٩٦
فالأعظم منها نكابة والاكثر فالأكثر جناية فنقول أما أجناسها

الغالبات فهي مقابلات
الفضائل الأربع التي
أحصيناها في مسدأ
الكتاب ولما كانت
الفضائل أوساطا محمودة
وأعيانا موجودة أمكن
أن تتطلب وتقصود تنهني
اليها الحركة والسعي
والاجتهاد * وأما سائر
النقط التي ليست بأوساط
فانها غير محدودة ولا أعيانها
موجودة ووجودها
بالعرض لا بالذات * ومثال
ذلك أن الدائرة فلها مركز
واحد ولها نقطة واحدة
ولها وجود في ذاتها يقصد
ويشار اليها فان لم نجد
حسب أو لم يكن لنا الإشارة
اليها أمكننا أن نستخرجها

العفة عن المآثم فاما العفة عن المحارم فنوعان أحدهما ضبط الفرج عن المحرام والشاف
كف اللسان عن الاعراض فاما ضبط الفرج عن المحرام فلا تتم مع وعيد الشرع وزاجر
العقل معرفة فاضحه وهتكة داخنة * ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم من وقى شر ذنبه
ولقلقه وبقبته فقد وقى يريذ يذنبه الفرج وبلقلقه اللسان وبقبته البطن * وروى عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال أحب العفاف الى الله تعالى عفاف الفرج والبطن وحكي أن
معاوية رضي الله عنه سأل عمر عن المروءة فقال تقوى الله تعالى وصلة الرحم وسأل المغيرة
فقال هي العفة فحارم الله تعالى والحرفة فيما أحل الله تعالى وسأل يزيد فقال هي
الصبر على البلى والشكر على النعمي والعفو عند القدرة فقال معاوية أنت مني
حقا * وقال أنوشروان لابنه هرمز من الكامل المروءة فقال من حصن دينه ووصل
رحمه وأكرم أخوانه * وقال بعض الحكماء من أحب المكارم اجتناب المحارم وقيل
عار الفضيحة بذكر لذاتها * وقد أنشدني بعض أهل الأدب للحسن بن علي رضي الله
عنها

الموت خير من ركوب العار * والعار خير من دخول النار
* والله من هذا وهذا جاري *

والداعي إلى ذلك شيان أحدهما ارسال الطرف والثاني اتباع الشهوة * وقد روى عن النبي
عليه السلام أنه قال لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه يا علي لا تتبع النظرة النظرة فان
الاولى لك والثانية عليك وفي قوله لا تتبع النظرة النظرة تأويلان أحدهما لا تتبع نظره

عينك

ونقم البرهان على أنها هي المركز دون غيرها من

النقط * وأما النقط التي ليست مركزا فلانها لا نهاية لها ولا وجود لها بالذات وانما توجد اذ فرضت فرضا وليست لها عين قائمة
فلذلك لا تقصد ولا يمكن استخراجها لانها مجهولة ولا نها شائعة في جميع الدائرة * وأما الطرفان اللذان يسميان متضادين
فهما موجودان معينان لانها طرفا خط مستقيم معين والبعدين منها غاية البعد مثال ذلك اننا اذا أخرجنا من مركز الدائرة
خطا مستقيما الى المحيط صار طرفا محدودين أحدهما المركز والأخرى يتبعها المحيط والبعدين منها غاية البعد * ومثاله
من المحسوس البياض والسواد فان أحدهما يضاد الآخر وهما محدودان موجودان والبعدين البياض من البعد فاما
التي بينهما فهي بلا نهاية وكذلك الألوان هي بلا نهاية * وأما أطراف الفضيلة فلما كانت أكثر من واحد لم تسم فضلا لأن
لكل ضد ضدا واحدا ولا يمكن أن توجد أضداد كثيرة لضد واحد والسبب في ذلك أن البعد بينهما غاية البعد وقد نجد
لفضيلة الواحدة أكثر من طرف واحد * وذلك اذا تصورنا الفضيلة مركزا وأخرى جناية خطا مستقيما فحصلت له

نهايه أمكننا أن نخرج من الجانب الآخر المقابل له خطأ آخر على استقامته فتصير أمتنا به أخرى وبصيران جميعا مقابلي
 للمركز الذي فرضناه فضيلة لأن أحد هما يجري مجرى الافراط والغلو الآخر يجري مجرى التفريط والتقتير * وأزقد
 فهم ذلك فليعلم أن لكل فضيلة طرفين محدودين يمكن الإشارة إليهما وأواسط بينهما كثيرة لانهاية لها ولا يمكن الإشارة
 إليها الآن الوسط الحقيقي هو واحد وهو الذي سميناه فضيلة ثم ليعلم أننا بحسب هذا البيان نجعل أجناس الشرور
 والذائل ثمانية لانها ضعف الفضائل الأربع التي تقدم شرحها وهي هذه * التهور والجبن طرفان للوسط الذي هو
 الشجاعة * والشرة والجود طرفان للوسط الذي هو العفة * والسفة والده طرفان للوسط الذي هو الحكمة * والجور
 والمهانة (أعني الظلم والانظلام) طرفان للوسط الذي هو العدالة * فهذه أجناس الأمور التي تقابل الفضائل التي هي
 صحة النفس وتحت هذه الأجناس أنواع لانهاية لها ونبدأ بذكر التهور والجبن الذين هما طرفا الشجاعة وهي فضيلة
 النفس وصحتها فنقول (والتهور والجبن) أن سبهما ١٩٧ ومبدأهما النفس الغضبية ولذلك

صارت الثلاثة بأسرها من
 علائق الغضب * والغضب
 في الحقيقة هو حركة
 للنفس يحدث بها غلبان
 دم القلب شهوة للانتقام
 فاذا كانت هذه الحركة
 عنيفة أصبحت نار الغضب
 وأضرمتها فاحتد غلبان
 دم القلب وأمتلأت
 الشرايين والدمماغ دغانا
 مظلما مضطربا يسوء منه
 حال العقل ويضعف فعله
 ويصير مثل الإنسان عند
 ذلك على ما حكته الحكماء
 مثل كنف ملي حريقا
 وأضرمت ناراً فاشتعل فيه
 اللهب والدخان وعلا
 التآنج والصوت المسمي
 وهي النار فيصعب

عينك نظرك قلبك والثاني لا تتبع الأولى التي وقعت سهوا بالنظرة الثانية التي توقعها عدا
 وقال عيسى بن مريم عليه السلام يا كم والنظرة بعد النظرة فانها تزرع في القلب الشهوة
 وكفي بها صاحبها فتنه * وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه العيون مصائد الشيطان *
 وقال بعض الحكماء من أرسل طرفه استدعى حقه * وقال بعض الشعراء
 وكنت متى أرسلت طرفك رائدا * لقلبك يوما أتعبتك المناظر
 رأيت الذي لا كله أنت قادر * عليه ولا عن بعضه أنت صابر
 وأما الشهوة فهي خادعة العقول وغادرة الألباب ومحسنة القبايح ومسؤلة الفضائح
 وليس عطب إلا وهي له سبب وعليه ألب ولذلك قال النبي عليه السلام أربيع من كن فيه
 وجبت له الجنة وحفظ من الشيطان من ملك نفسه حين يرغب وحين يرهب وحين
 يشتهي وحين يغضب وفقر هاعن هذه الأحوال تكون بثلاثة أمور أحدها غرض الطرف
 عن آثارها وكفه عن مساعدتها فاته إلى انداء المحرك والقائد المهلك * روى سعيدين سنان
 عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال تقبلوا إلى بست أتعلم اليك بالجنة
 قالوا وما هي يا رسول الله قال إذا حدث أحدكم فلا يكذب وإذا وعد فلا يخلف وإذا أثنى فلا
 يخون غصوا أبصاركم واحفظوا أفر وحم وكفوا أيديكم والثاني ترغيبها في الحلال عوضا
 واقناعها بالمباح بدلا فان الله ما حرم شيئا إلا وأغنى عنه بمباح من جنسه لما علمه من نوازع
 الشهوة وتركيب الفطرة ليكون ذلك عوناً على طاعته وحاجزاً عن مخالفته وقال عمر بن
 الخطاب رضي الله تعالى عنه ما أمر الله تعالى بشئ إلا وأعان عليه ولا نهى عن شيء إلا وأغنى

علاجه ويتعدا طفاؤه ويصير كل ما يدسه لطلاء سباز باده موادة لقوته * فلذلك سعى الإنسان عن الرشيد
 ويصم عن الموعظة بل تصير الموعظة في تلك الحال سببا للزيادة في الغضب ومادة للهب والتآنج وليس له في تلك الحال
 حيلة * وإنما يتفاوت الناس في ذلك بحسب المزاج فان كان المزاج حاراً يابساً كان قريباً للحال من حال
 الكبريت الذي إذا أدبت منه الشرارة ضعيفة التيب * وإن كان بالصدف حاله بالصدف وهذا في مبدأ أمره وعنفوان حركة
 الغضب به * فاما إذا احتدم فيك الحال يتقارب فيه وتصور ذلك من الخطب اليابس والرطب ومبدأ اشتعال النار بسرعة
 وشدة من الكبريت والنطف ثم المحذر منها ما إلى الأدهان المتوسطة إلى أن تنتهي إلى الاحتكاك فان الاحتكاك وإن كان
 ضعيفاً في أوله النار ترقى بما قوى حتى تلتهب منه الوجة العظيمة * وكفالك مثل السحاب الذي هو من الخارجين كيف يجتلك
 حتى تنفدح بينهما النيران وينزل منهما الصواعق التي لا تبت أثرها شي من المواد ولا يفارق ما يتعلق به حتى يقهر ريمما
 وإن كان جبلا أطلس وجرا أمم * وأما يقرطاس فانه قال في للسفينة إذا عصفت الريح وتلاطم عليها الأمواج وقد فنت

بها الى الحج التي كالحبال أرحى منى للفضبان المتهب وذلك ان السفينة في تلك الحال يلطف لها الملاحون ويخلصونها
بضرب الحبل وأما النفس اذا استشاطت غضبا فليس يرحى لها حيلة ألينة وذلك ان كل مارجى به الغضب من التضرع
والمواظاة والخضوع يصير له عزلة تجزل من الخطب ويوجهه ويبدد اشتعالا ما أسبابه المولدة له فهي الجب والافتقار
والمرء واللباج والمزاح وأتية الاستهزاء والغدر والضيم وطلب الأمور التي فيها لذة وتنقاس فيها الناس ويحاسدون
عليها وشهوة الانتقام غاية لجمعها لأنها باجمعتها تنتهي اليه ومن لواحقه الندامة وتوقع المجازاة بالعقاب عاجلا وأجلا وتغير
المزاج وتجلس الآلام وذلك أن الغضب جنون ساعة وربما أدى الى التلف باختناق حارة القلب فيه وربما كان سببا
لامراض صعبة مؤدية الى التلف ثم من لواحقه مقت الأصدقاء وشماتة الأعداء واستهزاء الحساد والازد من الناس
ولكل واحد من هذه الأسباب علاج يبدأ به حتى يقطع من أصله فأما اذا تقدمنا لحسم هذه الأسباب وأما طمأنينة فقد أوتينا
قوة الغضب وقطعنا ما دناها ١٩٨ وأساعا ثلثها فان عرض لنا منها عرض كان بحيث نطيع العقل ونلتزم

شرائطه وحدث فضيلته
أعنى الشجاعة فيكون
حيثما قد أمنا على ما تقدم
عليه كالحب ويحب
والمقدار الذي يجب وعلى
من يجب
الحب والافتقار
أما الحب فحقيقته اذا
حدته انه ظن كاذب
بالنفس باستحقاق مرتبة
هي غير مستحقة لها وحقيق
على من عرف نفسه ان
يعرف كثرة العيوب
والنقائص التي تغورها
فان الفضل مقسوم بين
البشر وليس يكمل الواحد
منهم بالفضائل غيره وكل
كانت فضيلته عند غيره
فواجب عليه ان لا يحب
بنفسه وكذلك الافتقار

عنه والثالث اشعار النفس تقوى الله تعالى في أوامره واتقاؤه في زواجره والزامها ما ألتزم
من طاعته وتخيرها ما حذر من معصيته واعلامها أنه لا يخفى عليه ضمير ولا يعزب عنه
قطمير وأنه يجازي المحسن ويكافئ المسيء وبذلك نزلت كتبه وبلغت رسله * روى ابن
مسعود أن آخر ما نزل من القرآن واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس
ما كسبت وهم لا يظلمون وآخر ما نزل من التوراة اذ لم تسخى فاصنع ما شئت وآخر ما نزل
من الانجيل شرا الناس لا يبالى أن يراه الناس عسنا وآخر ما نزل من الزبور من بزوع
خبر يا محمدا زرع غبطة فاذا أشعرها ما وصفت انقادت الى الكف وأذعبت بالانقاء فسلم
دينه وظهرت مروهه فهنا شرط وأما كفت اللسان عن الاعراض فلانه ملاذ السفهاء
وانتقام أهل الفرواغ وهو مستسهل الكف اذ لم يقهر نفسه عنه برادع كاف وزاجر صاذا
تلبط بمعاره وتخبط بمضاره وظن أنه لتخافى الناس عنه حتى يتقى ورته ترتقى فهلك وأهلك
فلذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لا أن دعاءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم حرام
عليكم جمع بين الدم والعرض لما فيه من ايقار الصدور وابداء الشرور واطهار البذاء
واكتساب الأعداء ولا يبقى مع هذه الأمور وزن لو موقوف ولا مروءة لمهوظ ثم هو بها
موقوف موزور ولا جملها مجبور مجبور وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال شر
الناس من أكرمهم الناس اتقاء لسانه وقال بعض الحكماء انما هلك الناس بفضول
الكلام وفضول المال وما قدح في الاعراض من الكلام نوعان أحدهما ما قدح في
عرض صاحبه ولم يتجاوز به الى غيره وذلك شيان الكذب وخس القول والثاني ما تجاوز به

فان الفخر هو المبالاة بالاشياء الخارجة عنا ومن باهى بما هو
خارج عنه فقد باهى بما اعمله وكيف علك ما هو معرض للآفات والزوال في كل ساعة وفي كل لحظة ولسانا على ثقة منه
في شيء من الاوقات واضح الامثال وأصدقها فيه ما قال الله عز وجل (واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من
أعنان) الى قوله (فأصبح قلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها) وقال تعالى (واضرب لهم مثلا الحياة الدنيا
كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تقروءه الى رياح وكان الله على كل شيء مقتدرا) وفي القرآن من
هذه الامثال شيء كثير وكذلك في الاخبار المروية عن النبي عليه الصلاة والسلام وأما المفخر بنسبه فأكرم ما دعيه اذا
كان صادقا ان أباه كان فاضلا فلو حضر ذلك الفاضل وقال ان الفضل الذي تدعي انك تستبد به دونك الذي عندك منه
بما ليس عند غيرك لأخفبه وأسكته وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا المعنى أخبار كثيرة صحيحة منها أنه قال
(لا تأتوني بأنسابكم واتقوا في أعمالكم) أو ما هذا معناه ويحكى عن مخلوق كان لبعض الفلاسفة أنه افتخر عليه بعض

الى

رؤساء زمانه فقال له ان افقرت على بفرسك فالحسن والفراة للفرس لآلئ وان افقرت بشبابك وآلائك فالحسن لها دونك وان افقرت بأهلك فالفضل كان فيهم دونك فاذا كانت الفضائل والحاسن خارجة عنك وأنت منسلخ عنها وقد ردناها على أصحابها بل لم تخرج عنهم فترد عليهم وأنت ممن يحقق ذلك ان شاء الله تعالى وحكي عن بعض الفلاسفة انه دخل على بعض أهل البسار والثروة وكان يشتد في الزينة ويقتخر بكثرة الآلة وقد حضرت الفيلسوف بصقة فتخرج لها والتفت في البيت وعينا وشمالا ثم صلى في وجهه صاحب البيت فلما عتبت على ذلك قال (اني نظرت اليك البيت وجميع ما فيه فلم أجد هناك أفجع منه فصقت عليه) وهكذا يستحق من كان خاليا من فضائل نفسه وافقرت بالخارجات عنه فاما المرء والنياح فقد ذكرنا فجع صورتهما في المقالة التي قبل هذه وما يولدانه من الشنات والفرقة والتباغض بين الاخوان والمزاح والتبوء والاستزاء * وأما المزاح فان المعتدل منه محمود وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم عرج ولا يقول الا حقا وكان أمير المؤمنين كثير المزاح حتى عابه بعض الناس فقال لولا دعاة فيه ١٩٩ ولكن الوقوف على المقدار المعتدل منه صعباً أكثر

الناس يتشدق ولا يدري
أين يقف منه فيخرج عن
حدود بروم الزيادة فيه
على صاحبه حتى يصير
سبباً للوحشة فيثير غضبا
كامنا ويزرع حقدًا باقيا
فلذلك عددناه في الاسباب
فينبغي ان يحذره من
لا يعرف حده و يذكر
قول القائل

رب جد حده اللعب
وبعض الحرب أوله مزاح
ثم يهيج فتنة لا يهتدي
لعلها وأما التبه فهو
قريب من الحب والفرق
بينهما ان المحب يكذب
نفسه فيما يظن لها والنياب
يبني على غيره ولا يكذب

الى غيره وذلك أربعة أشياء الغيبة والنميمة والسعاية والسب بقذف أو شتم وربما كان السب أنكها للقلوب وأظلمها أثرا في النفوس ولذلك نذر الله عنه بالحد تخطيا وبالنفسي تشديدا وتضعيفا وقد يكون ذلك لأحدثين اما انتقام بصدور عن سقاة وبذاءة يحدث عن لؤم * وقد روي أبو سلمة عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال المؤمن عرج كرم والقاجر خبث * وقال ابن المقفع الاستطالة لسان الجاهل وكف النفس عن هذه الحال بما يصدها من الزواجر أسلم وهو بذوي المروءة أجل فهذا شرط وأما العفة عن المآثم فتوعان أحدهما الكف عن المجاهرة بالظلم والثاني زجر النفس عن الاسرار بخيانة فاما المجاهرة بالظلم فتعزو مهلك وطغيان متلف وهو يزول ان استمر الى فتنة أو جلاء فأما الفتنة في الأغلب فحبيط لصاحبها وتنعكس عن البادئ بها فلا تنكشف الا وهما مصروع كما قال الله تعالى ولا يحق المكر السي الأباهله * وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الفتنة نائمة فمن أيقظها صار طعاما لها * وقال جعفر بن محمد الفتنة حصاد للظالمين * وقال بعض الحكماء صاحب الفتنة أقرب بشي أجيلا وأسوأني عملا * وقال بعض الشعراء وكنت كعنز السوء قامت لحفتها * الى مديته تحت الثرى تستثيرها وأما الجلاء فقد يكون من قوة الظلم وتناول مادته فيصير ظلمه مع المكنة جلاء وفناء كالنار اذا وقعت في بابس الشجر فلا تبقى معها مع تكتناشيها حتى اذا أفتت ما وجدت اضمحلت ونجست فكذلك حال الظالم مهلك ثم هالك والباعث على ذلك شيان الجراءة والقسوة ولذلك قال النبي عليه السلام أطلبوا الفضل والمعروف عند الرعا من أمتي تعيشوا في أكنافهم

نفسه الان علاجه علاج المحب بنفسه وذلك بان يعرف ان ما يتبه به لا مقدار له عند العقلاء وانهم لا يعتادون به لخناسة قدره ونزارة حظه من السعادة ولا نه متغزائل غير موقوف ببقائه ولان المال والآثا وسائر الاعراض قد تو جعت عند كل صنف من الناس الارائل والاشراف والجهال فأما الحكمة فليست تو حدا لا عند الحكماء خاصة وأما الاستنزاف انه يستعمل الجان من الناس والمساخر ومن لا يبالي بما يقابل به لانه قد وضع في نفسه احتمال مثل ذلك واضعافه فهو ضاحك قري العين بضرب الاستخفافات التي تلحقه وانما يعيش بالخول تحت المذلة والصغار بل انما يتعرض بقليل ما يشتد به لكثير ما يعامل به ليضحك غيره وينال اليسير من بره والخير الفاضل بعينه من هذا المقام جدا لانه يكرم نفسه وعرضه عن تعرضهما للسفاهة ويعبهما بجميع خزان الملوك فضلا عن الحقير النافة * العذر والضم * وأما العذر فهو جوهه كثيرة أعني أنه قد يستعمل في المال وفي الجاه وفي الحرم وفي المودة وهو على كثرة وجوهه مضموم بكل لسان ومعيب

عند كل أحد ينفر السماع من ذكره ولا يعترف به إنسان وإن قل خطئه من الإنسانية * وليس يوجد إلا في جنس من أجناس العبيد فيتوقاهم الناس ويأفئ منهم سائر أجناس العبيد * ذلك أن الوفاء الذي هو ضده موجود في جنس الخيشة والزم والنوبة * وقد شاهدنا من حسن وفاء كثير من العبيد ما لم نشاهده في كثير من المتهمين بالأحرار * ومن عرف فيج الغدر باسمه ونفورا العتلاء منه ثم عرف معناه فليس يستعمله إلا خص من له طبيعة حيدة أو قرأ ما تقدم في هذا الكتاب وتخلق به وانتهى في قراءته إلى هذا الموضع * وأما الضم فهو تكليف احتمال الظن والغضب وربما يعرض منه شهوة الانتقام وقد ذكرنا فيما تقدم الظلم والافتلام وشربنا الخال فيه ما * فنبغى أن لا نسرع إلى الانتقام عند ضم بلحقنا حتى نتظرفه ونحذر أن لا يعود علينا الانتقام بضرب أعظم من احتمال ذلك الضم * وهذا النظر والحذر هو استشارة العقل وهو الحلم بعينه * **المقتنيات والجواهر النفيسة** * وأما مطلب الأمور التي فيها عزة وتنافس فيها الناس فهو خطأ من الملوك والعظماء فضلا عن ٢٠٠ أوساط الناس * وذلك أن الملك إذا حصل في خزائنه علق كريمة

والصادع ذلك أن يرى آثار الله تعالى في الظالمين فإنه يفهم عبرا وتصور عواقب ظلمهم فإن فيها من ذم * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من أصبح ولم يظلم أحد غفر الله له ما أجترم * وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا علي أتق دعوة المظلوم فإنه أغما يسأل الله حقه وإن الله لا يمنع ذا حق حقه * وقيل في منشور الحكم ويل للظالم من يوم المظالم * وقال بعض البلغاء من جازحك ما أهل لك ظلمه * وقال بعض الشعراء

وما من بد إلا بد الله فوقها * ولا ظالم إلا سبى بظالم
وأما الاستسرار بالخيانة فضعفه لأنه بذل الخيانة مهين ولقلته الثقة به مستكين * وقد قيل في منشور الحكم من يخن يهن وقال خالد الزبيبي قرأت في بعض الكتب السالفة أن بما نجل عقوبته ولا تؤخر الأمانة تخان والاحسان وكفر والرحم تقطع والبنى على الناس ولولم يكن من ذم الخيانة إلا ما يجده الخائن في نفسه من المذلة لكفاه راجعا ولو تصور عقبي أمانته وجدوى فتنه لعلم أن ذلك من أرب بضائع جاهه وأقوى شفعاء تقدمه مع ما يجده في نفسه من العز ويقابل عليه من الاعظام * ودرى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أدا الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك * وروى سعيد بن جبيرة قال لما نزلت هذه الآية ومن أهل الكتاب من أن تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من أن تأمنه بدينار لا يؤده اليك إلا ما دمت عليه فأما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل يعنون أن أموال العرب حلال لهم لأنهم من غير أهل الكتاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذب أعداء الله ما من شيء كان في

أوجوه نفس فهو متعرض به للجرع عند قتله ولا بد من حلول الآفات به لما عليه طبيعة عالم الكون والفساد من تغير الأمور وأحوالها وإحلال الفساد على كل ما يدخر ويقتى * فإذا فقد الملك ذخيرة عزيزة الوجود تظهر عليه ما يظهر على الفجوع المصاب بما يعز عليه وتبين فقره إلى تظلمه الذي لا يجده فيطلع الصديق والممدوح على حزنه وكآبته * وحكمه بعض الملوك أنه أهدى إليه قبة بلور صافية عجيبة النقاء والصفاء حكمته الحظ قد اسفر حنا

الجاهلية

أساطين وصور خاطرها صانعها مرة بعد مرة

في تخليص النقوش والنقوش التي بين الصور والاراق فلما حصلت بين يديه كثير عجب معها وأعجاب بها وأمر فرقت في خاص خزائنه فلم يأت عليها كثر زمان حتى أصابها ما يصيب أمثالها من المتالف وبلغ الملك ذلك فظهر عليه من الأسف والجزع ما مته من التصرف في أموره والنظر في مهماته والجلوس لحضه وحاشته واجتهد الناس في وجود شيء يشبهها فتعذر عليهم فظهر أيضا من عجزه وامتناع مطلوبه عليه ما تضاعف به حزنه * وأما أوساط الناس فإنهم متى ادخروا آلة كريمة أوجوهها نفيسا أو اتخذوا شيء كوابرها أو ما شبه هذه الأشياء التمسها منه من لا يمكنه ردها فإن عجز عنها وبخل عليها اقتدر عرض نفسه ونعمته للبوراء * وإن سمع بها لحقه من القم والجزع ما كان مستغنيا عنه * وأما الأبحار المتنافس فيهمان البواقي وأشباهاها بما تبعدها الآفات في أنفسهم فليس تبعدها الآفات الخارجة عنها من السرقة ووجوه الخيل فيها وإذا ادخرها التملك انتفاعها بعنده حاجته إليها ورى بما عدا الانتفاع بها فذم * ذلك أنه إذا

اضطر اليها لتفقه في عاجل أمره وحاضر ضرره والمالك * وقد شاهدنا أعظم الملوك خطرا في عصرنا لما احتاج اليها بعد فناء أمواله ونفاد ما في خزائنه وقلاعه لم يجد شيئا ولا قريبا من ثمنها عند أحد ولم يحصل منها الا على الفضيحة في حاجته الى رعيته في بعض قيتها وهو لا يقدر على قليل ولا كثير من أثمانها ٢٠١ وهي مبذولة مبتذلة في أيدي

الدلائل والتجار والسوقة يتجشون منها ولا يقدر على ثمنها من قدرتهم على ثمن شيء منها لم يتجاسر عليها خوفا من تنبئه بعد ذلك وظهور أمره وانزعاجها منه * فهذه حال هذه الذخائر عند الملوك * اما التجار الموصوفون بهذه الصناعة فربما اتفق لهم زمان صلاح وسكون من الرؤساء وأمن في السرب وحيث تكون بضاعتهم شبيهة بالكاسدة لانها لا تتفق الا على الملوك الودعين الذين لا يحزنهم شيء من نوائب الدهر وقد استمر بهم انخفضت وفضلت أموالهم عن الخزانة والقلاع حيث يفترون بالزمان فيقعون في مثل هذه الخسائر ثم يقولوا عاقبتهم الى ما حذرنا منه

الجاهلية الا وهو تحت قدمي الالامانة فانها مؤداة الى البر والفساد ولا يحصل ما يتظاهر به من الامانة نورا ولا ما يبديه من العفقر ورأيت من الزور ويكشف الغرور فيكون مع هتكه للتدليس أقيع ولعبر الى بلاء افصح * وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا تزال أمتي بخير ما لم تر الالامانة مغتصبا والصدق مغرما * وقال بعض الحكماء من التمس أربع ارباع التمس ما لا يكون * من التمس الجزاء بالباء التمس ما لا يكون ومن التمس مودة الناس بالغلظة التمس ما لا يكون ومن التمس وفاء الاخوان بغير وفاء التمس ما لا يكون ومن التمس العلم براحة الجسد التمس ما لا يكون والذاعي الى الحيانة شيطان المأثم وقلة الامانة فاذا جسيهما عن نفسه بما وصفت ظهرت مروءته فهذا شرط قد استوفينا فيه أقسام العفة * وأما النزاهة فنوعان أحدهما النزاهة عن المطامع الدنية والثاني النزاهة عن مواقف الريبة فاما المطامع الدنية فلان الطمع ذل والدناءة لؤم وهما أدفع شيئا للرؤية وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه اللهم اني أعوذ بك من طمع يهدي الى طمع * وقال بعض الشعراء

لا تخضعن لمخلوق على طمع * فان ذلك نقص منك في الدين

واسترزق الله بما في خزائنه * فاعاوهين الكاف والنون

والباعث عن ذلك شيطان الشره وقلة الثقة فلا يقنع بما أوفى وان كان كثير الاجل شره ولا يستكشف مما منع وان كان حقيق القلة أنفسته وهذه حال من لا يرى نفسه قدرا ويرى المال أعظم خطرا فيرى بذل أهون الامرين لا جلهم ما غمما وليس لمن كان المال عنده أجل ونفسه عليه أقل اصغاء لتأنيب ولا قبول لتأديب * وروي أن رجلا قال لبارس رسول الله أوصني قال عليك بالياس مما في أيدي الناس وياك والطمع فانه فقر حاضر واذا صليت صلاة فصل صلاته مودع وياك وما يعتذر منه * وقال بعض الشعراء

ومن كانت الدنيا مائة وهمه * سبته المني واستعبده المطامع

وحسم هذه المطامع شيطان اليأس والقلاعة * وقد روي عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستوفى رزقها فاتقوا الله وأجروا في الطلب ولا يحملنكم الباطل الى رزق على أن تطلموه بمعاصي الله تعالى فان الله عز وجل لا يدرك ما عنده الا بطاعته فهذا شرط * واما مواقف الريبة فهي التردد بين منزلتي جدوزم والوقوف بين حالتني سلامة وسقم فتتوجه اليه لائمة المتوهمين ويناله ذلة المرتين وكفى بصاحبها موقفا ان صح افتضخ وان لم يصح امتن وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم دع ما يريك الى ما لا يريك وسئل محمد بن علي عن المروءة فقال ان لا تعمل في السر علانية منه في العلانية وقال حسان بن أبي سنان ما وجدت شيئا هو أهون من

(٢٦ - أدب الدنيا) لا ينبغي ان نسميها بماء المديح * واعني بذلك ان قوميا يسمون هذا النوع من الجور أعني الغضب في غير موضعه رجولية وشدة شكية يذهبون به مذهب الشيعة التي هي بالحقيقة اسم للحد وشان ما بين المذهبين * فان صاحب هذا الخلق الذي ذمناه تصدع عنه أفعال رديئة كثيرة يجوز فيها على نفسه ثم على اخوانه

ثم على الأقرب فالأقرب من معامليه حتى ينتهي إلى عبده وإلى حرمه فيكون عليهم سوط عذاب ولا يقلهم عشرة ولا يرحم لهم عبدة وإن كانوا أبراء من الذنوب غير مجترمين ولا مكشسين سوابل يجرم عليهم ويهيج من أدنى سبب يجذب به طريقاً إليهم حتى يسطر سانه ويده وهم (٢٠٢) لا يمتنعون منه ولا يجاسرون على رده عن أنفسهم بل يذعنون

له ويقسرون بذنوب لم يقرقوها استكفاً فالشره وقسكيناً الغضبه وهو مع ذلك مستمر على طريقته لا يكف بدا ولا لساناً وربما تجاوز في هذه المعاملة أناس إلى البهائم التي لا تعقل وإلى الآفات التي لا تحس * فان صاحب هذا الخلق الذي ربما قام إلى الجمار والبرذون وإلى الجمار والصغور فيتناولها بالضرر والمكره وربما عض القفل اذا تمسرع عليه وكسر الأنما التي لا يحجبها طاعة لأمره * وهذا النوع من رداء الخلق مشهور في كثير من الجبال يستعملونه في الشوب والزجاج والخدود سائر الآلات * اما الملوك من هذه الطائفة فانهم بغضوب على الهواء اذا هب مخالفا هواهم وعلى القلم اذا لم يجبر على رضاهم فيسبون ذلك ويكسرون هذا وكان بعض من تقدم عهده من الملوك يغضب على البحر اذا تأخرت سفينة فيه لاضطراره وحركة الأمواج حتى يهدده بطرح الجبل

فيه وطعمها * وكان بعض السفهاء في عصرنا يغضب على التمر ويسبه ويهجو كسبه بشره مشهور * وذلك انه كان يتأذى به اذا تأمل في هذه الأفعال كلها فيجدها بعضها مع فهم مضحك يهزأ بصاحبه فكيف يدحرج بال جولية والسدة وشرف النفس وعزتها وفي بالمذمة والفضيحة أولى منها بالمدح وأي حظ لها في العزة

الورع قيل له وكيف قال اذا اربقت بشئ تركته والذاعي إلى هذه الحال شيان الاسترسال وحسن الظن والمانع منها شيان الحياء والحذر وربما انتفت إلى به بحسن الثقة وارتفعت التهمة بطول الخبرة * وقد سكت عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه رأى بعض الخواريين وقد خرج من منزل امرأته ذات خمر فقال يا رب الله ما تصنع هنا فقال الطبيب اغما يداوى المرضى * ولكن لا ينبغي أن يجعل ذلك طرقة إلى الاسترسال وليكن الحذر عليه أغلب وإلى الخوف من تصديق التهم أقرب فكل ريبه يقيها حسن الثقة هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أبعد خلق الله من الريب وأصونهم من التهم وقف مع زوجته صفية ذات ليلة على باب مسجد لم يجد فيها وكان معتكفاً فبر به رجلان من الانصار فلما رأاه أسرع فقال لهما على رسلكما إنما صفية بنت حيي فقالا سبحان الله أوفيك شئك يا رسول الله فقال مهان الشيطان يجري من أحدكم يجري لجسه ودمه نشيت أن يقدف في قلبك ما سوا فكيف من تخالفت فيه الشكوك وتقاتلت فيه القنون فهل يعري من في مواقف الريب من قاذف محقق ولائم مصدق * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا لم يشق المرء إلا بما عمل فقد سعد واذا استعمل الحزم وغلب الحذر وترك مواقف الريب ومفان التهم ولم يقف موقف الاعتذار ولا عذر لخطأ لم يخلج في زأته شك ولم يقدح في عرضه فاك * وقد قال الشاعر

أصولنا أدل علينا طناً * لان الظن مفتاح اليقين

وقال سهل بن هارون مؤنة المتوقف أيسر من تكلف المعتسف * وقال بعض الحكماء من حسن ظنه بمن لا يخاف الله تعالى فهو مخدوع * وأنشدني بعض أهل الأدب لابي بكر الصولي رحمه الله قوله

أحسن ظني بأهل دهرى * نخسن ظني بهم دهاني
لا آمن الناس بعد هذا * ما الخوف الأمن الامان

فهذا شرط استوفينا فيه نوعي النزاهة وأما الصيانة وهي الثالث من شروط المروءة فتزعم أن أحدهما صيانة النفس بالتماس كفايتها وتقدير ما داتها والثاني صيانتها عن تحميل المائن من الناس والاسترسال في الاستعانة وأما التماس الكفاية وتقدير المادة فلان المحتاج إلى الناس كل مهتضم وذليل مستغل وهو لما فطر عليه محتاج إلى ما يستمد له يقيم أو نفسه ويدفع ضرره ورواقته وقد قالت العرب في أمثالها كلب جوال خير من أسد رابض وما يستعده نوعان لازم ونذب فاما اللازم فما أقام بال كفاية وأفضى إلى السدانة وعليه في طلبه ثلاثة شروط أحدها استطابته من الوجوه المباعدة وتوقي الخطور فبان المواد المحرمة مستحثة الأصول محجوة المحصول من صرفها في بؤجر وان صرفها في مدح لم يشكره هو لا وزارها محقق وعليها ما قاب * وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تجعلك رجل

والشدّة ونحن نجد بها في النساء أكثر منها في الرجال وفي المرضى أقوى منها في الأصحاء ونجد الصبيان أسرع غضبا ونجرا من الرجال والشيوخ أكثر من الشبان ونجد ذنبا الغضب مع رذيلة الشرة * فان الشرة اذا تعدر عليه ما شبهه غضب ويحجر على من يهي طعامه وشربه من نساءه وأولاده وخدمه وسائر ٢٠٣ من يلبس أمره * وأجبل اذا فقد

شيئا من ماله تسرع بالغضب على أصداقائه وخاطفيه وتوجهت تهمته إلى أهل الثقة من خدمه ومواليه وهؤلاء الطيبة لا يحصلون من أخلاقهم الأعلى فقد الصديق وعلم النصح وعلى الأثم السريع والوهم الوجع وهذه حال لا تتم معها غبطة ولا سرور وصاحبها أبدا محزون كتيب متغص بعيشه متبرم بأمره وهي حال الشقي المحروم * أما الشجاع العزيز النفس فهو الذي يقهر بحلمه مغضبه ويمكن من التمسك والنظر فيما يدهم ولا يستغفروا ما يرد عليه من المحركات لغضبه حتى يترقوى ويتفكر كيف ينتقم ممن وعلى أي قدر وكيف يصفح وينضي عن وفي أي ذنب * حكى عن الاسكندر انه غي اليه عن بعض أصحابه انه يعبه ويتقصه فقال له بعض أصحابه لو أدبته أيها الملك بعقوبة تهك بها فقال له وكيف يكون أنها كه بعد عقوبتي إياه في ثلثي وطلب معاني لأنه حيثما بسط

كسب ما لا من غير حله فان أنفق لم يقبل منه وان أمسكه فهو زاده إلى النار * وقال بعض الحكماء شر المال ما زلما ثم مكسبه وحرم أجرة نفاقه * ونظر بعض الخوارج إلى رجل من أصحاب السلطان تصدق على مسكين فقال انظر إليهم حسنتهم من سيئاتهم * وقال علي بن الجهم

مر من عاش ماله فاذا * سه الله سره الأعداء والثاني طلبه من أحسن جهاته التي لا يلحقه فيها غش ولا يتدنس له بها عرض فان المال يراد لصيانة الأعراض لا ابتذالها ولعز النفس لا الأذلالها * وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ياخذ المال أصون به عسري وأرضى به ري * وقال أبو بشر الضريري كفى حزنا أني أروح وأغتدي * ومالي من مال أصون به عسري وأكثر ما ألقى الصديق بمرحبا * وذلك لا يكتفي الصديق ولا يرضى وسئل ابن عائشة عن قول النبي صلى الله عليه وسلم أطلبوا الخواص من حسان الوجوه فقال معناه من أحسن الوجوه التي تحمل والثالث أن يتأني في تقدير ماله وتدبر كفايته بما لا يلحقه خلل ولا يئله زلل فان يسر المال مع حسن التقدير وصابية التدبير أجدي نفعاً وأحسن موقعا من كثيره مع سوء التدبير وفساد التقدير كالبدن في الأرض اذا روي تسيره زكا وان أهمل كثيره أضاع * وقال محمد بن علي رضي الله عنه الكمال في ثلاثة العفة في الدين والصبر على النوايب وحسن التدبير في المعيشة * وقيل لبعض الحكماء فلان غني فقال لا أعرف ذلك ما لم أعرف تدبيره في ماله فاذا استكمل هذه الشروط فيما يستمد منه قدر الكفاية فقد أذى حتى المروءة في نفسه * وسئل الأحنف بن قيس عن المروءة فقال العفة والخرفة وقال بعض الحكماء لا يهني أبني لا تكن على أحد كذا فانك تزداد ذللا واضرب في الأرض عودا وبدأ ولا تأسف لال كان فذهب ولا تجزع عن الطلب لو صب ولا تصب فهذا حال اللازم وقد كان ذوو الهمم العلية والنفس الأبيسة يرون ما وصل إلى الإنسان كسبا أفضل مما وصل إليه إرثا لانه في الأرض في جدوى غيره وبالكسب يجد إلى غيره وفرق ما بينهما في الفضل ظاهر وقال كشاجم

لا أستلذا لعيش لم أدا ب له * طلبا وسعيا في الهواجر والفلس وأرى حراما أن يؤا تبي الغنى * حتى يحاول بالعناء ويلتس فاصرف نوالك من أخيك موفرا * فاليت ليس يسبح إلا ما قترس وأما الندب فهو ما فضل عن الكفاية وزاد على قدر الحاجة فان الأمر فيه معتبر بحال طالبه فان كان بمن تقاعد عن مراتب الرساء وتقاصر عن مطاولة النظراء وانقبض عن منافسة الأكفاء فحسبه ما كفاه فليس في الزيادة الا شرة ولا في الفضول الا نهم وكلاهما مذموم

لسا نأوا عذر عند الناس * وأني يوما ببعض أعدائه من المتقلبين الخارجين عليه وكان قد عاث في أطراف بلاده عينا كثيرا فصفع عنه * فقال له بعض جلسائه لو كنت أنا أنت لقتلته * فقال له الاسكندر واكن لم كن أنا أنت فقلت بقاتله فقتل ذكرنا معظم أسباب الغضب ودللنا على معالجتها وحسبها وهو النوع الأعظم من أمراض النفس واذا تقدم الإنسان

في جسم سببه لم يخش تمكنه منه وكان ما يعرض له سهل العلاج قريب الزوال لا مادة له تلهيه ولا تمده ولا سبب يسعمره وبقوده
 * وتجد الزوية موضع الاحالة النظر والفكر في فضيلة العلم واستعمال المكافأة ان كان صوابا والتغافل ان كان خريما
 * والذي يتلوم معالجة هذا النوع ٢٠٤ من امراض النفس معالجة الجبن الذي هو الطرف الآخر من صحتها

* ولما كانت الاضداد يعرف بعضها من بعض وقد عرفنا الطرف الذي حدهناه بحسرة للنفس عنيفة قوية يحدث منها غليان دم القلب شهوة للانتقام قد عرفت ان اذا مقابله اعنى الطرف الآخر الذي هو سكون النفس عندما يجب أن تحرك فيه وبطلان شهوة الانتقام وهذا هو سبب الجبن والخور

والجبن والخور وتبعهما إهانة النفس وسوء العيش وطمع طبعات الاندال وغيرهم من الاهل والأولاد والمعالين وقلة الثبات والصبر في المواطن التي يجب فيها الثبات وهما أيضا سبب الكسل وخيبة الزاحة اللذين هما سببا كل رذيلة ومن لواحقهما الاستعداد لكل أحد والرضا بكل رذيلة وضيم * والدخول تحت كل فضيحة في النفس والاهل والمال وسماع كل قبيحة فاحشة من الشتم والفسد واحتمال كل

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم خير الزق ما يكفي وخير الذكر الخفي * وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الدنيا كل على العاقل * وقال عبد الله بن مسعود المستغنى عن الدنيا بالدنيا كقطع النار بالنار * وقال بعض الحكماء اشترى ما وجهك بالتقاعة وتسل عن الدنيا لخباءها عن الكرام فان كان ممن منى بعلاوهم وتحرك فيه أريحية الكرم وأثر أن يكون رأسا ومقدما وأن يرى في النفوس معظما ومفخما فالكفاية لا تنقله حتى يكون ماله فاضلا ونائله فائضا * فقد قيل لبعض العرب ما المرءة فيكم قال طعامها كؤل ونائل مبدول وبشر مقبول * وقد قال الاحتف بن قيس

فلو مديروى بجمال كثير * لجئت وكنت له باذلا
 فان المرءة لا تستطاع * اذا لم يكن مالها فاضلا

وأما صابنتها عن تحمل المن والاسترسال في الاستعانة فلا تنال المنه استرقاق الاحرار تحدث ذلة في الممنون عليه وبسطة في المان به والاسترسال في الاستعانة تثقل ومن ثقل على الناس هان ولا قدر عندهم لمهان * وقال رجل لعمر رضى الله عنه خذ مني ثوبا فقال اغناني الله عنهم * وقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه لانه الحسن في وصيته له يابني ان استطعت أن لا يكون بينك وبين الله ذنوب فافعل ولا تكن عبد غيرك * وقد جعلك الله حرا فان السير من الله تعالى أكرم وأعظم من الكثير من غيرهم وان كان كل منه كثيرا * وقال زياد لبعض الدهاقين ما المرءة فيكم قال اجتناب الر ب فاته لا ينيل من حرب واصلاح الر حل ماله فاته من مراثيه وقيامه بحوائج أهله فاته لا يقبل من احتياج إلى أهله ولا من احتياج أهله إلى غيره وأنشد ثعلب

من عفا خف على الصديق لقاءه * وأخو الحوائج وجهه مملول
 وأخوك من وفرت ما في كيسه * فاذا عثبت به فانت ثقیل

وان كان الناس لجة لا يستغنون عن التعاون ولا يستقلون عن المساعد والمظافر فاما اذا كانت تعاون ان تلاق شكافون فيه ولا تفاضلون وربما كان المستعين فيه مفضلا والعين مستفضلا كاستعانة السلطان بجنده والمزارع بأكرته فليس من هذا بدولا لا حده غنى وانما الذي يتصور عنه الكرام تعاون التفصيل فيقبضون عن أن يستعينوا بالثلاث يكون عليهم بد ويسارعون أن يعينوا لان يكون لهم يدومن أقدم من غير اضطرار على الاستعانة بجاه أو مال فقد أوهى مراثيه واستقبل صابنته ومن دعاه الاضطرار لنائب أو واحد هجم إلى الاستعانة بمن يتفلس به من خناق كرهه ويختص به من وثاق نائيه فلا لوم على مضطرا فان أغنته الاستعانة بالجاه عن الاستعانة بالمال فلا عذر له في التعرض للمال وبعد إلى ولاية الامور فان الحوائج عندهم أنجح وهي عليهم أسهل وهم لذلك مندوبون فهم لا يجدون لهم

نظم من كل معامل وقلة الانفة عما ينف منه الناس * وعلاج هذه الاسباب والمواحي يكون باضدادها مساويا
 * وذلك بان توظف النفس التي تعرض لهذا المرض بالخروج والتحريك فان الانسان لا يخلو من القوة الغضبية راسا حتى تحلب اليه من مكان آخر ولكنها تكون نافسة عن الواجب فهي بمنزلة النار الخالصة التي فيها بقية لقبول الترويح والنفخ فهي

تحرك لا محالة اذا حركت بما يلائمها وتبعها في طبيعتها من التوقد والتلهب * وقد حكى عن بعض المتفلسفين انه كان يتعمد مواطن الخوف فيقف فيها ويحمل نفسه على المخاطر العظيمة بالتعرض لها ويركب البحر عند اضطرابه وهيئته ليعود بنفسه الثبات في المخاوف ويحرك منها القوة التي ٢٠٥ تسكن عند الحاجة الى حركتها ويخرجها

عن رذيلة الكسول ولواحقه ولا يكره لمشمل صاحب هذا المرض بعض المراء والتعرض للآلام وخصوصه من يأمن غائلته حتى يقرب من الفضيلة التي هي وسط بين الرذيلتين أعني التجمعة التي هي صحة النفس المطلوبة فاذا وجدها وأحس بها من نفسه كف ووقولم يعاوزها حذرًا من الوقوع في الجانب الآخر الذي علمناك علاجه والخوف وأسبابه وعلاجه

ولما كان الخوف الشديد في غير موضعه من أمراض النفس وكان متصلًا بهذه القوة وجب أن تذكره ونذكر أسبابه وعلاجه فنقول ان الخوف عرض من توقع مكره وانتظار عذور والتوقع والانظار انما يكونان للحوادث في الزمان المستقبل وهذه الحوادث ربما كانت عظيمة وربما كانت يسيرة وربما كانت ضرورية وربما كانت

مساويًا وليصبرن على إبطائهم فان تراكم الأمور عليهم يشغلهم الا عن الملح الصبور ولذا قيل قدم لحاجتك بعض لحاجتك وقال أبو صارة صميم بن الاعرف

تعد قرابة وتعد صهرا * ويسعد بالقرابة من رعاها وما زرك من عدم ولكن * يهش الى الامارة من رعاها وأياما فعلت فان نفسي * تعد صلاح نفسيك من غناها

فان تعذر عليه صلاح حاله الاجبال يستعين به على فوائده كان له مع الضرورة فسحة لكن ان وحده قرضه من دودالم يأخذه صلته وجود فان القرض مستمع به في المروآت هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما اعلى الله من قدره وفضله على خلقه قد اقترض ثم قضى فأحسن وقال صلى الله عليه وسلم من أعيام رزق الله تعالى حلالا فليستدن على الله وعلى رسوله وقال صلى الله عليه وسلم المستدين تاجر الله في أرضه * وقال البخري

ان لم يكن كثر فضل عطية * يبلغ بها في الرضا بعض الرضا أولم يكن هبة فقرض يسرت * أسبابه وكواهب من أقرضا

ولئن كان الدين رفاقهم أسهل من رقي الافضال * وقد روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال من أراد البقاء ولا بقاء فليسا كرك الغداء ولا يخفف الرداء قبل وما في خفة الرداء من البقاء قال قلة الدين فان أعوز ذلك الا استسماحهم والرق المثل وذلك قيل لاهم وة لمقل * وقال بعض الحكماء من قبل صلته فقبدا على مروهته وأذل لقد تركه عزه وحلالته والذي يتماثل به الباقي من مرواة الراغبين واليسير اتسافه من صيانة السائلين وان لم يبق لذي رغبة مروه ولا سائل تصون أربعة أمور هي جهل المضطر أحدها أن يخاف في ضرع السائلين وأبهة المستقلين فيذل بالضرع ويحرمها لاهمه ولكن من التجل على ما يقتضيه حال مثله من ذوي الحاجات وقد قيل لبعض الحكماء متى يفحش زوال النعم قال اذا زال معها التجل والتجدد وأنشد بعض أهل الادب لعلي بن الجهم

هي النفس ما حملتها تحمل * ولدهر أيام تجور وتعدل وعاقبة الصبر بالجميل جميلة * وأحسن أخلاق الرجال التفضل ولا عار ان زالت عن الحرمة * ولكن عارا ان يزول التجل

والثاني أن يقتصر في السؤال على مادته اليه الضرورة وقادته اليه الحاجة ولا يجعل ذلك ذريعة الى الاغتنام فيحرمها اغتنامه ولا يستر في ضرورته * وقد قال بعض الحكماء من ألف المسألة ألفا المنع والثالث أن يعذر في المنع ويشكر على الاجابة فانه ان منع فعما لا يعلم وان أجيب فالى ما لا يسهق * فقد قال الفهر بن قولب لا تغضبني على امرئ في ماله * وعلى كرائم صلب ما لا تغضبني

ممكنة * والامور الممكنة ربما كانت من أسبابها وربما كانت غير ناسبتها وجميع هذه الاقسام لا ينبغي للعاقل أن يخاف منها * أما الامور الممكنة فهي بالجملة متروكة بين أن تكون وبين أن لا تكون ولا يجب أن يصمم على أنها تكون فيستشعر الخوف منها ويتعجل مكرهاتها لأنها هي التي تقع بعد ولعلها لا تقع وقد أحسن الشاعر في قوله

وقل للفؤاد ان ترى بك نزوة * من الروع أفرج أكثر الروع باطله * فلهذه حال ما كان منها عن سبب خارج وقد
أعلمناك أنها ليست من الواجبات التي لابد من وقوعها * وما كان كذلك فانطوى من مكر وهيجب أن يكون على
قدر حدوته * واغايحس العيش ٢٠٦ وتطيب الحياة بالظن الجليل والامل القوي وترك الفكر في كل

والرابع ان يعتمد على سؤال من كان للسأله أهلا وكان التحج عنده مأمولاً فان ذوى المكنة
كثير والمعين منهم قليل ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم الخير كثير وقليل فاعله
والمرجو الاجابة من تكاملت فيه خصاها وهي ثلاث اخذها من كرم الطبع فان الكريم
مساعدوا للثيم معاندا وقد قيل المخذول من كانت له الى اللام حاجة والثانية سلامة الصدر
فان العدو ألرب على نكبتك وحرب في نائبتك وقد قيل من أوغرت صدره استدعت شره
فان تركك بكرم طبعه ورجل بحسن ظفوه فاعظم بها محنة أن يصير عدوك لك راجعا
وقد قال الشاعر

وحسبك من حادث بامرئ * ترى حاسديه له راجعا

والثالث ظهور المكنة فان من سأل ما لا يمكن فقد أحال وكان كستنهض المسجون
ومستعصف المدنون وكان يال دليقا وبالحرمان حقيقا * وقد قال على كرم الله وجهه من
لا يعرف لاسحق يقال له فهو أحمق وصي عبد الله بن الأهم ابنه فقال يابى لا تطلب
الخواارج من غير أهلها ولا تطلبها في غير حينها ولا تطلب ما لست له مستحقا فانك ان فعلت
ذلك كنت حقيقا بالحرمان * وقال الشاعر

ولا تسألن امرأ حاجة * يحاول من ربه مثالا

فترك ما كنت حلتة * ويبدأ بحاجته قبلها

فهذا ما يختص بشروط المروءة في نفسه وأما شروط المروءة في غيره فثلاثة الموازنة
والمباشرة والافضال أما الموازنة فتسوعان أحدهما الاسعاف بالمجاهة والثاني الاسعاف في
النوائب فاما الاسعاف بالمجاهة فقد يكون من الاعلى قدرا والافضل أمرا وهو أرحم المكارم
ثمنا وألطف الصنائع موقعا * وربما كان أعظم من المال نفعا وهو الظل الذي يلجأ اليه
المضطرون والحي الذي يأوي اليه الخائفون فان أوطأ اتسع بكثرة الانتصار والشيخ وأن
قبضه انقطع سفور الغاشية والتبع فهو بالذل ينحى ويزيد بالكف ينقص ويبدد فلا عذر
لن منجها أن يجعل به فيكون أسوأ حالا من البخل بما له الذي قد بعده لنوائبه ويستبقه
للذمة ويكثر ملذذاته وبضد ذلك من يجعل مجاهة لانه قد أضاعه بالشيخ وبدد بالذل وحرم
نفسه غنية مكنته وفرصة قدرته فلم يقبه الاثام على فائت وأسف على ضائع ومقتنا مستحکم
في النفوس ونما قد يتشرف في الناس * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الخلق
كلهم عيال الله وأحب خلق الله تعالى اليه أحسنهم صنيعا الى عياله * وقال بعض الحكماء
اصنع الخير عند ما كانه يبق لك جده عند زواله وأحسن والدولة لك يحسن لك والدولة
عليك وأجل زمان رخائك غدة زمان بلائك * وقال بعض البلغاء من علامة الاقبال
اصطناع الحال * وقال بعض الادباء بطل الجاهة أحسد الحياهين * وقال ابن الاعرابي العرب

ما يمكن أن لا يقع من
المكاره وأما ما كان سببه
سوء اختيارنا وجنابتنا
على أنفسنا فينبغي أن
نحترز منه بترك الذنوب
والجنابات التي نخاف
عواقبها ولا تقدم على أمر
لا تؤمن غائلته ما هذا
فصل من نسي أن الممكن
هو الذي يجوز أن يكون
وجوز أن لا يكون وذلك
انه اذا ذنب أوجبني
جنبه قدر في نفسه أنه
يجب ولا يظهر ولا يخفى
فيظهر الآلهة بخاوعه
أولا تكون له غائلة

* وكأنه يجعل طبيعة
الممكن واجبا كان
صاحب القسم الاول يجعل
أفضا الممكن واجبا الآن
هذا يأمن الجانب المخدور
خاصة * وأعني هذا أن
الممكن لما كان متوسطا
بين الجانب الواجب والجانب
المتنع صار كالشيء الذي
له جهتان احدهما تلي
الواجب والاخرى تلي
المتنع * ومثال ذلك
خط أجرب فقطعه أمي
الجانب الواجب * ونقطة
بهي الجانب المتنع

* وموضع ج هو الممكن وبعده من الجانبين بعد واحد * فله الى نقطة أجهة * وله الى نقطة ب جهة
* فاذا صار مستقيما ما ضا بطل اسم الممكن عنه وحصل إما في جانب الواجب وإما في جانب المتنع وليس يصح ما دام
ممكنا أن يحسب لامن هذا الجانب ولا من ذلك الجانب بل يعتقد في طبيعته الخاصة به وهو أنه يمكن أن يصير الى ههنا

أولاً هناك ولهذا قال الحكيم وجوه الأمور الممكنة في أعقابها وأما الأمور الضرورية كالهرم وتوابعه فمعالج الخوف منه ان نعلم ان الانسان اذا حب طول الحياة فقد أحب لالحالة الهرم واستشعره واستشعر ما لا يدمنه ومع الهرم يمحى نقصان الحرارة الغريزية والرطوبة الاصلية التابعة لها وغلبة ضدتهما ٢٠٧ من البرد واليس وضعف الاعضاء

الاصلية كلها يتبع ذلك قلة الحركة وطلان النشاط وضعف آلات الهضم وسقوط آلات الطين ونقصان القوى المدبرة للحياة أعنى القوة الخاذية والقوة المسككة والهاضمة والدافعة وسائر ما يقعها من مواد الحساسة وليست الامراض والاكلام شيئا غير هذه الاشياء ثم يتبع ذلك موت الاحياء وققد الاعزاء والمستشعر هذه الاشياء الملتزم لشرائطها في مبدأ كونه لا يخاف منها بل ينتظرها ويرجوها ويدي إليها ويرغب الى الله فيها فهذا محلة الكلام على الخوف المطابق ولما كان اعظم ما يلحق الانسان منه هو خوف الموت وكان هذا الخوف عاما وهو مع عمومته أشد وأبلغ من جميع المخاوف وحيث ان تبدأ بالكلام فيه فنقول

علاج الخوف من الموت

ان الخوف من الموت ليس يعرض الا لمن لا يدري ما الموت على الحقيقة ولا

تقول من أمل شياهاه ومن جهل شياهاه وبطل الجاه قد يكون من كرم النفس وشكر النعمة وضده من ضده وليس بذل الجاه لالتماس الجزاء هذا مشكورا وانما هو بائع جاهه ومعروض على نعم الله تعالى وآلته فكان بالذم احق * وأنشد بعض الادباء لعلى بن عباس الرومي رحمه الله

لا يبدل العرف حين يبدله * كشتري الجدا وكعتاخنه بل يفعل العرف حين يفعله * لجوهر العرف لا اعراضه

وعلى من أسعد بحاجته ثلاثة حقوق يستكثرها الشكر ويستقبلها المزيد من الاجر أحدها أن يستسهل المعونة مسرورا ولا يستثقلها كارهيا فيكون نعم الله تعالى متبهما ولا حسنة مستحقة فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من عظمت نعمة الله تعالى عليه عظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤنة عرض تلك النعمة للزوال والثاني محاسبة الاستطالة وترك الامتنان فانهم من لؤم الطبع وضيق الصدور وفيها هدم الصنيع واجباط الشكر * وقد قيل للحكيم اليوناني من أضيق الناس طريقا وأقلهم صدقا قال من عاشر الناس بعبوس وجهه واستطال عليهم بنفسه والثالث أن لا يقترن بشكركم وسعيه تقريرا بذنب ولا توخياعا على هفوة فلا يني مضض التوبيع نادراك الصبح وبصير الشكر وحدا والجد عيبا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم أقبلوا ذوى الهيات عثراتهم وقال النابتة الجعدى

ألم تعلم أن الملامة نفعها * قليل اذا ما التئى ولى نادبرا

وأما الاسعاف في النوائب فلان الايام غادرة والنوازل غائرة والحوادث عارضة والنوائب راكضة فلا يعذر فيها الاعليم ولا يستغنى عنها الاسليم * وقد قال عدى بن حاتم

كفى زاجر المرء أيام دهره * تروح له بالواعظات وتفتدى

فاذا وجد الكرم مصابا بالحوادث دهره حشه الكرم وشكر النعم على الاسعاف فيها بما استطاع سبيلا اليه ووجد قدرة عليه * روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خير من الخير معطيه وشر من الشر فاعله * وقيل لبعض الحكماء هل شي خير من الذهب والفضة قال معطيهما والاسعاف في النوائب نوعان واجب وتبرع فاما الواجب فما يخص بثلاثة اصناف وهم الاهل والاخوان والجيران اما الاهل فللماسة الرحم وتعاطف النسب وقد قيل لم يسد من احتاج أهلها غيرهم * وقال حسان بن ثابت

وان امرأ نال المني ثم لم ينسل * قريبا ولا ذاهجة لز هيد

وان امرأ عادى الرجال على الفنى * ولم يسأل الله الفنى لحسود

وأما الاخوان فلم يستحكم الود ومتأ كذا العهد * سئل الاحنف بن قيس عن المروءة فقال

يعل الى أين تصير نفسه أولانه يظن ان بدنه اذا انحل وبطل تركيه فقد انحلت ذاته وبطلت نفسه بطلان عدم تدوير وان العالم سبق موجودا وليس هو موجودا فيه كما يظنه من يجهل بقاء النفس وكيفية المعاد أولانه يظن أن الموت لما عظميا غير الامراض التي ربما تقدمت وأدت اليه وكانت سبب حلوله أولانه يعتقد عقوبة تحل به بعد الموت أولانه صغير

لا يدري على أي شيء يقدم بعد الموت وأولاه بأسف على ما يخلفه من المال والمقتنيات وهذه كلها ظنون باطلة لا حقيقة لها
أما من جهل الموت ولم يدرك ما هو على الحقيقة فأنابن له أن الموت ليس بشيء أكثر من ترك النفس استعمال آلتها وهي
الأعضاء التي يسمى مجموعها بدنًا كما يترك ٢٠٨ الصانع استعمال آلاته وإن النفس جوهر غير جسماني

ولست عرضاً وإنما أغبر
قابلة للفساد وهذا البيان
يحتاج فيه إلى علوم
تتقدم وهو مبهر من
مشروح على الاستقصاء
في موضعه الخاص به ومن
تطلع إليه ونشط للتوف
عليه لم يجد مرأه ومن
قتع عاذ كرتة في صدر
هذا الكتاب وسكنت
نفسه اليه علم أن ذلك
الجوهر مفارق لجوهر
البدن مبان له كل
البيان ذاته وخواصه
وأفعاله وأثاره فإذا فارق
البدن كما قلنا وعلى
الشريطة التي شرطنا بقي
البقاء الذي يخصه ونقى
من كدر الطبيعة وسعد
السعادة التامة ولا سبيل
إلى فنائه وعدمه فإن
الجوهر لا يبقى من حيث
هو جوهر ولا تبطل ذاته
وإنما تبطل الأعراض
والنسب والاضافات التي
بينه وبين الأجسام
بأفئدها فأما الجوهر
فلا ضل له وكل شيء يفسد
فإنما فساد من ضده وقد
يمكنك أن تتف على ذلك
بسهولة من أوائل المنطق

وللمارحق فاحترز من أذائه * وما خبر جار لا زال مؤاذيا
فحب في حقوق المروءة وشروط الكرم في هؤلاء الثلاثة تحمل أنقلاهم وإسافهم في نوائهم
ولأنهم لا يذم مروءة مع ظهور المحنة أن يكلمهم إلى غير أو يلجئهم إلى سؤاله وليكن سائل
كرم نفسه عنهم فانهم عيال كرمه وأضياف مروءة فكأنه لا يحسن أن يلجئ عياله
وأضيافه إلى الطلب والرغبة فهكذا من عاله كرمه وأضيافه مروءة * وقال بعض
الشعراء

حق على السيد المرحونائله * والمسخاربه في العرب والأجهم
أن لا ينيل الأفاضل صوب راحته * حتى يخص به الأدنى من الخدم
أن الفرات إذا جاشت غواربه * روى السواحل ثم امتدق الام

وأما التبرع فبين عده هؤلاء الثلاثة من البعده الذين لا يدون ينسب ولا يتعلقون بسبب فان
تبرع بفضل الكرم وفائض المروءة فنهب في حوادثهم وتكفل بنوائهم فقدر أذاعلى
شروط المروءة وتجاوزها إلى شروط الرأسة موقوف لبعث الحكماء على شيء من أفعال الناس
يشبه أفعال الآلهة قال الاحسان إلى الناس وأن كف تشاغلنا بغيره فلو لم يلبأ اليه
مضطر لأن القيام بالكل معوز والتكفل بالجميع متعذر فهذا حكم الموازنة وأما المياسرة
فنوعان أحدهما العفون عن الهفوات والثاني المسامحة في الحقوق فأما العفون عن الهفوات
فلأنه لا مبرأ من سهو وزلل ولا سلم من نقص أو خلل ومن رام سلما من هفوة والنسب يرثا
من نبوة فقد تعدى على الدهر بسططه وخادع نفسه بغلظه وكان من وجود بغيته بعيدا
وصار باقرا حفر دوا وحيدا وقد قالت الحكماء لصديق لمن أراد صديقا لا عيب فيه * وقيل
لا تشر وان هل من أحد لا عيب فيه قال من لا موت له وإذا كان الدهر لا يوجد له ما طلب
ولا ينيله ما أحب وكان الوحيد في الناس مرفوضا قصيا والمنقطع عنهم وحشيا لزمه
مساعدة زماته في القضاء ومياسرة أخوانه في الصفح والأغضاء روى عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم أنه قال أن الله تعالى أمرني بعبادة الناس كما أمرني بعبادة الفرائض وقال

بعض
قبل أن تصل إلى برأهيه وإن أنت تأملت الجوهر الجسماني الذي هو أخس من ذلك الجوهر الكريم
واستقرت حاله وجذته غير فان ولا ملامش من حيث هو جوهر وإنما يستحيل بعينه إلى بعض فتبطل خواصه شأفا
منه وأعراضه فأما الجوهر نفسه فهو باق لا سبيل إلى عدمه وبطلان مثال ذلك الماء فإنه يستحيل بخار أو هواء وكذلك الهوا

يستحيل ماء ونارا فتبطل عن الجواهر اعراضه وخواصه وأما الجوهر من حيث هو جوهر فانه لا سبيل الى عدمه هذا
في الجوهر الجسماني القابل للاستحالة والتغير فأما الجوهر الروحي الذي لا يقبل الاستحالة ولا التغير في ذاته وانما يقبل
كماله ونعمااته صورته فكيف يتوهم فيه العدم والتلاشي ٢٠٩ وأما من يخاف الموت لأنه لا يعلم الى أين تنصير
نفسه أولا لأنه يظن أن بدنه

بعض الادباء ثلاث خصال لا تجتمع الا في كريم حسن المحضر واحتمال الزلة وقلة المال
وقال ابن الرومي

فعدرك مبسوط لذنب مقدم * ووقد مقبول باهل ومرحب
ولو بلغتني عنك أذى أفتها * لدى مقام الكاشع المتكذب
فأست بتقلب اللسان مصارما * خليلا إذا ما القلب لم يتقلب

وإذا كان الاغضاء حتما والصفع كسرا ترتب بحسب الهفوة وتنزل بقدر الذنب
والهفوات نوعان صغار وكبار فالصغار مغفورة والنفوس بها مغفورة لان الناس مع
أطوارهم المختلفة وأخلاقهم المتفاضلة لا يسلبون منها فكان الوجد فيها مطرعا والعتب
مستقبها وقد قال بعض العلماء من هير أخاه من غير ذنب كان كن زرع زرعاً ثم حصده
في غير أوانه وقال أبو العاتية

وشرا الاخلاء من لم يزل * يعاتب طورا وطورا يذم
يريك النصيحة عند اللقاء * ويبريك في السر يرى القلم

وأما الكبار فتوعان أن هفوها خاطيا ويزل بها ساهيا فالخرج فيها مرفوع
والعتب عنها موضوع لان هفوة الخاطيء هذر ولومه هذر وقال بعض الحكماء لا تقطع
أخاك إلا بعد محجز الخيلة عن استصلاحه وقال الاخنف بن قيس حق الصديق أن تحتل
لدينا ظلم الغضب وظلم الدالة وظلم الهفوة وحكى ابن عون أن غلاما هاشميا عمره ثمانية
قوم فأراد معه أن ينسب إليه فقال يا عم اني قد أسأت وليس معي عقل فلانسي بي ومعلك
عقلك وقال أبو نواس

لم أؤأخذك إذ جنيت لاني * واثق منك بالإساءة الصبح
غفيل العدو غفيل جميل * وقبيح الصديق غير قبيح

فان تشبه خطؤه بالعدم وسهوه بالقصد تثبت ولم يلبسوا بهم فيكون سلوما ولذلك قيل
التثبت نصف العفو وقال بعض الحكماء لا يفسدك الظن على صديق أصحلك اليقين له
وقال بعض شعراء هذيل

فبعض الامر فصله ببعض * فان الفتح يحمله السمين
ولا تفعل بظنك قبل خير * فعند الخير تنقطع الظنون
تري بين الرجال العين فضلا * وفيما أضمر والفضل المبين
كلون الماء مشتبها وولست * تخبر عن مذاقته العيون

والثاني أن يعتمد ما أحترم من كبارهم ويقصد ما اجترح من سيئاته ولا يخلو فيما أتاه
من أربع أحوال فالحال الاولى أن يكون موقورا قد قابل على وتره وكافأعلى مساءته

نفسه وجهل بقاء النفس
وكيفية المعاد فلا يسر يخاف
الموت على الحقيقة وانما
يجعل ما يتبقى ان يعلمه
فالجمل اذا هو الخوف
اذ هو سبب الخوف وهذا
الجهل هو الذي جعل
الحكماء على طلب العلم
والتعلم وتركو الاجل
الذات الجسمانية وراحت
البدن واختاروا عليه
النسب والسهو ورأوا أن
الراحة التي تكون من
الجهل هي الراحة
الحقيقية وان العتب
الحقيقي هو عتب الجهل
لانه مرض مزمن للنفس
والبرغم منه خلاص لها
وراحة سرمدية ولذة
أبدية ولما يتقن الحكماء
ذلك واستصبروا فيه
وهجموا على حقيقته
ووصلوا الى الروح
والراحة منه هانت عليهم
أمور الدنيا كلها واستحقروا
جميع ما يستعظمه الجمهور
من المال والثروة والذات
الحسية والمطالب التي

(٢٧ - أدب الدنيا) تؤدي اليها اذا كانت قليلة الثبات والبقاء سر يعال وال وفناء كثيرة المسموم
اذا وجدت عظيمة الغنم اذا فقدت واقصر وأمنها على المقدار الضرورى في الحياة وتسلاو عن فضول العيش الذي
فيه ما ذكر من التيوب وما لم ذكره ولا ناهم ذلك بل انهاء ذلك لان الانسان اذا بلغ منه الى غاية تأقت نفسه الى غاية

أخرى من غير وقوف على حلول انتهاء إلى أمد وهذا هو الموت لا ما يخاف منه والحرص عليه هو الحرص على الزائل والشغل به هو الشغل بالباطل ولذلك جزم الحكماء بأن الموت موتان ارادى وموت طبيعي وكذلك الحياة حيتان حياة ارادية وحياة طبيعية وعنوان الموت ٢١٠ الارادى امانة الشهوات وترك التعرض لها وبالو الموت الطبيعي

مفارقة النفس البدن وعنوان الحياة الارادية ما يسعى له الانسان لحياته الدنيامن المال والشارب والشهوات وبالحياة الطبيعية بقاء النفس السرمدى بما تستفيد من العلوم الحقيقية وتبرا به من الجهل ولذلك يسمى أفلاطون طالبا للحكمة بان قال له مت بالارادة تحيا بالطبيعة على ان من خاف الموت الطبيعي للانسان فقد خاف ما ينبغي أن يرجوه ذلك ان هذه الموت هو تمام حد الانسان لانه حتى ناطق ميت فالسوت تمامه وكما له به يصير الى أفعه الاعلى ومن علم ان كل شيء هو مركب من حد وحده مركب من جنسه وفصله وان جنس الانسان هو الحي وفصله الناطق والميت علم انه سيضل الى جنسه وفصله لان كل مركب لا محالة مضل الى ما تركب منه فمن أجهل من يخاف تمام ذاته ومن أسوأ حالا من يظن ان قضاءه بحياته ونقصاته بتمامه ذلك ان

فالاغمة على من وتره عائدة والى البادئ بها راجعة لان المكافئ أعذر وان كان الصفع أجمل ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم انا كم والمشاراة فانها تمت الغبرة ونقي الغرة وقال بعض الحكماء من فعل ما شاء على ما لم يشأ وقال بعض الادباء من التمساءة تلك همه مساةك وقال بعض البلغاء من أولع بقمع المعاملة أوجع بقمع المقابلة وقال صالح ابن عبد القدوس

اذا ورتب امرأ فاحذر عداوته * من نزرع الشوك لا يحمصه عنب
ان العذر وان أبدى مسالة * اذا رأى منك يوما فرصة وثبا

والاغصاء عن هذا أوجب وان لم تكن المكافأة ذنبا لانه قد رأى عقبي اساءته فان واصل الشر واصلته المكافأة وقد قبل باغترالاء الشر تعترك وبحسن النصفة يكون المواصلون وقال بعض الحكماء من كنت سببا لبلائه وجب عليك التلطف له في علاجه من دائه وقد قال أوس بن حجر

اذا كنت لم تعرض عن الجهل والختا * أصبت حليما أو أصابك جاهل

والحال الثانية أن يكون عدوا قد استحكمت شعثاؤه واستوعرت سراؤه واستحسننت ضراؤه فهو يترص بدوائر السوء انتهاز فرسه ويخرج بمهانة العجز ممرارة غصصه فاذا طفر بنائبة ساعدها واذا شاهده نعمة عاندها فالبعد منه حذرا أسلم والكف عنه متاركة أغنى فانه لا يسلم من عواقب شره ولا يفلت من غوائل مكره وقد قالت الحكماء لا تعرض لعدوك في دولته فاذا زالت كفت شره وقال لقمان لابنه باني كذب من قال ان الشر بالشر يطفأ فان كان صادقا لم يوقد نارين ولا ينظر هل تطفئ احدهما الاخرى وانما يطفئ الخسران الشر كما يطفئ الماء النار وقال جعفر بن محمد كفاك من الله نصرا أن ترى عدوك يعصى الله فيك وقال بعض الحكماء بالسيرة العادية يقهر المعادي وقال الجعترى

وأقسم لأجزيل بالشر مثله * كفى بالذي جازيتني لك جازيا

والحال الثالثة أن يكون لئيم الطبع خبيث الاصل قد أغراه لؤم الطبع على سوء الاعتقاد وبعثته خيبة الاصل على آيات الفساد فهو لا يستقيم الشر ولا يكف عن المكروه فهذه الحالة أطم لان الاضرار بها أعم ولا سلام من مشهله الا بالبعد والانتباض والخلص منه الا بالصنع والاعراض فانه كالسبع الضارى في سوارح الغنم وكالنار المتأججة في بايس الحطب لا يقربها الا تالف ولا بدون منه الا هالك روى مكحول عن ابي امامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الناس كشجرة ذات جنى ويوشك أن يعودوا كشجرة ذات شوك ان فاقتهم فاقتهم ناقدوك وان هربت منهم

طلبوك

الناقص اذا خاف أن يتم فقد دلن من نفسه على غاية الجهل فاذا الواجب على العاقل

أن يستوحش من النقصان ويأمن بالتمام و يطلب كل ما يتممه ويكملوه و يشرفوه على منزلته ويحلى رباطه من الوجه الذى يأمن به الوقوع فى الاسر لامن الوجه الذى يشدد وثاقه ويزيده تركيبا وتقييدا و يثق بأن الجوهر الشريف الالهى

إذا تخلص من الجوهر الكثيف الجسماني خلاص بقاء وصفوا لاختلاص مزاج وكنز فقد سعد وعاد إلى ملكوته وقرب من بارئه وفاز بجوار رب العالمين وخاطب الأرواح الطيبة من أشكاله وأشباهه ونجاساته وضداده وأغياره * ومن ههنا يعلم أن من فارقت نفسه بدنه وهي مشتاقة إليه مشفقة عليه خائفة ٢١١ من فراقه فهي في غاية الشقاء

والبدن من ذاتها وخواهرها سالكة إلى أبعاد جهنم من مستقرها طالبة قرار ملاقته زارله * أما من ظن أن الموت المناعظم غيبر الأمراض التي ربما اتفق أن تتقدم الموت وتؤدي إليه ففلاحه أن يسبب له أن هذا ظن كاذب لأن الألم إنما يكون للحى والحى هو القابل أثر النفس * وأما الجسم الذى ليس فيه أثر النفس فإنه لا يألم ولا يحس فإذا الموت الذى هو مفارقة النفس البدن لا ألم له لأن البدن إنما كان يألم ويحس بأثر النفس فيه فإذا صار جسداً لا أثر فيه للنفس فلا حس له ولا ألم فقد تبين أن الموت حال للبدن غير محسوس عنده ولا مؤلم لأنه فراق ما به كان يحس ويتألم فأما من خاف الموت لأجل العقاب الذى يعد به بعد فينبغي أن ينين له أنه ليس يخاف الموت بل يخاف العقاب والعقاب إنما يكون على شئ باقى بعد

طلبوك وإن تركتهم لم يتركوك قيل يا رسول الله وكيف المخرج قال أقرضهم من عرضك ليوم فاقبل وقال عبد الله بن العباس العاقل الكريم صديق كل أحد إلا من ضره وإجابه للثيم عدو كل أحد إلا من نفعه وقال شريفاً الكريم أن يمنعك خبره وخبر ما في الثيم أن يكف عنك شره وقال بعض البلغاء أعداؤك دأؤك وفي البعد عنهم شفاؤك وقال بعض البلغاء شرف الكريم تغافلته عن الثيم ووصى بعض الحكماء ابنه فقال يا بني إذا سلم الناس منك فلا عليك أن لا تسلم منهم فإنه قلبا اجتمعت هاتان النعمتان وقال عبد المسيح بن نقيلة

انبروا للشرمقرونان في قرن * فالخير مستبغ والشر محذور

والحال الرابعة أن يكون صديقا قد احتشدت نبوة وتفسيرا أو أخا قد استجد جفوة وتكررا فأبدي صفته عقوبة وأطرح لازم حقوقه وعمل عن بالإخاء إلى جفوة الأعداء فهذا قد يعرض في المودات المستقيمة كما تعرض الأمراض في الأجسام السليمة فإن عولجت أفلحت وإن أهملت أسفحت ثم أتلفت ولذلك قالت الحكماء عدواؤك المودة كثرة التعاهد وقال كشاجم

أقل ذا الودعة شره وقفه * على من الطريق المستقيمة

ولا تسرع بمحبته إليه * فقد يهفو وينتبه سليمة

ومن الناس من يرى أن مناركة الإخوان إذا تفروا أصح وأطراحتهم إذا فسدوا أولى كأعضاء الجسد إذا فسدت كان قطعها أسلم فإن شغهم ما رمت إلى نفسه وكالثوب إذا خلق كان أطراحه بالجديده لأجل * وقد قال بعض الحكماء عرفتكم فين زهد فيك نذل نفس وزهدك فين يرغب فيك صفرمة * وقد قال بزرجمهر من تغبر عليك في مودته فنعته حيث كان قبل معرفته * وقال نصير بن أحمد الخبزاري

صل من دفاوتنا من بعدنا * لا تكررهن على الهوى أحدا

قد أكثرت حواء إذا ولدت * فإذا جفا ولد نخذ ولدا

فهذا مذهب من قل وفاره وضعف أخاؤه وساء طرائقه وضاعت خلائته ولم يكن فيه فضل الاحتمال ولا صبر على الأدلال فتقابل على الجفوة وعاقب على الجفوة وأطرح سالف الحقوق وتقابل العقوق بالعقوق فلا تفضل الأخذ ولا إلى العفو أخلد وقد علم أن نفسه قد تخطى عليه قترديه وأن جسمه قد نسقم عليه فيؤله ويؤذيه وهما أحسن به وأحق عليه من صديق قد تغربذاته وانفصل بأدواته فيريد من غير نفسه ما لا يجده من نفسه لنفسه هذا عين الخيال ومحض الجهل مع أن من لم يحتمل بقاء فردا وانقلب الصديق فصار عدوا وعداوة من كان صديقا أعظم من عداوة من لم يزل عدوا ولذلك قال

البدن الدائر * ومن اعترف بشئ باقى منه بعد البدن وهو لا يحالة معترف بذنوبه وأفعال سيئه يستحق عليها العقاب ومع ذلك هو معترف بما كرم عدل يعاقب على السيئات لأهل الحسنات فهو إذا خاف من ذنوبه لا من الموت * ومن خاف عقوبة على ذنب فالواجب عليه أن يحذر ذلك الذنب ويحتمله * وقد بينا فيما تقدم أن الأفعال الرديئة

التي تسمى ذنوبا انما تصدر عن هيئات رديشة والهيئات الرديشة هي للنفس وهي الرذائل التي أحصناها وعرفناك
أضدادها من الفضائل * فاذا الخائف من الموت على هذا الطريقة ومن هذا الوجه جاهل بما ينبغي أن يخاف منه وخائف
بما لا اثر له ولا خوف منه وعلاج ٢١٢ الجهل هو العلم فاذا الحكمة هي التي تخلصنا من هذه الآلام والنظون

التي صلى الله عليه وسلم أوصاني ربى بسبع الاخلاص في السر والعلانية وأن أعف عن
ظلمي وأعطي من حرمي وأعل من فطمي وأن يكون صمتي فكرا ونطقتي ذكرا ونظري
عبرة * وقال لقمان لابنه يا بني لا تترك صديقك الأول فلا يطعم من البك الثاني يا بني اتخذ
ألف صديق والالف قليل ولا تتخذ عدوا واحدا والواحد كثير * وقيل للهلبن أني صفرة
ما تقول في العف والعقوبة قال هما بمنزلة الجود والجل فتمسك بأيمهما شئت * وأشد تعب
إذا أنت لم تستقبل الأمر لم تجد * بكفك في إداره متعلقا
إذا أنت لم تترك أخاك وزلة * إذا زلها أو شكتما أن تفرقا
فاذا كان الأمر على ما وصفت فن حقوق الصفع الكشف عن سبب الهفوة ليعرف الداء
فيعالجه فان لم يعرف الداء لم يقف على الدواء * كما قد قال المتنبي
فان الجرح ينقر بعد حين * اذا كان البناء على فساد
واذا كان ذلك كذلك فلا يخلو حال السب من أن يكون للزل أو زلل فان كان للزل فخذات
المول للظلم والظلم وحمل النيام * وقد قيل في متنور الحكم لا تأمن للزل وان تحل بالصلة
وعلاجه أن يترك على ماله فيل الحفاء كمال الاخاء وان كان زلل فلاحظ أسبابه فان كان
لها مدخل في الأويل وشبهه تزل في جيل حمله على أجل تأويله ومصر فالي أحسن جهة
كالذي حكى عن خالد بن صفوان أنه مر به صديقان له فعرج عليه أحدهما وطوا والآخر
فقيل له في ذلك فقال نعم عرج علينا هذا بفضلهم وطوا ذلك بشقتهما * وأشد بعض أهل
الادب لمجد بن داود الاصفهاني

وتزعم للواشين أني فاسد * عليك وأنى لست فيما عهدتني
وما فسدت لي بعلم الله نية * عليك ولكن ختني فاهمتني
غدرت بعهدى عامدا وأخفتني * خفت ولو امتنتي لأمتنتي
وان لم يكن زلله في التأويل مدخل نظر حاله بعد زلله فان ظهر منه وبان خله فالندم
قوة والخلل اناية ولا ذنب لتائب ولا لوم على منيب ولا كف عذر انما سلف قيلما إلى ذل
التعريف أو خجل التعنيف ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم انما كرم المعاذ فان أكثرها
مفاجر * وقال علي رضي الله عنه كفي بما يعتذر منه تهمة * وقال مسلم بن قتيبة لرجل
اعتذر اليه لا يدعونك أمر قد تخلصت منه إلى الدخول في أمر لعلك لا تخلص منه * وقال
بعض الحكماء شيع المذنب اقراره وتوبته اعتذاره * وقال بعض البلاء من لم يقبل
التوبة عظمت خطيئته ومن لم يحسن إلى التائب فجحت أساءته * وقال بعض الحكماء
الكريم أوسع المغفرة اذا صاقت بالمذنب المغفرة وقال بعض الشعراء
السدر يلحقه التعريف والكذب * وليس في غير ما يرضيك لي أرب

الكاذبة التي هي نتائج
الجهالات والله الموفق لما
فيه الخير * وكذلك تقول
لمن خاف الموت لانه
لا يدري على ما يقدم بعد
الموت لان هذه حال الجاهل
الذي يخاف بجهله
فصلاحه أن يعلم ليعلم
ويشتاق * وذلك أن من
أثبت لنفسه حالا بعد
الموت ثم لم يعلم ما هي تلك
الحال فقد أقر بالجهل
* وعلاج الجهل العلم
ومن علم فقد وثق ومن
وثق فقد عرف سبيل
السعادة فهو تسلكها
لأحالة ومن سلك طريقا
مستقيما إلى غرض صحيح
أفضى إليه بالسلام ولا مربة
* وهذه الثقة التي تكون
بالعلم هي اليقين وهي حال
المستصير في دينه
المستمسك بحكمته وقد
عرفناك مرتبة ومقامه
فيما سلف من القول * اما
من زعم أنه ليس يخاف
الموت وانما يحزن على
ما يخلف من أهله وولده
وماله ونشبهه ويأسف على
ما يفوته من ملاقاة الدنيا

وشهواتها * فينبغي أن تبين له ان الحزن بخل ألم ومكر وه على ما لا يجدي الحزن اليه بطائل وقد
وسند كرم علاج الحزن في باب مفرد له خاص لانافي هذا الباب انما نذكر علاج الخوف وقد أنبأنا منه على ما فيه مقتنع
وكفاية الا اننا نزيد بياننا وضوحا نقول * ان الانسان من جملة الامور الكائنة وقد تبين في الآراء الفلسفية أن كل كائن

فاسد لا محالة فمن أحب أن لا يفسد فقد أحب أن لا يكون * ومن أحب أن لا يكون فقد أحب فساد ذاته فكانه يحب أن يفسد ويحب أن لا يفسد ويحب أن يكون ويحب أن لا يكون وهذا محال لا ينحصر بآل عاقل * وأيضا فإنه لو تمت أسلافنا وآباؤنا لم ينته الوجود لينا ولو جاز أن يبقى الإنسان لبقى من تقدمنا ٢١٣ ولو بقي من تقدمنا من الناس على ما هم عليه من التناسل ولم يعودوا لما وسعهم الأرض وأنت تبسبب ذلك مما أقول هب أن رجلا واحدا ممن كان منذ أربعمائة سنة هو موجود الآن وليكن من مشاهير الناس حتى يمكن أن يحصل أولاده مسجودين معروفين كعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه مثلا * ثم ولده أولاد ولاد أولاده أولاد وبقوا كذلك يقتاسلون ولا يموت منهم أحد * كم يكون مقدار من يجتمع منهم في وقتنا هذا فانك تجدهم أكثر من عشرة آلاف ألف رجل وذلك أن بقيتهم الآن مع ما قدر فيهم من الموت واقتل الذريع أكثر من مائة ألف نسمة في جميع الأرض واحسب لمن كان في ذلك العصر من الناس على بسط الأرض مثل هذا الحساب فانهم إذا تضاعفوا هذا التضاعف لم تضبطهم كثرة ولم تحصهم عددا * ثم امسح بسط الأرض فإنه محدود

وقد أسأت في النعي التي سلفت * الامنت بعفوا له سبب *
وان عجل العذر قبل نوبته وقد تم التنصل قبل انابته فالعذر توبه والتنصل انابة فلا يكشف عن باطن عذره ولا يعنف بظاهر عذره فيكون لثيم الظفر سيئ المكافاة وقد قيل من غلبته الحدة فلا تعثر برمودته * وقال بعض الحكماء شافع المذنب خضوعه الى عذره * وقال بعض الشعراء
اقبل معاذي من يأتيك معذرا * ان برعندك فيما قال أو فجرا
فقد أطاعك من رضيك ظاهرا * وقد أحلك من يعصيك مستترا
وان ترك نفسه في زلة ولم يتدارك بعذره وتنصله ولا يحاج بتوبته وانابته راعيت حاله في المتاركة فسجد له لا يتكف فيها من أمور ثلاثة أحدها أن يكون قد كف عن سيئ عمله وأقطع عن سالف زلة فالتكف إحدى التوبتين والاقلاع أحد العذرين فكان أنت المعذرة عنه نصفك والمتنصل له بفضلك فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه المحسن على المسيء أمير والثاني أن يكون قد وقف على ما أسلف من زلة غير تارك ولا متجاوز فوقوف المرض أحد البرأين وكفه عن الزيادة إحدى الحسينيين وقد استبقى بالوقوف عن التجاوز أحد شطره فعول به على صلاح شطره الآخر وأياك وارجاءه فان الارجاء يفسد شطر صلاحه والتلافى يصلح شطر فساده فان من سقم من جسمه ما لم يعالج به سرى السقم الى فحشه وان عالج به سرى الفحشه الى سقمه والثالث أن يتجاوز مع الأوقات فيزيد فيه على مرور الأيام فهذا هو الداء العضال فان أمكن استدراكه وتوأتى استصلاحه وذلك باستزاله عنه ان علا وبارغابه دنأ وبعبثه ان ساوى والافاق خال الداء العياء الكى ومن بلغت به الاعتذار الى غايته فلا لائمة عليه والمقيم على شقاقه باغ مصر وع وقد قيل من سل سيف البغي أغمدته في رأسه فهذا شرط وأما المسامحة في الحقوق فلان الاستغناء وحش والاستقصاء مغر ومن أراد كل حقه من النفوس المستصعبة بشع أو طمع لم يصل اليه الا بالنافرة والمسافة ولم يقدر عليه الا بالخاصة والمسامحة قل استغفرى الطباع من مقت من شاقها وانافرها وبغض من شاقها ونازعها كما استغفر حبيب من بأسها وسامحها فكان اليق لا مورا مروءة استطاف النفوس بالمسامرة والمسامحة وتأنفها بالمقاربة والمسامحة * قال بعض الحكماء من عاشر اخوانه بالمسامحة دامت له موداتهم * وقال بعض الأدباء اذا أخذت عفوا فقلوب زكارية وان استصعبت أكدبت والمسامحة نوحان في عقود وحقوق فاما العفو فقد فهو أن يكون فيما سهل المناجزة قليل المخارجة ما مومن الغيبة بعيدا من المكر والخديعة * روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أحملوا في طلب الدنيا فان كلاً ميسر لها كتب له منها وقال صلى الله عليه وسلم الأدلك على شئ يحبه الله تعالى ورسوله قالوا بلى يا رسول الله قال

معروف تعلم أن الأرض حقيقا لتسعهم فيما فكيف تعودوا أو متصرفين ولا يبقى موضع عمارة يفضل عنهم ولا مكان زراعة ولا مسير ولا حركة فضلان غيرهما وهذه مدة يسيرة من الزمان فكيف اذا اعتد الزمان وتضاعف الناس على هذه النسبة * فهذا حال من يتبنى الحياة الابدية للبدن ويكره الموت ونظن أن ذلك ممكن أو مطموع فيه من الجاهل

والغباوة فاذا الحكمة بالغتو العدل المبسوط بالتدبير الالهي هو الصواب الذي لا معدل عنه ولا يحصى منه وهو غاية الجود الذي ليس وراءه غاية أخرى لطالب مستزيد وأراغب مستفيد * والخائف منه هو الخائف من عدل الباري وحكمته بل هو الخائف من وجوده وعظامته * ٢١٤ فقد ظهر ظهور احسان الموت ليس بردي كما يظنه جمهور

التغلب للضعيف * وحكي ابن عون أن عمر بن عبد الله اشترى الحسن البصري ازارا بستة دراهم ونصف فاعطى التاجر سبعة دراهم فقال ثمنه ستة دراهم ونصف فقال اني اشترى به رجل لا يقاسم أحادهما ومن الناس من يرى أن المساهلة في العقود عجز وأن الاستقصاء فيها حزم حتى أنه ليتنافس في الحقير وأن جادبا لجليل الكثير كالذي حكى عن عبد الله بن جعفر وقدما كس في درهم وهو يجود بما يجوده فقيل له في ذلك فقال ذاك مالي أجوده وهذا عقلي يخاف به وهذا أغنياساغ من أهل الرودة في دفع ما يجادهم به الا دنياء وبغايتهم به الاشياء وهكذا كانت حال عبد الله بن جعفر فاما مساهلة الاستئصال والاستسماح فكلالانه منافع للكرم ومباين للرودة وأما الحقوق فتتنوع المسامحة فيها نوعين أحدهما في الاحوال والثاني في الاموال فاما المسامحة في الاحوال فهو اطراح المنازع في الرب وترك المنافسة في التقدم فان مشاحة النفوس في اعظم والعناد عليها أكثر فان سماح فيها ولم ينافس كان مع أخذه بأفضل الاخلاق واستعماله لاجتناب الآداب أو وقع في النفوس من افضاله برغائب الاموال ثم هو أزدى رتبة وأبلغ في تقدمه وان شاح فيها نازع كان مع ارتكابه لاجتناب الاخلاق واستعماله لاجتناب الآداب أنكى في النفوس من حد السيف وطعن الله أن ثم هو أخفض للرتبة وأمنع من التقدم حكى أن فتى من بني هاشم تخطى رقاب الناس عند ابن أبي داود فقال يا بني ان الآداب مبرات الاشراف ولست أرى عندك من سلفك ارضا وأما المسامحة في الاحوال فتتنوع ثلاثة أنواع مسامحة اسقاط لعدم مسامحة تخفيف لجزء ومسامحة انكار لعسرة وهي مع اختلاف أسبابها تفضل ما تور وتألف مشكور واذا كان الكرم قد يجود بما يحويه بيده ويتغذى تصرفه كان أولى أن يجود بما خرج عن يده فطاب نقس ابفراقه وقد فصل المسامحة في الحقوق الى من لا يقبل البر ويأبى الصلة فيكون أحسن موقفا وأزكى محلا وربما كانت المسامحة فيها آمن من رد السائل ومنع المجتدى لان السائل كما اجتأ على سؤالك فسيجترأ على سؤال غيرك ان رددته وليس كل من صار أسير حقله ورهين دينك يجذب ادم مسامحتك ومياسرته ثم لك مع ذلك حسن الثناء وجزيل الاجر وقال محمود الوراق رحمه الله

المربع بعد الموت احلوة * يفتى وتبقى منه آثاره

فأحسن الحالات حاله ربي * تطيب بعد الموت أخباره

فهذه حال المياسرة وأما الفضائل فنوعان افضال اصطناع وافضال استسقاء ودفاع فاما افضال الاصطناع فنوعان أحدهما ما أسد جودا في شكور والثاني ما تألف به نبوة تنفوز وكلاهما من شروط المرأة فلما فيهما من ظهور الاصطناع وترك الاشباع والاتباع ومن

الناس وانما الردي هو الخسوف منه وان الذي يخاف منه هو الجاهل به وبذاته * وقد ظهر ايضا فيما تقدم من قولنا ان حقيقة الموت هي مفارقة النفس البدن وهذه المفارقة ليست قسادا للنفس وانما هي فساد المتركب * وأما جواهر النفس الذي هو ذات الانسان ولبه وخلاصته فهو باق وليس يحسم فيلزم فيه ما لزم في الاجسام مما أوردناه قبيل * بل لا يلزمه شيء من اعراض الاجسام أي لا يترشح في المكان لاستغنائه عن المكان ولا يحرص على البقاء الزماني لاستغنائه عن الزمان وانما استفاد بالجواهر والاجسام كالا فاذا كمل بها ثم خلس منها صار الى عالمه الشريف القريب الى بارئه ومنشئه تعالى وتقدس وهذا الكمال الذي يستفيد في هذا العالم الحسي قد بيناه وعرفناك الطريق اليه بما سلف من القول في هذا الباب وانه السعادة

القصوى للانسان وأعلمناك صفته الذي هو الشقاء الاضي له وبيننا مع ذلك مراتب السعادة ومنازل البرار ودرجاتهم من رضوان الله وحبته التي هي دار اقرار كما بينا لك اضدادها من مخطئه ودرجاتهم من النار التي هي الهاوية بلا قرار نسأل الله حسن المعونة على ما يقر بتمامه ويبيعدنا من مخطئه انه جواد كريم وف رحيم

قلت

علاج الحزن الحزن الم نفساني يعرض لفقد محبوب أو فوت مطلوب * وسببه الحرص على القنيات الجسمانية والشره إلى الشهوات البدنية والحسرة على ما يفقده أو يفوته منها وأغما يحزن ويحزع على فقد محبوباته وفوت مطلوباته من يظن أن ما يحصل له من محبوبات الدنيا يحوز أن

٢١٥

قلت صنائع في الشاكرين وأعرض عن تألف النافرين كان فردا مهجورا و تابعا محقورا ولا امر وأملوك مطروح ولا قدر لمحتوم مهتضم * وقال عرب بن عبد العزيز ما طار عن الناس على شيء أردته من الحق حتى بسط لهم طرفا من الدنيا * وقال بعض الحكماء أقل ما يجب للنجم بحق نعمته أن لا يتوصل بها إلى معصيته * وأنشدت لبعض الأعراب من جمع المال ولم يجده * وترك المال لعالم جده * هان على الناس هو أن كلبه *

وقال اسحق بن إبراهيم الموصلي

يسقي الشئاء وتذهب الأموال * ولكل دهر دولة ورجال

مانال حمدة الرجال وشكرهم * إلا الجواد بحاله المفضل

لأرض من رجل حلاوة قوله * حتى يصدق ما يقول فعالة

فإن ضاقت به الحال عن الاصطناع بحاله فقد عدم من آله المكارم عمادها وقد من شرط المروءة سنادها فليواس بنفسه ومواساة المساعف وليس عليها أسعادات المتألف قال المتنبي

* فليسعد النطق أن لم تسعد الحال *

وإن كان لا يراها وإن أحدها لا تبع المفضلين فذلك بين المكثرين فإن الناس لا يساوون بين المعطي والمنع ولا يتقهم القول دون الفعل ولا يغيثهم الكلام عن المال ويرويه كالصدي أن ردصو تالم يجده نفعا كما قال الشاعر

يجود بالوعد ولكنه * يدهن من قارورة فارغة

فكل ما خرج عندهم عن المال كان فارغا وكل ما عدا الفضل به كان هينا وقد قدمنا من القول في شروط الفضل ما أتفق وأما الفضل الاستكفاف فلأن ذا الفضل لا يقدم حاسدا نعمة ومعانيد فضيلة يعتريه الجهل باطهار عناده وبيعته اللوم على البذى بسفهه فان غفل عن استكفاف السفهاء وأعرض عن استدفاع أهل البذاء صار عرضه هذا للثالب وحاله عرضة للنوائب وإذا استكف السفهاء واستدفع البذى صان عرضه وحى نعمته * وقدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما وقي به المرء عرضه فهو صدقة وقالت عائشة رضي الله عنها ذنوبا بأموالكم عن أحسابكم وأمتدح رجل الزهري فأعطاه قبضة فقال له رجل أعطى على كلام الشيطان فقال من ابتغى الخيراتقى الشر ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم من أراد بر الوالدین فليعط الشراء وهذا صحيح لأن الشر مستتر يستتر به ما ضمن من مدح أو هجاء ومن أجل ذلك قيل لا تواخ شاعرا فإنه يمدحك بمن ويهجوك بمجانا ولا استكفاف السفهاء بالافضل شرطان أحدهما أن يخفيه حتى لا ينتشر فيه مطامع السفهاء فيتوصلون إلى

ما يطلبه من مفقوداتها لا بد أن يحصل له ونصير في ملكه فاذا أنصف نفسه واعلم أن جميع ما في عالم الكون والفساد غير ثابت ولا باق وإنما الثابت الباقي هو ما يكون في عالم العقل لم يطمع في المحال ولم يطلبه وإذا لم يطمع فيه لم يحزن لفقد ما يهواه ولا لفوت ما يتمناه في هذا العالم ومصرف سعيه إلى المطوبات الصافية واقتصر بهمته على طلب المحبوبات الدائمة وأعرض عما ليس في طبعه أن يشت ويقتى وإذا حصل له من شئ ثابر إلى موضعه في موضعه وأخذ منه مقدار الحاجة إلى دفع الآلام التي أحصيناها من الجوع والعري والضرورات التي تشبهها وترك الأذخار والاستكثار والتماس المساهاة والافتخار ولم يحدث نفسه بالمكثرة بها والتفتي لها * وإذا فارقت لم بأسف عليها ولم يبال بها فان من فعل ذلك أمن فلم يحزن وفرح فلم يحزن وسعد فلم يشق * ومن لم يقبل هذه الوصية ولم يعالج

نفسه بهذا العلاج لم يزل في جزع دائم وحزن غير متقص * وذلك أنه لا يعدم في كل حال فوت مطلوب أو فقد محبوب وهذا لازم لما هنا لأنه عالم الكون والفساد ومن طمع من الكائن الفاسد أن لا يكون ولا يفقد فقد طمع في المحال * ومن طمع في المحال لم يزل خائبا واثابا بده الحزن والحزن شقي * ومن استشعر بالعادة الجميلة ورضى بكل ما يجده ولا يحزن لشي

يفقد له لم يزل مسرورا سعيدا فان ظن طان ان هذا الاستشعار لا يتم له أولا يتفزع به فلينظر الى استشعارات الناس في مطالعهم ومعايشهم واختلافهم فيه بحسب قوة الاستشعار فانه سيرى روية بينة ظاهرة فرح المتعيشين بمعايشهم على تفاوتها * وسرور اصحاب الحرف المختلفة ٢١٦

اجتذابه بسسه والى ماله ثلثه والثاني ان يتطلب له في المجاملة وجهه ويحمله في الافضل عليه سيما انه لا يرى انه على السفة واستدامة البذاء واعلم انك ما حيت ملحوظ المحاسن محفوظ المساوى ثم من بعد ذلك حديث منتشر لا راقبل صدق ولا يحصى عنك شقيق فكيف احسن حديث ينشر يكن مهيك في الناس مشكورا واجرك عند الله مذخورا * فقد روى زياد بن الجراح عن عمر بن ميمون انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اغتنم خصال خمس شيائك قبل هزلك ويحتملك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك فهذا ما اقتضاه هذا الفصل من شروط المروءة وان كان كل كتابنا هذا من شروطها وما اتصل بمحقوقها والله سبحانه وتعالى اعلم

الفصل الثامن في آداب نشورة اعلم ان آداب مع اختلافها ينتقل الاحوال وتغير العادات لا يمكن استيعابها ولا يقدر على حصرها وانما نذكر كل انسان ما يلبه الواسع من آداب زمانه واستحسن بالعرف من عادات دهره ولو امكن ذلك لكان الاول قد اغنى الثاني عنها والمتقدم قد كفى المتأخرت كلفها وانما نحاذر الاخير ان يتعاني حفظ الشارود وجمع المفسر ثم يعرض ما تقدم على حكم زمانه وعادات وقته فيثبت ما كان موافقا ويضي ما كان مخالفا ثم يستدخره في استنباط زيادة واستخراج فائدة فان اسعف بشئ فاز بدره وحظي بفضيلته ثم يعبر عن ذلك بما كان ما لو ما من كلام الوقت وعرف اهلها فان لاهل كل وقت في الكلام عادة تؤلف وبعبارة تعرف ليكون اوقع في النفوس واسبق الى الافهام ثم يرتب ذلك على اوائله ومقدماته ويثبت على اصوله وقواعده حسبما يقتضيه الجنس فان لكل نوع من العلوم طريقة هي اوضح مسلكا واسهل مأخذا فهذه خمسة شروط هي حظ الاخير فيما يعاينه وكذلك القول في كل تصنيف مستحدث ولو لا ذلك لكان تعاطي ما تقدم به الاول عناء ضائع وكفا متهيجا ونرجوا الله ان عبدنا بالتوفيق لتأدية هذه الشروط وتنهضا للمعونة بتوفيق هذه الحقوق حتى نسلم من ذم التكلف ونبرأ من عيوب التقصير وان كان اليسير مغفورا والخاطي معذورا فقد قيل من صنف كتابا فقد استهدف فان احسن فقد استعطف وان اساء فقد استغنى وقدمت ابواب تضمنت فصولا رأت اتباعها بالمال احب الاخلال به من ذلك حال الانسان في ما كله ومشر به فان الداعي الى ذلك شيان حاجة ماسة وشهوة باعثة فاما الحاجة فتدعو الى ما سد الجوع وسكن الظما وهذا مندوب اليه عقلا وشرعا لما فيه من حفظ النفس وحراسة الجسد ولذلك ورد الشرع بالنهي عن الوصال بين صوم اليومين لانه يضر النفس والجسد ويقتضي النفس ويجزع عن العبادة وكل ذلك يمنع منه الشرع ويدفع عنه العقل وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة حظ من بر ولا نصيب من زهد لان ما حرما من فعل

فانه لا يخفى عليه فرح الناصر بتجارته والخندي بشجاعته والمقامر بقمارة والشاطر بسطارة والخنثي بخنثه حتى يظن كل واحد منهم ان الغنوة من عدم تلك الحالة حتى فقد بهجتها والخنثي من غبي عنها هزله لذتها وليس ذلك الا لقوة استشعار كل طائفة بحسن مندها وزومها اياها بالعادة الطويلة واذا لم طالب الفضيلة مذهبه وقوى استشعاره وحسن رايه وطالت عادته كان اول بالسرو من هذه الطبقات الذين يحبطون في جهالاتهم وكان احظا بهم بالتعم المقيم لانه محق وهم مبطلون * وهو متيقن وهم ظنون ثم هو صحيح وهم مرضي * وهو سعيد وهم اشياء * وهو ولي الله عز وجل وهم اعداؤه وقد قال الله عز وجل قائل (الان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقال الكندي في كتاب دفع الاخوان * بما يدلك دلالة واضحة ان

الطاعات

الحرز شئ يجلبه الانسان ويضعه وضعا وليس هو من الاشياء الطبيعية ان من فقد مملكا او طلب امر اقل يجده الحق محزون ثم نظري في حرته ذلك نظرا حكما وعرف ان اسباب حرته هي اسباب غير ضرورية وان كثيرا من الناس ليس لهم ذلك الملك وهم غير محزونين بل فرحون مغبوطون علم علما لا ريب فيه ان الحرز

الطاعات بالعجز والضعف أكثر ثواباً وأعظم أجراً إذ ليس في ترك المباح ثواب يقابل فعل الطاعات واثبات القريب ومن أخسر نفسه برحامه فوراً أو أرحمها أجراً مذخوراً كان زهده في الخير أقوى من رغبته ولم يبق عليه من هذا التكليف إلا الشهوة بريئة وسعته وأما الشهوة فتشتمل على نوعين شهوة في الأكل والشرب و شهوة في تناول الأثواب المملوءة فاما النوع الأول وهو شهوة الأكل زيادة على قدر الحاجة والآخر على مقدار الكفاية فهو ممنوع عنه في العقل والشرع لأن تناول ما زاد على الكفاية يفسد معدته ويضره * وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إياكم البطنة فإنها مفسدة للدين موروثة للسقم مكسلة عن العبادات وقال علي رضي الله عنه إن كنت بطناً فقد نفستك زماناً وقال بعض البلغاء أقلل طعاماً تحمد مناً ما وقال بعض الأدباء الرغب لئوم والنهم شؤم * وقال بعض الحكماء أكبر الدواء تقدير الغذاء وقال بعض الشعراء

فكم من لذة منعنت أخاها * بلذة ساعة كلات دهر

وكم من طالب يسى لاهي * وفيه هلاك لو كان يدرى

وقال آخر

كم دخلت أكلة حشاشه * فأخرجت روحه من الجسد

لأبارك الله في الطعام إذا * كان هلاك النفوس في المجد

ورب أكلة هاضت أكلوا حرمته ما أكل * روى أبو يزيد المدني عن عبد الرحمن بن المرقع قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله لم يخلق وعاء ملي شراب من بطن فإن كان لا بد فاعلا فاجعلوا ثلثاً للعام وثلثاً للشرب وثلثاً للريح وأما النوع الثاني وهو شهوة الأشياء المملوءة ومنها عذبة النفوس إلى طلب الأنواع الشهية فإدخالها للناس في تمكن النفس فيها يختلف فبعضهم من يرى أن صرف النفس عنها أولى وقهرها عن اتباع شهواتها أولى لئلا يضل لهداها ويهون عليه عنادها لأن تمكنها وما تهوى بطر يبطي وأثر يردى لأن شهواتها غير متناهية فإذا أعطاها المراد من شهوات وقتها تعدت إلى شهوات قد استحدثتها فيصير الإنسان أسير شهوات لا تتقضى وعدهوى لا ينتهى ومن كان بهذه الحال لم يرج له صلاح ولم يوجد فيه فضل وأنشدت لى الفتح البستي

يا خادماً للجسم كم تشقى بخدمته * لتطلب الرخ مما فيه خسران

أقبل على النفس واستكمل فضائلها * فانت بالنفس لا بالجسم إنسان

والحذر من هذه الحال ما حكي أن أباحر رحمه الله كان يمر على الفاكهة فيشتتها فيقول موعذك الجنة وقال آخر تمكن النفس من لذاتها أولى وأعطوا ما اشتبهت من المباحات أخرى لما فيه من ارتياح النفس ببيل شهواتها ونشاطها بادر إذا تها فتخسر عنها ذلة المقهور بولادة الجبور ولا تنصر عن درك ولا تعصى في فتنه ولا تكل عن استعانة وقال آخرون بل توسط الأمرين أولى لأن في إعطائها كل شهواتها بلادة والنفس البليدة عاجزة وفي منعها عن البعض كف لها عن السلاطة وفي تمكنها من البعض حسم لها عن البلاده وهذا المعنى أشبه المذاهب بالسلام لأن التوسط في الأمور أحسن وأقدم

ليس بضروري ولا طبعي
وإن من خزن من الناس
وجلب لنفسه هذا
العارض فهو لا محالة
سيسلو ويعود إلى حاله
الطبعي فقد شاهدنا قوماً
فقدوا من الأولاد والاعزة
والاصدقاء ما اشتد خزنهم
عليه ثم يلبثوا أن يعودوا
إلى حالة المسرة والضج
والغبطة وبصير ون إلى
حال لم يحزن قط
ولذلك نشاهد من يفقد
المال والضياع وجميع
ما يقتنيه الإنسان مما يعز
عليه يحزنه فانه لا محالة
ينسى ويزل خزنه ويعاد
أنسه واغتباطه فالعقل
إنما نظر إلى أحوال الناس

الكلام في المأ كول والمشر وب فينبغي أن يتبع بذ كر الملبوس اعلم أن الحاجة وإن كانت في المأ كول والمشر وب أدعى فهي إلى الملبوس ماسة بها إليه فاقه لما في الملبوس من حفظ الجسد ودفع الأذى وستر العورة وحصول الزينة قال الله تعالى يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير فغنى قوله أنزلنا عليكم لباسا أي خلقنا لكم ما تلبسون من الثياب يواري سوآتكم أي يسترعو رأتكم وسميت العورة سوأ لأنه يسوء صاحبها انكشافها من جسده وقوله وريشا فيه أربعة تأويلات أحدها أنه المال وهو قول مجاهد والثاني أنه اللباس والعيش والنعم وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما والثالث أنه المعاش وهو قول معبد الجهني والرابع أنه الجمال وهو قول عبد الرحمن بن زيد وقوله ولباس التقوى فيه ستة تأويلات أحدها أن لباس التقوى هو الإيمان وهو قول قتادة والسدي والثاني أنه العمل الصالح وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما والثالث أنه السمعة الحسن وهو قول عثمان بن عفان رضي الله عنه والرابع هو خشية الله تعالى وهو قول عروة بن الزبير والخامس أنه الحياء وهذا قول معبد الجهني والسادس هو ستر العورة وهذا قول عبد الرحمن بن زيد وقوله ذلك خير فيه تأويلان أحدهما أن ذلك زاجع إلى جميع ما تقدم من قوله قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ثم قال ذلك خير أي ذلك الذي ذكرته خير كله والثاني أن ذلك زاجع إلى لباس التقوى ومعنى الكلام وإن لباس التقوى خير من الرأس واللباس وهذا قول قتادة والسدي فلما وصف الله تعالى حال اللباس وآخره مخترج الامتنان علم أنه معونة منه لشدة الحاجة إليه وإذا كان كذلك ففي اللباس ثلاثة أشياء أحدها دفع الأذى والثاني ستر العورة والثالث الجمال والزينة فإدفع الأذى به فواجب بالعقل لأن العقل يوجب دفع المضار واجتناب المنافع وقد قال الله تعالى والله جعل لكم ما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سراويل تقيكم الحر وسراويل تقيكم بأسكم فأخبر بحالها ولم يأمر بها اكتفاء بما تقتضيه العقل واستغناء عما يبعث عليه الطبع ويعنى بالظلال الشجر وبالأكنان جمع كن وهو الموضع الذي يستكن فيه ويعنى بقوله سراويل تقيكم الحر ثياب القطن والكتان والصوف وبقوله وسراويل تقيكم بأسكم الدروع التي تقي البأس وهو الحرب فإن قيل كيف قال تقيكم الحر ولم يذكر البرد قال جعل لكم من الجبال أكنانا ولم يذكر السهل فمن ذلك جواب أن أحدهما أن القوم كانوا أصحاب جبال وخيام فذكر لهم الجبال وكانوا أصحاب خدود برد فذكر لهم نعمته عليهم فيما هو مختص بهم وهذا قول عطاء والجواب الثاني أنه اكتفاء بذكر أحدهما عن ذكر الآخر إذ كان معلوما أن السراويل التي تقي الحر أيضا تقي البرد ومن اتخذ من الجبال أكنانا اتخذ من السهل فإدفع الأذى به فواجب بالعقل لأن العقل يوجب سترها بالعقل لما في ظهورها من القبح وما كان ينجح بالعقل مانع منه ألا ترى أن آدم وحواء لما أكلتا من الشجرة التي نهى عنها أيدت لهما سوآتهما وطقفا يخصقان عليهما من ورق الجنة تنبها لبقولهما في ستر ما رآياه مستحجا من سوآتهما لأنهما لم يكونا قد اكتفيا ستر ما لم يبدل لهما ولا اكتفاه بعد أن بدلت لهما وقيل سترها

في الحزن وأسبابه * علم أن ليس يختص من بينهم بمصيبة غريبة ولا يتميز عنهم بمحنة بدية وإن غابته من مصيبتة السوء وأن الحزن هو مرض عارض مجرى مجرى سائر الرذائل فلم يضع لنفسه عارضا رديشا ولم يكتب مراضا وصعبا أعنى بحتلها غير طبيعى * وينبغي أن ننذر كما قد مرنا ذكره من حال من يحيا بغيره على أن يشمها ويستمع بها ثم يردّها لبشها غيره ويستمع بها سواء فأطعمته نفسه فيها وطن أنها موهوبة له هبة أبدية فلما أخذت منه حزن وأسف وغضب فان

كما قال المتنبي

لا تنجبن مضيفا محسن برته * وهل يروق دفيناً جودة الكفن
وحكى المبرد أن رجلاً من قريش كان إذا اتسع لبس ارت ثيابه وإذا ضاق لبس أحسنها فقيل
له في ذلك فقال إذا اتسعت ترتبت بالجود وإذا ضقت فبالهيشة وقد أنى ابن الرومي بالبلغ من
هذا المعنى في شعره فقال

وما الخلى الأزيئة للنقيصة * يتمم من حسن إذا الحسن قصر
فأما إذا كان الجمال موفراً * لحسنك لم يحتاج إلى أن يزوراً
وإن ذلك قالت الحكماء ليست العزة في حسن البرة وقال بعض الشعراء
وترى سقيه القوم يدنس عرضه * سفهاً ومسح نعله وشراً كهـ

وإذا اشتد كلفه برعاة لباسه قطع ذلك عن مرعاة نفسه وصار للبوس عنده أنفوس وهو
على مرعاة أحرص وقد قيل في منثور الحكم البس من الثياب ما يخدمك ولا يستخدمك
وقال خالد بن صفوان لا يأس بن معاوية أراك لا تنال ما ليست فقال أليس ثوباً أقي به نفسي
أحب إلى من ثوب أقمه بنفسي فكأنه لا يكون شديد الكلف بها فكذلك لا يكون شديد
الاطراح لها فقد حكى عن ابن عائشة أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إليه
رث الهيئة فقال ما مالك قال من كل المال قيداً نأى الله فقال أن الله تعالى يحب إذا أنعم على
امرئ نعمته أن ينظر إلى أثرها عليه وقد قيل المروءة الظاهرة في الثياب الظاهرة وهكذا
القول في علمائه وحشمة أن اشتد كلفه بهم صار عليهم فيما ولهم خداماً وأن اطرحهم قل
رشادهم وظهر فسادهم فصاروا سبباً لمقتله وطريقاً إلى ذمه لكن يكفهم عن سيئ الأخلاق
ويأخذهم بأحسن الآداب ليكونوا كما قال فيهم الشاعر

سهل الغناء إذا مررت بياحه * طلق اليمين مؤدب الخدام

وليكن في تفقد أحوالهم على ما يحفظ فحمله ويصون ممتدله فقد روى عن النبي صلى
الله عليه وسلم أنه قال اذهب البؤس عنكم والبسوا تظهر نعمة الله عليكم وأحسنوا
إلى مما يليكم فإنه أكتب لعدوكم وليتوسط فيهم ما بين حالي اللين والخشونة فإنه إن لآن
هان عليهم وإن خشن مقتوه وكان على خطر منهم حكى أن الموبذ سمع نكاح الخدام في
مجلس أنوش وان فقال أمانع هؤلاء الثلبان فقال أنوش وإن اغتابهم بها أنا أعداؤنا وقال
أبو تمام الطائي

حشم الصديق عيوبهم بحاجة * لصديقهم عن صدقه ونفاقه

فلينظرن المرأة من علماته * فهم خلائقه على أخلاقه

واعلم أن للنفس حالتين حالة استراحة إن حرمتها إياها كالت وحالة تصرف إن أرحتها فيها
فخلت فالأولى بالإنسان تقدير حاله حال نوم ودعته وحال تصرفه وبطلته فان لم يقدر
محدوداً وزماناً مخصوصاً يضرب بالنفس مجاوزة أحدهما وتغير زمانهما فقد روى عن
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال نومة الصبيحة مجحزة من منجحة كسلة موزمة من مشقة منسأة
للحاجة وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما النوم ثلاثة نومة خرق وهي الصبيحة ونوم

* وسواء كانت هذه
الخبرات من قناتنا وما
ملكناه أو عالم تقتنه
ولم تغلبك لان الجميع
مشترك للناس وهي
ودائع الله عند خلقه
وله أن يرفع العارية متى
شاء على يدهم شاء ولا
سبيته علينا ولا عار إذا
رددنا الودائع وأما العار
والسبيته أن تحزن إذا
ارتفعت منا وهو مع ذلك
كفر للنعمة لأن أفضل
ما يجب من الشكر للنعمة
أن ترد عليه عارية عنه عن
طيب نفس وتسرع إلى
أجابته إذا استردوها ولا
سيما إذا ترك المعبر علينا
أفضل ما أعارنا وأرتفع
أخسه قال وأعني بالفضل
مالاتصل اليه يدولا

خلق وهي القائلة ونوم حق وهو العشي وقدرى محمد بن بزdan عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نوم الضحى خرق والقبولة خلق ونوم العشي حق وقيل في مثو رالحكم من زما الر كاد عدم المراد فاذا أعطى النفس حقها من النوم والذعة واستوفى حقها بالتصرف والقفظة خلص بالاستراحة من عجزها وكلاهما وسلم بالياضة من بلادتها وفسادها وحكى أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على أبيه فوجده نائما فقال يا أبت أستم والناس بالباب فقال يا بني نفسي مطيى وأكره أن أتعبا فتقوم بي وينبغي أن يقسم حاله تصرفه ويوقفه على المهم من حاجاته فان حاجة الانسان لازمة والزمان يقصر عن استيعاب المهم فكيف به أن تجاوزاى ما ليس بهم هل يكون الا

كتاركة يصفها بالعراء * ومليسة بيض أخرى جناحا

ثم عليه أن يتصفح في ليله ما صدر من أفعال نهاره فان الليل أخطر للخطر وأجمع للفكر فان كان مجودا أمضاء وأتمه عما شاكله وضاهاه وان كان مذموما استدركه ان أمكن وانتهى عن مثله في المستقبل فانما إذا فعل ذلك وجد أفعاله لا تنقل من أربعة أحوال اما ان يكون قد أصاب فيها الغرض المقصود بها أو يكون قد أخطأ فيها فوضعتها في غير موضعها أو يكون قصر فيها فنقصت عن حدودها أو يكون قد زاد فيها حتى تجاوزت حدودها وهذا التصفح اغماها واستظهار بعد تقديم الفكر قبل الفعل ليعلم به مواقع الاصابة ويتجنب به استدراك الخطأ وقد قيل من كثر اعتباره نزل عثاره وكما يتصفح أحوال نفسه فكذلك يجب أن يتصفح أحوال غيره فربما كان استدراكه الصواب منها أسهل بسلامة النفس من شبهة الهوى وخلو الخاطر من حسن التلذذ فان ظفر بصواب وجده من غيره أو أعجبه جيل من فعله بن نفسه بالعمل به فان السعيد من تصفح أفعاله غيره فاقتردى باجسها وانتهى عن سيئها وقدر ويزيد بن خالد الجهني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال السعيد من وعظ غيره وقال الشاعر

ان السعيد له من غيره عظة * وفي التجارب تحكيم ومعتبر

وان تشد بعض أهل العلم لظاهر بن الحسن

إذا أعجبتك خصال امرئ * فكنه يكن ملكا يجهل

فليس على المجد والمكرامات * اذا جئتها جاب مجيبات

فاما ما رومهم من أعماله ويؤثر الاقدام عليه من مطالبه فيجب أن يقدم الفكر فيه قبل دخوله فان كان الر جاءه أغلب من الاياس منه وجدت العاقبة فيه سلكه من أسهل مطالبه والطف جهاته وبقد شرفه فيكون الاقدام وان كان الاياس أغلب عليه من الر جاء مع شدة التعزير ودناءة الامر المطلوب ليجذر أن يكون له متعرضا فتدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا هممت بما هم فكر في عاقبته فان رشد ا فاضنه وان كان غيا فاتمعه وقالت الحكماء طلب ما لا يدرك عجز وقال بعض الشعراء

فاياك والامر الذي ان توسعت * موارد ضاقت عليك للمصادر

فما حسن أن يعذر المرء نفسه * وليس له من سائر الناس عاذر

بشر كنا فيه أحد أعنى
النفس والعقل والفضائل
الموهوبة لنا هبة لا تسترد
ولا ترجع ويقول ان
كان ارجع الاقل الاخس
كما اقتضاء العدل فقد أبقى
الاكثر الافضل وانه لو
كان واجبا ان نحزن على
كل ما نقتضه لو جاب ان
نكون أبدا محزونين
فينبغي للعقل ان لا يفكر
في الاشياء الضارة المؤلمة
وان يقل القنية بما استطاع
اذ كان فقد هاسبا للاحزان
وقد حكى عن سقراط انه
سئل عن سبب نشاطه
وقبله حبه فقال لا نني
لا أقتنى ما اذا فقدته خربت
عليه واذا قد ذكرنا أجناس
الأمراض الغالبة التي

وليعلم أن لكل حين من أيام عمره خلقا وفي كل وقت من أوقات دهره عملا فان تخلق
في كبره باخلاق الصغر وتعاطى أفعال الفكاكه والبطرا استصغره من هو أصغر وحقره
من هو أقل وأحقر وكان كالمثل المضروب بقول الشاعر

وكل باز يحسه هيرم * تخفى على رأسه العصافير

فكن أيها العاقل مقبلا على شأنك زاضيا عن زمانك سلما لاهل دهرك جارا على عادة
عصرك متقادا لمن قدمه الناس عليك مهتئنا على من قدمك الناس عليه ولا تباينهم
بالعزلة عنهم فيمقتول ولا تباهرهم بالمخالفة لهم فيعادوك فانه لا عيش لمقوت ولا راحة
لعادي وأنشد بعض أهل الادب بعضهم

إذا اجتمع الناس في واحد * وخالفهم في الرضا واحد

فقد دل اجماعهم دونه * على عقله أنه فاسد

واجعل نصع نفسك غنية عقلك ولانداها باخفاء عييك واظهار عذرک فيصير عذرك
أحظى منك فيزجر نفسه بانكارك ومجاهرتك من نفسك التي هي اخص بك لا غرائك لها
باعدادك ومساءك فكسبك سوء أرجل يقع عدوه ويضر نفسه * وقال بعض الحكماء أصلي
نفسك لنفسك يكن الناس تبعالك * وقال بعض البلغاء من أصلي نفسه أرغم أنف أعاديه
ومن أعمل جده بلغ كنه أمانيه وقال بعض الادباء من عرف معابه فلا يلزم عابه
وأنشدني أبو ثابت الحوري لبعض الشعراء

ومصر وفتعينا عن عيب نفسه * ولو بان عيب من أخيه لأبصر

ولو كان ذا الانسان ينصف نفسه * لأمسك عن عيب الصديق وقصرا

فهذب أيها الانسان نفسك بأفكار عيوبك وانفعها كتفك لعدوك فان لم يكن له
من نفسه ونعظ لم تنفعه المواعظ أعاننا الله وإياك على القول بالعمل وعلى النصيح بالقبول
وحسبنا الله وكفى

بمحمد بن الرشد من التي ولم يفرط في الكتاب من شيء

تم كتاب أدب الدنيا والدين للعلامة أبي الحسن علي الماوردي البصري بهجة المحققين
وهو الكتاب الجامع لقرائد الآداب الغني بشهرته عن المدح والأطياب الجديد ينشر

عرفه على عموم البرية لتخلق بمافيها من الاخلاق المرضية وعلى هامشه

الكتاب المسمى تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق للشيخ ابن

مسكويه وذلك بالطبعة العاصرة الادبية بسوق

الحضار القديمة بمصر المحمية سنة ١٣١٨

هجريه على صاحبها أفضل

الصلاة وأزكى

العيه

تخص النفس وأشرنا إلى
علاجها واولد لنا على شفاها
فليس يتعذر على العاقل
المحب لنفسه الساعي لها
فيما يخصها من الآمالها
ويجيبها من مهالكها ان
يتصنع الامراض التي
تحت هذه الاجناس من
أنواعها وأشخاصها
فيسداوى بنفسه منها
وبعلاجها عقابا لانتها من
العلاجات الرغية إلى الله
عز وجل بعد ذلك في
التوفيق فان التوفيق
مقرون بالاجتهاد وليس
يتم أحدهما الا بالآخر * هذا
آخر المقالة السادسة وهي
تمام الكتاب الحمد لله
رب العالمين والصلاة على
النبي محمد وآله وأصحابه
أجمعين وحسبنا الله ونعم
المعين

﴿ فهرست كتاب أدب الدنيا والدين لأبي الحسن البصري ﴾

يقف

خطبة الكتاب	
(باب فضل العقل وذم الهوى)	
فصل وأما الهوى فهو عن الخير صاذا الخ	
(باب أدب العلم)	
فصل واعلم أن للعلوم أوائل تؤدي إلى أوخرها	
فصل وسأذكر طرعا مما يتأدب به المتعلم ويكون عليه العالم	
فصل فأما ما يجب أن يكون عليه العلماء من الاخلاق الخ	
(باب أدب الدين)	
(باب أدب الدنيا)	
فصل وأما ما يصلح به حال الانسان فيها	
فصل وأما المؤاخاة بالموعدة الخ	
فصل وأما البر الخ	
(باب أدب النفس) وهو الخامس من الكتاب * وفيه ستة فصول	
الفصل الاول في محاربة الكبر والاعجاب	
الفصل الثاني في حسن الخلق	
الفصل الثالث في الحياء	
الفصل الرابع في الحلم والعفة	
الفصل الخامس في التلق والكتب	
الفصل السادس في الحسد والمنافسة	
فصل وأما آداب المواضعة والاصلاح * وفيه ثمانية فصول	
الفصل الاول في الكلام والصمت	
الفصل الثاني في الصبر والجزع	
الفصل الثالث في المشورة	
الفصل الرابع في كتمان السر	
الفصل الخامس في المزاح والفضح	
الفصل السادس في الطيرة والقأل	
الفصل السابع في المروعة	
الفصل الثامن في آداب متشورة	
(تمت الفهرست)	

﴿ فهرست كتاب تهذيب الاخلاق والاعراق الذي له المصنف ﴾

مقدمه	صحيفة
ترجمة المؤلف	١٢٣ السعادة
٢ خطبة الكتاب	١٢٨ رأى المؤلف في السعادة
٤ تعريف النفس	١٣١ أول رتب الفضائل
١٦ شوق النفس إلى أفعالها الخاصة بها	١٣٣ آخرها رتب الفضائل
٢٢ الحرص على الخيرات	١٣٧ الرتبة الأولى من السعادة الأخيرة
٣١ تعريف الحكمة	١٤٠ رأى أرسطو طالس في بقاء النفس
٣٢ تعريف العدالة	١٤٣ لذة السعادة
٣٥ الفضائل التي تحت العفة	١٤٦ ظهر الفضائل مجسم ليس بسم ولا فاضل
٣٦ الفضائل التي تحت الشجاعة	١٥١ الحاجة إلى المال واكتسابه بالطريق
٣٨ الفضائل التي تحت السخاء	١٥١ الشريفة العادلة
٣٩ الفضائل التي تحت العدالة	١٥٣ مواضع العدالة
٥٤ الخلق	١٥٤ لزوم الشريعة في المعاملات
٦٣ الشريعة	١٥٦ الامام العادل
٧٢ الفلسفة	١٥٦ أسباب المضرات
كمال الانسان في الذات المعنوية	١٥٧ تقسيم العدالة
٨٦ قوى النفس الثلاث	١٥٩ ما يحب على الانسان من الخلق
٩٨ الواجب على العاقل	١٦٠ أسباب الانقطاع عن الله
١٠٣ النفوس الثلاث	١٦٢ مسألة عويصة أولى
١٠٦ سياسة النفس العاقلة	١٦٤ مسألة عويصة ثانية
١٠٨ تأديب الأحداث والصبيان	١٦٥ الشريعة تأمر بالعدل إلى
١١٠ الملابس	١٦٧ التعاون والاتحاد
١١١ آداب المطاعم	١٦٧ المحبة
١١٣ آداب متنوعة	١٦٩ الصداقة
١١٨ للأجسام الطبيعية	١٨٠ الشريعة تدعو إلى الانس والحب
١١٤ مراتب الحيوان	١٧١ الخليفة يحرس الدين
١١٧ الشوق إلى المعارف والعلوم	١٧٢ أجناس المحبات وأسبابها
١١٩ الواجب على الحاكم	١٧٣ محبة الأخيار
١٢٠ الخير والسعادة	١٧٥ نسبة الملك إلى رعيته
١٢١ أقسام الخير	١٧٦ المحبة التي لا تنظر أعليها الآفات
	١٧٧ الشرير

Bibliotheca Alexandrina



0405756